فـوق رأسي ، وإذا لم تكن يـد عنـايتـك قـد أرغب أنـا أيضـاً . إذا أراد الإنسـان أن يتغلب على هـواه بمعنى أن ينتصـر في جهـاده الأكبـر ، وفي تلك الحـرب الداخلية ، يجب أن تكون يد العناية الإلّهية فوق رأسه ، وهذهِ الآية الكريمة تقول : إن يد العناية الإلّهيـة فوق رأسـه . إذا لم تكونـوا صابـرين ليـس فقط تُصابون بضعف الأعصاب في الدنيا وتضعف إرادتكم وروحكم ، وتهين عليكم الشهوات والغرائز ، وذلك البعد الحيواني ، بل إن ذلك هـو نوعٌ من كفـران النعمة ، عندما لا نشكر النعمة ستكون دنيانا عذابٌ أليم ، وآخرتنا فيها عذابٌ أليم ، وإيماننا ناقص ، لأننا نقرأ في الروايات : « الصبر من الإيمان » ثم يُشَبِّهُهُ ويقول : « كالرأس من الجسد » إذا لم يكن للإنسان رأس فـإنه ميت ، هـذهِ الرواية الموجودة أيضاً في « نهج البلاغة » ، تقول : إذا لم يكن للإنسان صبر فليس له إيمان .

الأصمعي ، وزير هارون الرشيد كان ذاهباً للصيد فتاه عن القـافلة عند مطاردتهِ للصيد ، يقول : في هذهِ الحال شاهدت خيمةً وسط الصحراء ، وكنت ظمآناً ، وكان الجو حاراً جداً ، فقلت : دعني أذهب إلى هـذهِ الخيمة لكي أستريح ثم ألتحق بالقافلة .

الأصمعي الذي كان وزيراً لنصف العالم في ذلك اليوم يقول : عندمـا خطوت نحو الخيمة شاهدت امرأة شابة وجميلة في داخل الخيمة . وهي وحيدة ـ العرب ـ يحبون الضيف كثيراً ، ما أن رأتني تلك المرأة حتى حيّتني قالت : تفضل . فولجت الخيمة . فأجلستني في مكان ، وجلست في مكان آخر في الخيمة . قلت لها : ناوليني شيئاً من الماء لكي أشرب . فتغير لَونُها ، قالت : مـاذا أفعل إن زوجي لم يـأذن لي بأن أعـطيك مـاءً ، ولكن عندي قـدراً من الحليب ، وهذا الحليب لغذائي ، لن آكل الغذاء ، واشرب أنت الحليب .

يقـول الأصمعي : شربت الحليب ، ولم تكلمني تلك المـرأة ، فجـأة شاهدتها وقد تبدل حالها ، نظرت فرأيت سواداً قادماً من بعيد . قالت : جاء زوجي ، أَخَذَت الماء الذي لم تعطني إياه لكي أشربه وخرجت من الخيمة ، كنت أشاهدهما عن كثب . كان عجوزاً أسود ، قبيح المنظر ، ساعَدَتـهُ على النزول من الجمل وغسلت يديه ورجليه وأدخلته الخيمـة باحتـرام . فوجَـدتَهُ

عجوزاً سيء الخلق ، لم يأبه بي كثيراً ، بل كان يعامل تلك المرأة بخشونة . يقول الأصمعي : استأت من خلق الرجل إلى الحد الذي نهضت من مكاني وفضّلت البقاء تحت الشمس على البقاء داخل الخيمة . لذلك خرجت من تلك الخيمة ، لم يأبه بي ذلك الرجل ولكن السيدة رافقتني عند الخروج . قلت لها : سيدتي ، إني أأسف لك ، أنت بهذا الجمال والشباب وتتعلقين بهذا العجوز ، بأي شيء تعلّقت ؟ بمالهِ وهذا وضعه المأساوي وسط الصحراء أم بأخلاقه وتلك أطوارهُ الغريبة ؟ أم بجماله ! وهو مجرد عجوز دميم المنظر ، بماذا ؟ يقول : فجأة شاهدت السيدة وقد شحب لون وجهها ، قالت : يا أصمعي ، إني آسفة عليك لم أكن أظن أنك وزير هارون الرشيد تريد أن تمحي محبة زوجي من قلبي عن طريق النميمة . يا أصمعي ، هل تدري لماذا أفعل هكذا ؟ لأني سمعت حديث النبي الأكرم (ص) : « **الإيمان نصفه الصبر ونصفه الشكر** » بمعنى أن الإيمان له جناحان : صفة الصبر ، وصفة الشكر . ويجب أن أشكر الله لأنه منحني الجمال والشباب والخلق الحسن ، وشكري لله هو انسجامي مع زوجي ، وحتى يكتمل إيماني ويتم ، سأصبر على سوء معاملتهِ ، الدنيا تمضي وأنا أريد أن أكمّل إيماني وأن أرحل عن الدنيا بإيمان كامل .

حقاً كم هو جميل أن تراعي هذهِ الأخلاق في البيت ، بمعنى أن يقول الرجل إذا رأيت ما لا يروقني من زوجتي سأصبر ، ستصلح الأمور ، لكي يكون لديهم انسجام في الأخلاق مئة بالمئة ، طبعاً أولئك الذين هم نورٌ واحد كالمعصومين الأربعة عشر بما أنهم خطٌ واحد فلديهم انسجام كامل أيضاً ما عدا الأنبياء (الناس العارقيين) لا يمكنهم الوصول إلى انسجام مئة بالمئة . عندما لا يمكن ذلك ماذا يجب أن نفعل ؟ إذا أردنا أن تكون الأجواء دافئة في البيت هل يجب أن يسود التسامح وحده أو الصبر ، أمْ تسود الاستقامة . إذا ساد الصبر والاستقامة والتسامح والحنان في البيت ، فإن أجواء البيت ستكون دافئة ، وإذا لم يكن هنالك صبر وتسامح فلا يوجد انسجام مئة بالمئة ، عندما يحدث الصدام ومن هنا تَنْبَعُ جميع الخلافات العائلية . قوموا بدراسة بين أولئك الذين لهم خلافات عائلية ، وسترون من أين وجدت تلك الخلافات ؟ حول أولئك الذين

لديهم علاقات عائلية حميمة أيضاً ، ابحثوا عن ماهية الأسباب الكامنة وراء ذلك ؟ إذا كان قد ورد في القرآن أكثر من سبعين آية حول الصبر ، وفضيلته ، فإن السبب في ذلك أن هذهِ الفضيلة تتبخر أعمالاً كبيرة ، وإن فضيلة الصبر مفيدة جداً في بحثنا هذا ، إنها مفيدة لتمتين الإرادة ، وللمعلمين في الصف (من أن ألا يصابوا بضعف الأعصاب) مفيدة جداً ، وهي مفيدة للبيت والانسجام ، وبالأخص لأطفالكم .

ليس منطقياً أن يتربى طفل في بيت لا يوجد فيه انسجام بين الوالدين . وليس صحيحاً أبداً أن تجمعوا المال لضمان مستقبل أولادكم ، إنه خطأ ، بل إن ضمان مستقبلهِ أن تنشأوا منه إنساناً ، ألا تربوه معقداً ، وأن تكونوا صابرين في البيت ولا تهابوا المشاكل . من الطبيعي إذا جاء الصبر ، وأصبح الإنسان لا يهاب شيئاً (كما قال القرآن) ستصلح جميع الأمور . إن القرآن الكريم يَمُنّ على النبي الأكرم (ص) في سورة ألم نشرح وهذهِ هي أول منّة يَمِنّ بها على النبي الأكرم (ص) :

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم . ألمْ نشرحْ لكَ صدركَ ووضعنا عنكَ وزركَ الذي أنقضَ ظهركَ ورفعنا لكَ ذكركَ ، فإنَّ معَ العسرِ يُسراً ، إنَّ معَ العسرِ يسراً ، فإذا فرغتَ فانصَبْ وإلى رَبِّكَ فارغب ﴾[1] .

أيها النبي ، ألم نشرح لك صدرك لكي تستطيع مواجهة المشاكل ؟ ثم تأتي المنّة الثانية : ﴿ ورفعنا لك ذكرك ﴾ ، والثالثة : ﴿ ووضعنا عنك وزرك ﴾ الذي أنقض ظهرك ، ثم يقول : إذا كان الإنسان منشرح الصدر صابراً ومقاوماً وكما يقول القرآن : أن لا يكون هلوعاً ، وأن لا يهرب من الساحة لمجرد حدوث قضايا بسيطة . الناس المصابون بضعف الأعصاب يفرّون من مواجهة الصعاب ، ويرتفع صراخهم ، وإذا كانوا لا سامح الله ـ سيئي اللسان فوامصيبتاه ـ وكما يقول القرآن : ﴿ فإن معَ العسر يسراً ، إنّ مع العسر يسراً ﴾ عندما تحدث لكم مصيبة ، إذا صبرتم على المشاكل فستسهل عليكم الأمور .

---

(١) سورة الانشراح ، الآيات : ١ ـ ٧ .

إنكم تستطيعون حل المشكلة وستحل المشكلة ، الله يحل المشاكل ، كل شيء بيد الله :

﴿ قل اللهمَّ مالكَ الملكِ تؤتي الملكَ منْ تشاءُ وتنزعُ الملكَ ممن تشاءُ وتعزُّ من تشاءُ وتذلُّ منْ تشاءُ بيدكَ الخيرُ إنَّك على كلِّ شيءٍ قديرٍ ﴾[1] .

العزة والمذلة بيد الله . ومن أجل أن تُحل المشاكل فإنَّ الأرضية مُمهَّدة لنا ، ولكن يد الله ينبغي أن تحل المشكلة . إذا كانت لديكم مشكلة حاولوا أن يكون الله محامياً عنكم ، الآية الكريمة تؤكد كثيراً على أن المشكلة ستُحل : ﴿ فإن مع العسر يسراً ﴾ فيها خمس أو ستة تأكيدات ، معنى ذلك أن تكون صابراً ، إعلم وكن واثقاً ، ولا شبهه في ذلك : أن الله سيحل مشكلتك ، وإذا لم يحصل ذلك ، فإن الجزع والفزع من الانعكاسات الأولية لذلك .

ينقلون جملة حول مجنون ليلى (خرافة كانت أم حقيقة إلا أنها حقيقةً هكذا) بأنه أخيراً تم الاتفاق على تزويج ليلى بمجنون ، ذهبوا إلى الخطوبة ، ولكن عندما ذهبوا ظهرت تجاعيد على جبين مجنون من أثر الحزن ، أخذوا مجنوناً إلى هناك ، فلم يوافقوا على زواجه بليلى بسبب تجاعيد وجهه .

أحد العلماء النفسانيين لديه جملة رائعة ، يقول : تجاعيد وجه مجنون ، أحدثت تجاعيد في قضية زواجه ، كم هي رائعة ، عدم الصبر يجلب التجاعيد ، الجزع والفزع يجلب التجاعيد ، كفران النعمة ، والصراخ والضجيج عند الله يجلب التجاعيد ، إن هذا لا يحل المشكلة ، وأن معظم الأدعية التي لا تستجاب تنبع من هنا ، كأنه أقرض الله قرضاً :

﴿ إنَّ الإنسانَ خلقَ هلوعاً ، إذا مسّهُ الشرُّ جزوعاً ﴾[2] .

---

(١) سورة آل عمران ، الآية : ٢٦ .

(٢) سورة المعارج ، الأيتان : ١٩ و ٢٠ .

البحث السابع

« ملكـة الصبـر »

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ربِّ اشرح لي صدري ويسّر لي أمري واحلل عقدة من لسـاني ، يفقهوا قولي ﴾ .

كان بحثنا حول الحرب التي تدور رحاها دائماً في داخلنا باسم الجهاد الأكبر ، وهي الصراع الدائر بين بعدنا المعنوي الذي يُسمىٰ الروح ، وبعدنا المـادي الـذي يُسمىٰ الجسم ، وهـذا الصـراع مستمـر يقـول أحـد الشعـراء الترجمة :

الـنـفـس غـول لا يـمـوت إن النفس مغمومـة إذ لا أداة لهـا

حتى عندما يبلغ الإنسان من العُمر عتيّاً ، فإن الكثير من الغرائز تكتسب حيوية وشباباً أكثر . النبي الأكرم (ص) يقول :

« يشيب ابن آدم وتشب فيه الخصلتان الحرص وطول الأمل »[1] .

بمعنى أنه قد يشيب المـرء ، إلا أنه لم يهـذب نفسه تشب وتحيـا فيه خصلتان الحرص وطول الأمل .

هذهِ الحرب الدائرة في داخلنا ليست حرب سنة واحدة أو عشر سنوات ، إنها حرب مستمرة دائماً ، وانتصار الإنسـان في هذهِ الحرب أمر صعب للغاية ،

(١) الخصال ، المجلد الأول ، ص ٨٤ .

كيوسف الصديق يعوذ بالرب ليتمكن من الظفر في هذهِ الحرب وأخيراً إذا لم تأتِ قوة من الخارج فنحن مهزومين لا محالة وإذا انتصرنا في هذهِ الحرب سنكون مرفوعي الرأس ، إن معنى الإنسانية هو الانتصار في هذهِ الحرب وكما يقول القرآن الكريم سنكون فائزين في الدنيا والآخرة ، وإذا هُزمنا في هذهِ الحرب سنكون مطأطئي الرأس إلى الحد الذي يموت فيه عقلنا وضميرنا الأخلاقي ، نصل إلى الحد الذي نصبح فيه أدنى من الحيوان ، وأشد فتكاً ، لا سامح الله ، أن يهزم أحدُنا في هذهِ الحرب .

من أجل الانتصار في هذهِ المعركة عرّف لنا القرآن الكريم بعض القوى وإذا تعرفنا على هذهِ القوى استخدمناها فنحن منتصرون لا محالة . أولىٰ القوى التي تحدثنا عنها ، الاهتمام بواجبات الإسلام وبالأخص الصلاة ، إذا حدث للمرء تفاعل ذاتي عندما يحين وقت الصلاة ، فإن ذلك مفيد جداً لتقوية إرادته وروحه . القرآن الكريم يقول : إن ذلك التفاعل له تأثير ، وقد أثبتت التجارب صدق هذهِ المقولة ، ويؤكد علماء الأخلاق والتربية هذهِ المقولة أيضاً . من الطبيعي أن ظهور هذا التفاعل الذاتي يحتاج إلى تواصل وديمومة ، لكي يصل المرء إلى مرحلة يشعر فيها بتفاعل في ذاته وكأنه أضاع شيئاً ما لدينا روايات من جميع الأئمة الطاهرين (ع) حول هذا الموضوع .

عندما كان يحين موعد الصلاة ، كان أمير المؤمنين (ع) يشعر باضطراب في ذاته ، كان لون وجهه يتبدل ، عائشة تقول عندما كان المؤذن يقول : الله أكبر كان لون وجه النبي (ص) يتغير ، ولم نكن لنتعرف عليه وكان يقول : « حان وقت الصلاة » ، إنّ هذا الأمر يحتاج إلى ممارسة ، على كل حال القرآن الكريم يقول : الاهتمام بالواجبات يوجد قوة لتهذيب النفس ، والنصر في هذهِ المعركة الداخلية « **واستعينوا بالصبر والصلاة** » .

هذهِ القضية أهميتها كبيرة جداً لدى القرآن الكريم ، وروايات أهل البيت (ع) وعلماء التربية والتعليم .

أنتم من خواص الناس الذين تصنعون المجتمع ، وسعادة الجيل القادم

رهينةٌ بجهودكم ، عليكم الاستعانةِ بأداء كافة الواجبات من أجل النصر ، عليكم الاستعانة بالصلاة .

الموضوع الثاني : الصبر ؛ الذي يُقسم إلى ثلاثة أجزاء :
الصبر في المشاكل .
والصبر في العبادة ،
والصبر عند المعصية .

وفضيلة الصبر حسب الترتيب المذكور بمعنى أن الصبر في المشاكل ـ من وجهة نظر القرآن ـ له فضيلة كبيرة ، الصبر في العبادة فضيلة أكبر ، والصبر عند المعصية فضيلة أكثر من الصبرين المذكورين ، إن الصبر هو مصدر الإعمار ، بمعنى يمكن أن نسلك طريق المئة عام في لحظة واحدة ، كما سلك الكثير من العرفاء طريق المئة عام خلال لحظة واحدة ، وذلك من خلال الصبر عند المعصية .

الصبر في المشاكل موضوع مهمٌ جداً والقرآن الكريم يوصيكم بالصبر في المشاكل ، في نهاية سورة الفرقان حين يتحدث عن صفات المؤمن يقول :

﴿ وعبادُ الرحمٰنِ الذينَ يمشونَ على الأرضِ هوناً وإذا خاطبهمُ الجاهلونَ قالوا سلاماً ﴾[1] .

بمعنى أن الرجل المسلم الذي يمكن أن نطلق عليه اسم عبد الله من أولىٰ صفاته أنه ليس أنانياً ، إن الأنانية لا تتفق والإيمان . صفة الإنسان هي أن يكون صابراً ، إذا تعرض له شخصاً جاهل لا يواجههُ بالمثْلِ فحسب ، بل يخاطبهُ بلغة مرنة ﴿ وإذا خاطبهُم الجاهلونَ قالوا سلاماً ﴾ وعندما يلتقي بإنسانٍ جاهل وعنيد يبادرهُ بالسلام ويتحدث إليه بليونة ويفحمهُ بمرونة .

هنالك إشارة إلى بحثنا هذا في بداية سورة المزمل ، وهي مفيدة جداً لكم أيها المعلمون الذين تتعاملون مع الولد والشاب الذي لم يختمر فكرهُ بعد . وهذهِ قوى يجب أن نأخذها من الخارج ، في هذهِ السورة يخاطب القرآن الكريم

---

(١) سورة الفرقان ، الآية : ٦٣ .

النبي (ص) ، يا أيها النبي إن على عاتقك عبئاً ثقيلاً وعليك أن تأخذ قوة من الخارج ، يحدد بعض القوىٰ ثم يحدد في نهاية المطاف قوة أخيرة ، ألا وهي قضية الصبر . ﴿ واصبرْ على ما يقولونَ واهجرهمْ هجراً جميلاً ﴾[1] .

وبكلمةٍ أُخرى يا أيها النبي ، عليك بالصبر في مواجهة الناس الذين لم يُختَمروا بعد ، ليس عن طريق الغضب والتجهم . ﴿ واهجرهمْ هجراً جميلاً ﴾ .

ومن خلال هذهِ الخصوصية أعرض عنهم ، وعندما تعرض عنهم سيَفيقونَ إلى حالهم ويتربّون ثم إنك تستطيع أن تستعين بقوىٰ أخرىٰ ، لتقوية الإرادة ، وتهذيب النفس وتفوز في الصراع الداخلي الذي أسماهُ النبي الأكرم (ص) الجهاد الأكبر أرجو منكم جميعاً، أنتم المعلمون يجب أن تَهتمّوا بالصبر في المشاكل ، لأن الشباب والأولاد في هذهِ السن في حالة من التمرد العاطفي وطول اللسان ، لأن الشاب عادةً لم تختمر أفكارهُ بسبب عدم نضجهِ وقلةِ تجربتهِ .

الموضوع الآخر ، أن التلاميذ أمانة في أيديكم وعليكم أن تصونوا الأمانة . فأفضل السبل لصيانةِ الأمانة ، ولكي لا تفقدوا حيويتكم ونشاطكم المعنوي والمادي عليكم بالصبر في مواجهة هؤلاء الأولاد والشباب ماذا نفعل لكيٍ نمتلك ملكة الصبر ، يعني أن الرجل السريع الغضب ولا يملك أعصاباً قويةً . . . ماذا ينبغي عليهِ أن يفعل ؟ .

هنالك طرق عديدة يستطيع الإنسان من خلالها ترسيخ صفات الفضيلة ، وإحدى هذهِ الطرق هي الممارسة ، إذا لم تستخدموا عينكم اليمنىٰ لمدة شهر واحد ستصابون بالعمىٰ ، إن يدكم اليمنىٰ أقوى من يدكم اليسرى لماذا ؟ لأنكم تستخدمون يدكم اليمنى أكثر من اليد اليسرى لذلك تكون أقوى من اليد اليسرى ، هكذا هي أعضاؤنا وجوارحنا ، كلمة استخدمناها أكثر تستقوىٰ أكثر ، لذلك يقول الفلاسفة وعلماء الأخلاق ، والغرماء وهكذا يستفاد من روايات أهل البيت (ع) : إن الأفعالَ تصنعُ لنا ملكة ، بمعنى أن أعمالنا هي التي توفّر لنا

(١) سورة المزمل ، الآية : ١٠ .

ملكة جيدة أو سيئة . مثلاً إذا لم تستطيعوا الصبر في البيت، يشعرون بالغضب أمام الطفل ، أمام التلاميذ بشكلٍ خاص فإن جميع هذهِ التصرفات تصنع لكم ملكة ، إلى أن تصبحوا تدريجياً غير قادرين على تحمل المسؤولية ، ناهيك عن تأثيرات ذلك على الحالةِ البدنية ولكن لو حدث العكس ، إذا واجهتم المتاعب في البيت بالصبر والحلم من الحلم يأتي الصبر ، من التحلم أي الاعتماد على الذات يأتي الحلم ، يجب أولاً التحلّم ، عندما تصبرون على المتاعب ، تصبرون في اليوم الأول إلى الربع ، يزول عندها ضعف الأعصاب تدريجياً هذا الموضوع مهم جداً ، لأن بحثنا ليس بحثاً بدنياً . إن أكبر الفضائل في الإسلام أن يكون الإنسان صابراً ، وأن يتحلّى بالصبر في المشاكل ، وأنجح السبل للصبر في المشاكل هو التحلّم ، الممارسة تثمر الملكة ، الممارسة أي العمل من وجهة العيون والأذن واللسان والأعصاب إذا تحلّيتم بالحلم في اليوم الأول في اليوم الثاني سيزول عنكم ضعف الأعصاب في غضون ستة أشهر وهكذا توجدون ملكة الصبر في أنفسكم ولكن من الواضح أن الصبر في العبادة أمرٌ صعب للغاية ، لدينا رواية عن الإمام الباقر (ع) يقول : احتضنني والدي الإمام السجاد (ع) وهو يحتضر وقال : إن الإمام الحسين (ع) احتضنني في يوم عاشوراء ، وقال لي هذهِ الجملة ـ يتّضح أنها حساسة جداً ـ أمير المؤمنين (ع) احتضن الإمام الحسين (ع) وقال : « يا بني إصبر على الحق وإن كان مرّاً » .

عندما يريد المرء عدم التفريط بالحق فإنه عمل شاق حقاً ، ولكن إذا استطاع أن يصبر في هذا الحق سيصل إلى ما ينبغي سريعاً ، ليس فقط ينتصر في تلك المعركة بل إن القرآن يقول :

﴿ إنَّ الذينَ قالوا ربُّنا اللّهُ ثمَّ استقاموا تتنزَّلُ عليهمُ الملائكةُ أنْ لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنةِ التي كنتمْ توعدونَ ، نحنُ أولياؤكُم في الحياةِ الدنيا وفي الآخرةِ ﴾[1] الآية بليغة جداً ، المؤمن يقول : يا إلّهي ، أن يكون مسلماً ثابتاً في إسلامه ، قد يقول إني مسلم ، ولكنه يتظاهر بالإسلام ، وقد يقول : إني مسلم ويطبّق الإسلام عملياً ، وهذا أمرٌ صعب يُدعىٰ بالصبر في العبادة .

---

(١) سورة فصلت ، الآيتان : ٣٠ و ٣١ .

القرآن يقول : إذا أصبح المرء هكـذا : ﴿ تتنزّل عليهمُ الملائكةُ ﴾ يشاهد الملائكة ، تتنزل عليه الملائكة ، يقولون له نحن نُعنيك ، ينصحونه ، يقول لـه لا تقلق من المستقبل ، ولا تحزن على ما مضىٰ ﴿ ألاَّ تخافوا ولا تحزنوا ﴾ الملائكة يبشرونه بالجنة : ﴿ وأبشروا بالجنةِ التي كنتمْ توعدونَ ﴾ ثم يقول له : ﴿ نحنُ أولياؤكم ﴾ نحن أصدقاءك نحن نسندك في الدنيا والآخرة وقد وصَلَ بعض العارفين وأصحابِ السلوك إلى هذا المستوى وأنا أعرفهم .

كان المرحوم آخوند كاشي أحد علماء أصفهان رجلاً عجيباً ويقول : هذهِ الآية الشريفة التي تقول : ﴿ أولي أجنحةٍ مثنى وثلاثَ ورباع ﴾[1] أن الملائكة لديهم أجنحة ، لا يمكن للمرء أن يفهم ما معنى أن للملائكة أجنحة ؟ كما أنَّ الشهيد الثاني ـ عليه الرحمة ـ يذكر في كتاب « منية المريد » أن الملائكة يحضرون في جلسة العلم ، ويفرشون أجنحتهم لكي يجلس الحاضرون في الجلسة على أجنحتهم ، ثم يفتخرون بأن أجنحتنا سجادة طلاب العلم ، ولا يمكن استيعاب هذهِ الحقيقة .

آخوند كاشي ، قال : إنَهُ اطلعَ على حقائق القرآن بشكلٍ كشفي ورأى الملائكة . إن الصبر في العبادة لا يصل بالمرء إلى مرتبة يرفع هامتهُ فيها أمام كافة الغرائز فحسب ، بل يمكنه أن يوصل الإنسان إلى عالم الملكوت ، وكما يقول المعري يمكنه أن يصل إلى مكان لا يعلمهُ سوى الله .

« شعر فارسي وترجمته » :

هل شاهدت تحليق الطير ، أخرج لترىٰ كيف يطير الإنسان ، بعيداً عن طوق الشهوات .

الإنسان يستطيع التحليق ، كما يستطيع تسخير الفضاء ، وعالم الملكوت والجبروت وأن يصل إلى مكان يقول عنهُ جبرائيل : « لو دنوت أنملة لاحترقت » اذهب ، اذهب ، فليس هذا مكاني إنه مكانك . أنت تستطيع التحليق والوصول

---

(١) سورة فاطر ، الآية : ١ .

إلى مكان لا يعلمهُ سوى الله .

إذا قام الإنسان بممارسة الصبر في العبادة ، سيشعر بلذة عجيبة تدريجياً ، يصبح فيها كملائكة الرحمن ، يعمل أتوماتيكياً . إذا أردتم الاقتداء بشخص ما وتقليد أحد المراجع ، وإذا أراد القاضي أن يقوم بعمله وإذا أراد الشاهد أن يشهد ، فيجب أن يكون عادلاً ، لا يمكن الاقتداء بالصلاة بأيٍّ كان ولا يمكن لأي شخص أن يكون قاضياً أو قائداً أو مرجعاً بل يجب أن يكون عادلاً .

من هو العادل ؟ العادل هو الذي تكون واجباته منتظمة ولا يرتكب المعاصي ، لذلك إذا كذب (العياذ بالله) أحد مراجع التقليد ـ أدام الله ظلهُ تسقط عنه القيادة والمرجعية تلقائياً ، وإذا استغاب أحد المراجع أحداً يسقط من المرجعية تلقائياً ، لا حاجة إلى تنحيتهِ عن منصبه ، إنه يتنحىٰ تلقائياً ، إذا نظر إمام الجماعة إلى امرأة نظرة شهوانية ، فهو يسقط من العدالة تلقائياً .

الفقهاء يقولون : ليس فقط لا يجب أن يرتكب الذنوب ، بل عليهِ أن يؤدي واجباته بانتظام وعن ملكةٍ ، بمعنى أن تكون ملكة العدالة شرطاً وملكة العدالة هي أن تعمل أتوماتيكياً وأن يصبح عدم ارتكاب الذنوب أمراً عادياً بالنسبة له ، ثم يرتقي مكاناً أعلى من ملكة العدالة ، بحيث تصبح المناجاة أرقى لذة ، في منتصف الليل ، لذة العاشق بمعشوقه ، وأرقى لذة للعاشق هي أن يختلي بمعشوقهِ ، شيئاً فشيئاً يصل الإنسان إلى هذهِ المرحلة .

يؤكد مؤرخو التأريخ حول مريم العذراء : إنها نُفيت إلى الصحراء ، وعيسىٰ ﴿ خائفاً يترقب ﴾ يتجهُ مع والدته ، أرادوا أن يقبضوا عليهما ويقتلوهما ، كانا صائمين ، ذهب عيسى (ع) وأحضر مقداراً من الكلأ للإفطار ، ولكن والدته كانت قد ماتت ، حَفَرَ قبراً لوالدتهِ ودفنها فيه . من الواضح عندما توفيت مريم العذراء ذهبت عند الرب في الجنة ، غطى أعلى مكان في القبر ، ثم ناداها يقول : يا أمي هل تريدين العودة إلى الدنيا ؟ قالت : أريد أن أعود ! سألها : لماذا ؟ حقاً إننا نعجب أيضاً لماذا تريد مريم أن تعود إلى الدنيا ؟ ليس لديها بيت أو زوج أو طعام لذيذ ولم تستفد من مواهب الطبيعة ، ولكنها تقول :

أريد أن أعود إلى الدنيا ، قال : أمّاه لماذا تريدين أن تعودي إلى الدنيا ؟ أجابت : لأني أريد أن أصوم في الأيام الحارة جداً ، وأن أتوضأ في الليالي الباردة جداً .

لا تتصوروا أن هذهِ الأمور فرضت عليها ، كلا ، فقد غدت أكبر لذة لمريم العذراء ، وهي أن تنهض في منتصف الليل ، وتتوضأ وتناجي الرب : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آناءَ الليلِ ساجداً وقائماً يحذرُ الآخرةَ ويرجو رحمةَ ربِّهِ ﴾[1] .

كيف حال أولئك الذين يتعاملون مع الله ، اللذين صبروا في العبادة فغدا الصبر في العبادة شيئاً فشيئاً ملكه فيهم ، انتهت حرب الداخل ، لجموا الغرائز ، وهَذَّبوا البُعْدَ المادي ووصلوا إلى المنزل الثالث . المنزل غدا لذته الوحيدة ، منزل القلب ، قلب الليلَ ومناجاتهِ لربه إنها أكبر لذة بالنسبة له .

الصلاة بالأخص صلاة النافلة ، القرآن والتوسل بأهل البيت (ع) وبالخصوص إذا استطاع إطعام مسكين وأن يُفرِّح أحداً ما حتى الكلب أو القطة . أرجوكم أن تفرّحوا قلوب الأطفال الذين تحت أيديكم ، أن تسخّروا قلوبهم ، وفي هذهِ الحالة تستطيعون بلوغ الرُقي سريعاً . إن هؤلاء الأطفال لا ذنب لهم ، ولا يرتكبون المعاصي ، لذلك تُؤخذ ابتسامتهم مأخذ الجد كما تؤخذ الآه التي يطلقونها مأخذ الجد ، إذا تأوهوا من جرّاء تصرفكم فالأمر صعب مثلاً أنت عصبي أو كنت عصبياً في البيت ، وجئت إلى المدرسة ، ثم تطاولت على طفل أو شاب لم يكن مذنباً ، إذا تأوه هذا الطفل أو الشاب من الممكن أن تجتث هذهِ الآه جذورك ، كلا ، قد لا تجتث جذورك فحسب ، بل من الممكن ـ لا سامح الله ـ أن تفوز بحسنِ العاقبة وقد تؤدي إلى بؤس وشقاء أطفالك ، قد تؤدي إلى التقاعس في تأدية الصلاة بحيث تنكر الصلاة تدريجياً وذلك بدلاً من أن تناجي ربك في أطراف الليل وآناء النهار .

المرحوم الكليني ـ رحمة الله عليه ـ ينقل رواية في كتاب الكافي إذ يخاطب العبد المؤمن : أيها العبد المؤمن ، لا تستخف بالذنوب ، من الممكن

---

(١) سورة الزمر ، الآية : ٩ .

أن ترتكب ذنباً صغيراً ، إني أخاطبك بأني لن أصفح عنك ، وأنك لن تستطيع التوبة . ثم قال : لا تستخف بالثواب ، لأنه من الممكن أن يكون عملٌ ما في نظرك صغيراً ، ولكنه من منظاري كبير جداً ، ويؤدي ذلك أن يصلك خطاب : يا عبدي ، لقد فزت وسعدت ، سعدت أنت كما سعد أولادك .

كان المرحوم السيد الرشتي أحد المراجع الكبار ، وذي منزلةٍ عاليةٍ في أصفهان وكان حين يُجنّ الليل ، تنتابهُ حالة من الخوف والرجاء ، وكان يضع الطوق في رقبته ويضجّ بالعويل والصراخ ، حيث باتت قدرته تضاهي قدرة ظل السلطان ابن ناصر الدين شاه ، الذي كان يريد ذمة الأمور ، فجاء شحاذ إلى السلطان ، فقال له السلطان : لماذا جئت عندي ، إذا أردت العلم اذهب إلى مسجد السيد ، إذا أردت القدرة والمال اذهب إلى مسجد السيد ، وحقاً إنه كان هكذا ، لقد أصاب ظل السلطان ، والأدهىٰ من ذلك أنه بنىٰ مسجداً في أصفهان باسم مسجد السيد ، وهو راقٍ جداً وفيه روحٌ ومعنوية عجيبة (جربتها شخصياً) مع الأخذ بعين الاعتبار أن هنالك مساجد راقية جداً في أصفهان كمسجد الإمام (مسجد الشاه سابقاً) والنشاط والخدمة التي تقدم في مسجد السيد لا يُضاهيها أي نشاط أو خدمة في المساجد الأخرى .

كيف وصل السيد إلى هذهِ المرتبة ؟ هو شخصياً قال : إن كلباً أوصلهُ إلى هذهِ المرتبة . وروىٰ قائلاً : كنت طالباً في النجف ، ومرّت عدة أيام لم يصلني خلالها مالٌ من إيران ، صَبرتُ عدة أيام ، ولم أخبر أحداً عن ذلك عزة النفس ـ أمرٌ هام ـ ولكن حدثت لي شبهة الوجوب ، فاستقرضت من رفيقي قدراً من المال ، استقرضت المال ليلاً ، وقررت أن آكل خبز وپاچة (رأس خروف) لذلك اشتريت خبزاً وپاچة في الصباح ، وعندما كنت عائداً إلى المنزل شاهدت كلبةً وقعت في مجاري المياه ، (جو النجف في الصباح يكون بارداً أحياناً) تتضور جوعاً ومعها ثلاثة كلاب من صغارها ، وقعوا على ثدي الكلبة في حين كان ثديها قد نضب من الحليب ، فشعرت بالأسى لحال تلك الكلبة ، فقلت أخاطب نفسي : لقد تحمّلنا الجوع فلنتحملهُ هذا الصباح أيضاً . إنه أثر وضحىٰ ، يقول : غمست الخبز في ماء الباچه ووضعت الصحن أمام الكلبة .

فأكلتهُ الكلبة ، ثم نهضت ، وعفّرت الصحن ـ وهذه إحدى الأوامر الإسلامية المهمة ، إذا أكل أو شرب الكلب من صحن ، يجب أن يمرّغ بالتراب اليابس ، ثم يُغسل بالماء ليطهر ، وإذا لم يمرّغ بالتراب اليابس فلو غسلوه ألف مرة في البحار أو إذا وقع سنة واحدة في المحيط لن يطهر ، ويسمى هذا العمل « التعفير » ويقال إنه ثبت أخيراً أن ميكروب فم الكلب لا يُقتل إلا بواسطة الكلب ، وهذهِ إحدى معجزات النبي الأكرم (ص) طبعاً إن انتساب هذه الأمور لا تليق بشأن النبي (ص) ، إن النبي (ص) أسمىٰ من أن يكون التعفير معجزة لنا لكي يزداد إيماننا به .

يقول : ذهبت وأعدت الصحن ، وبعدها رزقني الله مالاً من حيث لا أحتسب ، إذ لم تمضِ فترة حيث جاءَ شخصٌ من شفت ـ كان من أهالي شفت ، وشفت هي إحدى مدن محافظة جيلان، وقال : الحاج الفلاني توفىٰ وأوصىٰ بثلث ماله لك وهو مزرعة . يقول : راجعت نفسي ، فوجدت أنه في ذلك الوقت الذي كنت أطعم فيه الكلبة الخبز والباچة ، عصر نفس ذلك اليوم جرت هذهِ الوصية لي ومنذ ذلك الوقت أحرزت في أصفهان تلك المكانة والمرجعية .

أجل إنه كان يردد : إذا استطعت أن أخدم الإسلام فإن ذلك رهنٌ بأني تمكنت أن أكسب ودّ الكلبة ، ولا تتعجبوا لأن التمتع بالرحمة الإلٰهية يحتاج إلى أرضية ، والأرضيات تختلف عن بعضها البعض ، أحياناً يستطيع الإنسان أن يمشي طريق المئة عام خلال لحظة واحدة . كان فضيل بن أياز ، رجلاً سيء الخلق جداً وشقياً ، في أحد الأيام مرّ من مكانٍ فشاهد فتاةً كانت جالسة على حافة المياه تغسل الصحون ، فوقع نظرهُ عليها فتعلّق بها وجاء إلى الفتاة وقال : اذهبي إلى أمك وأبيك وقولي لها : أن يزوّقوكِ ويضعوك في غرفة لكي آتي أنا عند المساء ، ثم ذهب . جاءت الفتاة وأبلغت أمها الرسالة .

فساد القرية الوجوم ، الجميع كانوا يقولون : ماذا نفعل ؟ هل نضحّي بهذهِ الفتاة من أجل القرية أم نقاوم ، إذا ضحّينا بهذهِ الفتاة من أجل القرية وزوّقناها ووضعناها في غرفة ثم يأتي فضيل ويذهب ، فنأمن شره ، وإذا لم نفعل

ذلك سينهب القرية ، ويرتكب المجازر ، ويهلك الجميع في هذهِ الليلة . أخيراً قبل الجميع حتى الأب والأم بأن يضحّوا بالفتاة من أجل القرية ، وقد وافقت الفتاة على ذلك . زوّقوا الفتاة ، ووضعوها في غرفة ، ولكن القرية في مأتم ، الجميع يبكي ، الفتاة تبكي ، الأب يبكي ، والأم تبكي .

جاء فضيل بن إياز ، كان شريراً إلى درجة ، يقول التأريخ : إنه لم يدخل من الباب بل جاء من فوق سطح المنازل . في ذلك الوقت كان رجلاً عجوزاً يتلو ما يتيسر من القرآن الكريم . الجميع بانتظار وصول فضيل بن أياز وهذا العجوز الذي كان يتلوا القرآن بصوتٍ عالٍ هو أحد جيرانهم عندما وصل إلى هذهِ الآية ، كان فضيل فوق السطح : ﴿ ألم يأنِ للذينَ آمنوا أنْ تخشعَ قلوبهم لذكرِ اللّهِ ﴾[1] ، قال : يا منْ ثقلت قلوبهم ، يا أيها الذين تكاثرت الذنوب تلو الذنوب في قلوبهم ، ألم يأتِ وقتٌ تلين فيه قلوبكم للقرآن ؟ ألم يحن الوقت لكي تنفضوا ، هذهِ القلوب المفعمة بالظلام بواسطة القرآن ؟ هذهِ الآية أثّرت على فكر فضيل ، وقلبتهُ رأساً على عقب ، قال : إلّهي نعم حان وقت ذلك ، ثم أجهش بالبكاء . ومن هنا صاح : يا أهالي القرية ، يا أيها الأب ، ويا أيتها الأم ، ويا أيتها الفتاة اصفحوا عني ، لقد تبت ، لقد أخطأت ، نزل من فوق السطح وذهب حيث يقال : إنه وصل إلى المقامات الراقية وبدأ يتعامل مع الملائكة ، استجيب دعاؤه وأخيراً وصل إلى مرحلة أن يقتدي به العرفاء والصالحين ويقال أيضاً : إن فضيل أحد المعلمين والمرشدين والأكابر وحقاً إنه رجل كبير .

أجل ، يستطيع المرء أن يمشي طريق المائة عام خلال لحظة واحدة ، أنتم أيها الأعزاء ، هؤلاء الأولاد أمانة بأيديكم ، وأنتم يمكنكم أن تصلوا إلى ما تريدون عن طريق إيجاد جو البهجة والفرح للأولاد (في سبيل الله) وتذكروا أن تكون أعمالكم ذات صبغة إلّهية ، إذ يصل الإنسان إلى ما يريد من خلال ذلك :

﴿ صبغةَ اللّهِ ومنْ أحسنُ منَ اللّهِ صبغةً ﴾[2] .

---

(١) سورة الحديد ، الآية : ١٦ .

(٢) سورة البقرة ، الآية : ١٣٨ .

سخّروا قلوبَ الأولاد ، وذلك في سبيل الله ، ليس من أجل أبيه ، أو من أجله هو ، ليس فقط لكي تصبر وتكون معلماً جيداً ، بل في سبيل الله فحسب ، واعلموا أن ذلك سيؤثر على دنياكم وأولادكم وآخرتكم .

«إنعكاس الصبر»

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ربّ اشرح لي صدري ويسّر لي أمري واحلل عقدة من لساني ، يفقهوا قولي ﴾ .

كان البحث السابق حول جهاد النفس وقلنا إذا انتصر المرء في هذهِ المعركة يعتبر من أشجع الناس من وجهة نظر الإسلام . لذلك يَقول : « أشجع الناس من غلب هواه » هذه الحرب الداخلية ، أي المعركة بين البعد المعنوي للإنسان والبعد المادي مستمرة ، ونحن إذا أردنا النصر ، يجب علينا دائماً أن نتوخى الحذر وأن نستعينَ بقوةٍ من الخارج .

لقد حدد القرآن الكريم قوىٰ من الخارج إذا استقدنا منها فنحن منتصرون كان أحد هَذهِ القوىٰ ، الاهتمام بالواجبات وبالأخص « الصلاة » .

﴿ واستعينوا بالصبرِ والصلاةِ ﴾[1] لقد قسمنا الصبر إلى ثلاثة أقسام :

١ ــ الصبر في مواجهة المشاكل .

٢ ــ الصبر في العبادة .

٣ ــ الصبر أمام المعصية .

وتحدثت بصورة إجمالية حول الصبر في مواجهة المشاكل ، والصبر في

(١) سورة البقرة ، الآية : ٤٥ .

العبادة ، أما البحث هنا فهو الصبر أمام المعصية . وهو أمرٌ صعب جداً ، ولكن إذا استطاع المرء أن يصبر ، يستطيع أن يقطع طريق المئة عام خلال لحظة واحدة . يذكرون قضية حول ابن سيرين :

كان ابن سيرين بزازاً ولعله كان أمياً ، ولكن مقامه العلمي وصل إلى مدى يستفاد من علمه حالياً ، هذا العامل البزاز (الأمي حسب الظاهر) أذهل الجميع في تعبير الرؤيا . هنالك سبعون نظرية مقدمة في العالم حول المنام الأحلام ولكن الاعتقاد السائد هو أننا لا نعرف حقيقة الأحلام تفسيره، وماهيته .

لقد منح الله ابن سيرين كرامة تفسير الأحلام لأنه تجنّب ارتكاب معصيته ، وتجنبه عن المعصية كان شبيهاً بيوسف. أحد معجزات وكرامات يوسف كانت تفاسيره للأحلام التي ورد ذكرها في سورة يوسف : جاءت امرأة عند ذلك البزاز ، واشترت قدراً من البضاعة . عندما أخذ ابن سيرين قماش تلك المرأة إلى بيتها واجه موقفاً حرجاً مفعماً بالمعصية ، ومن أجل أن لا يهوي إلى قعر هاوية المذلة تحجج بالذهاب إلى الطرق المائية ، ذهب ولوث نفسُه ، وعندما خرج من هناك كان ملوثاً من رأسِهِ إلى أخمص قدميه ، لذلك اضطرت تلك المرأة إلى إخراجِهِ من البيت . كان ظاهره نجساً ، ولكن لم يتنجس ، بل تنوّر بنور الله ، عندما طهر نفسه وذهب إلى المحل ، شعر بنورٍ يَغمرُ وجوده إذ قطع طريق المائة عام في لحظة واحدة . قلت : أن الأخصائيين بعلم النفس مذهولين من علم وكرامات وتفسير أحلام ابن سيرين ، لذلك ومن أجل الاجتناب من الذنوب يمكن قطع طريق المائة عام في لحظة واحدة . إذ أردتم تقوية الإرادة عليكم باجتناب الذنوب مرات عديدة يسألونني ماذا نفعل لتقوية الإرادة ، لقد كتب الأطباء النفسانيين الكتب حول هذا الموضوع ، ولكن كما يقول طلبة العلوم الدينية : ﴿ لا يُسمنُ ولا يغني منْ جوع ﴾[1] لا فائدة من ذلك . الإسلام لديه نظرية ، يقول اعمل لتفهم ما معنى تقوية الإرادة ، ماذا تعني ، ومن أين جاءت ، الإسلام يقول : اجتناب الذنوب تمنح تقوية الإرادة ، وتقوّي الجانب المعنوي للإنسان ، في تلك الحالة يستطيع الإنسان أن يرفع

---

(١) سورة الغاشية ، الآية : ٧ .

هامَتهُ عالياً أمام الشهوات والغرائز ، والانتصار في صراع الداخل الـذي يعتبر أكبـر معركـة يواجههـا الإنسان ، في تلك الحـرب ، التي يقول عنهـا الإمـام الحسين (ع) : في هذهِ الحرب ، لا ينتصر إلا الرجـل والشاب المسلم « إلا الفتى » . حقاً إنه كذلك النصر في هذهِ المعركة صعبٌ جداً ويحتاج إلى رجولة ومن أجل الحصول على النصر ينبغي التوجه نحو الإسلام ﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة ﴾ هي الاجتناب عن المعاصي ، ليس فقط تعطي ملكة العدالة ، بل تنصر المرء في هذهِ المعركة المصيرية معركة الداخل . إذا كانت القضية العدالة فحسب ، علينا أن نكون جميعاً متهجين للعدالة يذكر أحد العلماء المبرزين في تاريخ التشيع إذا حصل لدينا شك في أن الشخص عادل أم لا ؟ علينا أن نقول إنه عادل . هذهِ الجملة تعني أن المسلم الشيعي يجب أن يكون عادلاً .

وضّحت لكم معنى العدالة ، وقلت بأن الإسلام يقول : يجب أن تكون في الشؤون الاجتماعية ، وإذا التزم الشخص بقضايا الزواج أو إمامة الجماعة أو القضاء أو الشهادة أو مرجعية التقليد يجب عليه أن يكون عادلاً . إن كافة الفقهاء ومن بينهم الإمام الخميني (رض) يقولون ليست العدالة أن لا يذنب فحسب بل من المفروض أن يمتلك المرء ملكة العدالة ، بمعنى أن يكون تلقائياً في تركه للذنوب وإنجاز كافة الواجبات .

إذن اجتناب الذنوب لا يوجد ملكة العدالة في الشخص فحسب ، بـل ينصرنا أيضاً في هذهِ المعركة الهامة أي معركة الـداخل . إذن إذا كنـا نريـد السعادة وتقوية الإرادة ، والانتصار في هذهِ المعركة علينا أن نجتنب الذنوب .

إن القرآن الكريم يتحدث حول الإنسان المذنب وأول ما يبدأ بهِ القرآن هو أنه يعتبر السير في التأريخ أمراً ضرورياً ، قد تكون في القرآن ما يقرب أكثر من عشـرة آيات تحث الإنسـان على التعمق في التـأريـخ إذ يقـول : سيـروا في الأرض ، اعتبـروا يا أولىٰ الأبصـار ، انـظروا لمـاذا وصـل بعض النـاس إلى السعادة ، لتقتدوا بهم وكذلك انظروا إلى الأسباب الكامنة وراء شقـاء وبؤس أفراد آخرين في الدنيا ، ولماذا سقطوا في هاوية المذلة والمسكنـة . تحدث القرآن مراراً حول المذنبين :

﴿ فسيروا في الأرضِ فانظروا كيفَ كانَ عاقبةُ المكذبينَ ﴾[١] ، ﴿ فانظر كيفَ كانَ عاقبةُ المجرمين ﴾[٢] .

ونظير هاتين الآيتين كثير في القرآن يا أيها الإنسان سر في التأريخ وانظر عاقبة المذنبين ، انظر ما هي المحصلة النهائية للظالمين والمعاندين والمكذبين للحق ، ثم اعتبِرْ وتعَلّمْ الأدبَ ممن ليسَ لَديهُم أدب ، إن القرآن ينذرنا في هذهِ الآيات ، فالذنب ولو كان صغيراً فهو ذنب ، بمعنى أن الكذب ذنبٌ كبير من وجهة نظرنا ، كبير إلى درجة أنه نقل عن موسى بن جعفر (ع) أنه في يوم القيامة يأتون بالشخص الكذّاب إلى المحشر فيعاقب بقضيب من نار قضيب مُحمرٍ من نار جهنم يأتون به ، ويولجونه في صدرهِ ويخرجونَهُ من ظهرهِ ، يُولجَونـهُ من جانبٍ ويخرجونَهُ من الجانب الآخر ويقولون : هذا جزاء الإنسان الكذّاب .

ويُعتبر القرآن الكريم الكذب في عدادِ الوثنيةِ ويَقول :

﴿ فاجتنبوا الرجسَ منَ الأوثانِ واجتنبوا قولَ الزورِ ﴾[٣] .

اتقِ شيئين ، الأول عبادة الأصنام ، والثاني الكذب .

إن للكذب ذنباً كبيراً ، ولكن بما أن الناس قد اعتادوا على الكذب لذلك أخذَتْ مهابتهُ من قلوبهم ، كذبةُ واحدة تضرنا كثيراً ، وهكذا الغيبة ومعنى الغيبة أنكم لا تستطيعون أن تقولوا ذلك بحق إنسانٍ أمامَهُ . فإذا قلتم بحضورهِ فسينزعج وقد عرف قائد الثورة العظيم ـ رضوان الله عليه ـ في ذلك الكتاب الذي حَرَّرهُ حَول الاستغابة ، عرّف الاستغابة بما يلي : « ذكرك أخاك بما يكره » وهو الأمر الذي يكرههُ الناسُ إذا تحدثت بحضورهم في غيابهم فهذهِ غيبة ، إذا كان لدى الشخص صفةُ سيئة ، وتحدث عنها في غيابه فهذهِ غيبةٌ أيضاً وإذا لم تكن لديه تلك الصفة السيئة فهذهِ تهمة (قذف) وامصيبتاه إن ذنبها أكبر من قتل النفس .

لقد غابت عن قلوبنا مهابةُ الغيبة ، إن ذنبها كبيرٌ لدرجة أن القرآن يعتبرُها

---

(١) سورة آل عمران ، الآية : ١٣٧ .

(٢) سورة الأعراف ، الآية : ٨٤ .

(٣) سورة الحج ، الآية : ٣٠.

مساويةٌ لأكل لحم الميت :

﴿ ولا يغتبْ بعضكمْ بعضاً أيُحِبُّ أحدكمُ أنْ يأكُلَ لحمَ أخيهِ ميتاً فكرهتموه ﴾(1) .

بمعنى هل تريد أن تأكلُ مَيتاً عَفِناً بعد إخراجهِ من القبر ثم يثبّت ذلك في ورقة أعمالكم ؟ كم هو قطيع ، القرآن يقول : هذهِ هي الغيبة بأجلى مصاديقها ، بمعنى ، لا تريدون أن تأكلوا لحم الميتِ ، إذن لا تستغيبوا مُسلِماً .

من الممكن أن تؤدي استغابةُ (بمعنى توجيه إهانة إلى شخصية المسلم) إلى أن يخاطبك الرب : « يا عبدي لن أغفرَ لك بعد الآن » .

« من أهان ولياً ، فقد بارزني بالمحاربة »(2) إذا أهان أحدٌ شخصية المسلم فإن ذنبَ ذلك يساوي محاربة الله ، حرب صدام ضد الشيعة كم ذنبها كبير ؟ أما النبي (ص) فيقول : « من أهان ولياً فقد بارزني بالمحاربة » إذا أهنت شخصية المسلم ، أو إذا جرحت شعوره بكلمة نابية ، كأنك حاربت الله ، لذلك من الممكن أن تزول مهابة الذنب من قلوبنا ، ولكن ذلك يوجه ضربة عنيفة لروحنا ، لأنه يُضعف إرادتنا وتزول العناية الإلّهية من فوق رؤوسنا :

﴿ واللّهَ لا يهدي القومَ الفاسقينَ ﴾(3) .
﴿ إنَّ اللّهَ لا يهدي القومَ الظالمينَ ﴾(4) .
﴿ إنَّ اللّهَ لا يهدي القومَ الكافرينَ ﴾(5) .

لعلها تكررت أكثرَ من خمسين مرة إن يَد العنايةِ الإلّهية لن تكونَ فوق رأس الإنسان المذنب فويلٌ لمن لا تكون فوق رأسه يَدُ العناية الإلّهية .

---

(1) سورة الحجرات ، الآية : 12 .
(2) سفينة البحار ، المجلد الأول ، ص 41 .
(3) سورة الصف ، الآية : 5 .
(4) سورة القصص ، الآية : 50 .
(5) سورة المائدة ، الآية : 67 .

أعزائي ، إقرأوا دائماً هذا الدعاء المنقول عن النبي (ص) ، النبي (ص) كان يقول مراراً : **«اللهمّ لا تكلني إلى نفسي طرفة عينٍ أبداً»** .

إذا أوكل الله الإنسان إلى نفسهِ لحظة واحدة ، فهو تَعِيسٌ وشقيٌّ ، لن يكون مهزوماً في هذهِ الحرب فحسب ، بل قد يهوي من قمة العزة (كما يقول القرآن الكريم) إلى أسفل السافلين .

لدينا في جهنم أسفل السافلين ، وكل هذهِ الأمور نشاهدها في هذهِ الدنيا والعذاب الموجود هناك موجود هنا أيضاً .

الشيء الثاني الذي نستنتجه من القرآن هو **﴿ واللّهِ لا يهدي القوم الفاسقين ﴾** إن يد العناية الإلٓهية ليست فوق رأس الإنسان المذنب .

إن الله يكل الإنسان المذنب إلى نفسهِ ، ومن البديهي أن تكون حياتهُ مظلمة ، القرآن الكريم لديه تمثيل حول الإنسان المذنب إذ يقول :

﴿ ومنْ يشركْ باللّهِ فكأنّما خرّ منَ السماءِ فتخطفهُ الطيرُ أو تهوي بهِ الريح في مكانٍ سحيقٍ ﴾[1] .

إذا سقط شخص من السماء السابعة كيف يتمزق ؟ وعندما يسقط على الأرض وتحيط به الكواسر وتنهش لحمه كم سيكون مصيره تعيساً ؟ إذاً ـ والعياذ بالله ـ سقط من الطائرة وسقط في مكانٍ لا يراه فيه أحد ، كم سيكون ذلك مرعباً بالنسبة له ؟ وكم سيكون الموقف صَعباً ؟ القرآن يقول : هذا هو الإنسان المذنب ، يقول : الذنب يهوي بك إلى الأسفل ويمزقك إرباً إرباً ، حيث تحيط بك الكواسر وتُترك ممزقاً . **﴿ ومنْ يشركْ باللّهِ فكأنّما خرّ منَ السماءِ ﴾** هنا الشرك ليس شرك عبادة الأوثان ، بل شرك الذنب واتّباع الشيطان والشهوات . القرآن يخاطب الأشخاص الذين اتّبعوا الشهوات بأنهم مشركون : **﴿ أفرأيتَ منْ اتّخذ إلٓههُ هواهُ وأضلّهُ على علمٍ ﴾**[2] وهذا يعني أن الذي يتّبع الشهوات يُعتبَرْ من عبدة الأصنامِ وشهواتُه هي صنمة .

---

(١) سورة الحج ، الآية : ٣١ .
(٢) سورة الجاثية ، الآية : ٢٣ .

في سورة يسٓ نقرأ : ﴿ ألم أعهدْ إليكمْ يا بني آدمَ أنْ لا تعبدوا الشيطانَ إنهُ لكمْ عدوٌّ مبينٌ ﴾[1] .

بمعنى يا ابن آدم ، ألم أقل لك أن الشيطان عدوك ؟ ألم أقل لك في الأزل إن من يتّبع الشيطان يعبد الأصنام وأن صنمه شيطانه ؟ لذلك فإن المذنب من وجهة نظر القرآن يعتبر عابداً للأصنام .

القرآن يقول : إن ارتكاب الذنوب في الحياة يمزق الإنسان إرباً إرباً ويوصله إلى مدى تكون حياته فيه موحشة ومليئة بالرعب والاضطرابات وضعف الأعصاب والقلق ، القرآن يقول : هل تريد أن لا تخشى المستقبل وأن لا تحزن لما فاتك ؟ هل تريد أن تبرأ من التشويش وأن تسيطر على أعصابك ؟ ﴿ لا ترتكب الذنوب ﴾ لأنها تجلب لك الرعب وشدّ الأعصاب والمذنب يحزن لما فات أحياناً ، ويخشى من المستقبل أحياناً أخرى .

القرآن الكريم يقول : ﴿ مثلُ الذينَ كفروا بربّهمْ أعمالهم كرمادٍ اشتدّتْ بهِ الريحُ في يومٍ عاصفٍ ﴾[2] إن هذهِ حياة الإنسان المذنب ، كما يقول الطلبة هذا تشبيه المعقول بالمحسوس ، بمعنى عندما يريد القرآن إيضاح أمر معنوي يضعهُ في قالب الحسيات .

إذا كنتم وسط الصحراء وهناك جَمعْتم قدراً من الأعشاب لكي تقربوا ناراً ثم هبّت ريح عاصفة من البديهي أن تذهب الأعشاب في مهب الريح .

يقول : حياة الإنسان المذنب تصبح عرضةً للرياح ، ليس لديه حياة مستقرة وسعيدة ، البيت يصبح سجناً ، والمجتمع مصدراً للقلق ، وأخيراً يمتلكه ضعف الأعصاب ، ويبتلىٰ ببلاء ماذا أفعل ؟ ماذا أفعل ويئن حتى الموت ؟ .

القرآن يقول : ﴿ ولا يزالُ الذينَ كفروا تصيبهمْ بما صنعوا قارعةٌ ﴾[3]

---

(١) سورة يسٓ ، الآية : ٦٠ .
(٢) سورة إبراهيم ، الآية : ١٨ .
(٣) سورة الرعد ، آية : ٣١ .

كم هي بليغة هذه الآية ، وهي تدق ناقوس الخطر ، يقول : الإنسان المذنب تعيس في حياتهِ ، ينجو من ألم لا نجاة منه ، ليقع في ورطة أخرى وينجو منها ليبتلي بداء آخر ، وهكذا دواليك . . .

القرآن يشبِّه الذنوب بالمشاكل وبالمصائب وبالآلام ، وهذا ما يسمى بتجسّم العمل ، ذنبنا يتجسّم .

القرآن يقول : ليست قارعة فحسب بل لا تزال تنهمل عليه المتاعب ومطرقة الذنوب تنزل على رأسهِ دائماً ، تارةً على رأسه وأخرى على رأس أقاربه . ﴿ أو تحلُّ قريباً منْ دارهم ﴾[1] .

هذا هو معنى تجسم العمل وتجسم الذنب في هذهِ الدنيا :

﴿ ولا يزالُ بنيانهمُ الذي بنوا ريبةً في قلوبهم إلاّ أنْ تقطّعَ قلوبهم ﴾[2] .

إن الذنب يأتي بالرعب للإنسان ، يأتي بالتشويش الذي لا نهاية له ، إلى أن يتمزّق قلبه إرباً إرباً جميع هذهِ الآيات التي قرأتها ورد فيها :

﴿ بما صنعوا ﴾ ، ﴿ بنيانهم الذي بنوا ريبةً ﴾ بمعنى أن الإنسان هو الذي يسبب المتاعب لنفسه ﴿ بما صنعوا ﴾ ، ﴿ بما كانوا يكذبون ﴾ ، ﴿ بنيانهم الذي بنوا ريبة ﴾ أنت الذي بنيت هذا البيت الجهنمي والسجن ، إذا كانت الحياة مظلمة ومرعبة فأنت الذي سببت هذا لنفسك . ﴿ أو كظلماتٍ في بحرٍ لجيٍّ يغشاهُ موجٌ منْ فوقهِ موجٌ منْ فوقهِ سحابٌ ظلماتٌ بعضها فوقَ بعضٍ إذا أخرجَ يدهُ لمْ يكدْ يراها ، ومنْ لمْ يجعلِ اللّهُ لهُ نوراً فما لهُ منْ نورٍ ﴾[3] .

فإذا لم تكن يد العناية الإلّهية فوق رأسك ، وإذا أصبحت حياتك خالية من النور ، وإذا هوت بك الذنوب وأوصلتك إلى مكان لا تكون فيه يد العناية الإلّهية فوق رأسك ، إعلم بأن حياتك مظلمة وموحشة ، ثم يقول القرآن في نفس الآية :

---

(١) سورة الرعد ، الآية : ٣١ .

(٢) سورة التوبة ، الآية : ١١٠ .

(٣) سورة النور ، الآية : ٤٠ .

إن لديه حياة عبثية بحيث أضاع نفسه في خضم تياراتها ، وأضحى لا يرى نفسه وأولاده ، ولا يعرفهم ولا يمكنه أن يفكر ببيته وتمشية أموره . ﴿ إذا أخرجَ يدهُ لمْ يكدْ يراها ﴾ .

هذهِ الآية الشريفة أيضاً تشبيه المعقول بالمحسوس ، إنها تضرب مثلاً شخص في خضم البحر ، والبحر مائج وعاصف والغيوم تحيط بالبحر ظلام الأمواج من جهة ، والعاصفة والغيوم التي تحيط بالبحر من جهة ، كم هي موحشة ! .

القرآن يقول : الحياة بدون الله ، الحياة بدون علاقة مع الله ، الحياة المحفوفة بالذنوب موحشة ، وموحشة ، ومظلمة ومظلمة .

﴿ أفمنْ أسسَ بنيانهُ على تقوىٰ منَ اللّهِ ورضوانٍ خيرٌ أمْ منْ أسسَ بنيانهُ على شفا جرفٍ هارٍ فانهار بهِ في نارِ جهنَّمُ واللّهُ لا يهدي القومَ الظالمينَ ﴾[1] .

الله لا يهدي الظالم ، هذهِ الهداية هنا هي التي أوضحت معناها سلفاً بمعنىٰ ، لا تكون يد العناية الإلّهية فوق رأس الظالم ، إنه هوىٰ بنفسهِ ، إنه قام بأعمال مشينة إلى الحد الذي فقد الأرضية اللازمة لكي تكون يد العناية الإلّهية فوق رأسه ، إن ذنوبه جعلته مُبتذلاً مُنحَطاً ثم يقول : كأنه بنىٰ بيتاً على شفا جرفٍ هار ، فماذا سيكون مصيره : القرآن يَقولُ هذهِ هي الحياة المحفوفةُ بالذنوب ، هنالك الكثير من الآيات نظير الآيات التي قرأتها في القرآن الكريم .

القرآن الكريم ينظِّر ، القرآن كتاب علمي ، ولكن مع أنه كتاب علمي ، فهو كتاب اختياري يحثُّ على العمل ، وانظر هل تصل إلى ذلك أم لا . وإذا وصلت فاعلم أنه حق .

لذلك إذا قرأتم القرآن من أولهِ إلى نهايته ترون الكثير من النظريات مهيئة للاختبار . القرآن يقول :

أيها المسلم ، هل تريد أن تكون لديك حياة رغيدة ، حياة بعيدة عن

(١) سورة التوبة ، الآية : ١٠٩ .

الرعب والقلق والخوف من المستقبل ، هل تريد حياةً كهذهِ ؟ .

﴿ فأيُّ الفريقينِ أحقُّ بالأمنِ إنْ كنتمْ تعلمونَ ﴾[1] .

بمعنى لِمَن الأمن ؟ هنا الأمن روحيّ كأن تكون حياةً خاليةً مِن الرعب والاضطراب والقلق . القرآن الكريم يقول :

﴿ الذينَ آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلمٍ ﴾ كم هي بليغة ، يقول : إذا أردت حياة رغيدة ، عليك أن تؤمن بالله ، وأن لا يكون إيمانك ممزوجاً بالذنوب ، وأن تكون حياتك خالية من الذنوب ثم يؤكد ﴿ أولئكَ لهمُ الأمنُ ﴾ الأمن لك لا محالة وكما يقول القرآن : لن تكون هنالك متاعب ، ضعف الأعصاب لذلك الذي لا يؤمن بالله وكما يقول القرآن الكريم :

﴿ ولمْ يلبسوا إيمانهم بظلمٍ ﴾ تعالوا لكي ننفض شائبة الذنوب من الحياة لترون كيف تزول جميع هذهِ المتاعب ؟ كلنا لدينا ضعف أعصاب قد تكونوا راجعتم الأطباء والتقيتم بعلماء النفس ، ولكن هل لذلك تأثير ؟ كلا ، أبداً وبالمرة الأطباء النفسانيون والأخصائيون في الأعصاب يقولون : لنفترض أننا نعطي أدوية إن ما نعطيه ليس سوى أقراص منوّمة وحَسْبُ ، ويقولون أيضاً : لأن البلاء الذي تُبتلى به يولد بلاء آخر ، لأن توتر الأعصاب ينجم من الرعب والاضطراب والقلق والهموم . ويقولون : والآن إذا كتبنا لك وصفة مطوّلة سَيُبطَلُ مَفعولُها . القرآن يقول في مواجهة الأطباء النفسانيين الذين يقولون ليس عندنا دواء يقول لدي الدواء : ﴿ الذينَ آمنوا ولمْ يلبسوا إيمانهم بظلمٍ أولئكَ لهمُ الأمنُ ﴾ . أنه يؤكد، لديّ دواء لتوتر الأعصاب ، جرّب وسترىٰ . ﴿ أولئكَ لهمُ الأمنُ ﴾ .

أيها الإنسان هل تريد الأمن ؟ اجتنب الذنوب ، اجتنب الذنوب . . تعالوا وكوّنوا علاقة مع الله ، بدل أن نكون قلقين لمتاعِبنا بدل أن نُصاب بالأرقِ وماذا سيحدث غداً ، وماذا حدث بالأمس ؟ انهض وتوضأ وناجي ربك ، وتُب عن الذنوب وسَتزول جميع آلامك ، الصلاة يمكنها أن تُزيل ضعف الأعصاب ،

---

(١) سورة الأنعام ، الآية : ٨١ .

وقيام الليل يقوي الإرادة .

﴿ يا أيها المزمّل ، قم الليلَ إلا قليلاً ، نصفهُ أو انقصْ منهُ قليلاً ، أو زدْ عليهِ ورتّلِ القرآنَ ترتيلاً ، إنا سنلقي عليكَ قولاً ثقيلاً ، إنَّ ناشئةَ الليلِ هي أشدُّ وطأً وأقومُ قيلاً ﴾ قم في منتصف الليل ولتكن لك علاقة بالله .

الجملة الأخرى التي نستفيدها من القرآن هي أن الذنوب لا يحيق ضررها بالإنسان فحسب ، بل إن الذنوب نار ، وحين تضرم النار تحرقك كما تحرق الآخرين ، لا تتساءلوا ـ مثلاً ـ إذا استغاب الأب أو ظَلَم ، فلماذا يجب أن يتحمل عبء ذنبه الولد ؟ إذا كان طفلك في الغرفة وانتابك ـ والعياذ بالله ـ توتّر في الأعصاب ، بأن تضرم النار في الغرفة من الواضح ماذا سيحدث ، أنت تحترق كما يحترق الطفل في المهد ، والآن نقول : إن السبب في ذلك الله والطبيعة ، كلا نحن السبب في ذلك ، هذا من الناحية الظاهرية ، القرآن يقول : إن تأثير الذنوب لا ينعكس في تدمير حياتك فحسب ، بل له تأثير في مصير أطفالك وبالعكس ، العلاقة مع الله ، وبالأخص خدمة الآخرين ليست مفيدة لك فحسب ، بل إن أطفالك سيحضون بحسن العاقبة .

﴿ وليخشَ الذينَ لو تركوا منْ خلفهم ذريةً ضعافاً خافوا عليهم فليتّقوا اللّهَ وليقولون قولاً سديداً ﴾[2] إذا كنت تريد ضمان مستقبل أولادك ، وإذا كنت تريد حياةً سعيدةً لهم ، لا تقذف ولا تظلم ولا تشهد زوراً ، ولا تستغب .

﴿ وليقولوا قولاً سديداً ﴾ ماذا نستنتج من هذهِ الآية ؟ إن الآية بنت طرفي القضية ، إذا أردت أن تُسعِدَ أنت وأولادك ، ليكن حديثك مهذباً ، ولتكن أعمالك مطابقة للعقل والشرع . . وبالعكس ، القرآن يقول : إذا كانت الذنوب في حياتك ﴿ ولم يلبسوا إيمانهم بظلم ﴾ إذا كان إيمانك مقروناً بالذنوب ، إعلم أن ليس لديك حياة سعيدة ، لقد اثبتت التجربةُ أن الأشخاص المرابين المعتدين ليسوا وحدهم تعساء بل أولاَدُهم أيضاً تعساء .

كان هنالك شخص معتدي في أصفهان ، ورغم شدة الغلاء كان يتعاطى

---

(١) سورة المزمل ، الآيات : ١ ـ ٦ .

(٢) سورة النساء ، الآية : ٩ .

الربا ويحتكر ، وكان يمتص دماء الناس ، إن أولادهُ يعانون الآن من المصائب والمتاعِب ، القضيةُ التي ينقلُونها عنه هـو أن القحط أصاب أصفهـان ، وكان القمح قد شَح وغَلي ثمنه ، فعلم خبازيّ أصفهان أن لديه قمحاً فجاءوا إليـه وقـالـوا لـه : اعطِ قمحـك للنـاس ، قـال : بِكَم تشتـرون المَنّ (ثـلاثـة كيلوغرامات) ؟ مثلاً ، قالـوا : سعرهُ تُـومانـان ، قال : أرفـع السعر ، (٢٢) ريالاً ، فقالوا: كلا ، كان يرفع السعر وفي النهاية لم يتفقوا على السعر ، لذلك قال : إصبروا إلى يوم غد لكي أفكر . ولم يعطِ القمح للناس في اليوم التالي ، وأخيراً مرّت الأزمة ، أولئك الذين يجب أن يموتوا من جرّاء ظلم الآخرين ماتوا وآخرون بقوا أحياء وانتهى القحط ، لم يمر وقت طويل إذا ابتلى ذلك الشخص بألم في ساقه ، جاءوا بالأطباء إلا أنه لم تتحسن صحته ، وأخيراً قررت اللجنة الطبية قطع ساقه فوضع يده على إصبع الساق ، قال : من هنا ؟ قال الطبيب : كلا ، ارتفع إلى الأعلى ، لم يطاوعه قلبه ، مثل ذلك القمح الذي كان يقول ارفع السعر ، والآن يتجسم ذلك العمل ويقول إلى الأعلى ، الخلاصة دفع كل المال وقطعوا ساقه . القرآن يقول : ﴿ وليخشَ الذينَ . . . ﴾ إذا كنت لا ترحم نفسك فرفقاً بأولادك ومجتمعك ، الذنوب تضر المجتمع ، الآيات التي قرأتها حول الأقارب والأولاد إلا أن آيات أخرى تقول إن الذنوب نار تحرق المجتمع : ﴿ واتقوا فتنةً لا تصيبنّ الذينَ ظلموا منكمْ خاصةً ﴾[1] .

أيها الإنسـان ، اتقِ الذنوب ، لأن الـذنوب لا تحيق بـك فحسب ، بل تستشري في مجتمعك أيضاً . أتعلمون متى يفنى الشعب ؟ ليس فناء الشعب بأن يجيء زلزال ويُدمِّر بل إن أكثر ما يدمر الشعب أن يسود توتر الأعصاب بين فئات الشعب حيث يرحل الإيمان وتنفسخ الأخلاق والأفظع من ذلك أن يظهر الهواء الفكري ، وأيةُ مصيبة أكبر من أن يستعبدهُ المستغلون وهو يفتخر بذلك . القرآن الكريم يقول : من أين تأتي هذهِ الأمور ، وكيف تصل الأمور بالشعب بأن يمنح نقطة للمستكبرين ، ثم يقول : يا أميركا أنا خادمك المطيع ، وافتخر بأني خادمك ، أية مصيبة أكبر من هذه ؟ القرآن يقول : ﴿ وإذا أردنا أنْ نهلكَ قريةً

---

(١) سورة الأنفال ، الآية : ٢٥ .

أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحقّ عليها القولُ فدمرناها تدميراً ﴾[1] .

وخلاصة الأمر أن الصبر عند الذنوب مفيد جداً ، وإذا أردتم الانتصار في هذهِ المعركة الداخلية يجب أن تصبروا عند مواجهة الذنوب والنتيجة الأخرى التي حصلنا عليها هي أن الذنوب مضرّة كثيراً لنا ولحياتنا ولأولادنا ومجتمعنا . وعلى عكس ذلك ، العلاقة مع الله تقوي الإرادة ، وتجلب لنا الحياة السعيدة وحسن العاقبة ، العلاقة مع الله لها تأثير في حياتنا وحياة أولادنا ومجتمعنا . إلّهي نقسم عليك بعزتك وجلالك أن تمنّ علينا بالبصيرة والصفات الفضيلة وأن توفقنا لطاعتك وترك معصيتك .

(١) سورة الإسراء ، الآية : ١٦ .

البحث التاسع

« التوبة (١) »

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ربِّ اشرح لي صدري ويسّر لي أمري واحلل عقدة من لساني ، يفقهوا قولي ﴾ .

قبل أن أدخل في البحث ، أود أن أنوّه عن موضوع ، وأرجو أن يكون ذلك مفيداً . لقد تعرض النبي الأكرم (ص) والأئمة الطاهرون ـ سلام الله عليهم أجمعين ـ للأذى كثيراً ، وبالأخص النبي الأكرم (ص) لدرجة أنه قال :

« ما أوذي نبي مثل ما أوذيت » .

نقرأ في التأريخ أن حضَرة زكريا قطعوه إلى نصفين بالمنشار ، ومع ذلك يقول النبي الأكرم (ص) : « ما أوذي نبي مثل ما أوذيت » .

المصائب التي حلّت بالإمام الثاني (ع) أكبر من المصائب التي حلّت بالإمام الحسين (ع) والمصائب التي جرت على الإمام الرضا (ع) كبيرة جداً بحيث أن الراوي يقول : « كلما كان الإمام الرضا (ع) يرجع من الصلاة (صلاة الجماعة) كان يطلب من الله الموت وبدورهم تَعرّضَ سائر الأئمة الطاهرين ـ سلام الله عليهم ـ للظلم وقد أوذيت الزهراء ـ عليها السلام ـ كما أوذي النبي الأكرم (ص) مراراً .

جميع هذه المصائب حدثت من أجل أمر واحد ، هو أن يصل الإسلام الحقيقي إلينا . إذا أردنا أن يرضىٰ عنا المعصومون الأربعة عشر

ـ عليهم السّـلام ـ أولاً يجب أن نتحلى بالتـدين والتقوى . وثـانيـاً إنكم أيهـا المعلمون الأعزاء وأنتم صفوة المجتمع والجيل الشاب رهين جهودكم ، يجب أن تجاهدوا لإحياء الدين . إن إبقاء الدين حيّاً لكافة الناس أمرٌ يختلف عن إحياء الدين بيد علماء الدين بواسطة الثقافة . فيجب أن نتوخى الحذر حد الإمكان ، أولاً يجب أن نكـون متـدينين ، وثـانيـاً وببـركـة المعصـومين الأربعـة عشـر ـ عليهم السّلام ـ أن نحيـي الـدين في الصف ، وبـاسم النبي الأكـرم (ص) نحيـي القرآن ، وأحكام الإسلام وهذا واجب عظيم علينا أن ننهض به جميعنا .

كان لقائـد الثورة العـظيم جملة ينصحنا بهـا مراراً ، الجملة التي كـان النبي (ص) يقولها هي : « لقد ثبت لدي عن طريق التجربة إذا كان في مدينةٍ ما أناس طيبون ومتدينون ، نفهم أن فيها عالماً ملتزماً ومتديناً وفي المقابل إذا كان في مدينةٍ ما أناس غير طيبين ، ندرك إما أنه لم يكن هناك عالم أو إذا كان هناك عالم لم يكن ملتزماً » ، حقاً إنه كذلك . نفس هذهِ الوصية أوصيكم بها أنتم يا أيها المعلمون الأعزاء إذا كنتم أيها المعلمون المحترمون متدينين ، وإذا كنتم تفكرون بإحياء الدين ، كونوا على ثقة : إن جيلنا القـادم سيكون جيـلاً طيباً ، وسيكون لدينا شباب متدينون وملتزمون في المستقبل .

إذن ، يجب أن أقول لكم : إن جيلنا القادم رهين نشاطاتكم أيها الأعزاء إذا أردتم أن يكون الجيل القادم ملتزمـاً ومتدينـاً ، عليكم أن تكونـوا متدينين وملتزميـن .يجب أن تكونوا مهتمين بالدين والأخلاق والثقافة الإسلامية وعليكم أن تقوموا بنشاطات واسعة . ولا بد أن يكون الجيل القادم عالماً ، فإذا لم يتسلح الجيل القادم بالعلم سيقع في شرك الاستعمار والاستغلال .

وقد أثبتت التجربة أن الدول التي وقعت في شرك الاستعمار ، أفرغت في البداية من محتواها الثقافي ، ووقعت تلقائياً في أحضان الاستعمار . إذا لم يكن لدينا في المستقبل علماء وأخصائيون سنقع في أحضان الاستعمار لا محالة . إنهم لا يأتون ليأخذوننا ، بل إن البرنامج الاستعماري قد نظم بطريقة نذهب نحن إليهم . إذن يجب أن يتسلح الجيل القادم بالعلم والخبرة ، وهذه مهمتكم أيها المعلمون الأعزاء . وكذلك العلم بدون التـزام إلٓهي لا ينفع ، يجب أن

يقترن العلم بالتدين والالتزام . العلم بدون دين والدين بدون علم كلٌ على حدة لا ينفعان أبداً ، إذا كان الدين موجود ، ولكن العلم والوعي غير موجودين ، فلا فائدة من ذلك العلم بل إنه مضر .

إذن جيلنا القادم يجب أن يكون متديناً وملتزماً ، وعالماً ، ومتخصصاً أيضاً . وهذا رهين بجهودكم أيها المعلمون الأعزاء . يجب أن تتوخوا الحذر . أرجو أن تفوزوا بلطف خالق الكون ، وأن تكون يد العناية الإلّهية فوق رؤوسكم دائماً ، لكي تنجحوا في إحياء الجيل القادم ، ولكي تتمكنوا من تقديم شبابٍ ملتزمين ومتدينين وواعين ومتخصصين للمجتمع .

إنَّ إحدى الأشياء التي تنفع كثيراً في تقوية الروح ، وفي حرب الداخل (الجهاد الأكبر) هي التوبة عن الذنوب .

التوبة عن الذنوب لها تأثير كبير في تقوية الروح ، وتقوية الإرادة والسير إلى الله ، والانتصار في الجهاد الأكبر . وحتى العرفاء[1] يقولون : « إذا أراد شخص أن يكون لديه سير ملكوتي ، المنزل الأول في هذهِ الطريق هو التخلية ، ومن أجل أن يصل إلى أول محطة للعرفان عليه أن يتوب عن الذنوب .

إحدى ميِّزات الإسلام هي أنه لا يصل إلى طريق مسدودة أبداً ، بمعنى أنه لا يقول أبداً (لا أعلم) أنتم لا يمكنكم أن تجدوا مكاناً يقول فيه الإسلام لا أعلم . يقول الإمام الصادق (ع) حول القيادة : « بالإضافة إلى أن القائد يجب أن يملك أعلى حد من العدالة ، يجب أن يكون خبيراً في العلوم الإسلامية أيضاً ، وقادراً على إجابة المجتمع البشري . إذن إذا قال شخص عن قضيةٍ ما في الإسلام لا أعلم ، فهو ليس جديراً بالقيادة ، ولا يمكنه أن يكون مرجع تقليد للمسلمين » .

من الناحية العملية أيضاً لا يصل الإسلام إلى طريق مسدودة أبداً ، بمعنى أن الإسلام لا يقول لتابعيه أبداً إني لن أقبلك بعد الآن . ليس هنالك طردٌ للأفراد في الإسلام ، مهما كان الذنب كبيراً ، إذا حصل تفاعل داخلي ، وإذا

---

(١) الأشخاص الذين عملوا في مجال السير والسلوك .

ندم الشخص على ما فعله في الماضي ، وتاب وقرّر أن لا يرتكب ذلك الذنب مرةً أخرى ، فإن الباري عزّ وجلّ يعفو عنه . لا يمكن أن نعثر في الإسلام على ذنب لا تُقبل التوبة عنه . إذن الإسلام يقبل دائماً توبة المذنبين . كما أشرنا سابقاً ، جوهر التوبة هو التفاعل الداخلي والندم على ارتكاب الذنب ، وعلى المذنب أن يقرّر عدم ارتكاب ذلك الذنب ، وقد لا يلتزم الشخص بذلك ، ولكن الله يتوب عليه ، فالله يقبل توبة ناقضي التوبة . إذا ارتكب الشخص ذنباً (مهما كان) وحصل لديه تفاعل داخلي بعد ارتكاب الذنب ، وشعر بالأذى والندم لارتكابهِ الذنب ويقرر عدم تكرار ذلك الذنب ، فإن الباري عزّ وجلّ يغفر له ذلك الذنب . إن ما يستشف من القرآن وروايات أهل البيت ـ عليهم السّلام ـ هو أن الله لا يغفر الذنوب فحسب ، بل إنه يغفر سريعاً .

نقرأ في دعاء كميل إن الله « سريع الرضا » ، كما نستشف أيضاً من القرآن وروايات أهل البيت ـ عليهم السّلام ـ إن الله لا يغفر سريعاً فحسب ، بل إن الذي يتوب يتلقى توفيقاً من خالق الكون ، الذي يتوب يغفر له الله ، ويمنحهُ حسنة أيضاً ، يُمحي ذنوبه وبدل تلك الذنوب يكتب له حسنة ، وبواسطة التوبة يفيضُ خالق الكون على التائب حياة مرفهة . فكما أن الذنب له تأثير وضيعي ويجلب التعاسة والبلاء فإن التوبة والتوجه نحو الله يتبعهما النجاح والحياة الرغيدة .

هنالك بحث بين العرفاء والعلماء يتلخص في مآلِ ذنوب الذي يتوب عن الذنوب ، والتي تجسدت عملياً ، هل تزول نهائياً ؟ أو تظهر بصورةٍ « لعان » ؟ هنالك اختلاف في وجهات نظر العلماء . البعض ومن بينهم قائد الثورة العظيم ، يقول : إذا تاب شخص عن الذنب ، فإن خالق الكون يُمحي ذنوبه ، وبالتالي فإن المصائب الناجمة عن الذنوب تزول أيضاً .

كما يؤيد القرآن الكريم هذهِ الرواية . أما البعض الآخر ومن بينهم المرحوم كمباني ـ عليه الرحمة ـ وهو أحد العرفاء والفلاسفة ، ومن علماء الإسلام الكبار يقول : إن الذي يتوب عن الذنب نحن نبدل حياته التعيسة التي أوجدها الذنب ، نبدلها إلى حياة رغيدة . قبل أن أقرأ الآيات الكريمة حول هذا

البحث أود أن أنوّه حول صفة « سريع الرضا » الإلّهية وسيكون ذلك مفيداً جداً للآباء والأمهات والمعلمين الكرام ، إحدى الأساليب التي وردت في علم النفس حول تأديب الطفل هي مخاصمة الطفل ، ولكن يُوصىٰ أن تكون مدة الخصام قصيرة ، وأن يكون المربّي « سريع الرضا » ، بعد مُضي فترة من المخاصمة يجب أن يجد المربي حجة لمصالحة الطفل .

كما أن روايات أهل البيت ـ عليهم السّلام ـ تؤيد هذه الطريقة . هـذهِ الطريقة مؤثرة جداً في تربية الأطفال شريطة أن تكون المصالحة سريعة .

ونرىٰ أن كثيراً ما يستفاد من طريقة « سريع الرضا » حيث كانت هذهِ الطريقة ذات تأثير كبير في التربية . بناءً على ذلك ، أرجوكم إذا واجهتم أشخاصاً عنيدين وأردتم تربيتهم ، لا تستخدموا كلمات نابية ، ولا تهينوا شخصيتهم لأن هذهِ التصرفات غير ناجحة في التربية ، وتؤدي بكم إلى الفشل ، كما أن الضرب له تأثير سلبي في تربية الأطفال .

لا يمكن تربية الطفل عن طريق الإهانة والضرب ، يجب أن نكون ، « سريعي الرضا » مع الأطفال ، وأن لا نستخدم كلمات الإهانة في البيت والمدرسة والمعهد ، لأن ذلك مضر جداً ويأتي بنتائج عكسية .

إن استخدام الكلمات النابية مذموم جداً في الإسلام وقد نهىٰ الإسلام عن ذلك . وكنموذج نورد لكم مثالين من تعامل قادة الإسلام إزاء هذا التصرف . تآمر عدة يهود على الاستهزاء والسخرية بالنبي الأكرم (ص) جاء أحدهم ومر من جانب النبي (ص) وبدل أن يقول : « سلام عليكم » قال : « سام[1] عليكم » ، فأجابه النبي الأكرم (ص) : « عليكم » ، فجاء الثاني ، وقال للنبي (ص) أيضاً : « سام عليكم » ، فأجابه النبي الأكرم (ص) : « عليكم » أي ليكن ما قلته عليك . فجاء يهودي ثالث وقال كما قال اليهوديان : « سام عليكم » ، فأجابه النبي (ص) : « عليكم » .

كانت عائشة جالسة عند النبي الأكرم (ص) ، فتألمت كثيراً لدى مشاهدة

---

(١) سام ، بمعنى السيف وسامٌ عليكم تعني الموت لك .

هذا الوضع وقالت لهم : « يا أبناء القردة والخنازير » لماذا تتحدثون هكذا مع النبي (ص) ؟ .

إن ما نسبته عائشة لهؤلاء صحيح ، من رؤية الإسلام[1] ولكن عائشة تقول : شحب لون النبي الأكرم (ص) والتفت قائلاً : « يا عائشة ، لماذا بدأتِ بالسبّ ؟» ، تقول عائشة قلت: يا رسول الله لقد تآمروا، يأتون واحداً بعد آخر ويقولون لك : « سامٌ عليكم » .

قال النبي (ص) : « لقد أجبتهم على ما قالوه لي وقلت : « عليكم » ، ثم قال : يا عائشة ، ألا تعلمين أن كلامنا وعملنا يتجسم ، هذا السباب يتجسم بصورة قبيحة ، ويحشر مع الإنسان في يوم القيامة ، السُبَّة ، وإن كانت لفظ « يا ابن . . . » .

وأمثالها تتحول يوم القيامة على شكلِ كلب وخنزير وحيوانات موحشة ، وتحيط بالإنسان من كل جانب . تقول الروايات : إن الإمام الصادق (ع) كان لديه صديقٌ مُلازِمٌ له دائماً ، وكان الإمام الصادق (ع) يحبهُ أيضاً ، ويرافقهُ في غُدوِّه وترحاله . عندما كان يمشي بجوار الإمام في أحد الأيام ، وكان غلامه ملازماً لهما ، تخلّف الغلام صدفةً ولسببٍ ما عنهما . فنادى هذا الشخص الغلام ، ولكنه لم يسمع رداً منه ، فكرر مناداته مرةً ثانية ، ولكنه لم يسمع رداً . فغضب الرجل ، وقال للغلام : « يا بن الفاعلة » أي يا ابن الزنا ما أن فاه الرجل بهذهِ الجملة حتى وقف الإمام الصادق (ع) وتألّم كثيراً بحيث وضع يده على ظهرهِ ، وكأن ظهره الشريف قد انتابهُ ألم . قال : ماذا قلت ؟ فعلم ذلك الرجل أنه قد ألمّ الأمام ، قال : يا ابن رسول الله ، هذا الغلام من الهند ، ولا يُعرف له أب أو أم ، والنسبة التي نسبتها إليه كانت بسبب أنه لا يُعرف من هو أبوه وأمه . قال الإمام الصادق (ع) ما معناهُ : إني لا أريد أن أُناقِش قولك هذا من الناحية الشرعية ، بل أريد أن أقول : لماذا فقدت عفة اللسان ، ولماذا لوثت لسانك بالسُباب ؟ .

الرواية تقول : إن الإمام الصادق رفض صداقته ، وأبعده فجاكسته . نظراً

---

(١) ﴿ وجعل منهم القردةَ والخنازيرَ ﴾ سورة المائدة ، الآية : ٦٠ .

لهذين النموذجين يتضح أن المسلم ينبغي أن يكون مؤدباً جداً وأن تكون لديه عفة اللسان ، والذي يكون لسانه ملوثاً بالكلمات النابية لا يمكن أن يعتبر مربياً جيداً ، وبالأخص السيدات الفاضلات عليهن الأشباه إلى أن السباب والصراخ والغضب وتوتر الأعصاب لا يُمكّنها أن تربي الطفل ، ولن تؤدي إلى نتيجة سوى التعاسة للشخص وأطفاله .

إحدى أساليب التربية هي أن نخاصم الطفل لدى ارتكابه مخالفة على أن نصالحه سريعاً ، بمعنى أن نكون « سريعي الرضا » .

إن عمل المربي شاق جداً ، ولكن عندما يكون العمل لله تهون الصعوبات . فالإمام الحسين (ع) قدم كل ما يملك في يوم عاشوراء وذلك ابتغاء لمرضاة الله ، وضحّى بماله وأولاده ليبقى دين الله حياً . إن جميع الصعوبات تهون في سبيل الله ، المعلم الذي يخاصم الطفل لله ومن أجل تربية الطفل عليه أن يصالحه أيضاً بسرعة من أجل الله .

أحد أصدقائي يقول : عندما سافرت إلى القرية للدعوة والتبليغ لم يراجعني أحد من أهل القرية ، ذهبت إلى المسجد ، وعملت شاياً ، ودعوتهم ، ولكن لم يأتِ أحد إلى المسجد ، فما كان مني إلا أن أخاصمهم وأترك القرية ، لم يقل لي أحد إلى أين أنت ذهبت ؟ عندما ابتعدت خطواتٌ عن القرية ، قلت أكلم نفسي : ما هذا الذي أصنعه ، فندِمت لمخاصمتهم . قلت مع نفسي بأيِ حجة أعود إلى أن وقعت عيناي على طفلة جاءت لأخذ الماء من القناة . فقررت أن أعود إلى القرية مع الطفلة ، عندما عدت إلى القرية رأيت الناس واقفين في جانب ، ما أن شاهدوني حتى راحوا يقولون بصوتٍ عالٍ : (الشيخ ذهب وعاد بقدميه) الشيخ ذهب وعاد بقدمية فصبرت إلى أن هدأوا ، وبدأت دعوتي من هناك . إن صفة « سريع الرضا » الإلّهية ساعدتني وقد نجحت في دعوتي . علينا أن نكون هكذا في دعوتنا لدين الله . وهكذا هي طريقة القرآن الكريم في الدعوة حيث يقول الباري عزّ وجلّ في سورة الأنعام الآية (٥٤) :

﴿ وإذا جاءكَ الذينَ يؤمنونَ بآياتنا فقلْ سلامٌ عليكمْ كتبَ ربُّكم على نفسهِ

الرحمةَ أنهُ منْ عملَ منكمْ سوءً بجهالةٍ ثُمَّ تابَ منْ بعدهِ وأصلحَ فإنهُ غفورٌ رحيمٌ ﴾[1] .

يقول الله للنبي الأكرم (ص) : أيها النبي ، إذا جاءك المذنب أبلغه سلامي أولاً ، أرجو أن تنتبهوا إلى هذهِ النقطة، انظروا إلى الله أرحم الراحمين حتى لا يصاب أحدكم باليأس من رحمة الله فاليأس بمستوى الكفر ، واسعوا إلى تهذيب أنفسكم بالاستفادة من هذهِ الآيات ، وكونوا رحماء ورؤوفين و « سريعي الرضا » .

الآية تقول : عندما يجيء العبد المذنب ، سلّم عليه أولاً ، وقبل أن تقبل توبته قل له : إن الله كتب على نفسهِ أن يغفر للمذنب ، وأن يجعل رحمته من نصيب المذنب . ثم يقول : قل له : إن من يرتكب ذنباً بجهالة ، ثم يتوب ويصلح نفسه فليعلم أن الله يغفر له ذنوبه لأن الله غفور رحيم . إن رؤية هذهِ الآية تتركز في صفة « سريع الرضا » كما جاء في دعاء كميل : « يا سريع الرِّضا إغفر لمن لا يملك إلا الدعاء » .

ولكن هذهِ الآية تقول : إذا ذهبت إلى بيت الله ، فإن الله يبدأك بالسلام ثم يقول : عليَّ أن أغفر لك ، ويغفر لك .

ويصرّح الله في آيةٍ أخرى بصورة أوضح عن هذا الموضوع حين يقول : ﴿ إلا منْ تابَ وآمنَ وعملَ عملاً صالحاً فأولئك يبدِّلُ اللّهُ سيئاتهمْ حسناتٍ وكانَ اللّهُ غفوراً رحيماً ﴾[2] هذهِ الآية تدور حول الزاني والزانية وحتى لو كان زنى المحصنة[3] ، وما قبل هذه الآية تقول : المؤمن لا يزني ، وإذا زنى الشخص ، فإنه يدخل جهنم ذليلاً . نقرأ في الروايات : إن المرأة التي تزني ، والرجل الذي يزني ، إذا مات من غير توبة سيلقى في جهنم عذاباً أليماً ، ويتكدّر خاطر أهل جهنم من رائحة تعفن عورتيهما . الذنب كبير جداً ، ولكن نفس هذا الذنب الكبير ، حتى إذا كان زنى المحصنة ، الله يقول :

﴿ إلا منْ تابَ وآمنَ وعملَ عملاً صالحاً . . ﴾ وإذا تاب لا يغفر له

---

(١) سورة الأنعام ، الآية : ٥٤ .

(٢) سورة الفرقان ، الآية : ٧٠ .

(٣) زنا المرأة المتزوجة أو زنا الرجل المتزوج .

فحسب بل ﴿ يبدِّلُ اللّهُ سيئاتهمْ حسناتٍ ﴾ ويمحي الذنوب من أعماله ويكتب بدلها الثواب . العطف الإلٓهي في هذهِ الآية أكثر من الآية الأولى ، يقول في الآية الأولى : سلّم على المذنب ، وقل له إن الله كتب على نفسه أن يغفر له . لكنه في الآية الثانية يقول : ﴿ ... يبدِّلُ اللّهُ سيئاتهمْ حسناتٍ ﴾ ويمحي الذنوب من أعماله ويكتب بدلها الثواب . حقاً إن الله رؤوف رحيم . يقول الشاعر :

تعال تعال أيّما تكون تعال

إذا كنت كافراً وملحداً وعابداً للأوثان تعال

إن عتبتنا ليست عتبة اليأس

إذا لم تلتزم بالتوبة مئة مرة تعال

هذا الشاعر ، لم يعطِ القرآن حقه . الآية تقول: تعالى أيها المذنب، إني أحب توبتك كما أحب أنينك وحياءك ، لن أغفر ذنوبك فحسب ، بل سأمحي الذنوب من ورقة أعمالك واكتب مكانها حسنة[1] . إن هذهِ الآية تَبعث على الأمل والبناء ، كما يقول في سورة البقرة الآية(٢٢٢) : ﴿ إنَّ اللّهَ يحبُّ التوابينَ ويحبُّ المتطهرين ﴾[2] وهذهِ الآية بنّاءة ، وتبعث على الأمل أكثر من الآيتين السابقتين .

تعلمون أن « التوّاب » صيغة المبالغة كـ « علام » وهو الذي يملك الكثير من العلم ، التواب هو الذي يتوب كثيراً . يبدو أن تفسيرها يصبح إذا لم تلتزم بالتوبة مئة مرة تعالى .

﴿ إنَّ اللّهَ يحبكَ ﴾ و ﴿ يحبُّ المتطهرين ﴾ فاليد الملطخة بالدم إذا طهرتها بالماء تطهر ، وتصبح كاليد التي لم يمسسها الدم إطلاقاً . كذلك الذي يتوب يُطهر من الذنب . النبي الأكرم (ص) يقول : « التائب من الذنب كَمَنْ لا ذنبَ له »[3] لذلك تقول الآية : لست فقط أحب المذنب التائب ، بل أحب

(١) يبدو أن الحسنة هُنا هي ثواب التوبة ، مثلاً الذي استغاب وقذف ولم يقم الصلاة عندما يتوب يمتحى ذنوبه . وبما أن ثواب التوبة في الإسلام أكبر من ثواب سائر العبادات لذلك يكتب في ورقة أعمال المذنب الثواب .

(٢) سورة البقرة ، الآية : ٢٢٢ .

(٣) سفينة البحار ، المجلد الأول ، ص ١٢٦ .

أيضاً ذلك الذي تلوّث مراراً وتاب . لأن التوبة تُطهر الإنسان والله يحب المتطهرين .

الآية الرابعة التي اخترتها لعلاقتها بهذا البحث ، الآية (٥٢) من سورة هود . هذهِ الآية أبلغ من الآيات الثلاث الأخرى فهي تقول : ﴿ ويا قومِ استغفروا ربكم ثمَّ توبوا إليهِ يرسلْ السماءَ عليكم مدراراً ويزدكم قوةً إلى قوتكم ﴾[١] يا أيها المذنب، تعالى وتُب إن الله يغفر لك ، وعلاوة على ذلك : ﴿ . . . يرسلْ السماءَ عليكم مدراراً ﴾ النعمة والسعادة تهطل عليك كهطول المطر في هذهِ الدنيا .

قلت سابقاً : إن الذنب ينهمر بالمصائب فوق رأس الإنسان . والآن إذا أردت أن تزول تلك المصائب ، ويزول التأثير الوضعي للذنب ، أو كما قال المرحوم كمباني ـ رحمة الله عليه ـ يصبح « لعان » يجب أن تتوب من الذنب لأن الله يقول : نحن لا نمحي الذنوب فحسب ، بل نجعل بدلها السماء تمطر فوق رأس التائب . إذن : تعالى . . تعالى أيما تكون تعالى . كما أن الآية الثالثة من سورة هود تؤيد هذا المعنى . يقول : ﴿ وأنْ استغفروا ربكمْ ثمَّ توبوا إليه يمتعكمْ متاعاً حسناً ﴾[٢] .

فيا أيها المذنب ، إذا تبت يبعد الله تلك المصائب التي ابتليت بها من جراء الذنوب عنك ويوفر لك حياة رغيدة وسعيدة :

﴿ يمتّعكمْ متاعاً حسناً ﴾ وحول الذنوب ، يقولُ القرآن : ﴿ ومنْ أعرضَ عنْ ذكري فإنَّ لهُ معيشةً ضَنكاً ونحشرهُ يومَ القيامةِ أعمىٰ ﴾[٣] أي : إن الذي تكون حياتهُ بدون الله ، والذي يعيش مع الذنوب ، يصاب بمصيبتين : الأولى أن معيشته تصبح ضنكاً ويحشر يوم القيامة أعمى ﴿ ونحشره يوم القيامة أعمىٰ ﴾ .

القرآن يقول : إنسان كهذا يحاور ربه يوم القيامة قائلاً : ﴿ قالَ ربِّ لمَ

---

(١) سورة هود ، الآية : ٥٢ .

(٢) سورة هود ، الآية : ٣ .

(٣) سورة طه ، الآية : ١٢٤ .

حشرتني أعمىٰ وقدْ كنتُ بصيراً ﴾[1] فيقول الله : ﴿ قالَ كذلكَ أتتكَ آياتُنا فنسيتها وكذلكَ اليومَ تُنسى ﴾[2] إن سبب عماك هو أنك نسيتنا في الدنيا ، ونحن ها هنا نسيناك أيضاً . (من الواضح ، الإنسان الذي ينساه الله ، لا يمكنه البصر) قلت : إن إحدى انعكاسات الذنوب هي أن حياة الإنسان تصبح تعيسة . القرآن يقول : إذا أردت أن تتبدل حياتك التعيسة إلى حياة سعيدة ، عليك أن تتوب عن الذنوب .

أستاذنا الكبير المرحوم العلامة الطباطبائي ـ رحمة الله عليه ـ كانت لديه جملة يرددها في أبحاثه عند الضرورة ، ويبدو أن هذهِ الجملة كانت محطَّ عناية ، وقد استخدم هذهِ الجملة مراراً في تفسير الميزان ، وهي جملة تبعث على الأمل حقاً كأن يقول : « توبة العبد محفوفة بتوبتين من الله » ما يستشف من القرآن هو أن الله لديه توبتان لعبدهِ المذنب فهو يتوب مرة واحدة ، بينما يتوب الله عليه مرتين[3] . واحدة من هاتين التوبتين، توفيق يمنّ الله به على عبده ليعود ويتوب .

إذا لم تكن هنالك جاذبية من المعشوقة
فسوف تذهب جهود العاشق المسكين سدًى

إذا لم يكن هنالك توفيق وهداية من جانب الله ، لن يستطيع العبد المذنب أن يصل إلى هدفِ الوصولِ إلى الله . التوبة الثانية لله ، قبول العبد المذنب . انظروا كم الله رحيماً وغفوراً ورؤوفاً . حقاً إنه لمن المؤسف أن لا يطيع العبد ربه . يقول الباري عزّ وجلّ في سورة التوبة الآية (١١٧) :

﴿ وعلى الثلاثة الذينَ خلِّفوا حتى إذا ضاقتْ عليهمُ الأرضُ بما رحبتْ وضاقتْ عليهمْ أنفسهمْ وظنّوا أنْ لا ملجأً منَ اللّهِ إلاّ إليهِ ثمَّ تابَ عليهمْ ليتوبوا إنَّ اللّهَ هوَ التوابُ الرحيمُ ﴾[4] هناك قصة تقتني موضوع هذهِ الآية وهي : أن ثلاثة من أصحاب الرسول الأكرم (ص) تخلّفوا عن الذهاب إلى جبهة الحرب

---

(١) سورة طه ، الآية : ١٢٥ .
(٢) سورة طه ، الآية : ١٢٦ .
(٣) التوبة في اللغة تعني العودة ، إذا خرج أحد من الغرفة ثم عاد ، والعرب تقول تاب بمعنى عاد .
(٤) سورة التوبة ، الآية : ١١٨ .

(غزوة تبوك)[1] ، فأنهى النبي الأكرم (ص) الحرب مع أصحابه ، وعادوا جميعاً . فخرج الناس لاستقبالهم ، ومن بينهم الثلاثة الذين تخلّفوا حيث كانوا من بين المستقبلين ، قال النبي الأكرم (ص) : « لا يكلم أحد أحداً من هؤلاء الثلاثة » الحكم حكم النبي (ص) ، تقول الرواية : وصلت الأمور بهؤلاء الثلاثة أن امتنع أزواجهم وأولادهم عن الكلام معهم ، وابتعدوا عنهم . القرآن يقول : بعد مضي ثلاثة أيام ضاقت بهم المدينة وشعروا أنهم لا يمكنهم أن يستمروا على هذهِ الحال : ﴿ ضاقتْ عليهم الأرضُ بما رحبتْ ﴾ إنهم شعروا أنْ لا حيلة بيدهم سوى التوبة . فاتجهوا نحو الصحراء وبكوا ، وانتحبوا ، وتابوا ، وقبل الله توبتهم ، نحن أيضاً نستطيع أن نستفيد من هذهِ الأساليب في مكافحة المذنبين . النقطة التي أردت أن أشير إليها هي أن الآية تقول : ﴿ ثمَّ تابَ عليهمْ ليتوبوا ﴾ لقد جاءت التوبة الإلٓهية بعد توبتهم .

(إذا لم يشفق خالق الكون . . . من أين للعبد أن يقوم بعمل ؟) وخلاصة البحث هي أننا نستشف من القرآن الكريم أن التوبة مفيدة جداً ، وهي بنّاءة جداً ، لتقوية الروح وجهاد النفس . ومهما كان الذنب كبيراً ، إذا تاب الإنسان بصدق عن ذلك الذنب فإن الله يغفر له . إلٓهي بعزتك وجلالك نقسم عليك أن تمنّ علينا جميعاً بالخصال الإنسانية ونور القلب والتوبة والتوفيق في عبادتك وعبوديتك وترك المعصية .

---

(١) كان وضع الذهاب إلى الجبهة في صدر الإسلام كحربنا اليوم مع الكفر الصدامي ، بمعنى كانت تعلن التعبئة العامة ، ولم يكونوا يأخذوا أحداً إلى الحرب قسراً ، وما أن تنشب الحرب ويعلن النبي الحرب يتجه كل من يقدر على حمل السلاح إلى الجبهة ، وحتى العريس يترك فراش الزوجية ويتجه نحو الجبهة .

البحث العاشر

« التوبة (٢) »

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ربِّ اشرح لي صدري ويسّر لي أمري واحلل عقدة من لساني ، يفقهوا قولي ﴾ .

بحثنا يهتمُّ حول الصراع المستمر بين الجانب الملكوتي ، والجانب البهيمي في داخلنا والذي سمّاه النبي الأكرم (ص) بالجهاد الأكبر . وقلنا من أجل أن نتغلب على الجانب البهيمي في داخلنا ، يجب أن نستفيد من القوى الخارجية وإلا سنكون مغلوبين . وقد تعرفنا من خلال القرآن الكريم وروايات أهل البيت (ع) على قوىً من بينها الاهتمام بالواجبات ، والصلاة ، واجتناب الذنوب ، وبحثنا حولَ الصبر وأنواعه الثلاثة . القوة الثالثة التي تحدثنا حولها تكمن في التوبة . وقلنا إنه عن طريق التوبة نستطيع تقوية إرادتنا وروحنا وبعبارة أخرى يمكننا أن ننتصر في هذهِ المعركة .

والقرآن الكريم مشحون بالحديث حول التوبة ، ويقول : ليس خالق العالم « سريع الرضا » فحسب ، بل إنه يُسلم أولاً على المذنبين ، ثم يقول : إني أقبل توبتك كما يستشف من القرآن الكريم أنه إذا حصل تفاعل داخلي عند الشخص ، ثم تاب فإن خالق الكون يغفر له ، وكما قال النبي الأكرم (ص) : « التائب من الذنب كمن لا ذنب له » إذا تاب المرء من ذنب فهو كمن لم يذنب أبداً .

حول هذا الموضوع يقول القرآن الكريم :

﴿ قلْ يا عباديَ الذينَ أسرفوا على أنفسهمْ لا تقنطوا منْ رحمةِ اللّهِ إنَّ اللّهَ يغفرُ الذنوبَ جميعاً ﴾[1] .

من الناحية اللغوية هنالك ثمة نقاط في هذهِ الآية ، جملة : ﴿ يا عبادي ﴾ وكلمة « عباد » رقيقة وإضافة هذهِ الكلمة إلى « ياء المتكلم » أضفت عليها جمالاً خاصاً . الله يقول : يا عبدي المذنب الذي اعتبرك جزءً مني تعالى، تعالى ،أينما كنت تعالى ﴿ لا تقنطوا منْ رحمةِ اللّهِ ﴾ لا تقنط مهما كنت ، ومهما كان ذنبك كبيراً ، وبأي مقدار كان ﴿ لا تقنطوا منْ رحمةِ اللّهِ ﴾ لا تيأس ﴿ إنَّ اللّهَ يغفرُ الذنوبَ جميعاً ﴾ كن واثقاً أن خالق الكون سيغفر جميع ذنوبك . وآية أخرى في سورة يوسف تقول : ﴿لا تيأسوا من روح الله إنهُ لا ييأسُ منْ روحِ اللّهِ إلاّ القومُ الكافرونَ ﴾[2] يا عبدي المذنب لا تيأس من رحمة الله إن اليأس من رحمة الله كالكفر . إذ قال المرء : (ولو أنه كان مذنباً طوال سبعين عاماً) .

إن الله لن يرحمني ، فإن ذنب هذا الكلام وهذهِ الفكرة في اليأس من رحمة الله أكبر من ذنوب سبعين سنة ، لأن سبعين سنة من الذنوب ليست كفراً ، إذ يقول القرآن الكريم : إذا قنطت من رحمة الله فإن ذلك يضاهي الكفر : ﴿ لا تيأسوا منْ روحِ اللّهِ إنهُ لا ييأسَ منْ روحِ اللّهِ إلا القومُ الكافرونَ ﴾ . وينقل بعض المفسرين قصة حول هذهِ الآية الكريمة .

حميد بن قحطبة ضابط في جيش هارون الرشيد . قال الراوي للإمام الصادق (ع) : ذهبت في شهر رمضان عند حميد بن محطبة وشاهدته مُفطراً : قلت له : هل أنت مريض ؟ قال : كلا ، قلت : إنك لست مسافر ، فلماذا لا تصم الشهر المبارك ؟ قال : لأني أعلم أن الله لن يغفر لي . ثم حكى لي القضية ، وقال : طلبني هارون الرشيد في إحدى الليالي وقال : إلى أي مدى أنت معي ؟ قلت : إني مستعد لأن أفديك بمالي وعرضي ونفسي ، قال : كلا ، يقول كنت في طريقي عائداً إلى المنزل فطلبني مرةً أخرى . فذهبت ، قال : إلى أي مدى أنتَ معي ؟ قلت : لأني مستعد لأن أفديك بديني ، وقال : هذا

---

(١) سورة الزمر ، الآية : ٥٣ .

(٢) سورة يوسف ، الآية : ٨٧ .

ما أريد ، ثم أعطاني سيفاً ، وقال : نفّذ كل ما يقـوله هـذا الغلام ، يقـول : أخذني الغلام إلى باب أحد البيوت ، ففتح باب إحدى الغرف ، كان في تلك الغرفة عشرون شاباً من سلالة النبي الأكرم (ص) مكبّلين بالأصفاد ، فجاء بهم إلى وسط الدار ، كان فيها بئراً ، قال الغلام : اضرب أعناقهم وارمِ بها في هذا البئر . فضربت أعناقهم ورميت بها في البئر . فتح الباب الثاني ، كان فيها عدد من السـادات من سلالـة الزهـراء (ع) محبوسين ، وكـانوا مُسنين ، فضـربت أعناقهم ورميت بها في البئر . فجاء بعشرين من السادات الطاعنين في السن والمكبلين بالأصفاد فضربت أعناقهم أيضاً ورميتها في البئر . كان آخرُهم شيخاً أبيض البشرة فالتفت إليّ وقال : إذا سألتكَ أمي الزهراء في يوم القيامة عن سبب قتلي بماذا تجيب ؟ فارتجفت أوصالي . قال الغلام : لقد أتممت مهمتـك ، انجز ما تبقىٰ . ضربت عنقه ورميتها في البئر . من الواضح أن الله لن يغفر لي بعد ذلك ، فلماذا أصوم ؟ يقول الراويِ نقلت هذهِ القصة للإمام الصادق (ع) . تألم الإمام (ع) كثيراً لدى سماعهِ تلك القصة ، ثم قال : يا فلان ، إن هذا الذي قنط من رحمة الله لأنَّ ذنبه أكبـر من قتلِ (٦٠) نفـراً من سلالـة النبي ، ومن الـطبيعي لنماذج من هـذهِ النوعيـة لا يوفقـون إلى التوبـة ، ولكن اليـأس من رحمة الله ذنب كبير ، القـرآن الكريم والآيـة التي ذكرنـاها من سـورة يوسف تقول : إن القنوط من رحمة الله كالكفر . المحصلة التي خرجنا بها من بحث التوبة هي أنه إذا حصل تفـاعل داخلي في الشخص من جـراء الذنـوب التي ارتكبها طوال سنة أو سنتين أو عشر سنوات ، ومع أن ذنبه كان كبير جداً ، ولكن بما أنه ندم على ما فعله نتيجة الاستغفار والمناجاة والبكاء ، والندم والتفاعل الـداخلي يلزمه أن يقـرر المرء أن لا يـذنب بعـد الآن . فـإن الله سيغفـر لـه لا محالة ، كأنه لم يرتكب ذنباً أبداً . وهذهِ الحالة تعوّض ما حلّ به من موبقاتٍ بالإضـافة إلى أنه يستطيع أن يقطع مسيرة المائة عام خلال لحظة واحدة ، وأن يسطع نور الحق في قلبه وستقوىٰ إرادته وروحه ، والأعظم من ذلك يستطيع أن ينتصر في تلك المعركة الداخلية . وعلى العكس يعتبر اليأس من رحمة الله من أحابيل الشيطان . القرآن الكريم يقول :

لا تيأس من رحمة الله إذ أن ذلك يساوي الكفر ، ولهذا السبب إذا أفسد

الشيطان شخصاً يصبح من خلال ذلك كحميد بن قحطبة لا يصوم ولا يصلي ويرتكب أي جريمة تسنح له الفرصة للقيام بها .

اليأس من رحمة الله يؤدي إلى أن يصبح الإنسان مجرماً ومذنباً ، ولكن الأمل برحمة الله ، واليقين من أن الله سيغفر له ، سيجعلهُ يسيطر على غرائزه ، شاء أم أبىٰ ، وبعبارة أخرى يتمكن من السيطرة على الجانب البهيمي وينتصر في معركة الداخل .

ويستشف من القرآن الكريم وروايات أهل البيت (ع) : أن أربعة أنواع من التوبة لا تُقبل .

قلنا سابقاً إنه ليست في الإسلام طريق مسدودة وأنه لا معنى أن يقول المرء إن الله لن يغفر لي ، وقد يبدو ذلك مبايناً لقولنا إنه لا تقبل التوبة من أربع مجموعات ، ولكن في الحقيقة ليس هنالك تباين بين القولين . جميع الآيات التي تتحدث عن عدم قبول التوبة موجودة في الآيتين (١٧) و (١٨) من سورة النساء حيث يقول : ﴿ إنما التوبةُ على اللّهِ للذينَ يعملونَ السوءَ بجهالةٍ ثمَّ يتوبونَ منْ قريبٍ فأولئكَ يتوبُ اللّهُ عليهمْ وكانَ اللّهُ عليماً حكيماً وليستْ التوبة للذينَ يعملونَ السيئاتِ حتى إذا حضرَ أحدهمْ الموتُ قالَ إني تبتُ الآنَ ولا الذينَ يموتونَ وهمْ كفارٌ ﴾[١] . يقول : التوبة تُقبل من الذي يعمل السوء بجهالة ، والجهالة هنا بمعنىٰ عدم الفهم ، وللجهالة عدة معاني ، منها تغلب الجانب البهيمي على الجانب المعنوي ، كأن تتغلب الغريزة الجنسية على الشخص وينظر للمرأة بنظرة شهوانية ، يقولون : إنه ارتكب ذنباً بجهالة ، إنه يعلم أن إلقاء النظرة الشهوانية حرام ، ولكنه يُغلب من قبل الشهوة ، وينظر بمعنى أنه يخالف الله ، هذا يسمونه ﴿ يعملونَ السوءَ بجهالةٍ ﴾ يقولون : إن توبة هذا الشخص لا تقبل ، ولكن إذا ارتكب المرء ذنباً بدون أن يكون هنالك غلبة للشهوة وعاند وارتكب الذنب ، هذهِ الآية الكريمة تقول : إنه لا تقبل توبة هذا الشخص .

---

(١) سورة النساء ، الآيتان : ١٧ و ١٨ .

وحول الذين تقبل توبتهم تقول الآية الكريمة : ﴿ يتوبونَ منْ قريبٍ ﴾ فيجب أن يتوبوا فوراً . وفي نفس هذا المثال عندما ينظر إلى امرأة بشهوة ، عندما تمرّ المرأة ، ويندم ، عليه أن يتوب فوراً ، وستقبل توبتهُ ، ولكن إذا سوّف وماطَل في التوبة ، تقول الآية : لن تُقبل توبتهُ ، بل التوبةُ للّذين ﴿ يتوبونَ منْ قريبٍ ﴾ .

وكما يقول القرآن الكريم في هذهِ الآية : ﴿ وليستْ التوبةُ للذينَ يعملونَ السيئاتِ حتى إذا حضرَ أحدهم الموتُ قالَ إني تبتُ الآنَ ﴾ التوبة هي للذي يتوب ، وهو في أتم الصحة ، لا أن يكون في وقت الاحتضار ، ثم يطلب التوبة حينذاك ، وهذا هو الشائع عند العوام بأن التوبة عند الاحتضار لا تقبل . وقد أخذوا هذا المعنى من الآية التي تقول : إذا تاب قبل الموت ، عندما لا يكون بين يدي عزرائيل ، تقبل توبتهُ ، ولكن التوبة عند الموت لا تقبل ، وقد يبدو ذلك مبايناً لما قلناهُ بأن التوبة في الإسلام مقبولة ، ولكن هذهِ الآية تقول : إن التوبة عند الممات لا تقبل . الحالة الأخرى التي لا تقبل فيها التوبة ، عندما يموت الكافر والمشرك ويريدون التوبة في يوم القيامة عندما يذهبون إلى القبر يريدون التوبة كما يقول في آية أخرى : ﴿ إنَّ اللّهَ لا يغفرُ أنْ يشركَ بهِ ويغفرُ ما دونَ ذلكَ لمنْ يشاءُ ﴾[1] إن الله لا يغفر للمشرك ، والمقصود هنا أن يموت الشخص مشركاً . وقد فسر البعض هذهِ الآية ، بأن الله لا يقبل توبة المشرك ، وهذا الكلام غير صحيح :

﴿ إنَّ اللّهَ لا يغفرُ أنْ يشركَ بهِ ﴾ بمعنى أن يموت مشركاً ، يذهب إلى القبر وهو مشرك ، أو يهودي ، أو كافر فلن تغفر توبته ، كما يقول في آيةٍ أخرى : بعض الناس عندما يذهبون إلى القبر ، ويرون الأوضاع سيئة يقولون : ﴿ قالَ ربِّ إرجعونِ لعلّي أعملُ صالحاً فيما تركتُ ، كلاّ إنها كلمةٌ هو قائلها ومنْ ورائهمْ برزخٌ إلى يومِ يبعثونَ ﴾[2] .

خلاصة القول : إن باقي الآيات تعود إلى نفس الآية (١٧) من سورة

---

(١) سورة النساء ، الآية : ٤٨ .

(٢) سورة المؤمنون ، الآيتان : ٩٩ و ١٠٠ .

النساء وقد جمعت هذهِ الآية كافة الآيات ، وجميع الروايات الموجودة عن النبي الأكرم (ص) والأئمة الطاهرين (ع) تعود إلى نفس الآية ، إذ لا تعتبر هذهِ الآية الكريمة توبة أربعة مجموعات مقبولة : هذهِ الآية الكريمة من ألطاف الله الكبيرة ، لأن هنالك أربعة صفارات إنذار في هذهِ الآية وصفارة الإنذار من ألطاف الله ، مثلاً عندما تحدث حادثة خطيرة تدوي صفارات الإنذار من الإذاعة والتلفزيون ، وهذهِ من مواهب الإذاعة والتلفزيون . لأنه عندما يهاجم العدو لن تصابون بمكروه ، هذهِ الآية الكريمة صفارة الإنذار تنوّه للمسلمين عن أربع نقاط رئيسية كالتالي :

١ ـ إذا استولت إحدى الصفات الدنيئة كالعناد على قلب الإنسان لن تدعهُ يقوم بعمل خير ، ولن يوفق بعد ذلك في أن يتوب ـ أحياناً يستغيب الشخص ـ وهو يعلم أن ذلك حرام ، ولا يحاول تبريره ، بل يعترف بأنه استغاب وعمل عملاً سيئاً ، هذا الشخص عندما يندم ويتألم حقاً تقبل توبته ، ولكنه أحياناً يبرر الذنب الذي يرتكبه كان يستغيب ويقال له : لا تستغيب ، يقول : هذهِ الصفة التي قلتها موجودة في ذلك الشخص ، وهو يجب أن يُستغاب ، وهذا عمل جائز . من البديهي أن توبتهُ لا تقبل ، لأنه لا يعتبر نفسه مذنباً أساساً ، كشخص مصاب بمرض السرطان ، من الواضح إذا اكتشف المرض في المرحلة الأولى يمكن معالجته وتعويضه ، ولكن عندما يستشري في الدم ويتجذر في اللحم والجلد ، حينذاك لا يمكن تعويضه .

أحياناً يشعر المرء بألم ويراجع الطبيب وقد يحدد الطبيب نوع المرض ويقوم بمعالجتهِ ، ولكنه أحياناً لا يعلم أن لديه ألم ، لذلك لا يراجع الطبيب لكي يعالج الألم . وهكذا هو الإنسان العنيد . ذلك الذي يرتكب الذنوب ويبرر ما يرتكبه ، وذلك الذي يرتكب الذنوب عناداً ، من الواضح أنه لا يعتبر نفسُه مذنباً ليتوب ، ولكن على العكس إذا ارتكب الذنب بجهاله وتغلبهُ الشهوة وأذنب ـ والعياذ بالله ـ ارتكب الزنا ، ثم ندم على فعلته . واعتبر نفسهُ مذنباً ومريضاً وراجع الطبيب ، ويقول له الطبيب : دوائك التوبة ، ولكن إذا ارتكب الذنوب عناداً ، في هذهِ الحالة لا يعتبر نفسه مذنباً لكي يتوب .

الآية الكريمة تقول : ﴿ إنّما التوبةُ على اللّهِ للذينَ يعملونَ السوءَ

بجهالةٍ ﴾ يقول : إحذر ، لا ترتكب الذنوب ، وإذا ارتكبت ذنباً بجهالة ، وإذا لم يكن بجهالة وبغلبة الشهوة ، اعلم أنك لن تنال التوبة ، إنه لا يقول : إذا وفقت في التوبة لن أقبل توبتك ، هذهِ الآية فيها صفارة إنذار ، يقول : يا من أنت في خضم الذنوب ، إحذر أن لا تكون ذنوبك عن عناد ولجاجةٍ بل بجهالة ، وإذا لم تكن عن جهالة ستصبح تعيساً .

هنالك الكثير من الأشخاص من هذا النمط ، يقفون في مواجهة الله مع أنهم يعلمون أنها معصية ـ لا سامح الله ـ أن يصبح المرء لجوجاً وتَغمرُهُ العصبيةَ الفردية أو الجماعية ، وكما يقول القرآن الكريم : ﴿ وأضلَّهُ اللّهُ على علمٍ ﴾[1] . يُضل نفسه على علم ، يُعرّض نفسه للضلالة على علم ، بالأخص الأشخاص المعقّدين يرتكبون الكثير من الذنوب عن عمد، وإحدى واجباتكم أنتم المعلمون هي أن لا تجعلوا هؤلاء الأطفال يشبّون معقدين ، بل أن تسعوا لاقتلاع العُقَدِ المُتجذرة لديهم . إذا أصبحتم ـ والعياذ بالله ـ غير مبالين أو إذا أصبح لديكم توتر في الأعصاب أو أن تذهبوا إلى الصف بدون استعداد مسبق ، بدلاً من أن تسعدوا الأطفال ، ستقدمون للمجتمع أفراداً معقّدين فإذا تعقّد الطفل وكما يقول القرآن الكريم : ﴿ أضلَّهُ اللّهُ على علمٍ ﴾ فإن ذنبهُ لن يكون بجهالة ، وسفاهة ، بل عن عُقدة وسيكون عند عناد ولجاج ، وهكذا هي سائر الصفات الرذيلة ، مثلاً عادةً تتناحر العروس وأم الزوج ، في الوقت الذي لو أعادت أم الزوج النظر في موقفها سترىٰ أن العروس لا ذنب لها ، في حين أنها تتهمها وتستغيبها وتلجأ إلى النميمة لأن الجذور النفسية لهذهِ الحالة هي الحسد ، الذي يقول عنه أحد المراجع إن حملَة نائم على عتبة بيتنا أي أن أهل العلم معرضون لهذا الخطر ، لدينا رواية أيضاً حول هذا الموضوع بأن حسد أهل العلم أكثر من الآخرين ، إن الحسد يسير بالمرء إلى جهنم ، والذنب الناجم عن الحسد ليس ناجماً عن الجهالة ، إنه يعلم أن ذلك ذنب ، ولكنه يطفىء وميض وجدانه بتبريره ويرتكب المعصية .

القرآن يقول : هذا الشخص لن ينال التوبة ، لأن الحسد يحول دون

---

(١) سورة الجاثية ، الآية : ٢٣ .

توبته . الإنسان الذي يحب الجاه يُذنب ويصل إلى مدى يكون فيه مستعداً لقتل ثلثي سكان العالم ليحكم على الثلث الباقي .

وهذهِ إحدى النظريات الصهيونية التي وردت في كتاب موجود الآن وهي تقول : إذا لزم الأمر أن تقتل ثلثي سكان العالم لتحكم على الثلث الباقي عليك أن تفعل ذلك ، وقد أوضحت الحرب العراقية ـ الإيرانية هذهِ الحقيقة . هل الجرائم التي يرتكبها صدام عن جهالة ؟ هل هي ناجمة عن تغلب الشهوة على العقل ؟ طبعاً لا ، قد تكون عن لجاج ، ولكنها قبل ذلك عن حب الحياة . إنه مستعد من أجل أن يصبح يوماً ما زعيماً على العراق أن يقصف دزفول بالصواريخ إذ حتى الطفل يعلم أن هذا العمل خطأ ، بل حتى المجنون يعلم أنه خطأ ، إذن لماذا يُقدم على هذهِ الأعمال الجنونية ، هل هو مجنون ؟ كلا ، بل إن عقله مولع بحب الجاه ـ ولا سامح الله ـ أن يصبح المرء محبّاً للجاه .

على فكرة ، إن الجميع لديهم رغبة حب الجاه واجتثاث جذوره صعبٌ للغاية ، أحياناً كان أستاذنا الجليل آية الله العظمى البروجردي ـ رحمة الله عليه ـ ينصحنا ، ويقرأ هذهِ الرواية بأن النبي الأكرم (ص) قال : « آخر ما يخرج عن قلوب الصديقين حب الجاه » (الصديق إحدى مراحل السير والسلوك العرفاني ومرتبة الصديق تالي تلو العصمة ، تقول الرواية : آخر ما يجتث من قلب الصديق حب الجاه) .

الجملة الأولى للقرآن الكريم صفارة إنذار للذين لديهم صفات رذيلة ، يقول : إحذروا ألا تكونوا حسودين ، ومحبي الجاه وبخلاء ، لا تسيئوا الظن بالناس ، لا تسودّ قلوبكم من تراكم الذنوب على الذنوب لتصبحوا قاسين بدون رأفة . لماذا ؟ لأنه إذا ترسخت إحدى الصفات الرذيلة في قلوبكم ، فسوف ترتكبون الذنوب ولا تتوبون ، لأنكم لا تشعرون بأنكم مذنبين .

كان البعض في عهد الطاغوت يأتون إلى الشارع عراة ، وكانوا يبررون عملهم هذا باسم الثقافة والتنوّر ، يعتبرون أنفسهم علماء والآخرين رجعيين ، يعتبرون أنفسهم واعين وعلماء ، لقد كانوا يرتكبون الذنوب ثم يبررون ما يقومون به ؛ فالذين يكونون على هذا النمط لن يكون لهم استغفار ، كانوا

يعتبرون السفور ليس تعرّياً بل وعياً ، كيف يمكن أن يتوبوا ؟ القرآن يقول : ﴿ إنما التوبةُ على اللّهِ للذينَ يعملونَ السوءَ بجهالةٍ ﴾ .

التوبة لأولئك الذين يرتكبون السيئات بجهالة ، وإحدى مكاسب ثورتنا الإسلامية هي أن الكثير من هؤلاء النسوة تُبنَ ، ولأن عملهن كان عن جهالة ، فإن توبتهن مقبولة لا محالة ، ليس تقبل توبتهن فحسب ، بل إن الباري عزّ وجلّ أبلغهن السلام ، ليس فقط توبتهن مقبولة ، بل إن الله يقول : يا عبدي المذنب ، أحبك ، بل أحبك كثيراً ، تعالى، تعالى، فإني أقبلك . إذن الآية لا تريد أن تقول : إذا كان الذنب عن عناد ولجاج لن تقبل التوبة ، كلا ، لا توجد في الإسلام طريق مسدودة ، بل الآية صفارة إنذار أن إحذر أن لا يكون ذنبك بلجاج ، لأنه إذا كان ذنبك عن عناد ، فنادراً ما تُوفّق إلى التوبة . وحول الجماعة الثانية يقول : ﴿ يتوبونَ منْ قريبٍ ﴾ التوبة للذي إذا ارتكب ذنباً سارع إلى التوبة ، هذه أيضاً صفارة إنذار للذي يماطل في التوبة . كان هنالك الكثير من الذين لا يصلون ، يظلمون ويأكلون الربا ، يمتصون دم الناس ، كان لديهم جرائم ومفاسد ، وكانوا عندما يسألون عن السبب يجيبون : نكبر ثم نتوب ، ثم يذهبون إلى قم أو كربلاء ويجاورون الأماكن المقدسة ، على أمل أن يغفر لهم الإمام الحسين (ع) التسويف والإهمال في التوبة فطرٌ قائم ، الإنسان أحياناً بعد أن يرتكب ذنباً يندم مباشرةً ويتوب فوراً ، ولكن بالإهمال يتناسىٰ التوبة وبالتالي عندما ينسىٰ ، والذنب يدرج في قائمة أعماله ، ولكنه لا يعلم أنه مذنب لكي يتوب ، الذي يفوته وقت الصلاة يقيم صلاته قضىً بدون تأخير ، ولكنه إذا تأخر في قضاء الصلاة ، لن يتذكر بعد ذلك أنَّ صلاته أصبحت قضىً ليقيمها . الآية الثانية تقول : أيها المذنب ، إذا ارتكبت ذنباً تُب فوراً ، عوّض فوراً ، إذا لم تصلّي تأهب فوراً للصلاة ، لا تؤخر ذلك ، لأن للتأخير ضررين كبيرين هما :

١ ــ تنسىٰ الذنب ، وعندما تنسىٰ ، لن توفّق بعد ذلك في أن تتوب .

٢ ــ شيئاً فشيئاً يثقل العبء الملقى على عاتقك وعندما تنكر كل شيء من خلال تبرير واحد ، مثلاً الذي يملك عشرة آلاف تومان إذا لم تكن رأسماله ، يجب أن يدفع خمسها تأدية لفريضة الخمس ، ولكن إذا لم يدفع

وبعد مُضي عشر أو عشرين سنة يحسب ماله فيجد أن عليه أن يدفع عدة ملايين كخمس ، يشعر أنه لا يستطيع ذلك ، ويريد أن يطفيء وميض وجدانه ، فبماذا يطفئه ؟ يقول : لقد كدحت وعملت ، وجمعت مالاً ، ليذهب الفقير ويعمل ، لماذا أعطي مالي ، وبدل أن يتوب يسير باتجاه وادي الكفر .

القرآن الكريم يطلق صفارة الإنذار هذه . القرآن الكريم يقول : ﴿ ثمَّ كانَ عاقبةَ الذينَ أساؤا السوأى أنْ كذبوا بآياتِ اللّهِ ﴾[1] ، الذين يرتكبون الذنوب ويؤخرون التوبة سيصلون إلى مرحلة ينكرون فيها الإسلام ﴿ أنْ كذّبوا بآياتِ اللّهِ ﴾ يقول : ما هو القرآن ؟ وما هو الإسلام ؟ هنالك نماذج متعددة في التاريخ من هذا النوع . ولكن الذي يؤخر التوبة متماهلاً إذا وفق إلى التوبة ، هذهِ الآية لا تقول توبته غير مقبولة ، إن الآية لا تدل على ذلك ، القرآن الكريم يقول : ﴿ قلْ يا عبادِيَ الذينَ أسرفوا على أنفسهمْ لا تقنطوا منْ رحمةِ اللّهِ إنَّ اللّهَ يغفرُ الذنوبَ جميعاً ﴾[2] .

أينما تكون تعالى، وكيفما تكون ، حتى إذا كُنْتَ كبشر الحافي .

من هو بشر الحافي ؟ كان رجلاً مستهتراً وبيته كان خمارة طوال خمسين سنة ، وكان مجلاً للفواحش ، كان بيته مكاناً للرجال المستهترين الماجنين . وفي أحد الأيام مَرَّ الإمام موسى بن جعفر (ع) من أمام بيته فسمع صوت الموسيقى والغناء يخرج من بيته فسأل خادمته : صاحب هذه الدار حرٌ أم عبد ؟ قالت : كلا يا سيد إنه حر ، قال : نعم إنه حر ، ولأنه حر يفعل هكذا . جاءت الخادمة عند بشر الحافي فسألها من الذي كلّمك ؟ قالت : كان سيداً سألني هكذا وأجبتهُ هكذا ، كان كالشرارة التي تقع على البنزين إذ حدث تفاعل في ذاته . قال : إني أعلم من هو . ذهب إلى الإمام موسى بن جعفر (ع) حافي القدمين فأصبح اسمهُ بشر الحافي ، قال : لقد أخطأت ، لقد أخطأت ، لقد ارتكبت الذنوب خمسين عاماً ، ولكني أسأت فعلاً . فقبله الإمام موسى بن جعفر (ع) ، لم تقبل توبته فحسب ، بل ذاع صيته بالإيمان . العارفون يقولون

---

(1) سورة الروم ، الآية : ١٠ .

(2) سورة الزمر ، الآية : ٥٣ .

عنه (لا علم ما مدى صحة هذا الخبر) : إنه لم ينتعل حذاء بعد ذلك ، وكان دائماً يمشي حافياً . قالوا له : لماذا تمشي حافياً ؟ قال : عندما تبت كنت حافي القدمين ، أود أن أبقى حافي القدمين إلى أن أموت ، تدريجياً ، وَصَلَ إلى مرحلة كانت الحيوانات لا تلقي فضولاتها في أماكن تردده ، هذا ليس مستبعداً . مرحىٰ لمن تكون يد العناية الإلّهية فوق رأسه ، مرحىٰ لمن ينهض في غياهب الليل ، ويناجي ربه نادماً على ذنوبه ، لا تعلمون إلى أين يصل ؟ يصبح فضيل بن أياز ، يصبح بشر الحافي .

تذكروا حر بن يزيد الرياحي ، وكونوا على ثقة مهما كان الذنب كبيراً يغفر له .

نفس حر بن يزيد الرياحي يقول : يا حسين ، أنا أول من روّع زينب (ع) هو الذي منع الإمام الحسين (ع) من الذهاب إلى المدينة ومنعه من الذهاب إلى الكوفة ، حاصر الإمام الحسين (ع) ليجتمع الجيش ويقتلوا الإمام . هذا الذنب كبير جداً ، ولكن توبتهُ أكبر ، رأفة الله أكبر ، رأفة الإمام الحسين (ع) أكبر . يقول : شاهدت الحر في يوم عاشوراء هذهِ يسمونها التوبة ـ لا تحتاج إلى استغفار الله ـ شاهدتهُ يرتجف ، قلت : لماذا ترتجف ؟ لم تقع الحرب بعد ، ماذا دهاك ؟ قال : كلا ، ولكني أخيّر نفسي بين الجنة والنار ، يا لسوء فعلتي ، ماذا أصنع الآن ؟ جاء عند الإمام الحسين (ع) ، الإمام الحسين (ع) عنوان الرحمة الإلّهية . قلنا سابقاً : إن الله يخاطب عبده قائلاً : يا عبدي المذنب ، تعال ، سلامٌ عليكم ، الإمام الحسين (ع) أيضاً قال : يا أبو الفضل ! اذهب وقل له سلامٌ عليكم ، جاء أبو الفضل لاستقبال الحر ، وأخذه عند الإمام الحسين (ع) ، طأطأ الحر رأسه ـ هذهِ هي التوبة ـ الإنسان في ظلمة الليل الدامس يشعر بالخجل لوقوفه بين يدي الخالق مذنباً .

هذهِ نفس تلك الجملة التي كان قائد الثورة العظيم يُعيدها على مسامعنا وقد ثبت مراراً من وسائل الإعلام : عليكم أن تروا أنفسكم في محضر الله ، عليكم أن تعلموا أن الله حاضر ويراقبكم عن كثب ، إذ وجدت نفسك بين يدي الله ستشعر بالخجل دائماً من ذنوبك ، إذا وجدت نفسك بين يدي الله ،

ورأيت الله حاضر ويراقب أعمالك عن كثب ، قلّما تصدر عنك أعمال شيطانية بل تصبح أعمالُك رحمانيةً .

الحر نفسه بين يدي الإمام الحسين (ع) مطأطأ الرأس، حاولوا أن تكونوا كالحر بين يدي الإمام الحسين (ع) ، هكذا كونوا في محضر الباري عزّ وجلّ ، إن الله موجود في كل مكان ﴿ يعلمُ خائنةَ الأعينِ وما تُخفي الصدور ﴾[1] موجود في كل مكان ويعلم بما يجري في الخلوة والزحام ، التوبة تجعل الإنسان خجلاً في محضر الله . قال الإمام الحسين (ع) : إرفع رأسك يا حر ، لقد غفر لك ، ولكن الحر لا يرفع رأسه ، إنه يشعر بالخجل ـ هنا توجد نقطة ـ صحيح أن الله يغفر ، ولكن خجل العبد يبقى . الحر خجل لا يستطيع أن يرفع رأسه ، وأخيراً لم يرفع رأسه ، ولم يقع نظره على الإمام الحسين (ع) .
يقول الراوي : عندما كان سلمان الفارسي يحتضر ، وكان والياً على المدائن ، كنت عنده فوجدته يبكي . قلت : يا سلمان لماذا تبكي ؟ إنك رجل ذو مكانة مرموقة ، ووصلت إلى مقام رفيع حتى قال فيك النبي (ص) : « سلمان منّا أهل البيت » ونقرأ في الروايات بأن سلمان أحرز تسع درجات من الإيمان . قال سلمان : تذكرت رواية عن النبي الأكرم (ص) هنالك منعطفات في يوم القيامة ، هنالك يوجد مأمورون يسألون سبعة مأمورين يسألون ، والنبي (ص) يقول : « نجىٰ المخفون وهلك المثقلون » . يعني نجى من كان حِمْله خفيفاً ، ولكن حملي ثقيل . سلمان الفارسي يحتضر ويقول : حملي ثقيل ، نفس الراوي يقول : تمعنت في النظر ، لكي أرىٰ لماذا ثقل حمل سلمان وشاهدت جلداً للخروف كان فراشاً للنوم والجلوس ، مع أنه كان والي المدائن ، أعد إناء من الطين للأكل وإبريقاً للطهارة ، وقلم ودواة للكتابة ، لم يكن شيء آخر في غرفته وكانت غرفته مستأجرة ، ومع ذلك يقول : حملي ثقيل ، وعبئي أثقل « نجىٰ المخفون وهلك المثقلون » يقول بابا طاهر : أنا الذي كالجمل .
ومع هذهِ العدّة القليلة والعبء الثقيل لا أزال خجلاً أمام صاحبي

إن الله يغفر توبة المذنب ، مهما كانت ، ومهما كان ، ولكن علينا أن

---

(١) سورة غافر ، الآية : ١٩ .

نخجل ونصلح أنفسنا ، ونعوّض ما فات لأن الله إذا غفر ، علينا أن نتعرف على واجبنا تجاه ذلك ، كالحر بن يزيد الرياحي الذي لم يستطع أخيراً أن يلقي بنظراته على الإمام الحسين (ع) وعندما استشهد جاء الإمام الحسين (ع) واحتضن رأسه ، ولكن الحر لم يبرح يرفع رأسه ويضعه على الأرض ، لم يفتح عينيه ، كان خجلاً وبعينين مغمضتين ، قال للإمام (ع) : هل رضيت عني يا إمام ؟ قال : أجل يا حر ، رضي الله عنك ، وكما سمتك أمك حراً أرجو أن تكون حرّاً في الدنيا والآخرة . لقد عفىٰ الحسين (ع) معلم الرحمة الإلٓهية عن الحر ، ولكن خجل الحر لا يزال باقياً .

إلٓهي ، بعزتك وجلالك نقسم عليك أن تمن علينا جميعاً بالصفات الإنسانية والتوبة الإنابة وتوفيق طاعتك وعبوديتك وترك معصيتك .

البحث الحادي عشر

« التوبة (٣) »

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ربِّ اشرح لي صدري ويسِّر لي أمري واحلل عقدة من لساني ، يفقهوا قولي ﴾ .

كان بحثنا حول التوبة والإنابة ، وقلنا : إن الذنب مهما كان كبيراً أو كثيراً يمكن تعويضه حسب الرؤية القرآنية . لأن الإسلام ليس فيه طريق مسدودة . فالآية القرآنية تُصَرِّحُ : ﴿ إنما التوبةُ على اللّهِ للذينَ يعملونَ السوءَ بجهالةٍ ثمَّ يتوبونَ منْ قريبٍ ﴾ . . ﴿ وليستْ التوبةُ للذينَ يعملونَ السيئاتِ حتى إذا حضرَ أحدهم الموتُ قالَ إني تبتُ الآنَ ولا الذينَ يموتونَ وهمْ كفارٌ ﴾[١] .

يقول القرآن في هذهِ الآية : هنالك أربعة مجموعات ، لا تقبل توبتهم ، ليس لهم توبة ، وهذا لا يخالف ما قلته ، بل إن هاتين الآيتين لطف وصفارة إنذار من جانب الله للمذنب ، لا يقول : لا أقبل التوبة ، بل إذا كان الذنب بلجاجة ، في هذهِ الحالة لن تنال التوبة ، رواية مشهورة ، مع أننا لا نعلم مدى صحتها ولكنها شاهد لما أريد أن أقول . كان يزيد يقول للإمام السجاد (ع) : ماذا أصنع لكي أعوّض هذا الذنب ، قال : صلي صلاة الغفيلة ؟ من الذي يتوب ؟ قال الإمام (ع) : إنه لن يوفق للتوبة ؟ شاهد ما أريد أن أقول ، هو أن الذنب إذا كان عن لجاج ولم يكن بجهالة أو سفاهة فلن يوفق الإنسان في

(١) سورة النساء ، الآيتان : ١٧ و ١٨ .

التوبة ، بمعنى أنه لا يعتبر نفسه مريضاً ليستعمل الدواء ويراجع الطبيب . والآية الكريمة تطلق صفارة إنذار بأن لا يصبح الذنب أمراً عادياً أو لا يكون عن لجاج وعناد ، فإذا زالت مهابة الذنب من القلب لن يوفق للتوبة . ﴿ إنما التوبةُ على اللّهِ للذينَ يعملونَ السوءَ بجهالةٍ ﴾[1] .

التوبة لمن إذا ارتكب ذنباً ، تاب فوراً . ليس معنى ذلك إذا ارتكب الشخص ذنوباً أيام شبابه ، وحصل لديه الآن تفاعل ذاتي وتوفرت له ظروف التوبة ، لن تقبل توبته ، لا شك أن توبته مقبولة من الرؤية الإسلامية . إذن الآية الكريمة تطلق صفارة إنذار أخرى وتقول : إحذر ، إذا ارتكبت ذنباً عوّض عنه فوراً ، لأنك قد تنساه ، ناهيك عن أن تراكم الذنوب يسوّد القلب ويزيل مهابة الذنب ، ولن توفق بعدها للتوبة رواية عن الإمام الصادق (ع) شبه فيها الذنب ، كخالٍ أسود في القلب إذا تلافيته سيزول الخال الأسود ، ولكن إذا حدث ذنباً ثانياً يكبر الخال ويتراكم الذنب فوق الذنب ويسودّ القلب تماماً .

نقل عن الإمام الصادق (ع) أنه قال : ﴿ ولنْ تفلحوا إذاً أبداً ﴾ [2] بمعنى إذا غمرت المعصية القلب لن يفلح في التوبة . المعنى الآخر هو أن إحذر ، إذا ارتكبت ذنباً تلافاه ، وكما يقول الإمام الصادق (ع) : إمحي ذلك الخال الأسود لأن الذنب يغمر العقل والوجدان تدريجياً وآنذاك لن تفلح في التوبة . القرآن الكريم يقول :

﴿ وليست التوبةُ للذينَ يعملونَ السيئاتِ حتى إذا حضَر أحدهمْ الموتُ ﴾ أي لا جدوى من التوبة عند الممات ، هذه أيضاً صفارة إنذار أخرى . كونوا على يقين بأنه من الناحية الفلسفية والعرفانية والأخلاقية وأيضاً من حيث منطق القرآن والروايات والمسائل الفقهية إذا تاب الشخص عند الممات تقبل توبتهُ أيضاً ، لا توجد طريق مسدودة في الإسلام ، إن يحدث تفاعل ذاتي ، ويخجل المرء من ذنبه والله يقول لا ، إن ذلك لا يتفق مع كون الله ﴿ أرحم الراحمين ﴾ . ينقلون إن شاباً ارتكب الكثير من الذنوب في زمن موسى (ع) وقد تدنّس بالقذر

---

(١) سورة النساء ، الآية : ١٧ .

(٢) سورة الكهف ، الآية : ٢٠ .

الذي طلب موسى (ع) من قومه إبعاد ذلك الشاب إلى خارج المدينة . ذهب هذا الشاب إلى الصحراء وعند المبات. بات وحيداً هناك ، ولم يكن لديه أحد سوى الله ، وحين تذكر ذنوبه خجل وقال : ﴿ يا مَنْ لهُ الدنيا والآخرةُ إرحمْ منْ ليسَ لهُ الدنيا والآخرة ﴾ . الرواية تقول : إن خالق الكون قَبِلَه حتى أنه أرسل إليه أمه وأباه وأقرباءه على هيئةِ الملائكة ، عندما توفي ، قيل لموسى (ع) : مات أحد عبادنا الصالحين إذهب وادفنه . جاء موسى (ع) وشاهد نفس ذلك الشاب المذنب الذي أبعد بسبب ذنوبه .

قال : يا إلٓهي ، إنه نفس الشاب اللاأبالي ، كيف أصبح عَبداً صالحاً ؟ جاء الرد : يا موسىٰ هذهِ عتبتنا ليست عتبة اليأس ، عندما كـان مذنبـاً ، كان سيئاً ، ولكن ماء التوبة غسل ذنوبه ، لذلك غفرت له ، وأصبح من أهل الجنة . ولنفترض أنه لم تكن لدينا هذه القضية التأريخية ، لا شك من الناحية الفلسفية والعرفانية والأخلاقية يجب القول : لا توجد طريق مسدودة في الإسلام إذن الآية الكريمة ، صفـارة إنذار ، بمعنىٰ عـادة ما يـرىٰ الإنسان عنـد الموت مشـاهد عديدة . لدينا رواية تقول : إن أمير المؤمنين (ع) يجب أن يأذن لتؤخـذ روح المؤمن أو الكافر ، ويرىٰ الجنة أو جهنم أمامه ، الإنسان السيء يرىٰ جهنم وهو نادم . ولكن ليس من الذنب ، أو قد يتوب ، ولكن ليس التوبة من الذنب ، إنه نـادم بسبب تصرفـهِ بهذهِ الـطريقة التي أدّت إلى معـاقبته على هـذا النحو ، كالمحكوم بالإعدام ، عندما يأتون به إلى المشنقة يندم ، إلا أنه عادة يكون نادماً ليس على أنه لماذا قتل فلاناً ، بل من خوفهِ على نفسهِ من حبل المشنقة ، هذا العارف والفقيه والفيلسوف نصير الدين الطوسي يقول في شرح الإشارات : إذا كانت التوبة من أجل الذهاب إلى الجنة أو عدم الذهاب إلى النـار ، فليست مقبولة ، التوبة تعني الخجل من الذنب ومن الله .

لقد قلت في وقتٍ سابقٍ : إن توبة الحر بن يزيد الريـاحي أمام الإمـام الحسين (ع) كانت ندماً على ما فعله ، لم يكن أحد يريد قتلهِ ، لم يكن هناك عذاب أو دنيا ، عندما جاء باتجاه الإمام الحسين (ع) لماذا لم يستطـع أن يرفع رأسه ويواجه الإمام الحسـين (ع) بنظراته ؟ لأنه كان خجـلاً من ذنوبـه ، هذهِ يسمونها التوبة الحقيقية .

نصير الدين الطوسي ـ رحمة الله عليه ـ يقول : إذا أراد المرء أن تقبل توبتهُ عليه أن يكون هكذا ، أن يقول : لقد أفطرت في شهر الصيام ، كنت في ملكه وأمام الله وارتكبت الذنوب في محضر الله ، عجباً يا لي من عديم الوفاء . لذلك يطلق القرآن الكريم صفارة إنذار ، ويقول : إصلح نفسك قبل الممات فلن تدعك التصورات والفزع والهلع أن تتوب ، من الممكن أن تندم ، ولكن الندم ليس التوبة . إذن إعلم ، إذا لم تتأهب ، فلن تقدر أن تتوب عند الممات .

القرآن يقول : ﴿ وليست التوبة . . ﴾ بمعنى لا يمكنك أن تتوب ، أجل ، إذا استطعت أن تتوب عند الممات فستقبل منك لا محالة .

خلاصة القول : أن لا توجد طريق مسدودة في الإسلام مهما كان الذنب كبيراً وكثيراً ، إذا جاءت التوبة ، بمعنى عندما يكون الخجل من الذنب في محضر الله كالخجل الذي انتاب الحر بن يزيد الرياحي أمام الحسين (ع) أن يكون عند الممات أيضاً فالتوبة مقبولة ، في الشباب أو الشيخوخة ، عن عناد أو من دون ذلك . القرآن يقول : إذا كانت عن عناد ، فهي صفارة إنذار ، بمعنى إعلم أنك في هذهِ الحالة لن تفلح في التوبة ، وعندما يقول : إن التوبة عند الممات لا تقبل بمعنى لا يمكنك التوبة حينذاك .

أما الجملة الرابعة : ﴿ ولا الذينَ يموتونَ وهمْ كفارٌ ﴾ بمعنى ما هو الموقف عندما يموت المشرك ؟ وأين يتوب ؟ .

الذي يُدان ويريد حاكم الشرع أن يقبل توبته ، لا يحق لهُ ذلك . إنه أُدينَ ، وحكم عليه بالسجن ، وليس لديه كفاءة أن يتوب ، لذلك تكررت الجملة الرابعة في القرآن .

﴿ إنَّ اللّهَ لا يغفرُ أنْ يشركَ بهِ ، ويغفرُ ما دونَ ذلكَ لمنْ يشاءُ ﴾[1] .

إذا مات الشخص ، وهو كافر ، فإن مكانه في جهنم ، وهذا لطف آخر يستشف من هذهِ الآية .

إذا مات المسلم مذنباً ، سيطهر في القبر ويَزول ضغطهُ عن صدره إذا

---

(١) سورة النساء ، الآية : ٤٨ .

كانت ذنوبه كثيرة فهو يعذب في عالم البرزخ ، هناك يتعامل مع أعماله وتستحيل أعماله السيئة بشكل حيوانات فتّاكة ويعذب . لديه عذاب القبر ، وعذاب البرزخ وإذا كانت ذنوبه كثيرة جداً . فإن فضيحة يوم القيامة تخفف من عذابه ، وإذا لم يتطهر يجب أن يذهب إلى جهنم ، جهنم من ألطاف الله الخفيّة ، جهنم إحدى نعم الله الكبيرة يجب أن يذهب المذنب إلى جهنم ليتطهر هناك ، بمعنى تزول عنه الشوائب ويصبح من أهل الجنة تدريجياً ، لذلك ، فإن المسلم ، المسلم الشيعي لن يبقىٰ في جهنم خالداً . نعم ، أحياناً قد يحتاج إلى البقاء ألف سنة في جهنم لكي يتطهر ، وهذا الأمر مرتبط بالمقدار الذي أتى به من شوائب الدنيا ، أحياناً قد يكون الذنب مترسخاً في قلبه ، مترسخاً في جلده ولحمه وعظمه ، ويجب أن ينقىٰ ليصبح من أهل الجنة كالصخر الذي يحتوي على الذهب ، إذا أراد أن تكون له مكانة وقرب ، يجب أن يصهر في بوتقة (١٨٠) درجة لتزول عنه الشوائب . الذي يريد أن يذهب إلى قلب الحور العين ، لا يمكن أن ينال ما يُريد إذا كان مذنباً . القرآن الكريم يقول : بقاء الشيعي في جهنم يستغرق سنة واحدة أحياناً وقد يستغرق سبعمائة عام أحياناً أخرى ، لذلك ، فإن مدة بقاء الشيعي في جهنم مختلفة وبما أن الجنة مقام القرب الإلّهي لا يجب أن يدخل بذنوبه ، يجب أن يتطهر من الذنوب إما يتطهر بواسطة التوبة والإنابة والعبادة في الدنيا أو في القبر والبرزخ والقيامة ، وإذا يطهر بواسطة الشفاعة والعفو الإلّهي ، يجب أن يبقى في جهنم إلى أن يطهر .

إذا شعر بالخجل من جراء ما ارتكبه من ذنوب ، سيغفر له لا محالة ، كأنه لم يذنب أبداً .

القسم الثاني من التوبة ، هو حق الله ، إن خالق الكون وضع شروطاً للتوبة كالصلاة والصيام ، وهي حق الله ، ولا علاقة للناس بها . إذا لم يُصل أو أقام الصلاة بصورة رديئة ، فإن ذنبه كبير جداً ، بالقدر الذي يقول القرآن الكريم حول الساهين عن الصلاة إنهم كفرة وويل للكفرة : ﴿ **فويلٌ للمصلّينَ الذينَ همْ عنْ صلاتهم ساهونَ** ﴾[1] ويلٌ للذي يستخفّ بالصلاة إنه غير مسلم وذنبه كبير

---

(١) سورة الماعون ، الآيتان : ٤ و ٥ .

جداً ، توبته أن يخجل لارتكابه الذنوب وعليه أن يقضي الصلاة التي لم يقمها من قبل . وهذا الأمر يختلف عن الكذب وشرب الخمر ، حيث لا يمكن تلافيهما ، ولكن الصلاة يمكن تلافيها يمكننا أن نقيم الصلاة ، وأن نصوم الأيام والشهور التي لم نصمها .

أنا لا أقول : إن الذي لم يصلِّ أو لم يصم طوال عشر سنين عليه أن يصوم كل يوم ، وأن يصلي بلا انقطاع ، كلا ، عليك أن تتلافىٰ ذلك بحيث لا تضر ببقية أعمالك ، بمعنى الذي لم يصلِّ فترةً من الزمن يمكنه أن يصلي صباحاً بدل الركعتين أربع ركع ، وهكذا الظهر والعصر ، والمغرب والعشاء ، أو في يومٍ من أيامِ العُطَلِ ، يقضي صلاة أربع أو خمسةِ أيام ويصوم أيضاً على هذا النحو .

الإمام الخميني (رض) ومن أجل السير والسلوك العرفاني يصرّ كثيراً علىٰ صيام يومي الاثنين والخميس ، وهذا مفيد جداً ، إذن بصيام يومين أو ثلاثة أيام في الأسبوع يمكن أن نقضي الصيام . والآن إذا ندم المرء وقال : لماذا لم أصلِّ الصلاة التي يجب أن تكون أكبر متعة للعبد ، الصلاة التي نصفها حديث الله مع العبد (الحمد والسورة) والباقي حديث العبد مع الله ، إن هذهِ أكبر مُتعةٍ للإنسان . أكبر متعة هي الانفراد مع الله ، وأكبر من هذهِ المتعة حديث العاشق مع المعشوق ، وأكبر من ذلك حديث المعشوق مع العاشق ، والمولىٰ مع العبد عشر سنين لم يصل فيها ، فجأة يعي ذلك ، إنه يرىٰ أية خسارة لحقت به ، ولكن يمكن تعويضها .

« التائب من الذنب كمن لا ذنب له » .

انظروا إلى حياء الحر بن يزيد الرياحي أمام الإمام الحسين (ع) ، ذنوبه ستغفر ، ولكن عليه أن يتأهب لتعويضها .

الوجه الثالث : حق الناس :

حق الناس بمعنى الحق الذي له علاقة بالناس ، وهذا مهم جداً ، نقرأ في القرآن الكريم : ﴿ إنَّ ربكَ لبالمرصادِ ﴾[1] وحول هذه الآية الكريمة توجَدُ

---

(١) سورة الفجر ، الآية : ١٤ .

شرطةُ مرور في يوم القيامة ، وكما يقول سلمان الفارسي عقبات تسأل ، أولاً عن الصلاة إذا تمكن من الإجابة يقول : إذهب إلى الأمام ، ولكنه لـو أخفق من هناك يعودون به إلى جهنم . يسألون عن الصلاة والخمس وصلة الرحم ـ شرطة الله أي الملائكة ـ ولكن هنالك مرحلة يسأل الله بنفسهِ ، وليس الملَكَ ، لذلك يقول القرآن : ﴿ إنَّ ربكَ لبالمرصاد ﴾ .

وقد أقسم الله أرحم الراحمين قسماً حين قال : بعزتي وجلالي ، قد أعفو عن أي شيء ، ولكن لن أعفو عن حق الناس ، لذلك فإن حق الناس صعب للغاية .

كان النبي الأكرم (ص) يقول لأصحابه والمسلمين من على المنبر : « أيها المسلمون ، واظبوا على حق الناس ، واعلموا إذا غصبتم خيطاً وخطتم به لباساً فإن الصلاة بذلك اللباس باطلة وعلاوة على ذلك يجب أن تذهبوا إلى جهنم ، أو حـول الأرض المغتصبة التي يـطوقون بهـا عنقه بـطوق حديـدي أو المـال المغتصب والخ . . ﴿هـذا مـا كنـزتم لأنفسـكم﴾[1] هـذهِ السـرقـات وأمـوال النـاس التي أكلتها بالحرام ستسبب لك صعوبات جمّة ، الآن هل يستطيع الذي أكل مال الناس بالحرام أن يتوب ؟ نعم يمكنه أن يتوب « التائب من الـذنب كمن لا ذنب لـه » إذا تاب واستحىٰ ونـدم ، أن يقول : أنـا الـذي يجب أن أفكـر بـالآخرين دائمـاً ، يجب أن أعطي غـذائي للآخـرين ، كيف اغتصبت أموال الناس ؟ هل تكفي هذهِ التوبة ؟ كلا ، علاوة على ذلك عليه أن يرد ما اغتصبهُ من أمـوال إلى أصحابهـا . التوبـة من الذنب هي تـأديـة حق النـاس للنـاس وترضيتهم ، والآن إذا لم يكن لديه مال ، هذا كلام آخر « المفلس في أمان الله » وهنالك رواية : أن الله يرضيه يوم القيامة ويصبح الإثنان من أهل الجنة .

القسم الرابع : حق الناس ، ولكن ليست له علاقة بنا ، كالغيبة مثلاً ، تلك التي نمارسها جميعاً ، وعندما يجتمع البعض ، يريقون ماء وجه الشخص غير الموجود بينهم . أنا لا أعلم هل هذا صحيح أم لا ؟ يقولون هنالك ذئاب تفتك ببعضها البعض ، ولكنها تعيش بصورة جمـاعية ، سبـع أو ثمان ذئـاب

---

(١) سورة التوبة ، الآية : ٣٥ .

تجلس مع بعضها ويراقب كل منها الآخر ، طالما أنها تراقب بعضها لا يحدث أي شيء ، ولكن إذا سَرَّحَ أحدها تشن بقية الذئاب هجوماً ، وتمزقه إرباً إرباً ، هنا نجد مصداق هذا الأمر فيما بيننا ، مثلاً أنتم المعلمون صفوة المجتمع إذا اجتمعتم في غرفة المعلمين ـ ولا سامح الله ـ بدأتم تتحدثون عن أحد الأصدقاء ولم يكن موجوداً بينكم بحيث ، إذا كان لأحد منكم عملاً يخشى أن يخرج من الغرفة ، هذهِ نفس صفة الذئاب ، وفي يوم القيامة نفس هؤلاء الأشخاص يقفون في طابور المحشر . حول هذا الموضوع توجد أكثر من خمسين آية في القرآن ، وقد تناولت روايات أهل البيت وعلماء علم الأخلاق والعارفون الموضوع بالبحث . تقول الرواية : « **الغيبة إدام كلاب أهل النار** » أي أنّ الذي يمارس الغيبة يتحول إلى كلب يريد غذاءاً في داخل جهنم . نفس الغيبة التي مارسها في الدنيا تصبح غذاءاً له ، نفس الأوساخ والدماء تصبح غذاءه .

نحن نصنع جهنم بأيدينا ، لذلك فإن قسماً من ذنوب القسم الرابع هي كالتالي : الغيبة ، القذف ، زنا المحصنة (بمعنى المرأة المتزوجة مع الرجل المتزوج ـ العياذ بالله ـ يرتكبان ذلك) .

هل يمكن التوبة ؟ بدون شك يجب أن يتوب وأن يخجل من ذنبه ، بمعنىً أن يقول : ويل لي ، أنا الذي يجب أن أكون مرآة تعكس الإيمان الكامل ، أنا الذي يجب أن تكون سيئات المؤمن سيئاتي وبر المؤمن برّي ، لماذا استغبت الناس ؟ الغيبة تغفر ، الزنا والقذف والنميمة تزول ، هل يمكن تعويضها ؟ كلا ، تعويضها أن تدعو لمن اغتبته ، لذلك هناك رواية بأن عليك أن تقول : « **اللهم اغفر لمن اغتبته وسمعت غيبته** » إلّهي اغفر لكلانا ، إلّهي ، إنه إنسانٌ شريف وأنا اغتبته ، إلّهي اغفر لنا ، تصلي نافلة الليل وتدعو له . إخدمه ، احترمه في المجتمع وامنحه شخصية .

والشائع بين الناس أن تطلب منه براءة ذمتك ، ولكن هذا لا يجدي لأن هذا العمل يؤدي إلى بروز الخلافات .

إذن هذا القسم من حق الناس « الغيبة ، القذف ، النميمة ، وزنا المحصنة » وأمثال ذلك ، « التوبة » منه أن تخجل ، وتعويض ذلك بالدعاء

والخدمة ، أي ذنب يمكن أن يعوّض ، ويجب أن نعوّض ذنوبنا ، يجب أن نعلم أن الذنب الصغير يصبح أحياناً ذنباً كبيراً ، اللامبالاة إزاء الذنب أحياناً تجعل الإنسان فتاكاً ويحشر مع الحيوانات .

آمل أن أعودَ بالحديث عن تجسم الأعمال ، وأن يكون ذلك مجدياً لي ولكم . إلّهي بعزتك وجلالك نقسم عليك ، أن تمنّ علينا جميعاً بالصفات الإنسانية والوعي والتوبة والإنابة وأن توفقنا لما فيه طاعتك وترك معصيتك .

البحث الثاني عشر

« رَحابة الصدر (١) »

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ربِّ اشرح لي صدري ويسّر لي أمري واحلل عقدة من لساني ، يفقهوا قولي ﴾ .

إحدى القوى التي تمكن الإنسان من النصر في حرب الداخل هي « رحابة الصدر » كان بحثنا السابق يتمحور في أن الإنسان لديه بعدان ماديٌّ ومعنوي ، البعد المادي يسمىٰ الجسم ، والبعد المعنوي يُسمىٰ الروح ، وهذان البعدان في حرب مستمرة . هذهِ الحرب الداخلية سمّاها الإسلام « الجهاد الأكبر » ونحن إذا تمكنا من أن ننتصر في هذهِ الحرب وأن يتغلب بعدنا المعنوي على جانبنا المادي سنكون مرفوعي الرأس ونستطيع الوصول إلى الهدف وسنكون بلا شك سعداء في الدنيا والآخرة .

وصلنا في بحثنا إلى ماذا يجب أن نفعل لكي ننتصر في هذهِ المعركة الذاتية وهذا الجهاد الأكبر . قلنا : يجب أن نستعين بقوىً من الخارج وإلا لن نستطيع أن نفعل شيئاً لوحدنا . واتضح لنا لماذا تتغلب نفس الإنسان على روحه وقلنا : إن القرآن الكريم قد عيّن قُوىً لنجدة الإنسان .

أحد هذهِ القوىٰ الصلاة . الآية تقول :

﴿ واستعينوا بالصبرِ والصلاةِ وإنها لكبيرةٌ إلاّ على الخاشعين ﴾[١] .

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ٤٥ .

ولقد تحدثنا بصورة مجملة عن الصلاة والاهتمام بتأدية الواجبات . القوة الثانية التي تنجد الإنسان في هذهِ المعركة الداخلية هي قوة الصبر . الصبر في العبادة والصبر في المعصية ، والصبر في مواجهة المشاكل وقد تحدثنا إجمالاً حول الصبر أيضاً . كما تعرفنا على التوبة من الذنب كأحد القوى وتحدثنا حول ذلك باختصار ومن سورة ﴿ ألم نشرح لك صدرك ﴾ نتعرف على ثلاث قوى أخرى إذا لم تكن أقوى من القوى الثلاث المذكورة فهي في نفس مستواها من القوة .

يقال عن المسلمين في صدر الإسلام إنهم عندما كانوا يلتقون مع بعضهم البعض ، وبعد السلام وبدل أن يجاملوا بعضهم كانوا يقرأون سورة : ﴿ والعصر ﴾ مثلاً وأحد منهم كان يقول :

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ، والعصرِ إنَّ الإنسانَ لفي خسرٍ ﴾[1] ، والآخر يقول : ﴿ إلا الذينَ آمنوا وعملُوا الصالحاتِ وتواصوا بالحقِ وتواصوا بالصبرِ ﴾[2] .

هكذا كان سلوكهم الذي هذبهم ، وهكذا عاشوا في فترة خمسين عاماً تمكنوا خلالها من السيطرة على نصف العالم ، وأحدثوا تغييراً جذرياً في مسيرة تطور البشرية . إذا قمنا جميعاً وبالأخص طلبة العلوم الدينية المحترمين والمعلمين الأعزاء ، عندما نلتقي ببعضنا البعض وبعد السلام بقراءة سورة : ﴿ ألم نشرح ﴾ لبعضنا البعض ، سنحظو بجدية نحو الكمال ، مثلاً عندما نلتقي يقول واحد منا بعد التحية : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ، ألَمْ نشرحْ لكَ صدركَ ، ووضعنا عنكَ وزركَ ، الذي أنقضَ ظهركَ ، ورفعنا لكَ ذكرك ﴾[3] ، وآخر يقول : ﴿ فإنَّ مع العسرِ يسراً ، إنَّ معَ العسرِ يسراً ، فإذا فرغتَ فانصب ، وإلى ربِّكَ فارغبْ ﴾[4] .

إذا أصبحنا على هذا المنوال ستتجه نحو الكمال ، وبالأخص أن هذهِ

---

(١) و (٢) سورة العصر .

(٣) و (٤) سورة الانشراح .

التلفيقات تصبح ملكة شيئاً فشيئاً ، وهذهِ الملكات تصنع الإنسان، الإنسان الشجاع القوي .

إن الله يمنّ على النبي الأكرم (ص) في سورة : ﴿ ألم نشرح ﴾ ويقول : أيها النبي ، ﴿ ألم نشرح لك صدرك ؟ ﴾ (بمعنى شرحنا لك صدرك) ﴿ ووضعنا عنك وزرك الذي أنقض ظهرك ﴾ (أي وضعنا عنك) ﴿ ألم نرفع لك ذكرك ﴾ (بمعنى رفعناه) . ثم يقول : ﴿ فإنَّ معَ العسرِ يسراً ، إنَّ مع العسرِ يسراً ﴾ لا شك إذا استطاع المرء أن يتجاوز المشاكل ، سيكون لديه محصلة جيدة ، وسوف يصل إلى هدفهِ الإنساني ثم يقول : يا أيها النبي ﴿ فإذا فرغتَ فانصبْ ﴾ بمعنى إذا أردت الوصول إلى الهدف عليك أن تستقم وأن تستمر في نشاطك ﴿ وإلى ربكَ فارغبْ ﴾ يجب أن تبدأ أعمالك باسم الله وأن تواصل عملك بسم الله وأن تنجزه بسم الله ، بمعنى أن تكون جميع أعمالك ذات صبغة إلَهية وأن تكون لله ﴿ صبغةَ اللّهِ ومنْ أحسنُ منَ اللّهِ صبغةً ﴾ إن سورة ﴿ ألم نشرح ﴾ تدخل ضمن بحثنا تماماً ويستشفّ منها بعض الأمور . كان بحثنا هو أن هنالك معركة مستمرة بين الروح والجسم ، تسمى الجهاد الأكبر وإذا أردنا السطرة على النفس الأمارة يجب أن نكون أقوياء ، سورة ﴿ ألم نشرح ﴾ تقول : إذا استطعت أن تستحدث ثمة أشياء في نفسك وأن تطلب من الله ، تستطيع أن تتغلب على عدو الداخل والخارج ، وتستطيع أن تسيطر على قلبك وأفكارك ، وليس تتذكر الله في الصلاة منذ بدايتها حتى نهايتها ، بل ترى نفسك في محضر الله دائماً .

انشراح الصدر أحد هذهِ القوى ، انشراح الصدر ورحابة الصدر ضروريةٌ للجميع بالأخص للمربي وللمعلم .

انشراح الصدر يعني ببساطة أن يكون القلب كالبحر وأن يستطيع الإنسان أن يهضم المشاكل والمتاعب في ذاته ، كالبحر يهضم الماء الأسن ولا يتلوث من امتزاجه ، مع ذلك الماء ، ويقاوم الحيوانات الكاسرة ولا يأخذ من لون ورائحة تلك الحيوانات ، يقف شامخاً أمام الجزر والمد والعواصف ، ولا يبالي شيئاً . إذا أراد الإنسان أن يتغلب على النفس الأمارة وأن يستوعب المشاكل

يجب أن يكون قلبه كالبحر ، ليكون صامداً دوماً في مواجهة المياه الآسنة والصافية ، والحلوة بموقفٍ ثابت ، وأن لا تتجاذبه المسرّات والمتاعب إلى هذهِ الجهة أو تلك . قلنا : إن هذا البحث ضروري جداً لنا نحن الطلبة وأنتم المعلمون الأعزاء ولكن من الواضح أن هذا البحث عام ، والجميع يحتاجون لانشراح الصدر ، إذا كان لدى ربة البيت رحابة الصدر ، وإذا استطاعت أن تستوعب مشاكل إدارة البيت ، وأن تستقم ، هذهِ المرأة ، تستطيع أن تكون ربة البيت المثالية كما تستطيع تربية الأولاد تربية صالحة ، والأهم من كل ذلك أنها تستطيع أن تصون نفسها من أنواع الأمراض الجسمية والروحية المختلفة . ولكن العكس ، إذا لم تتمكن ربّة البيت من استيعاب المشاكل ، وكما يقول القرآن الكريم ليس لديها « شرح الصدر » فالمصيبة الأولى التي تُصيبها هي توتر الأعصاب ، وبالتالي لن تتمكن من القيام بمهامها كزوجة وفي القضايا الزوجية تلجأ إلى الثرثرة والتشنج وهذا السلوك يسبّب الخلافات العائلية . والأعظم من ذلك ، أن الأطفال يصابون بعقدٍ نفسية في بيت كهذا البيت الذي تهزّه الخلافات ، وتكون الأجواء جليدية وغير طبيعية يصبح الأطفال فيه معقّدين ، هؤلاء الأطفال المعقّدون لا يمكنهم أن يُفيدوا مجتمعهم ، فإما ينتهجون الجريمة ويسببون الفضائح أو تموت قلوبهم ، ويصبحون منعزلين . الفتاة الميتة القلب لا يمكنها أن تكون ربة بيت مثالية ، زوجها غير راضٍ عنها وأطفالها يصبحون غير طبيعيين . القرآن يقول : ﴿ إنَّ الإنسانَ خلقَ هلوعاً ﴾[1] إذا لم يواظب الإنسان على سلوكه ، ولا يراعي القضايا الأخلاقية يصبح هلوعاً ، كحصاة صغيرةٍ تتقاذفها ضربات سيقان الأطفال . ولكن إذا واظب الإنسان على سلوكهِ ، يصبح كالجبل لا تؤثر فيه متاعب الأيام كالطود الشامخ .

القرآن الكريم يفسر هلع الإنسان على هذا النحو : ﴿ إذا مسّهُ الشرُّ جزوعاً وإذا مس الخيرُ منوعاً ﴾[2] عندما تحدث مشكلة للإنسان الهلوع ، يعلو صراخه . وحينما يصيبه الخير والفرح . يطغى وينسى نفسه . إن سبب عدم استتبابة هوانه لا يملك انشراح الصدر ، ورحابة الصدر ، لأن الذي ليس قلبه

---

(١) سورة المعارج ، الآية : ١٩ .

(٢) سورة المعارج ، الآيتان : ٢٠ و ٢١ .

كالبحر يبدو كحوض صغير سرعان ما تموج به الأحداث ، إذا حدثت له مشكلة لا يستطيع أن يصبر ، ولأنه لا يستطيع الاستيعاب يلوث نفسه بأنواع الذنوب كالغيبة والقذف والنميمة والسباب ويفقد سيطرته على لسانه ، وتدريجياً يأخذ كلامه منحىً إلحادياً حيث ينتقد ويؤاخذ الله . من جهة أخرى ، إذا كان للإنسان الهلوع وضع مستتب ، بأن يكون لديه زوجة وأطفال ، وأن يعطيه الله بيتاً مرفهاً ، يقول القرآن الكريم : ﴿ وإذا مسهُ الخيرُ منوعاً ﴾ هذا الشخص بما أنه لا يمتلك القدرة على الاستيعاب ، ينسىٰ نفسه ، بحيث إذا وصل إلى منصب بسيط لن يرد السلام ويشغل منصبه لخدمة أغراضه الشخصية . إنها من مصائب المجتمع أن يصبح لدى الذين لا يمتلكون « رحابة الصدر » منصباً ، في هذهِ الحالة يؤذون الآخرين بأشكال مختلفة .

ولكن إذا كان الإنسان وقوراً وذا مقدرة على الاستيعاب يتقبل كافة المشاكل برزانة ، ويقوم بإيجاد الحلول المناسبة لها ، بحيث يصل إلى مرحلة يعتبر فيها كل خيراً أو شراً يصيبه من جانب الله ، ولا يرى آنذاك سوى الله ، إذا كان ذا علم ومنصب يعتبره من جانب الله ، ويعتبر نفسه غير ذي تأثير . رواية جيدة جداً ، وبالأخص لنا نحن الطلبة وأنتم المعلمون الأعزاء تقول : « العلمُ ثلاثةُ أشبارٍ منْ دخلَ في الشبر الأول تكَبّر ، ومن دَخَلَ في الشبر الثاني تَواضَع ؛ ومن دخل في الشبر الثالث ، يعلم أنه لا يعلم شيئاً » .

تقول : للعلم ثلاثة محطات ، الإنسان الهلوع يصبح متكبراً في المحطة الأولى بحيث أنه عندما يتعلم أربعة مصطلحات ، وبعد أن يحصل على شهادة دراسية يقف أمام والديه ، ويصفهم بالأمية ويعتبر نفسه عالماً ومثقفاً . « ومن دخل في الشبر الثاني تواضع » ولكنه عندما يصل إلى المحطة الثانية فإن العلم يمنحه القدرة على الاستيعاب ، وحينها يفهم أنه إذا جمع كل علوم الدنيا وأصبح أنشتاين العصر ، فإن علمهُ أمام جهله لا يزال كقطرة أمام البحر . يقول نيوتن : من وراء عدسة الكاميرا أرى عوالم يصبح العلم أمامها كقطرة أمام البحرْ .

القرآن الكريم يعتبر كافة النجوم والكواكب والمنظومة الشمسية السماء الأولى ، الكواكب التي يستغرق وصول نورها إلينا ميلوني سنة ضوئية لا يمكن

تسخيرها عبر السماء الأولى . فيخبرنا عن السماء السابعة ، ولكن يا ترى أين تقع السماء الثانية والثالثة والرابعة والخامسة والسادسة ، لا نعلم ونأمل أن الذي لديه « علم ما كان وما يكون وما هو كائن » يأتي ليزيح الستار عن المجهولات . لدينا رواية تقول عندما يأتي بَقيّةُ الله ـ عجّل الله تعالى فرجه الشريف ـ .

« يركب ويرقى الأسباب ، أسباب السماوات السبع والأرضين السبع » .

الأرضين السبع لا تزال مجهولة من الناحية العلمية ، والقرآن والروايات لم تدالِ بإيضاحات حولها . لذلك ماذا تعني الأرض الثانية أساساً ، لا نعلم ، إذن عندما يصبح الإنسان عالماً يقف على وجود المجهولات ، وهنا يصبح متواضعاً إلى مدى يقول فيه : سبعون عاماً كابدت فيها وتعلمت ، والآن أصبح لدي واضحاً أني لا أعلم شيئاً . يقولون : إن أحد العلماء في آخر لحظات حياتِهِ قال : « لقد علمت بالقدر الذي لا أعلم فيهِ أي شيء » .

أحد العلماء الكبار يقول : « أن يعلم الإنسان أنه لا يعلم شيئاً زعمٌ كبير » ، باختصار ، عندما يصل الإنسان إلى درجة أن يفهم أنه لا شيء إزاء تنظيم الخلقة ، عندها يصل إلى المحطة الثانية للعلم ، ويشعر برحابة الصدر . القرآن الكريم يقول حول النبي موسى (ع) : ﴿ إذهبْ إلى فرعونَ إنهُ طغى ﴾[1] . إن الله يأمر موسى الراعي الذي لا يملك سوى عصىً أن اذهب إلى فرعون مصر ، فرعون الذي وصل به الأمر أن يدعي الألوهية .

موسى ، في هذهِ المهمة لا يطلب من الله جيشاً وقدرةً بل يقول : ﴿ قال ربِّ اشرحْ لي صدري ﴾ . يتّضح لنا أن رحابة الصدر أهم من أي جيش مدجج بالسلاح ، حقاً إنها أهم .

ثم يقول : ﴿ ويسِّرْ لي أمري ﴾[3] بمعنى إلَهي ، إذا كانت لدي رحابة الصدر ، ستتيسر لي كافة الأمور . حقاً إذا استطاع الإنسان أن يستوعب المشاكل ، وكما يقول القرآن ستتيسر له كافة الأمور .

---

(١) سورة طه ، الآية : ٢٤ .

(٢) سورة طه ، الآية : ٢٥ .

(٣) سورة طه ، الآية : ٢٦ .

ثم يطلب موسى من الله : ﴿ واحللْ عقدةً منْ لساني يفقهوا قولي ﴾[1] أي : يا إلٰهي ، امنحني رحابة الصدر لأنه إذا كانت لدي رحابة الصدر ، فلن أخشى العدو ويمكنني أن أبلِّغ رسالتك إلى العالمين . إلٰهي ، إذا كانت لدي رحابة الصدر ، فلن أعاني من القلق وتوتر الأعصاب وعدم القدرةِ على مواجهة بقايا الجاهلية . علماء النفس يقولون : إن الذي لديه رحابة الصدر ، يمتلك إرادةً قويةً ويستطيع أن يُدلي بأقوالهِ أمام الجميع وكلمتهُ تكون مسموعة . إن رعاية هذهِ النقاط مفيد جداً لنا نحن الطلبة لكم وأنتم المعلمون الأعزاء . لأن أداة عملنا هي أن نتكلم جيداً وأن لا نجعل . عندما يكون الإنسان ضعيفاً وينتابه الغضب ، لا يستطيع أن يتكلم ، هذا التوتر العصبي الذي نعاني منه جميعنا ناجم عن عدم استيعابنا للمشاكل . « المُعلّم » إذا كانت لديه رحابةُ الصدر ، لا يغضب في الصف وعندما لا يغضب ، لا يَمرضُ ، من أهم النتائج التي يحصلُ عليها من رحابة الصدر هو أن يَرُدَّ الأمانات التي ائتمن عليها ، والموضوع الذي لا يعلم عنه شيئاً ، يقول لا أعلم . أستاذنا الجليل حضرة آية الله العظمى البروجردي ـ رحمة الله عليه ـ ينقل عن أستاذه المرحوم محمد باقر درجة أي الذي كان من المراجع الكبار في أصفهان ، ويقول : عندما كان يسأل عن مسألةٍ ما ، إذا كان يعلم كان يجيب بهدوء ، وإذا لم يكن يعلم ، كان يقول بكل صراحة : لا أعلم ، وهذهِ من علامات انشراح الصدر .

نحن الطلبة إذا لم يكن لدينا رحابة الصدر ، عندما نُسأل عن مسألةٍ ما لا نعرفها ، لسنا مستعدين أن نقول لا أعرف ، نقول المسألة غير متفق عليها ، وإن وجهات نظر الفقهاء تختلف . المعلم إذا لم تكن لديه رحابة صدر يصاب بضعف الأعصاب ، ولا يستطيع أن يصون الأمانة بجدارة ، كلما سئل عن موضوع في الصف ، وهو لا يعلم ، يظن أنه إذا قال لا أعلم ، سَتقِلّ مكانته ، لذلك يقوم بتلفيق الجواب ، ويطرحهُ أمام الطالب . وامصيبتاه ! وامصيبتاه إذا كان هذا الجواب الملفق حول الدين وأن يحدث انحراف فكري . عند الطالب ، إن الذنب يقع على عاتق المعلم .

---

(١) سورة طه ، الآية : ٢٧ .

إذا كان لدى الإنسان رحابة صدر لا يضعف أمام المشاكل ، ولا يضيّع نفسه في الخيرات والمسرات ، وتتيسر كافة أعماله وتقوى إرادته لا يصاب بلكنة ويتفوه بالكلام بصورةٍ جيدة ، والأعظم من ذلك أن كلمته تكون مسموعة ويحكم على القلوب .

ادرسوا تاريخ النبي الأكرم (ص) ، عندما بُعث ليدعو الناس إلى دين الحق صلى ومعهُ علي (ع) وخديجة الكبرى ـ عليها السّلام ـ صلّىٰ الثلاثة في بيت الكعبة ، كان بيت الكعبة مزدحماً بالناس ، البعض جالسون والبعض يطوفون ، أحدهم يرقص والآخر يلعب ، والنبي (ص) كان يصلي باتزان تام ، اجتمع العرب حولهم ، وكانوا ينظرون إليهم ويقولون : ماذا يصنع هؤلاء ؟ طبعاً هؤلاء الثلاثة لم يكونوا أناساً عاديين حول علي (ع) يقول أهل الفكر : إن إحدى صفاته كانت أنه لم يكن يخشىٰ في الله لومة لائم .

لَقد صَلُّوا فترةً ، وفجأةً شاهد المشركون أن موجاً سرىٰ بين الناس ، وازداد عدد المسلمين . ومن أجل منع المسلمين من التقدم لجأوا إلى التخويف وضربوا المسلمين وأهانوهم .

حول أم عمار ، زوجة ياسر يقولون : إنها كانت قد أسلمت تواً وهي أول شهيدةٍ في الإسلام ، أمسك بها الكفار وضربوها بالسياط ، وجمعوا الناس ، وقاموا بالتشهير بها لكي تعود عن الإسلام ، وقد تمادوا في تعذيبها ، ولكنهم أخفقوا في فك عضدها إلى أن قرروا أن يأتوا بجملين وربطوا ساقي أم عمار بالجملين وساروا بالجملين في جهتين مخالفتين وشطروا تلك السيدة إلى نصفين . كانوا يظنون أنهم يستطيعون بواسطة هذهِ الأساليب الحؤول دون اتساع رقعة الإسلام .

جمعوا الأراذل والأوباش وأمروهم برمي الحجارة على النبي (ص) عند خروجهِ من البيت صباحاً ، كانت لديهم أوامر برمي الحجارة على ساق الرسول (ص) حيث ، تبعث على الألم أكثر وتؤدي إلى الموت أيضاً .

أحياناً عندما كان النبي (ص) يعود إلى البيت كانت خديجة تقيه الحجارة ببدنها ، وكانت الحجارة تنهمر كالمطر على كتفها وبدنها ، وفي صباح اليوم

التالي كان النبي (ص) يستعد للدعوة وخديجة تستعد لقبول الحجارة . كانوا يظنون أنهمْ يستطيعون بواسطة هذهِ الأساليب الحؤول دون اتساع رقعة الإسلام . جمعوا الأراذل والأوباش وأمروهم برمي الحجارة على النبي (ص) عند خروجهِ من البيت صباحاً ، كانت لديهم أوامر برمي الحجارة على ساق الرسول (ص) حيث ، تبعث على الألم أكثر وتؤدي إلى الموت أيضاً .

أحياناً كانت الأخبار تصل إلى خديجة بأن النبي (ص) أصيب من جراء رميه بالحجارة ، وذهب بجسمهِ المدميْ إلى جبل حراء . خديجة ، هذهِ الزوجة الوفية ، كانت تنهض وتحمل قدراً من الماء والغذاء ، وتأتي مع أمير المؤمنين (ع) إلى الجبل ، وبعد أن يبحثا عن النبي (ص) بين الصخور ، كانا يجدان النبي (ص) عند صخرةٍ كبيرة يناجي ربّه ، كانا يشاهدان النبي (ص) يقول : « اللهم إهدِ قومي فإنهم لا يعلمون » يعني يا إلّهي ، إذا هم ضربوني ، فإنهم لا يعلمون ، اللهم اهدِ قومي ، وإذا كنت تريد أن تمنّ عليَّ وأن تفرّح قلبي ، اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون . هذا معنى رحابة الصدر . نحن كلنا بالأخص الطلبة والمعلمون والمربون يجب أن نتعلم من النبي الأكرم (ص) يقول الراوي : شاهدت النبي الأكرم (ص) عندما كان يُرمىْ بالحجارة وشاهدتهُ أيضاً عندما جاء إلى مكة مع اثني عشر ألف مقاتل ، فلم أجد أدنى اختلاف في الموقفين ، هذا هو معنى « رحابة الصدر » في بداية البعثة النبوية ، واجه كل تلك المشاكل التي تقول عنها الآية الكريمة :

﴿ ووضعنا عنكَ وزركَ الذي أنقض ظهرك ﴾[1] في المدينة شارك النبي الأكرم (ص) في أربعة وسبعين معركة ، وكل معركة كانت ذات مشاكل كثيرة . أما من ناحية سورة : ﴿ ألم نشرح ﴾ فإن المشاكل التي واجهها النبي قبل الهجرة كانت أكثر بكثير ، وتصف هذهِ السورة أيام ما بعد الهجرة بأنها أيام راحة للنبي (ص) . يقول الراوي : عندما جاء النبي الأكرمِ (ص) مع إثني عشر ألف مقاتل إلى مكة كان في وضع خاص فعندما كان يتوضأ كان المسلمون يتزاحمون

(١) سورة الانشراح ، الآية : ٣ .

للتبرك بالماء المتساقط من وضوء النبي الأكرم (ص) وكان أبو سفيان يقف فاغر الفم من مشاهدة هذا الوضع .

هذهِ المكانة الاجتماعية للنبي (ص) في فتح مكة ، وتلك المعاناة في بداية البعثة لم تؤثرا في النبي (ص) إطلاقاً . هذا هو معنى رحابة الصدر ، وهذا هو مفهوم أن يكون قلب الإنسان كالبحر لا يهلع أمام « الشر » ولا يتمرد أمام « الخير » بل يقف في مواجهة المشاكل ، ويستوعبها كالبحر ، وهو مشكور أمام « الخيرات » الإنسان « الهلوع » هو الذي ﴿ إذا مسَّهُ الشرُّ جزوعاً وإذا مسَّهُ الخيرُ منوعاً ﴾[1] الإنسان « الهلوع » يفزع ويصرخ لدى مواجهته المشاكل ويتحدث بلغة نابية ويثير المتاعب مع زوجته ، وإذا وجد نفسه في بحبوحة ، ينسى نفسه . كل هذهِ الأمور تنجم عند فقدان الشخص لرحابة الصدر .

يقول الراوي : كانت إحدى زوجات النبي (ص) قد طبخت أكلةً وكان بودها أن يأكل النبي (ص) منها ، لأن النبي (ص) كان في بيت عائشة ، فحملت صحناً من تلك الأكلة وجاءت به إلى بيت عائشة . كان الصحن أمام النبي (ص) ، وكان النبي (ص) يرغب في تناول هذهِ الأكلة ، وفجأةً غضبت عائشة ، وقالت : لماذا أتت « ضرّتي » بهذهِ الأكلة . ووجهت ضربة بساقها للصحن فوقع الصحن خارج الغرفة وانسكب الغذاء على الأرض وكُسِرَ الصحن أيضاً ، نرى رحابة الصدر عند النبي (ص) ، نظر النبي (ص) إلى عائشة وقال : « يا عائشة ، لماذا فعلتِ ذلك ؟ كان صحناً من الشوربا نأكله سويةً ، والآن وقد كسرت صحن الناس ، لقد اقترفت حراماً ، وأنتِ ضامنة بأن تعيدي الصحن إلى صاحبه ، لقد أسرفتِ واقترفت حراماً ، ورفضتِ هدية الناس وهذا ما لا يليق بالإنسان ، والآن أرجو أن لا تفعلي ذلك مرةً أخرى » . هذا يسمونه رحابة الصدر ، على الزوج والزوجة أن يكونا هكذا يجب على المعلم أن يكون هكذا ، وكل شخص عليه أن يتعامل هكذا مع الناس . إذا لم نكن هكذا ، فنحن « هلوعين » من وجهة نظر القرآن . وبعبارةٍ أخرى ليس لدينا رحابة الصدر . تعالوا لإيجاد هذهِ النعمة الكبيرة في أنفسنا . طبعاً إيجادها أمر صعب

---

(١) سورة المعارج ، الآية : ٢٠ .

لأنه لا توجد نعمة تفوق هذهِ النعمة ، ولكن بالترويض نستطيع إيجادها . في سورة ﴿ ألم نشرح ﴾ ، الله لا يقول أيها النبي إنا أعطيناك علم ﴿ وما كان وما يكون وما هو كائن ﴾ ولكن يقول : لقد أعطيناك « رحابة الصدر » ﴿ ألم نشرحْ لكَ صدركَ ﴾ وكأن أكبر نعمة للنبي كانت رحابة الصدر .

ثم يقول : يا أيها النبي ، لقد رفعنا عنك وزرك في مكة ﴿ ورفعنا لكَ ذكركَ ﴾ ووصلت إلى ما كنت تصبو إليه ، كل هذهِ كانت لأنك كنت تملك رحابة الصدر . ﴿ فإنَّ معَ العسرِ يسراً ، إنَّ معَ العسرِ يسراً ﴾ .

وبما أنك تخطّيت مشاكل مكة ، إعلم أنك سترتاح في المدينة ، وسوف تسيطر على الحجاز كله . لقد جربت رحابة الصدر لدىٰ أستاذي الجليل قائد الثورة العظيم مراراً ، وإذا لم تكن رحابة صدره ، لم تكن هنالك ثورة .

لن أنسىٰ ، في قضية المدرسة الفيضية ، ساد (قم) رعبٌ عجيب لعل الكثيرين يتذكرون أنه من أجل تخويف طلبة العلوم الدينية ولكي يتراجعوا عن مواقفهم ومن أجل توجيه ضربة قاضية لقائد الثورة العظيم صدرت الأوامر بضرب (قم) لذلك قاموا بارتكاب أعمال القمع في المدرسة الفيضية ، وقذفوا بالطلبة من الطابق الثاني للبناية إلى بهو المدرسة والنهر المجاور .

في اليوم التالي ، تجوّل رجال السافاك في الشوارع ، وقاموا بتشكيل تجمعات باسم الناس وسبّوا الروحانيين (رجال الدين) . مع هذا الرعب العجيب ، ذهبت إلى قائد الثورة العظيم ، كان الوضع عادياً والابتسامة لا تفارق محياه كأن شيئاً لم يحدث . عندما كنا نهمّ بالخروج من المنزل مع أحد علماء أصفهان ، قال ذلك العالم : كأن الإمام لا يدري ماذا يجري خارج البيت . في حين أن قائد الثورة العظيم كان قد اتخذ قراره ، قال قبل هذهِ الحادثة : يجب أن يذهب الشاه . غداً وبعد غد أيضاً ، كان يقول : يجب أن يذهب الشاه . في المنفىٰ وبعد المنفىٰ أيضاً ، كان يقول : يجب أن يذهب الشاه إلى أن ذهب الشاه . بعد انتصار الثورة جاء الصحفي المصري هيكل وعند الإمام أجرى مقابلة صحفية .

أحد الأسئلة كان يتعلق بعبارات التجاوز التي تفوّه بها أنور السادات ضد الإمام ، أما الإمام وكأنه لم يسمع ذلك السؤال أخذ الحديث إلى مكان آخر وقال : إن الإسلام الذي يريد أن يطبقه أنور السادات ، هو الإسلام الأمريكي . وإن مصر إذا كانت تريد السعادة يجب أن يطبق فيها الإسلام الحقيقي . أنا في تلك اللحظة تذكرت حديث الإمام علي (ع) حين قال : « أمر على اللئيم يسبني » يا سيدة ، لماذا تغضبين في المنزل وتسبين طفلك ؟ هل أنتِ هلوعة ؟ ويا أيها المعلم ، لماذا تنتابك العصبية في الصف وتتفوه بكلمات نابية ؟ الإنسان الهلوع يتفوه بكلماتٍ نابية . النبي (ص) قال : « يا عائشة لماذا تسبّين ؟ قالت : يا رسول الله ، رأيتهم يستهزؤن بك ، قال : لقد أجبتهم ، إذا قالوا خيراً قلت : عليكم ، وإن قالوا شراً ، قلت : عليكم .

ثم قال : يا عائشة ، الا تعلمين أن السباب يتجسّم ؟ إن السباب يتجسّم بصورة قبيحة ، وهو جليسك في القبر والبرزخ والقيامة ويجلب لك الفضيحة في القيامة ، السباب بأي شكلٍ كان ولأياً كان ، يتجسّم بصورةِ كلب بل أقطعَ من الكلب ويُحشَرُ مع السَابّ .

المرحوم ملا صدر ـ رحمة الله عليه ـ يقول في الأسفار : السباب يتحول إلى شكل يكون القرد في مقابله جميلاً جداً، القرآن الكريم يقول :

﴿ يومَ تجدُ كلُّ نفسٍ ما عملتْ منْ خيرٍ محضراً ، وما عملتْ منْ سوءٍ تودُّ لو أنَّ بينها وبينهُ أمداً بعيداً ﴾[1] ، يقول : يا إنسان ، إني أتوعدك ، أن تخاف لأنَّ أي عمل خير تقوم به في هذهِ الدنيا سيحشر معك في القيامة على شكل رفيق في القبر والبرزخ والقيامة . كما أن كل عمل سيء اقترفته سيتحول إلى قرد ونمر وأفعى وعقرب ويحشر معك في القبر والبرزخ والقيامة .

في القيامة عندما يتحول السباب إلى كلاب تحيط بالذي تفوه بالسباب ، والأسوء من ذلك أن يتحول هو أيضاً إلى كلب ، الآية تقول : ماذا تفعل إزاء الفضيحة حينذاك ؟ ولذلك تقول : يا إلّهي ، يا ليتني بعيداً عن هـذهِ الكلاب ورفاقِ السوء ، وهذهِ الأعمال القبيحة ، إلّهي بعزتك وجلالك نقسم عليك أن

---

(١) سورة آل عمران ، الآية : ٣٠ .

تمنّ علينا بالوعيِ وحسن الصفات أي « رحابة الصدر » والتوفيق لعبادتك وعبوديتك . وترك معصيتك واعطنا الصفات الإنسانية وصلِّ الله على محمد وآلِ محمد .

البحث الثالث عشر

« رحابة الصدر (٢) »

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ربّ اشرح لي صدري ويسّر لي أمري واحلل عقدة من لساني ، يفقهوا قولي ﴾ .

كان بحثنا حول جهاد النفس الأمارة ، وكما بيّنا سابقاً فإن الانتصار في هذهِ المعركة يستلزم قوى من الخارج وقد تحدثنا مستفيدين من القرآن الكريم عن بعض هذهِ القوىٰ وبيّنا كُلاً منها بإسهاب .

كانت القوة الرابعة هي رحابة الصدر ، بمعنى من أجل أن يتغلب الإنسان على المشاكل يجب أن يكون قلبه رحباً كالبحر ، وأن يستوعب المشاكل من أجل حلها . وقد اهتم القرآن الكريم بالغ الاهتمام برحابة الصدر ، حتى اعتبر قبول الإسلام مرتهناً برحابة الصدر حيث يقول : ﴿ أفمنْ شرحَ اللّهُ صدرهُ للإسلامِ فهو على نورٍ منْ ربهِ فويلٌ للقاسيةِ قلوبهم من ذكرِ اللّهِ ﴾[1] .

إن هذهِ الآية تدل بوضوح على أن الذي يمتلك رحابة الصدر يضفي الله على قلبه نوراً وتصبح يد العناية الإلٰهية على رأسه ليتمكن من الفوز في هذهِ المعركة الداخلية ، ولكن إذا لم يتمكن من استيعاب المشاكل وأن يفقد توازنه أمام إحدى الرغبات . القرآن يقول : ويلٌ له ، ويلٌ للذي ليس قلبه كالبحر ، ويلٌ لمن ليس لديه رحابة صدر ، لأن الذنوب المتكدسة أخذت منه رحابة

---

(١) سورة الزمر ، الآية : ٢٢ .

الصدر . وفي آيةٍ أخرى يقول :

﴿ فمنْ يردْ اللّهُ أنْ يهديهِ يشرحْ صدرهُ للإسلامِ ، ومنْ يردِ اللّهُ أنْ يضلَّهُ يجعلْ صدرهُ ضيقاً حرجاً كأنما يصعّدُ في السماءِ كذلكَ يجعلُ اللّهُ الرجسَ على الذينَ لا يؤمنون ﴾[1] .

يقول : إن يد العناية الإلّهية على من لديه رحابة الصدر ، ولكن إذا لم تكن يد العناية الإلّهية أي رحابة الصدر ، فهو إنسان ضيق النظر لا يستطيع أن يواجه المشاكل ، وفي هذهِ الحالة يكون موقفه كمن يريد أن يصعد في السماء يصبح صدره ضيقاً ﴿ حتى إذا ضاقتْ عليهمُ الأرضُ بما رحبتْ ﴾[2] فإن الدنيا مع رحابتها تضيق عليه ، أحياناً تصيب الإنسان مصيبة يشعر فيها المرء أن أنفاسه تتقطع ، مثلاً إذا أردتم صعود الجبل ، ولم تكونوا مدربين ، عندما تصعدون إلى قمة الجبل تشعرون بضيق النفس ، القرآن الكريم يضرب مثلاً لرحابة الصدر ، ويشبهها بهذا الأمر المحسوس ويقول : من لا يمتلك رحابة الصدر عليه اللعنة . اللعنة على من ليس لديه رحابة الصدر .

هنالك سؤال يطرح نفسه : ماذا نفعل لكي تكون الدنيا رحابة صدر ؟ يجب أن نقول : إن بحث تهذيب النفس ، يشبه شحن بطارية السيارة لأن الأعمال الحسنة تنبع من الإيمان ، والقلب الطاهر والصفات الرذيلة تؤدي إلى أعمال رذيلة ، الشخص البخيل ، حسود ومحب للجاه ومتكبر ، هذهِ الأعمال الرذيلة تصبح مصدراً للأعمال الرذيلة ، وكما يقول القرآن الكريم : ﴿ قلْ كلٌّ يعملْ على شاكلته ﴾[3] والإناء ينضح بما فيه . المرأة الحسود تنبع تصرفاتها وأعمالها من الحسد عادةً ، ونفس أعمالها القبيحة تقوي جسدها وترويه ، وإذا لم تتلافَ ذلك ، ستتجذّر هذهِ الصفة إلى مرحلة يصعب فيها اجتثاث جذورها .

الإنسان المحب للجاه أيضاً هكذا ، كلامه ، تصرفاته ، وحتى نياته تنبع من حب الجاه ، وهذا الكلام ، وهذهِ التصرفات ، والنيات ـ أيضاً ـ لها تأثير

---

(١) سورة الأنعام ، الآية : ١٢٥ .
(٢) سورة التوبة ، الآية : ١١٨ .
(٣) سورة الإسراء ، الآية : ٨٤ .

على حب الجاه ، ويقوّي هذهِ الاتجاه . إن كلامنا وتصرفاتنا تنبع من الإيمان ، كل من كان إيمانه قوياً ، يكون كلامه أفضل وتصرفاته أحسن ونياته أطيب ولكن نفس كلامنا وتصرفاتنا تؤثر على إيماننا ، لذلك فإن الإيمان يصنع العمل ، والعمل أيضاً يصنع الإيمان .

جميع الصفات الرذيلة ، وكل الصفات الحسنة ، ومن بينها الإيمان تشبه بطارية السيارة ، مثلما تعطي الكهرباء تأخذه أيضاً ، الإيمان أيضاً في الوقت يمنح العمل ، نفس العمل أيضاً يؤثر على الإيمان ، وهذهِ قاعدة عامة .

رحابة الصدر أيضاً هكذا ، فالذي يكافح المشاكل ، ويقاوم الذنوب ، عندما تحدث لديه رغبة جنسية يضربها عرض الحائط ، ويتجاوز صفة الأنانية ، كل هذهِ الأمور تنبع من رحابة الصدر ، وهذهِ الأعمال التي يقوم بها تجلب له رحابة الصدر أيضاً ، في الوقت الذي تنبع فيه الأعمال من رحابة الصدر ، نفس العمل يضاعف من رحابة الصدر ويُرسّخها ويَجعلُها ملكةً في الذات الإنسانية .

وعلى العكس ، فعندما يواجه ذنباً يفقد توازنه ، يُرتكب الذنب ، وعندما تحدث مشكلة ينتابه الغضب ، ويمنعه من القيام بالعمل الأهم ، عندما يسمع في الصف كلاماً نابياً لا يتمكن من استيعابه يفقد ما كان لديه من رحابة . مختصرة ويصبح إنساناً ضيق الصدر لا يستطيع أن يواجه طفلاً صغيراً ، بمعنى أنَّ ضيق نظره ، أثَّر على عمله ، وعمله أثر على ضيق صدره . لذلك تقول الآية الكريمة : ﴿ أفمنْ شرحَ اللّهُ صدرهُ للإسلامِ فهوَ على نورٍ منْ ربِّهِ ﴾[1] إذا كنت تريد رحابة الصدر ، إذا أردت أن يسطع نور الله على قلبك ، إذا أردت أن تصبح رحابة صدرك ملكة ، لكي يكون قلبك كالبحر وتستطيع مجابهة كافة المشاكل بواسطة نور الله ، عليك أن تلجأ إلى رحابة الصدر : ﴿ فويلٌ للقاسيةِ قلوبهم منْ ذكرِ اللّهِ ﴾[2] إذا لم يكن لديك رحابة صدر فويلٌ لك ، لأن عدم امتلاك رحابة الصدر تجلب لك الذنوب تلو الذنوب ، وحين تأتي الذنوب يسودّ

---

(١) سورة الزمر ، الآية : ٢٢ .

(٢) سورة الزمر ، الآية : ٢٢ .

القلب ويفقد انشراحه ، فويلٌ لهذا القلب . الآية الثانية تتحدث عن ذلك أيضاً .

إذن ، إذا أردتم إيجاد صفات جيدة في أنفسكم ينبغي أن تعملوا حسب الصفات الجيدة الحميدة في الوقت الذي تستنهض صفاتكم الجيدة الأعمال الجيدة ، الأعمال الصالحة أيضاً تُوجِد الصفات الحسنة ، وعلى العكس إذا أردتم تفادي الصفات الرذيلة ، اقطعوا الفروع والأوراق ولا تقوموا بأعمال سيئة ، فإذا كانت لديكم أعمال سيئة ، وأقوال نابية فجأة تصلون إلى مرحلة ترتكبون فيها الذنوب بصورة لا إرادية وأحياناً تعتبرون أنفسكم أناساً طيبين وتتقبلون الذنوب ، كأن يقوم الشخص بارتكاب الذنب ثم يقول : قمت بعمل صالح ، لقد أحسنتُ عملاً بارتكابي ذلك الذنب . إن سورة : ﴿ ألم نشرح ﴾ ﴿ بنّاءةٌ لنا جميعاً بالأخص للمربي والمعلم . هذهِ السورة تتحدث أولاً عن رحابة الصدر ، وتقول : ينبغي أن يكون المربي رحب الصدر ، كل الناس ينبغي أن يكونوا منشرحي الصدر ، ولكن الشرط الرئيسي لعمل المربي والمعلم هو رحابة الصدر ، يقول : ﴿ فإن مع العسر يسراً إن مع العسر يسراً ﴾ .

وأن يعلم إذا كانت لديه رحابة صدر تتيسر كافة المشاكل ، ويؤكد القرآن على ذلك ثم يقول : ﴿ فإذا فرغت فانصب ﴾ الصفة الثانية التي يجب أن يمتلكها كل مربي الاستمرار والاستقامة في العمل .

إن الاستماع إلى بحث تهذيب النفس ، قد يكون سهلاً ولكن التطبيق صعب للغاية . وتنقسم العلوم إلى عدة أقسام ، بعض العلوم تعلمها صعب ، ولكن تطبيقها ليس صعب جداً ، إذا كان المرء فيلسوفاً فإن جلب البرهان أمرٌ سهل بالنسبة له أو حل مسألةٍ ما وتطبيقها أمرٌ هين لمعلم الرياضيات ، ولكن بعض العلوم كعلم الأخلاق ، وتهذيب النفس فالحديث عنها ليس صعباً كالرياضيات والفلسفة ، بل إنها فطرية من وجهة نظر القرآن الكريم : ﴿ ونفس وما سوّاها ، فألهمها فجورها وتقواها ﴾[1] لأنّ قسماً بالإنسان ونفسهُ

(١) سورة الشمس ، الآيتان : ٧ و ٨ .

الملكوتيّة ، وبعده الإنساني قسماً بهذا البعد يدرك الصفات السيئة والجيدة بالفطرة .

جميعنا نحن الجالسون هنا نعلَمُ أن التكبر عملٌ سيء ، وإذا فكرنا بعض الشيء نستطيع أن ندرك سلبياتهِ ، وأن نتحدث للآخرين عنها ، لذلك فإن الحوار والبحث عن تهذيب النفس ليس عملاً شاقاً ، العمل الشاق هو التنفيذ ، إذا استطاع الإنسان المتكبر والأناني أن يقتلع جذور التكبر والأنانية من نفسه فلا يدرك ذلك إلا بالمشقة ، لذلك يذكر أستاذنا الجليل قائد الثورة العظيم ـ رحمة الله عليه ـ عن أستاذهِ المرحوم الحاج الشيخ الحائري ـ عليه الرحمة ـ مؤسس الحوزة العلمية في قم أن المشهور بين الناس « ما أسهل أن يصبح الإنسان طالب علمٍ » ، ولكن أن يصبح إنساناً أمر صعب الإمام كان يقول كلا هذا خطأ ، بل يجب القول : « ما أصعب أن يصبح الإنسان طالب علمٍ وأن يصبح المرء إنساناً أمرٌ محال والحق أنه هكذا ، إذا أراد المرء أن يبعد صفة رذيلة ينبغي أن يكابد لسنين طويلة وأن يستقيم لسنين عديدة ، ليتمكن من اجتثاث جذور الصفة الرذيلة ويستبدلها بصفة حسنة . فالالتزام بهذهِ الأمور صعب ، وعلى هذا الأساس يكرر القرآن ، فلماذا يكرر القرآن إلى هذا الحد ؟ إن الكثير من آيات القرآن مكررة وقد اختلفت وجهات نظر المفسرين حول هذه الظاهرة ، وكيفية تفسيرها . العلامة الطباطبائي ـ رحمة الله عليه ـ في الميزان ، وفخر الرازي في تفسيره ، والمرحوم الطبرسي في مجمع البيان (هذا التفسير فخر الشيعة وهو تفسير رائع) والمرحوم فيض ـ عليه الرحمة ـ في الصافي والآخرون تحدثوا حول هذهِ الظاهرة وحديثهم مقبول جداً ، ولكن حول هذا الموضوع هنالك جملة لقائد الثورة العظيم ـ أدام الله ظله ـ أروع وأجمل من باقي الأقوال ، حيث يقول : إن التكرار في القرآن له تأثيرٌ بدليل أن تهذيب النفسٍ يحتاج إلى التكرار والقرآن كتاب تهذيب النفس ، فإذا قال القرآن مرةً : ﴿ إنَّ الذينَ يحبّونَ أنْ تشيعَ الفاحشةُ في الذينَ آمنوا لهمْ عذابٌ أليمٌ في الدنيا والآخرة ﴾[1] بمعنى أن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة ، ولو أنهم لن يرتكبوا

(١) سورة النور ، الآية : ١٩ .

ذلك ، ولكن مجرد أنهم يحبون أن يدنسوا شخصية أحدٍ ما ، أولئك الذين يستغيبون الآخرين ، أولئك الذين يريدون أن يكون الطرب والموسيقى والغناء في الإذاعة والتلفزيون ، لهم عذابان ؛ عذابٌ في الدنيا وآخر في الآخرة ، إذا كانت الآية قد بيّنت هذا الأمر مرةً واحدة ، لما كان ذا تأثير ، إن ذلك سيكون ذا تأثير عندما يتكرر بيان المفهوم في أماكن أخرى . وهذا الأمر يشبه التلقين . من الطبيعي أن التلقين مؤثر جداً . إذا أمسك المرء بسبحةٍ ويقول كل صباح : « أنا مسلم ، أنا مسلم » ، فإن لذلك تأثيراً كبيراً . تسبيح الزهراء ـ سلام الله عليها ما جدواه ؟ (٣٤) مرة الله أكبر ، (٣٣) مرة الحمد لله ، (٣٣) مرة سبحان الله . إن الإمام الصادق (ع) يقول تسبيح جدتي أفضل من ألف ركعة صلاة لماذا يقولون لنا عليكم بالذكر ، وقولوا دائماً : « لا إله إلا الله » قولوا : يا الله ، لماذا يقولون توسلوا بالدعاء ، إذا يئستم من الدعاء فإن هذا اليأس في مستوى الكفر ، إن عليك أن تدعو ربك سواءً استجاب لك أم لا يَستَجِب لماذا ؟ السبب هو ما قاله قائد الثورة العظيم حيث كان يقول لماذا تتكرر آية : ﴿ فبأيِّ آلاءِ ربكما تكذبانِ ﴾ في سورة الرحمٰن ؟ لماذا يتكرر قول : ﴿ إنَّ اللّهَ على كلِّ شيءٍ قديرٍ ﴾ في أكثر من عشرين مكاناً ، كلُّها لأن بَحث تهذيب النفس يحتاج إلى التكرار والتلقين ، في بحث تهذيب النفس نحتاج إلى التكرار تلو التكرار ، والاستماع تلو الاستماع إلى أن نصل إلى ما نبتغيه ، إذا لم يكن هنالك استمرار واستقامة لن نصل إلى ما نبتغي ، لذلك يقول علماء النفس : إن النفس الأمارة التي تمثلُ البعد البهيمي هي ، كالفيل والإنسان الذي يمتطي الفيل يجب أن يضرب على قفاه ، وإذا غفل لحظة عن ضربه ، فإنه سيؤذي بحياته ، كما يؤدي بحياة صاحبه .

نقرأ في التاريخ حول معركة أُحد أنّ النصر في البداية كان من نصيب المسلمين ، ولكن المسلمين هزموا في نهاية الأمر وتكبدوا خسائر فادحة ، حيث قتل سبعون من المسلمين في المعارك التالية . يقولون : كان النبي (ص) جالساً عند منحدر الجبل ، وكان الصحابة جالسين حوله . فسألوه : يا رسول الله ، لماذا انتصرنا في البداية وهزمنا فيما بعد ؟ قال : لأنكم نسيتم الله لحظة واحدة . إذا نسي المرء ربه لحظة واحدة ينسىٰ صراعه مع نفسه ، وينجرف نحو

الهاوية . قد تضع غلة حبه في فمها ، ثم تصعد إلى الأعلى ، وقد تصعد بالحبة إلى الأعلى خلال فترة تستمر من الصباح حتى المساء ، ولكن لحظة واحدة من الإهمال تعود بها إلى مكانها الأول وتسقط .

إننا بحاجة للاستقامة في كافة الأمور ، هذهِ الآية التي تقول : ﴿ فإذا فرغتَ فانصبْ ﴾ يعني : فإذا فرغتَ فاتعب نفسك في الله تبارك وتعالى . إذا استطعت أن تنتصر ذات يوم في هذهِ المعركة لا تظن أن النصر حليفك دائماً ، استمر وانتبه إنك في الجبهة دائماً ، وما دام الإنسان في هذهِ الدنيا لا يمكنه الخروج من الجبهة .

النفس تنين متى تموت إنها ذَ بكت من الشيخوخة

إذا أصبح شاباً ، تحيى فيه الكثير من الصفات الرذيلة ، ويصبح شيخاً ولا تزول عنه باقي صفاته الرذيلة ، إلى أن يصل إلى مرحلة يصبح فيها مثل « راسل » والأمثلة كثيرة .

نحن لا نعتبر راسل الفيلسوف البريطاني المعروف والذي يُوليه العالم اهتماماً كبيراً ، لا نعتبره فيلسوفاً بل إنه لا يعرف ألف باء الفلسفة . هذا الشخص عالم ، وقد تعب كثيراً طوال سبعين عاماً في سبيل العلم ولكن هذا الشخص المخضرم ليس بحاجة إلى المرأة في هذهِ السن بل إن المرأة داءٌ ومصيبة له ، يقدم نظرية حيث يوردها في كتابه ويقول : إن تشكيل الأسرة خطأ ، يقول : ما المانع في تداول المرأة بين الرجال كل يوم تكون لواحد ، إن بيان هذهِ النظرية فخري ، لماذا يقول وينشر أحد فلاسفة العالم كلاماً فخرياً ؟ يقول : ما المانع أن يقرض الشخص زوجتهُ لرفيقه ، وأن يتبادلا الزوجات ؟ كل هذه الأمور تصدر لأنه لم يهذب نفسه ، وعندما لا يهذب نفسه ، فهو ليس إنساناً وحين يفقد إنسانيته تأخذ الغريزة الجنسية بزمامه ، إذن علينا أن لا نتصور أن الإنسان إذا بلغ من العمر عتياً ، تفارقه الغريزة الجنسية ، لا نتصور أن الإنسان إذا حصل على المال وأصبح متمولاً سيركن إلى الهدوء ، ويزول عنه جانب حب المال ، بل إذا كان سارقاً يسرق ، وإن كان يملك العالم كله . أليست أمريكا الدول الغنية ، إذن لماذا تسرق وتتعدى ؟ لماذا تكون مستعدة لأن توصل صداماً

إلى سدة الحكم ليرتكب كل هذهِ الجرائم ؟ لماذا تسرق وترتكب الجرائم ؟ ـ لا سامح الله ـ أن تسود إحدى الغرائز على المرء ، تأخذ بيده إلى ما يحب حيث لا يشبع . إن أمريكا إذا استولت على كل الكرة الأرضية لن تشبع ؟ كلا إنها تواصل ارتكاب الجرائم ، لذلك حين تصنع آبولو وترسلها إلى القمر أول ما تقول إننا كنا نعتقد بإمكانية صنع قاعدة عسكرية على القمر ، معنى هذا هو أنني قاتل ومجرم ، أنا نمر ، أنا ذئب ، أينما ذهبت أنا نمر ، الحوار حول تهذيب النفس سهلٌ يسير ، وإنما الصعب تطبيق ذلك كان أستاذنا الكبير آية الله البروجردي ينصحنا دائماً ويقول : عليكم ما دمتم شباباً باجتثاث جذور الأنانية ، وحب الرئاسة ، وحب الجاه ، وإلا إذا لم تواظبوا على أنفسكم ستواجهون صعوبات تقول الرواية :

« وآخر ما **يخرج عن قلوب الصديقين حب الجاه** » بمعنى أن حب الجاه لا يزول بسهولة . من الممكن أن يكون الشخص متقياً وعادلاً ، ولكنه يحب الرئاسة ، هذهِ الأمور لا ترتبط ببعضها البعض . من الممكن أن يكون شيخاً مخضرماً ، وأن يكون آية الله ، وأن يكون عادلاً ، ولكنه يحب الرئاسة لذلك نقرأ في الروايات إذا أراد الشخص أن يصبح مرجعا ، يجب أن يكون عادلاً وخبيراً ، وعلاوة على ذلك يجب أن لا يكون « **مكباً على الدنيا** » لذلك يفني المرحوم السيد ـ رحمة الله عليه ـ بذلك ، كما أفتى بذلك قائد الثورة العظيم بمعنى يجب أن يكون الله وراء كل تحركاته ، يجب ألا يحب الرئاسة ، ولو كانت عن طريق الحلال ، وإلا لا يستطيع أن يصبح مرجعاً ، إذا لم يكن مرجعاً ، وكان إمام جماعة ، ولو أنه يحب المال عن طريق الحلال إذا كان عادلاً نستطيع الاقتداء به في الصلاة ؛ ولكن المرجع ولو أنه يحب المال عن طريق الحلال لا يمكنه أن يصبح قائداً ، لأنه يجب أن يكون قد اجتث جميع الصفات الرذيلة من جذورها ، ينبغي أن يكون قائد الثورة العظيم أن لا يكون في قلبه سوى الله ، وأن لا يحب سوى الله . وهذا هو الهدف من خلق الإنسان . « **فإذا فرغتَ فانصبْ** » بمعنى أنك قد تكون تجاوزت المحطة الأولى ولكن إحذر السقوط ، إذا كنت ماشياً في طريق تهذيب النفس عليك أن تواجه المشاكل ، وأن تستقيم وتقوم بنشاطات ، لأن تهذيب النفس يحتاج للاستقامة .

إلَهي ، بعزتك وجلالك نقسم عليك أن تمنّ علينا بالصفات الإنسانية والتوبة والإنابة والتوفيق لعبادتك وعبوديتك وترك معصيتك .

إلَهي بعزتك وجلالك نقسم عليك أن تمنّ علينا بالصفات الإنسانية ونورانية الباطن .

البحث الرابع عشر

« كفارة الذنب »

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ربِّ اشرح لي صدري ويسّر لي أمري واحلل عقدة من لساني ، يفقهوا قولي ﴾ .

البحث يدور عن كفارة الذنب ، وآمل إن شاء الله تعالى وبلطف حضرة بقية الله ـ عجّل الله تعالى فرجه الشريف ـ أن يكون هذا البحث مفيداً ونافعاً .

حكى لي أحد الأصدقاء قائلاً : ذهبت إلى الطبيب وجلست أنتظر دوري فجاء الدور لامرأة عجوز قروية ، فذهبت إلى الطبيب ، وقالت : الوصفة التي كتبتها لي غليتها وشربتها ، ولكن لم تتحسن صحتي ، واتضح أن هذهِ السيدة بدل أن تذهب إلى الصيدلية وتأخذ الدواء وتغليه ، قامت بغلي نفس الوصفة (أي الورقة) .

قال الطبيب : يا لخسارة الخبز الذي يعطيك إياه زوجك لتأكليه . ثم كتب وصفة لكي تذهب السيدة إلى الصيدلية وتأخذ الدواء وتستعمله لكي تشفىٰ . وأضاف هذا الصديق : عندما وصل دوري ، لم يكن هناك أحد سوى الطبيب وأنا ، فقلت للطبيب : يا سيد هل تعلم ماذا فعلت هذا اليوم ؟ قال : ماذا فعلت؟ قلت : لم ترتكب ذنباً واحداً بل ارتكبت ذنوباً كثيرة قال : ذنبك الأول أنك استهزأت بمسلم ، وإذا استهزأ المسلم بمسلم آخر ونال من شخصيته بين الناس ، فهذا ذنبٌ كبير جداً ، حيث نقرأ في الروايات أنهُ يكتب على ناصيته

هذا الشخص فهو آيس من روح الله لا تشمله رحمة الباري ، ويجب أن يذهب إلى جهنم ونقرأ في الروايات أن ذنبه كمحاربة الله : « من أهانَ وليّاً فقد بارزني بالمحاربة »(١) .

أما الذنب الثاني ، فإنك كنت سبباً في إضحاك الآخرين والنيل من شخصية هذهِ المرأة العجوز ، حيث انتابها الخجل والحياء . إذا لم تكن قد تفوهت بهذهِ الجملة لما كان الآخرين قد استهزؤا بها .

ذنبك الثالث ، أنك كذبت : « يا لخسارة الخبز الذي يعطيك إياه زوجك لتأكليه » هذا كذب ، هذهِ المرأة لا تعلم ماذا تفعل بالوصفة ؟ من أين لك أن تعلم أنها ليست ربة بيت جيدة وزوجة صالحة ؟ إنها ربة بيت وزوجة صالحة ، لذلك فإن جملة : « يا لخسارة الخبز الذي يعطيك إياه زوجك لتأكليه » كذب ، والذي يكذب يقول عنه القرآن الكريم : ﴿ فاجتنبوا الرجسَ منَ الأوثانِ واجتنبوا قولَ الزورِ ﴾(٢) ثم قال : إذا أردت أن أعد ذنوبك فهي كثيرة ، إن هذهِ الجملة مفيدة لي ولكم .

علينا أن نتوخىٰ الحذر في تصرفاتنا ، وهذا هو الفرق بين الأحمق والعاقل ، العاقل هو من يفكر أولاً ثم يتكلم ، ولكن الأحمق يتكلم أولاً ثم يفكر . من الواجبات الكبيرة الملقاة على عاتق كل مسلم أن يفكر أولاً ثم يتكلم . من الممكن أن تقولوا جملة في الصف تسبب المصائب ، نفس هذهِ الجملة تصبح عقدة عند شخصٍ ما ، وتجلب المصائب ، في الحقيقة أنتم قتلتم الطفل بهذهِ الجملة ، لأن قتل الروح والشخصية أسوأ من قتل الجسم . نقرأ في روايات كثيرة : إن المسلم هو من يمسك بعنان لسانه . إن البعض يذهبون إلى الجنة وهؤلاء لديهم خلوات مع خالق الكون ، إن خالق الكون ينظر إليهم نظرة عطف .

« أكلمهم وأنظر إليهم سبعين مرةً في كل يوم » .

---

(١) سفينة البحار ، المجلد الأول ، ص ٤١ .

(٢) سورة الحج ، الآية : ٣٠ .

هذهِ أمثلة ، بمعنى أني أكلم هؤلاء العباد كثيراً ، وأنظر إليهم نظرة لطف وأفضل مكان في الجنة يكون من حصة هؤلاء ، لهم قصور من الدرّ والمرجان ، وغذاؤهم لذات وكلام ونظرات المعشوق للعاشق نظرات المولىٰ للعبد .

ثم يقول : من هم الذين ينظر الله إليهم نظرة لطف ؟ يقول : المسجونون ، والإمام نفسه يفسر معنى المسجون : « **سجنت أنفسهم عن الكلام وسجنت بطونهم عن الحرام** » نقرأ في الروايات : إذا توخىٰ المرء الحذر من ثلاثة أشياء سيفوز حتماً : الأول بطنه وماذا يأكل ، والثاني لسانه وماذا يقول ، والثالث غريزته الجنسية ، وأن لا يعتدي .

على المعلّم ورجل الدين أن يتوخيا الحذر في ما يقولونه . (حتى الكلام الصحيح) حتى ما لا يقبله الناس ، لا يجب أن يتفوه به ، وكما يقول العرب : « **ليس كل ما يُعرَف يقال** » الكثير مِن الأمور مطابقة للواقع وصحيحة ، ولكن لا يمكن أن تقال . نفس الجملة المعروفة بين العوام ، جملة جيدة تلك التي تقال : الصدق الذي يبدو كالكذب أسوء من الكذب الذي يبدو كالصدق . كلا ، بل يجب القول كلاهما سيئان ، أن يكذب المرء ليصدقهُ الناس ، عمل سيّء وذنبه كبير ، حتىٰ الزوج إذا كذب أمام الزوجة أو العكس ، وكذلك أن يتحدث المرء بصدق ، ولكن الناس ترفض كلامه ، يجب أن يتحدث بصورة ينفذ فيها كلامه إلى العقول .

كتاب قابو سنامة كتابٌ جيد ، وكاتبهُ أحد أمراء إيران ، يقول : جئت من مكة إلى تركيا ، كنت فترة عند سلطان تركيا وعقدنا اجتماعات ، ذات يوم ذكرت في الجلسة جملة ، فشاهدته وقد انتابتهُ حالة من الاشمئزاز والنفور ، في أثناء الحوار قلت له : إن في إيران قرية ليس فيها ماء ، والنساء يجب أن تذهب إلى منحدَر الجبل لجلب الماء ، وأن هناك دودةً خضراء موجودة بكثرة إذا دُهست بالرجل وماتت ، يتحول الماء إلى المرورة ، وطبعاً يصعب تصديق هذا الكلام .

يقول : تفوهت بهذِه الجملة ، فشاهدته وقد اشمئز مني ، سكت السلطان ، ولكني قررت أن أبرهن على صدق ما قلته ، لذلك كتبت إلى إيران

أن يهيئوا طوماراً يشهد فيه القضاة والعلماء أن كلامي صحيح . بقيت فترة إلى أن جاء الطومار ، وأتيت به عند السلطان فنظر إلى الطومار ، وقال : كنت أعلم أنك لا تكذب ، ولكني أسألك : الكلام الذي يحتاج المرء إلى أربعين شاهد لإثباته ، لماذا يتفوه به الإنسان ؟ ويُحكىٰ أن شخصاً قال في اجتماع : لقد شاهدت في الهند طيراً تأكل النار لأنه شاهد عدم اقتناع الناس ، لذلك ذهب إلى الهند وجاء بالطير التي تأكل النار . فقال أحد الحاضرين : يا سيد ما الداعي لكي تقول كلاماً يحتاج لكل هذه المتاعب المالية والجسمية ؟ ما الداعي أن يقول المرء كلاماً لا يقبلهُ الناس ؟ كلاماً كهذا نتيجتهُ الأولى أن فيه ضغط القبر .

نقرأ في الروايات : إن شاباً دفن على يد النبي الأكرم (ص) وشارك في غسله وتكفينه ودفنه .

بعد أن وضعوه في القبر وغطوا القبر جاءت أمه عند القبر وقالت : يا ولدي ، لقد كنت حزينة لموتك ، ولكني الآن حين شاهدت أن النبي الأكرم (ص) دفنك بيده لست حزينة ، واعلم أنك سعيد . النبي الأكرم (ص) لم ينبس ببنت شفة ، ذهبت الأم ، فقال : إن القبر ضغط عليه ضغطاً كسر عظام صدره ، قالوا : يا رسول الله ، لقد كان شاباً طيباً ومستقيماً . قال : أجل ، ولكن كان لديه الكثير من « ما لا يعني » « ما لا يعني » هي أن يتفوه المرء بكلام لا جدوى منه لا في الدنيا ، ولا في الآخرة . إن أولى نتائج هذا الكلام هي ضغط القبر . ولكن هذا التأثير وضعي ، وكما قلت إنّ الرجل السيء الأخلاق في البيت ، ولو كان من أهل الجنة ، ولو كان سعد بن معاذ ، سيعاني من ضغط القبر .

أحد رجال أصفهان الكبار ، كان معلماً للأخلاق ، وكان كلامه مسموع بين الجميع ولكن كان سريع الغضب . إلا أني لا أعلم كيف كان في البيت . مرة قلت له : لماذا . . . ؟ فخاطبني بلهجة حادة ، ولكنه سرعان ما ندم على ذلك . كان عصبياً وسيء الأخلاق ، وكان يبكي ودموعهُ تنهمر كالمطر ويقول : ذات ليلة رأيت في المنام أن الناس وضعوني في القبر ، فجاء كلب أسود وتقرر أن يبقى معي دائماً ، في نفس المنام شعرت أن هذا الكلب الأسود من سيئات

خلقي في الدنيا التي تحولت إلى كلب ، كان ينتحب ويقول : كنت حزيناً جداً على ما آلت إليه أموري ، فجأةً شاهدت الإمام الحسين (ع) قادماً ، فعلمت أن خدماتي لأهل البيت لم تذهب سدىً ، لقد أنجدني الإمام الحسين (ع) ، قلت للإمام الحسين (ع) : كيف يصبح هذا الكلب ؟ قال : سأنقذك من براثنه ، وبإشارةٍ من يده يذهب الكلب . واستيقظت من النوم .

لدينا قضايا كثيرة تشبه هذهِ القضية . حدثني أحد مدرسي الحوزة العلمية وقال : إن فلاناً (كنت أعرف ذلك الشخص ، رحمه الله ، كان إنساناً طيباً ومؤمناً بنافلة الليل ، ويأتي إلى صحن معصومه (ع) ويَعمَلُ فراشاً في المدرسة الفيضية ، كان هذا الشخص من معارف ذلك المدرس ، وفي الصيف يقطن في بيت المدرس وكانا صديقين ، مات ، ذات ليلة رأيتهُ في المنام ، وقد تحول إلى كلب ، فتعجبت ، وقلت : يا فلان أهذا أنت ؟ قال : أجل ، سلامٌ عليكم ، قلت : لماذا غدوت كلباً ؟ قال : الويل من سوء الخلق ، لقد كنت سيء الخلق في البيت . وسوء الأخلاق جعلني بهذا الشكل ، ثم قال : تعال يا سيد لترى قبري . يقول : ذهبت عند قبره فرأيت ثقباً في القبر . قال : يا سيد عندما وضعوني في القبر تحمّلت ضغطاً خرجت على أثره كافة الزيوت من بدني ودخلت في هذا الثقب ، لو كان الثقب كبيراً لشاهدت كيف سُحقت تحت وطأة المضغطة الإلّهية . الكلام فيه ضغط القبر ، سوء الأخلاق في البيت (الرجل أو المرأة) فيه ضغط القبر ، ويحوّل هوية الإنسان إلى شيء آخر ، وهذا بحث يحتاج إلى وقت أكثر .

كلامنا ، وبالأخص سلوكنا ونياتنا كيف تصنع لنا ملكة ، والملكة تصنع لنا هوية ؟ مراراً يصنع لنا الكلام الذي في غير محله ملكة والملكة هوية . تسلب من الإنسان إنسانيتِهِ ، وإذا كان كلامه للسخرية يتحول شيئاً فشيئاً إلى كلب ، وكذلك إذا كان يجرح شعور الآخرين أو يستغيب أو يقذف أو يكذب ، وأن يكون نمّاماً أيضاً يتحول إلى كلب .

إذن ، علينا أن نوقف لساننا عند حده ، نعرف الكثير من الأشخاص الذين أدىٰ بهم المزاح عدم التروي والكلام الغير مُجدي إلى الضياع ، ونعرف الكثير

الذين برزت لديهم مشاكل عائلية من جراء ذلك وكما يقول الشاعر :

« من الصعب إعادة الإناء المكسور إلى ما كان عليه » .

فيا سيد إذا جرحت مشاعر زوجتك ، ولم يندمل الحرج وخرج الحب من قلبها حينذاك يصعب إعادة المياه إلى مجاريها ، لقد رأيت الكثير من النساء اللاتي أدىٰ طول لسانهن إلى أن تتجمع الضغينة قطرةً فقطرةً ، ثم تصبح بحراً ، الخلاف العائلي أدىٰ إلى الطلاق حيث أذللن أنفسهن وأطفالهن . في البداية لم تكن أكثر من جملة ، ولكن نفس الجملة وطول اللسان أوصل الأمور إلى ما لا تحمد عقباه ، كان ابن المقفع من الأدباء الإيرانيين في عهد المنصور الدوانيقي . خلفاء بني العباس بالأخص المنصور ، وهارون ، والمأمون ، كانوا يشغلون الناس بالقصص والأدب اليوناني والفارسي والعربي والترجمة . وكان مقرباً جداً في البلاط العباسي ، لكونه أديب ، وكانت كلمتهُ مسموعة لدى الجميع ـ العلم أحد عوامل الغرور ، إذا لم يتوخَ المرء الحذر مثلاً ـ قد يكون لديه شهادة إعدادية أو بكالوريوس ، ومع أنه يعلم أنها لا تساوي شيئاً ، ولكنها تجلب الغرور ـ ولأن ابن المقفع لم يتوخَ الحذر وقع في الغرور ، بحيث وصل غروره إلى مدى كان يسخر من الولاة (المحافظين) الذين يأتون إلى البصرة مثلاً عندما كان يأتي قائمقام الوالي إلى الجلسة ، كان يقول : سلام عليكما ، فكانوا يقولون : إنه واحد ، فلماذا السلام عليكما ؟ يقول : سلامٌ له ، وسلامٌ آخر لأنفهِ الطويل ، فكان الناس يضحكون وتصبح النكتة عقدةً لذلك الشخص ، أو أنه كان يسأل في الجلسة إذا مات الرجل ، وكان لديه زوج وابن وبنت كيف يُقسم ميراثه ؟ فكان الناس يضحكون ، ابن المقفع لم يكن يعلم أية مصيبة يجنيها على نفسه، مثلاً في جلسةٍ ما، كان وكيل الوالي يقول : إني لست نادماً على السكوت ، ولم أتضرر من ذلك .

فكان ابن المقفع يقول : نعم لأن أفضل الأشياء لك هو السكوت ، بمعنى أنك جاهل ولا تفهم « المرءُ مخبوء تحت لسانه » وعندما ثار عم المنصور الدوانيقي على المنصور هُزِمَ وهَرَب ، ثم جاء الناس إلى الناس والتمسوا أن يعفي المنصور عن عمه . قال : قولوا لابن المقفع أن يكتب كتاباً لكي أوقعه ،

ولكن ابن المقفع كان مغروراً ، ولم يتـوخَ الحذر في قلمه .

أستاذنا الكبير آية الله البروجردي ـ رحمة الله عليه ـ منذ أن تولى المرجعية إلى أن مات لم يمسك القلم ، ولم يوقع حتى تـوقيعاً واحـداً ، ولذلـك فإنَّ التواقيع الموجودة في الحوزة العلمية عبارة عن ختم أو صورة طبق الأصـل ، ولكنه كان قد قرر أن لا يمسك القلم بيده أبداً .

المعلم أو الإنسان الوجيه عليه أن يتوخىٰ الحذر في كلامهِ وقلمهِ وغدواته وترحاله ، أعرف الكثير من الوجهاء الذين شاركوا في جلسة في غير محلها (مع أن ذلك لم يكن ذنباً) وضيّعوا أنفسهم .

إن ابن المقفع أهلك نفسهِ بقلمه . كتب ، التزم منصور الدوانيقي إذا كان لديه عمل مع عمه ، أن تفنىٰ خلافته وأن يُنحّىٰ ، وأن يعطىٰ ماله للصدقة ، وأن تطلق امرأته وأن يطلق سراح عبيده . كان يريد أن يستفيد من أدبه ، فكتب كتاباً على هذا الطراز .

عندما جاءوا بالكتاب إلى المنصور ، غضب جداً ومزّق الكتاب ثم كتب خفيةً كتاباً إلى الوالي بأن يقتل ابن المقفع بحيث لا يشعر أحد ، وهذا ما كان يتمناه الوالي . فنادىٰ الوالي على ابن المقفع فجاء هو وحماره وخادمه إلى الذي كان يستهزىء بـه . فأعـطى الوالي كتـاب المنصور إلى ابن المقفـع ، فهوىٰ ملتمساً العفو ، أمر الوالي بإعداد التنور ، وجاءوا بابن المقفع المسكين عنـد التنور ، فقطع أنفهُ أولاً قال : سلامٌ عليكم والقرابة داخل التنور ، وقطّع يديه ورجليه ، وقال : وهذهِ بدل الاستهزاء . معلومٌ أن ابن المقفع كان يحتضر عندما ألقوا به في داخل التنور ، تأخر الخادم قليلاً إلى أن حان الظهر ولم يأتِ ، قرع الباب وقال : يا ابن المقفع ، فجاءه الجواب ليس موجوداً هنا ، فتجمع الناس وذهبوا إلى المنصور ، وقالوا : إن ابن المقفع ذهب عند الوالي ، ولم يخرج من عنده ، فقال المنصور الذي كان يعلم حقيقة الأمر : سأقتص من الوالي بدلاً عنه وسأقتله ، ولكن إعلموا أنـه إذا عُثـر على ابن المقفـع سـأقتلكم جميعـاً ، والخلاصة هكذا يحترق ابن المقفع ويفنىٰ .

لكن لماذا ؟ بسبب لسانه الطويل ، ولاستهزائه بالآخرين وغروره من أجل

ضحكة في غير محلها .

كان شخصٌ ضيفاً عند أحد الحكام ، فجاءوا بطيرين مشويين فابتسم . قال : لماذا ضحكت ؟ قال الضيف : لدي قضيته ، في أيام الشباب عندما كنت من قطاع الطرق أخذت أموال أحد التجار وأردت أن أقتله ، فكان يلحّ عليّ بأن لا تقتلني ، فجاء هناك طيران فالتفت إلى الطيرين ، وقال : أريد منكما أن تشهدا أني قتلت مظلوماً فضحكت من قول التاجر ، وسخرت منه وقلت له : ماذا تقول ؟ الآن تذكرت تلك القضية . فابتسمت لذلك . ومع أنه كان صديق الحاكم يقال صَرَخَ : يا جلاد، هذان الطيران هما نفس الشاهدين إذهب واضرب عنق هذا الرجل ، وآتني به . ضحكة في غير محلها ، كلامٌ في غير محله ، علاوة على ضغط القبر أحياناً يجلب العقد والخلافات العائلية والعداوات . على الإنسان المسلم أن يتوخى الحذر في كلامه ، بالأخص أنتم صفوة المجتمع ، لا تنطقوا بكلامٍ تافه ، فكروا أولاً ثم تكلموا والأهم من ذلك أرجو منكم أن لا تجرحوا مشاعر زوجاتكم في البيت . إن أول مصيبة تحل بأولئك الذين يجرحون مشاعر الآخرين أنهم يفقدوا سيادتهم على القلوب ، ويصبحوا منفورين من قبل المجتمع ، ومن ناحية روايات أهل البيت (ع) هذهِ اللدغات تتحول إلى عقرب وأفعى وذئب تعض الإنسان في القبر والبرزخ ، وفي طابور المحشر في جهنم .

أنتم إذا سمعتم أن الأفعى والعقرب تلدغ الإنسان في القبر وجهنم ، إنها لدغات ألسنتنا . يقول القرآن :

﴿ يومَ تجدُ كلُّ نفسٍ ما عملتْ منْ خيرٍ محضراً وما عملتْ منْ سوءٍ تودُّ لوْ أنَّ بينها وبينهُ أمداً بعيداً ويحذركمُ اللّهُ نفسهُ ﴾(١) .

فيا أيها الناس ، إن الله يحذرك ، احذر ، وكن على يقين أينما تعمل وأيما تقول يتجسم ، إذا كان طيباً فهو معك في القبر وفي البرزخ وفي القيامة ، وإذا كان سيئاً فهو معك بشكل أفعى وعقرب وكلب فتّاك . وكما يقول المثنوي :

---

(١) سورة آل عمران ، الآية : ٣٠ .

بواسطة لدغات اللسان تعضك الذئاب التي أعددتها .

إلهي ، أقسم عليك بعزتك وجلالك أن تمنّ علينا جميعاً بالوعي وأن نتوخى الحذر في كلامنا ونياتنا وسلوكنا وأن نوفّق لما فيه طاعتك وعبوديتك وترك معصيتك . إلهي ، بعزتك وجلالك نقسم عليك ، أن تدلّنا على ما فيه رضاك ، وأن تمنعنا عما فيه سخطك وغضبك .

البحث الخامس عشر

« عبودية اللّه »

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ربِّ اشرح لي صدري ويسِّر لي أمري واحلل عقدة من لساني ، يفقهوا قولي ﴾ .

القرآن الكريم فيه جذابية ، ويضيء القلب ، « **وانصتوا** » بمعنى أن عليكم أن تسكتوا جميعاً . يقول أحد علماء أصفهان : كُنا مع جماعة متوجهين إلى الحج وفي المدينة مات أحدنا ، وبعد دفنه عقدنا مجلساً للفاتحة ، ودعونا أحد قرّاء السنة ليأتي ويقرأ القرآن . جاء القاريء إلى المجلس وجلس ، ولكن لم يقرأ القرآن . قلنا له : إقرأ القرآن . قال : إنكم مشغولون بالكلام ولن أقرأ القرآن إلى أن تسكتوا . سكتنا جميعاً ، فوجدناه لا يقرأ القرآن قال : طريقة جلوسكم لا تتناسب مع مجلس القرآن . فجلسنا بطريقة أفضل ، ولكنه لم يبدأ بقراءة القرآن ، قلنا : إقرأ ، قال : لا يَزال المجلس غير مناسب لقراءة القرآن ، لأن البعض في أيديهم شاي وسجائر . فتركنا الشاي والسجائر ، فتلىٰ القاريء السني آيةً من القرآن وغادر المجلس . الآية التي تلاها كانت : ﴿ **وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا** ﴾[1] .

لذلك أرجو منكم جميعاً ، أن تستمعوا للقرآن لدى تلاوته فذلك واجب من مسؤولياته احترام القرآن ، ومفيد أيضاً لتقوية روح الإنسان .

---

(١) سورة الأعراف ، الآية : ٢٠٤ .

إن التكلم أثناء تلاوة القرآن ، تطاولٌ على القرآن . وحسب رواية عن النبي (ص) فإن القرآن يلغي الذين لا يحترمونه ، قال النبي الأكرم (ص) : « **وإذا التبست عليكم الفتن كقطع الليل المظلم فعليكم بالقرآن فإنه شافع مشفع ، وما حل مصدق ، ومن جعله إمامه قاده إلى الجنة ومن جعله خلفه ساقه إلى النار** »[1] .

إذن من اللائق أن تسكتوا في جلسة القرآن وأن يستمع المستمعون بمنتهى الأدب والاحترام لتلاوة القرآن .

أستاذنا الكبير آية الله العظمى البروجردي ـ رحمة الله عليه ـ ينقل عن أستاذه المرحوم آغا ميرزا عبد المعالي الأصفهاني أنه قال : « إذا كان في غرفةٍ ما قلمٌ كتب به فقه الشيعة ، أنا لا أنام في تلك الغرفة ، وإذا أردت أن أنام فيها ، أخرج أتعلم أولاً ثم أنام » .

حين يتحدث أحد علماء الشيعة هكذا ، يتضح أن احترام الكتب الفقهية وكتب الروايات وبالأخص احترام القرآن الكريم مهم جداً .

وأما بحثنا :

بحث حول معركة الداخل التي نعاني منها جميعاً ، وهذهِ المعركة مستمرة وأبدية في داخلنا ، وأعتقد أن هذا البحث مهم جداً .

نستشف من الروايات الشريفة أن النبي الأكرم (ص) سمّى هذهِ المعركة « الجهاد الأكبر » وقال : إن النضال في هذهِ الجبهة أهم من الجهاد في جبهة الحرب .

معركة الداخل هي الجهاد الأكبر ، وإذا لم ننتصر في هذهِ الحرب ، فإن الهزيمة في جبهة الحرب الخارجية ليست ذات أهمية ، لأن حرباً بدأت في سبيل الله ، ولم نتمكن من دحر العدو ، لذلك استشهدنا والشهادة في طريق الإسلام أكبر مَجْد .

---

(١) بحار ، المجلد ٩٣ ، ص ١٧ ، الحديث ١٦ .

ولكن إذا هزمنا في معركة الداخل ، فذلك مدعاةٌ للهوان ويصبح الإنسان أدنى من أي حيوان . القرآن الكريم يقول : ﴿ إنَّ شرَّ الدوابِّ عندَ اللّهِ الصمُّ والبكمُ الذينَ لا يعقلونَ ﴾(١) أن الذي يُهزم في هذهِ المعركة يصبح أدنى من ميكروب السرطان والجزام . ولكن إذا انتصر المرء في معركة الداخل ، أعزّه الله . في سورة الفجر حيث قال : ﴿ يا أيتها النفسُ المطمئنةُ ارجعي إلى ربِّكِ راضيةً مرضيةً فادخلي في عبادي وادخلي جنتي ﴾(٢) .

هنالك رواية بأن هذهِ الآية وردت بالإمام الحسين (ع) والله يقول : يا من لديك نفسٌ مطمئنة ، تعالى ، تعالى ، إلى جانب الحسين (ع) ، تعالى ، إنك مع الإمام الحسين (ع) في مكان واحد ومتعتك أنك جليس وأنيس مع الإمام الحسين (ع) تعالى ، تعالى فأنا راضٍ عنك ، وأنتَ راضٍ مني ، تعال ليس إلى الجنة العادية بل إلى جنتي .

إذن يمكننا أن نقول : إن هذهِ المعركة تبدأ من نقطة ، وفيها ذروة القمة ، وفيها السقوط إلى الهاوية ، ذروتها مصداقٌ لآيةِ : ﴿ يا أيتها النفسُ المطمئنةُ ﴾ وسقوطُها آية : ﴿ إن شرَّ الدوابِ عندَ اللّهِ الصمُّ البكمُ الذينَ لا يعقلونَ ﴾ المعلمون الذين هم صفوة المجتمع ، وبيدهم مَصيرهُ ، وهم مُربّو أجيال الغد ، يجب أن يهتموا كثيراً بهذا البحث .

البحث يتركز وحول ماذا نفعل لكي نفوز في هذهِ المعركة ونكون مرفوعي الرأس ؟ .

القرآن الكريم دلّنا على بعض السبل من بينها رحابة الصدر وأن يكون القلب كالبحر ، وهذا ما يستشف من سورة الانشراح .

والآن بما أنكم أيها الأعزاء تكررون السؤال حول ماذا نفعل لينشرح صدرنا ؟ أقرأ لكم رواية عن الإمام الصادق (ع) : المرحوم الشيخ البهائي ـ عليه الرحمة ـ ينقل في الكشكول رواية عن الإمام الصادق (ع) ويقول : إن سفيان

(١) سورة الأنفال ، الآية : ٢٢ .

(٢) سورة الفجر ، الآيات : ٢٧ ـ ٣٠ .

الثوري قال : من أجل أن أحصل على رحابة الصدر وضياء القلب ذهبت عند الإمام الصادق (ع) (لأنه من الممكن أن يتغير الإنسان أثر مشاركتهِ في جلسة أو لدى استماعهِ لكلمة ، لقد شاهدت أو شاهد الكثير من الأشخاص الذين غمرتهم التعاسة وتغيروا من جراء كلمة واحدة ، لذلك يقول سفيان الثوري : ذهبت إلى الإمام الصادق (ع) لكي أتغيّر) يقول : عندما جلست في محضر الإمام (ع) لم يقبلني الإمام، وقال عندي عمل ولذلك لا أستطيع أن أجلس معك ـ سفيان الثوري لم يكن إنساناً طيباً جداً ـ إنه يقول : لأن الإمام (ع) لم يقبلني ، خرجت من هناك ، وذهبت إلى قبر النبي الأكرم (ص) وصليت هناك ركعتين وتوسلت بالرسول الأكرم (ص) وقلت له : يا رسول الله ، أرجو منك أن تجعل الإمام الصادق (ع) يقبلني وأن يُرفق بي . (لأن الله مقلب القلوب والنبي الأكرم (ص) والزهراء ـ سلام الله عليها ـ والأئمة الطاهرين ـ عليهم السّلام ـ هم واسطة فيض هذا العالم . إذن ، هم الذين يجب أن يغيروا الإنسان وهم الذين يجب أن يحببوا الإنسان لدى الآخرين) يقول سفيان : بعد أن توسلت ، جئت عند الإمام الصادق (ع) ، واستقبلني الإمام (ع) بحفاوة ، فعلمت أن توسلي قُبِل من قبل النبي الأكرم (ص) . قال لي الإمام الصادق (ع) : جئت إلى هنا لكي ينشرح صدرك ؟ قال سفيان : أجل يا بن رسول الله ، جئت عندكم ليتنور قلبي وينشرح صدري .

قال الإمام (ع) : يا سفيان ، إذا أردت انشراح الصدر عليك أن تواظب على ثلاثة أشياء :

١ ــ يا سفيان ، إعلم أنك عبد ، وهو مولىٰ ، ولأنك عبد يجب أن تكون مطيعاً مئة بالمئة لمولاك .

حول هذا الموضوع تذكرت قصة لا بأس من ذكرها :

شاهد غلام مؤدب وعاقل مولاه مهموماً . فقال له : لماذا أنت مهموم ؟ قال : إني مديون والتفكير في الديون سلبني الراحة . قال الغلام : حسناً ، خذني إلى سوق الرقيق ، واعرضني للبيع وبثمني سدّد ديونك .

قال : إن لدي قروضاً كثيرة وثمنك لا يكفي لعُشر قروضي .

قال الغلام : بنفس المقدار الذي أنت مقروض به ، سعِّرني .

قال المولى : إنهم لا يشترونك بهذا السعر .

قال الغلام : قل للزبائن إن هذا الغلام لدية صفة حسنة جداً وارتفاع سعرُه ناجم عن حيازته تلك الصفة ، إن تلك الصفة هي أنه يعرف جيداً أسلوب العبودية .

مرحىٰ لهذا الغلام . طبعاً لم يفهم ماذا يقول : جاء بالغلام إلى سُوق بيع الرقيق وسعّره بسعر يعادل عشرة أضعاف سعرهُ الطبيعي ، مثلاً إذا كان السعر المعمول به لهذا الغلام عشرة آلاف تومان ، كان يقول إني أبيع هذا الغلام بمئة ألف تومان . كل من كان يسمع يضحك ، إلى أن سأل إنسانٌ عاقل سبب ارتفاع سعر الغلام ، قال المولىٰ : إن ارتفاع سعر الغلام يرجع إلى أنه يعرف طريقة العبودية جيداً .

قال الرجل : إذا كان كما تقول فإن قيمتهُ أكثر من ذلك ، إني أشتري هذا الغلام بشرط أن تكون لديه هذهِ الصفة ، وإذا لم تكن لديه هذهِ الصفة يحق لي فسخ الصفقة .

وهذا ما يجري في الصفقات الفقهية ، إذا اشتريتم مثلاً بيتاً بشروط ولم تتواجد فيه تلك الشروط يحق لكم فسخ الصفقة .

وخلاصة الأمر : دفع مبلغ المائة ألف تومان، وأخذ الغلام للبيت ، ومن أجل أن يعرف هل الغلام طريقة العبودية أم لا ، أمر بضربه بالسوط . ضربوه بالسياط ، فكان الغلام لدى ضربهِ بالسوط لا يبكي ولا يتأوّه ولا يسأل عن سبب ضربه بالسوط .

أمر الرجل بترك الغلام ، ثم قال للغلام : ألم تكن تشعر بالألم ؟ قال : نعم . قال : ألم تكن تُضرب بدون سبب ؟ قال : نعم ، قال : إذن لماذا لم تحتجّ على ذلك ؟ .

قال الغلام : أنا عبد وأنت مولىٰ ، ولا يليق أن يسأل العبد عن سبب تصرفات مولاه ، العبد يجب أن يكون مطيعاً لمولاه مائة بالمائة . إذا أنعمت عليّ

فأنا مطيع لك ، وإذا ضربتني بالسوط أنا مطيع لك أيضاً . مرحىٰ لهذا الغلام ! .

بابا طاهر ـ رحمة الله عليه ـ يقول في هذا المجال :

واحد يحب الداء وواحد يحب الدواء	واحدٌ يحب الوصول وواحد يحب الهجر
أنا من الداء والدواء والوصل والهجر	أحب ما يحبه المعبود

طبعاً في قصة العبد ومولاه هذه ، القصة خطأ أساساً ، بمعنى لا يحق للمولىٰ أن يضرب العبد بالسوط ، وهذهِ العبودية والموالاة تصدق بحق الباري عزّ وجلّ فحسب ، لأننا عندما نطمئن إلى الله حكيم وأدركنا أن الله عادل ورحيم نصبح مطيعين له وإذا أنزل الله بنا مصيبة ومشكلة نعلم أن فيها حكمة وليست ظلماً ، بل هي رأفة من جانب الله ، ونستطيع أن نستفيد من هذهِ المصيبة . كما إذا أنعم الله علينا ، فنحن مطيعون ونحب ما يحبه المعبود ، الذي لم يدرك بعد موقفه كعبد يصبح مصداقاً للآية الكريمة :

﴿ إنَّ الإنسانَ خلقَ هلوعاً ، إذا مسَّهُ الشرُّ جزوعاً ، وإذا مسّهُ الخيرُ منوعاً ﴾[1] و ﴿ كلّا إنَّ الإنسانَ ليطغىٰ أنْ رآهُ استغنىٰ ﴾[2] .

إن هذا الإنسان ليس عبداً ، بل هو إنسان مذبذب :
﴿ مذبذبينَ بينَ ذلكَ لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ﴾[3] .

وكما يقول أمير المؤمنين (ع) : هذا الإنسان كالبعوضة ، لا ثبات لديه ، تأخذه رياح المصيبة ، كما ستأخذه رياح النعمة .

أمير المؤمنين علي (ع) يصف العبد في نهج البلاغة فيقول :
« المؤمن كالجبل الراسخ ، لا تحركه العواصف » .

جاء أحد أصحاب الإمام الصادق (ع) وأراد أن يمتدح نفسه ، فقال : « يا بن رسول الله ، إني صبور أمام المصيبة وشكور أمام النعمة » .

---

(١) سورة المعارج ، الآيات : ١٩ ـ ٢١ .
(٢) سورة العلق ، الآيتان : ٦ و ٧ .
(٣) سورة النساء ، الآية : ١٤٣ .

قال الإمام الصادق (ع) : ولكننا لسنا كذلك . فاهتز ذلك الرجل الذي كان يظن أن أسلوبه رائع أمام المصيبة والنعمة ، فقال : يا بن رسول الله ، إذن ما هي الطريقة الصحيحة ؟ .

قال الإمام : نحن نطيع أوامر الله . إذن ، ما يأتي من عنده حسن ، إذا جاءت مصيبة ومشكلة فهي طيبة وإذا جاءت نعمة وسعادة أيضاً طيبة . ابتعدنا عن الرواية . قلنا : إن سفيان الثوري جاء عند الإمام وقال : يا بن رسول الله ، لقد جئت عندكم لكي ينشرح صدري . قال الإمام : يا سفيان ، إعلم أنك عبد وهو مولىٰ .

إذا استطاع المرء أن يدرك أول جملة قالها الإمام الصادق (ع) لسفيان الثوري ينشرح صدره ، ويصبح قلبه كالبحر مطيعاً للباري تعالى . مرحىٰ لمن أطاع ربه وأصبح مصداقاً للآية الكريمة : ﴿ يا أيتها النفس المطمئنة ﴾ وشخص كهذا سيفوز حتماً في صراع الداخل . القرآن الكريم يذكر محاورة للشيطان مع الباري عزّ وجلّ وهنا يبدي الشيطان عجزه في التعامل مع عباد الله المخلصين ويقول : أنا لا أستطيع أن أغويهم ، وليس لدي عمل مع هؤلاء : ﴿ قالَ فبعزتكَ لأغوينهمْ أجمعينَ إلاّ عبادك منهمُ المخلصينَ ﴾[1] حقاً إنه لا فخر يفوق أن يكون الإنسان عبداً لله . أمير المؤمنين علي ـ عليه السّلام ـ يقول :

« كفىٰ بي فخراً أن أكون لك عبداً »[2] .

تعالوا نسعىٰ لكي نكون عبيداً لله ، فهذا المقام أعلى من مقام الرسالة ، لا ننافي التشهد عندما نورد صفة للنبي الأكرم (ص) نذكر أولاً عبوديته ، ثم نذكر رسالته « وأشهد أنّ محمداً عبده ورسوله » يبدو من هذه الجملة أن العبودية تفوق الرسالة ، وقد جاءت الرسالة أساساً لكي تصنع العبد الخالص ، والنبيّ الأكرم (ص) عبد مائة بالمائة .

الجملة الثانية التي أدلىٰ بها الإمام الصادق (ع) لسفيان الثوري :

---

(١) سورة صٓ ، الأيتان : ٨٢ و٨٣ .

(٢) بحار الأنوار ، المجلد ٩ ، ص ٩٤ ، الحديث ١٠ .

يا سفيان ، إذا أردت رحابة الصدر ، عليك أن تنتبه أن مولاك عنده غضب ، كما عنده رضىً . إحذر أن تقوم بأعمال يرضىٰ عنها الله وأن تبتعد عما يغضب الله .

في البحث الذي دار حول آية : ﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة ﴾ قلت : إن إحدى الأشياء التي تقوي الإرادة ، وتنصر الإنسان في تلك المعركة الداخلية ، الاهتمام بأداء الواجبات وترك المحرمات .

إن معنى العبودية هو الاهتمام بالواجبات وأن يتنابك الحرج من الذنب . الذنب مهما كان صغيراً ولكن من أجل أنه يلوث العبودية ، كبير جداً . لذلك نرىٰ أن العبد الحقيقي ، يشعر بالأسى لمجرد ارتكابه لذنب صغير .

يقال : إنَّ أحد أصحاب الرسول الأكرم (ص) وفي إحدى المعارك عندما خرج المسلمون للقتال ، بقي هذا الشخص في المدينة لرعاية النساء ، ذات يوم ذهب إلى بيت رفيقه فوقع نظره على زوجة رفيقه فوسوس له الشيطان ولمس بيده نهد تلك المرأة . المرأة التي انزعجت كثيراً قالت له : « النار ، النار » بمعنى ماذا تفعل ؟ النار ، النار .

هذا التنويه كان له وقع عجيب على ذلك الرجل ، فخرج إلى الشارع لا يلوي على شيء ، وهو يبكي ويصرخ كالمجانين : « لقد أصبحت من أهل جهنم ، لقد أصبحت من أهل جهنم » ، وخرج من المدينة متجهاً نحو الصحراء .

حين عاد النبي الأكرم (ص) من الحرب نزلت الآية بأن توبةِ ذلك الرجل قد قبلت .

قال النبي (ص) : إن توبتهُ غفرت وغُفِرَ له ، اذهبوا وجيئوا به حين جاءوا به ، كان النبي (ص) يصلي في المسجد ، فجلس ذلك الرجل في صف المصلين ، ولكنه كان يخجل أن ينظر في وجه النبي (ص) ، ارتقى النبي الأكرم (ص) المنبر ، ولكن ذلك الرجل أطرق برأسه إلى الأرض ولم يتمكن من النظر إلى النبي (ص) . وعلى سبيل الصدفة بدأ النبي (ص) بتلاوة سورة :

﴿ ألهاكم التكاثر ﴾[1] لينصح بها الناس . وفي هذهِ السورة يوجد أيضاً آيات العذاب ، عندما انتهى من السورة ، فجأةً صرخ ذلك الرجل صرخةً ووقع إلى الأرض مغشياً عليه . فجاء الناس ليروا ما حلّ به ، ولكنهم وجدوا أنه قد مات .

إن ذلك الرجل تاب عن الذنب ، وقبلت توبتهُ ، ولكنه من جراء الخجل الذي انتابه أثر فعلته ما أن سمع آيات العذاب الإلّهي حتى فاضت روحهُ للمعبود .

الكثير من الفقهاء ومن بينهم أستاذنا الجليل قائد الثورة العظيم ، يقولون حول الذنوب : « جميع الذنوب كبيرة ، وليس لدينا ذنوب صغيرة ومن أجل أن يخرج الشخص عن العدالة ، فإن جميع الذنوب كبيرة ولكن فيها ما هو كبير وصغير » .

مثلاً النظر إلى النساء المحرمات ذنب كبير ، ولمس جسمهن ذنب أكبر والأكبر من ذلك ارتكاب العمل المنافي للعفة . إذن كل الذنوب كبيرة ، ولكن فيها درجات .

هنا يجب أن نقول : إن كلام قائد الثورة العظيم ذا مغزى عظيم حينما يقول : « إذا أردنا أن نصل إلى ما نبتغي ، يجب أن تكون في حياتنا ذنوب » .

لذلك ، أرجوكم أن تحاولوا الفوز في هذهِ المعركة الداخلية ، وأن سر انتصارنا هو الابتعاد عن الذنوب ، ورحابة الصدر .

عليكم أن تكونوا رَحبي الصدر وأن يكون قلبكم واسِعاً كالبحر ، وأن تهتموا كثيراً بأداء الفرائض . لذلك يقول الإمام الصادق (ع) لسفيان الثوري : إذا أردت أن تصل إلى ما تريد يجب أن تهتم كثيراً بأداء الفرائض . وكذلك عليك أن تترك معصية الله ، لأن الإنسان الذي يعصي ربّه يواجه غضب الله . لدينا روايات أن الله يقول : « يا عبدي » ، لا تَستَصغر الذنب ، لأنك قد ترتكب ذنباً أخاطبك بعدها : يا عبدي ، لن أغفر لك ، وأنك لن تنال التوبة . ولا تستخف بالثواب ، لأنك قد تقوم بثواب بسيط ، مثلاً أن تجلب قلب أحد

---

(١) سورة التكاثر ، الآية : ١ .

الناس بسلام منك وعلى أثر هذا الثواب أخاطبك : يا عبدي ، لقد وفقت وأصبحت سعيداً ويدّ عنايتي فوق رأسك دائماً .

إذن الجملة الثانية التي قالها الإمام الصادق (ع) لسفيان الثوري إذا أردت انشراح الصدر عليك أن تطيع مولاك .

أما الجملة الثالثة : قال الإمام الصادق (ع) لسفيان الثوري : إنك عبد ، أنت وما تملكه ملك لمولاك « العبد وما في يده كان لمولاه » . إن كل ما يملكه الإنسان من مال وعقل وإرادة وأمان وصحة كلها ملك لله الغني العزيز .

إذا استطاع المرء استيعاب هذهِ الحقيقة بأن كل ما ينتمي له من نعم ظاهرة وباطنة كلها لله ، فلن يغدو الإنفاق في سبيل الله حينذاك أمراً صعباً .

مثلاً ، إذا أعطاكم شخص مالاً لكي تنفقونه على الفقراء ، فإن إنفاق ذلك المال سيكون سهلاً بالنسبة لكم ، لأن المال ليس ملكاً لكم ، بل ملكاً للآخرين .

عندما نؤمن بأن كل ما نملك من الله (حيث يشير القرآن إلى هذهِ الحقيقة في أماكن عديدة) لن نتأخر في الإنفاق بما أمرنا به . يقول : اعطِ خمس مالك ، يقول : انفقوا مما رزقناكم ، أعطاك الصحة والعافية لتستفيد منها في تقوية معنوياتك ، منحك عقلاً ، وقال : استفد من عقلك لصالح الناس ، أعطاك علمك ، وقال : امنح من علمك للآخرين ، وعلّم الآخرين وربِّهم بصبرٍ وتأنٍّ .

حسناً إذا كنا حقاً عبيداً ونعرف أننا لا نملك شيئاً ، فنحن مستعدون أن نعمل ليلاً نهاراً لمجتمعنا ومستعدّون لإنفاق كل ما نملك لعباد الله ، لأنه ليس لدينا شيء ، وكل ما لدينا لله . والله يحبّ أن نكون هكذا .

قال الإمام الصادق (ع) : يا سفيان الثوري ، إذا أردت رحابة الصدر عليك بمراعاة هذا الجزء . حقاً إذا التزمنا بالجملة الثالثة تصلح الكثير من أمورنا وتزول عنا الكثير من الصفات الرذيلة . كان هذا ما قاله الإمام الصادق (ع) حول رحابة الصدر .

وخلاصة القول : إذا أردنا أن ننتصر في هذهِ المعركة الداخلية فإن سورة الانشراح تقول لنا يجب أن يكون لدينا رحابة الصدر . وأيضاً الإمام الصادق (ع) يقول : من أجل الحصول على رحابة الصدر ، يجب أن يكون لدينا ثلاثة أشياء :

١ ــ نكون عبيداً .

٢ ــ مطيعين لله مائة بالمائة .

٣ ــ أن نعلم أن كل ما نملك مُلكاً لله .

عندما تصبح هكذا ، تعلم أنك عبد ويجب أن تغمرك رحمة الباري وليس غضبه ، وأن تهتم كثيراً بالفرائض وأن تجتنب الذنوب وتعلم أن كل ما تملك من الله ليصبح الإنفاق سهلاً .

إلَهي ، بعزتك وجلالك نقسم عليك أن تمنّ علينا جميعاً بالصفات الإنسانية والوعي وضياء القلب ، ورحابة الصدر والتوفيق لعبادتك وعبوديتك وترك معصيتك .

إلَهي ، بعزتك وجلالك نقسم عليك ، أن تهدينا لما فيه مرضاتك وأن تمنعنا عما فيه سخطك وغضبك .

« والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته »

جهـاد النفــس
جــزء ٢

محاضرات الاستاذ المظاهري

ترجمة لجنة الهدى

بسم الله الرحمن الرحيم

ما يزال سيرنا الإلٓهي والملكوتي غير بالغ منتصف الطريق ؛ لكي نجرؤ في زماننا الحاضر على القول : إن طريقنـا ينقصه بعض الشيء ، وإن بعض النفوس الباحثة عن النبع الصافي قد وصلت للتوّ إلى العطش الذي ذقنا طعمه بالأمس .

إن العيون لترنو إلى طريق الشراب الولائي منتظرةً « مسيحاً » آخر يُمارس دوره المرسوم له في الهداية .

وعلى الرغم من انتظارنا وشوقنا لإطفاء هذا العطش حاولنا ولمرات عديدة من جلي الصدأ العالق بالأرواح الظامئة من خلال انتهالنا من المنابع الفيّاضة ضمن « الجزء الأوّل من كتاب جهاد النفس » ، ولكننا لا نزال بحاجة إلى أن ننهل كثيراً لنصل إلى الحالة التي يُضفي بها الله علينا من لطفه ومدده .

وهذا ما حاولنا تقديمَه في جزئنا الثاني لكي يتخلّص طلاب النجاة من قيود العبودية وأسر الأهواء النفسيّة المقيتة .

كلّنا أمل أن ينتفع القرّاء الأفاضل بسيرة نبع الولاية الفيَّاض وأفكار هذا العالم العامل الفقيه العارف ، ليتمكنوا من إزالة الصدأ العالق في النفوس .

وضمن هذه العبارات المختصرة ، نتقدّم بالشكر الجزيل للأستاذ الفقيه ونتمنى له دوامَ الموفقيَّة في هداية المجتمع صوب الأخلاق الإسلاميّة الرفيعة ، ونشكر كذلك الإخوة الأعزّاء الذين ساعدوا في طباعة هذا الكتاب سائلين المولىٰ لهم الأجر والثواب ؛ وما النصر إلّا من عند الله .

الجمعية الإسلامية لمعلّمي قم

السعي والاستقامة في العمل

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ربّ اشرح لي صدري ويسّر لي أمري واحلل عقدة من لساني ، يفقهوا قولي ﴾ .

بحثُنا هذا يدور حول مسألة الجهاد الأكبر وانتصار البعد الإنساني أو الروحي على البعد الحيواني في كوامننا ؛ وقد تطرّقت إلى ورود القوى المساعدة لذلك من خارج الروح الإنسانية ؛ ومن جملة هذه القوى : الصلاة ؛ أو الاهتمام بجميع الواجبات أو الفرائض وبالخصوص الصلاة التي توجب أن يكون الإنسان حاملاً للإيمان العاطفي ، أي الإيمان الذي يرسخ في القلب ويحدوه لتصديق مسألة المبدأ والمعاد ؛ وعندما يصدِّق القلب مسألة المبدأ والمعاد يتمكن من التغلب على النفس الأمّارة بالسوء .

إن عامل انتصار الشباب في جبهات القتال هو الإيمان الذي ترسَّخ في قلوبهم من خلال إدراكهم وهضمهم لقضية المبدأ والمعاد ، ولذا كان بذلهم لأرواحهم عملاً هيِّناً .

أمّا القوة المساعدة الثانية فهي الصبر على المشكلات ، والصبر على العبادات ، والصبر على اجتناب المعاصي .

(سورة طه ، الآيات : ٢٥ ـ ٢٨) .

فمن تمكّن من منع نفسه وردعها عن المعاصي برزت فيه حالة سمّاها القرآن « النفسَ اللوّامة » أو ما اصطلح عليه بالوجدان الأخلاقي ، وهذه النفس اللوّامة تساعد الإنسان كثيراً في انتصاره على البعد الحيواني الذي يصطرع مع البعد الإنساني في حرب ضروس . ﴿ واستعينوا بالصبرِ والصَّلاةِ ﴾[1] .

القوة المساعدة الثالثة هي : التوبة ؛ والتوبة : هي تلاطم أو صراع داخلي يحيد بالإنسان صوب فلاحه ونجاحه وانتصاره على النفس الأمّارة بالسوء .

القوة الرابعة : سعة الصدر أو انشراحه ، فمن أراد الغلبة على المعضلات فليشرح صدره ، لأن أغلب المعاصي هي نتيجة لضيق الصدر وعدم تحمل الضغوط الحياتية أو المصائب الدنيوية ، ولكن سعة الصدر والتروّي في الأمور تمنح الإنسان قدرة على التغلب في حربه الداخلية .

القوة الخامسة : وهي ما تعرّضت لها سورة الانشراح ، فقد جاء فيها : ﴿ فإذا فرغتَ ، فانصب ﴾[1] .

والتفرُّغ هو الخلوّ من الشيء أو إتمامه أو الانقطاع له ؛ والانتصاب هو : الاستقامة في العمل والجد فيه ؛ فمن كان فعالاً في عمله سويّاً تمكن من الانتصار في كل أعماله ، ومن كان على غير ذلك لم يتمكن من بلوغ درجة النصر .

قال نابليون بونابرت عبارة تنفع في موضوعنا هذا وهي : « لا يوجد في معجمي عبارات : لا أعلم ، ولا أتمكن ، ولا يكون » .

وقد تمكن نابليون بقانونه هذا من مواجهة (٢٥) مليون عسكري لينتصر عليهم ويتسلط على مصر .

وكل ذلك راجع إلى تلقينه لنفسه تلك العبارات ، وعليه نقول : من أراد

---

(١) سورة البقرة، الآية ٩١.

(٢) سورة الانشراح، الآية ٧.

تمكَّن ، ومن أراد تعلَّم .

كثيرون هم الأشخاص الذين نعرف عنهم ضعف استعدادهم وقابليتهم للتعلم مثلاً ، ولكنهم أضحوا فيما بعد نوابغ .

وعندما نطالع حياة المخترعين نرى أن استعدادهم للتعلم في بداية الأمر كان ضعيفاً ، فهم أدنى فهما من أقرانهم الذين يتعلَّمون معهم في المدرسة .

وكذا حال عدة من العلماء الإسلاميين إذ لم يكن استعدادهم خارقاً للعادة ، ولكن بلوغ المقامات العليا يتأتّى من العمل والجدية والاستقامة ، وقد أتمكن من حساب (٥٠) نموذجاً من هذا القبيل ، وأستطيع ذكر أسماء أشخاص تمكنوا من اجتياز الموانع الكثيرة باستقامتهم وجدتهم في العمل ووصلوا إلى ما يريدون على الرغم من أنهم لم يكونوا أفراداً أذكياء أو من الذين يمتلكون حافظةً أو استعداداً ذهنياً حادّاً ، بل كانوا أقل من ذلك ، ولكن عملَهم الجديّ المتواصل واستقامتهم جعل منهم علماء ونوابغ ومخترعين .

لو أراد الإنسان تسخير الفضاء لخدمته ، لاستطاع إلى ذلك سبيلاً ، وإذا أراد تسخير نفسه الأمّارة بالسوء لاستطاع ذلك أيضاً ؛ وتسخير النفس والتغلب عليها أسمىٰ وأرقىٰ من تسخير الملكوت وعالم الفضاء .

لقد وصل ميثم التمّار إلى الدرجات العلى باستقامته ، وعمله الجدي على الرغم من كونه أمّياً لا يعرف حتى أوليات الكتابة والقراءة وقد كان في أول حياته عبداً لامرأة أعتقته فيما بعد ليصحب أمير المؤمنين علياً (ع) في قيامه وجلوسه .

وقد وصل ميثم التمّار أن يكون صاحب سر أمير المؤمنين علي (ع) وهذا ليس بالشيء القليل ، لأن الأمر يحتاج إلى استعداد وقابلية .

قال أمير المؤمنين (ع) : « . . . وإنَّ هنا لعلماً جمّاً ـ وأشار إلى صدره ـ ولكن طلابه يسير ، وعن قليل تندمون لو فقدتموني »[1] .

قد يكون الأشخاص الذين أحاطوا بأمير المؤمنين قد تجاوزوا المليوني

---

(١) تفسير نور الثقلين/ج ٤ ، ص ١٦ ، نهج البلاغة/فيض الإسلام ، ص ١١٤٤ ، كلام ١٣٩ .

شخص ، ولكن لم يحظَ أحد منهم بمثل ما حظيَ به ميثم التمّار لكونه من أصحاب سر الإمام علي (ع) ؛ وقد قال ميثم لابن زياد في أثناء اعتقاله : قال الإمام علي (ع) : ستقطع لساني بعد أن تعلّقني لعال ؛ فأجاب عبيد الله بن زياد : سأعلقك ولكن لن أقطع لسانك لأكذب مقولة سيدك الإمام علي (ع) .

جيء بحبل ، وشُدَّ وثاق ميثم ، ثم سحب إلى عال ليبقى معلقاً بين الأرض والسماء ، فراق الأمر لميثم لكونه فاز بهكذا منبر يرومه ، وبدأ باستعراض مناقب أمير المؤمنين على الملأ ، ثم قال : أيُّها الناس ، إني أعلم علم ما كان ، وما يكون ، وما هو كائن ، فعجّلوا بالمجيء إليّ كي أنبئكم بذلك ، ثم أردف يقول : ما عندي من علم فهو من علم علي (ع) باب مدينة علم الرسول الأكرم (ص) ، وقد علّمني إياه لأنني كنت صاحب سره سلامُ الله تعالى عليه .

كان حديث ميثم التمّار ذاك باعثاً لتساؤل الناس واجتماعهم إليه وهو معلّق ، فوصل الخبر لابن زياد ، فخاف من انقلاب الناس عليه وقيامهم لإخراب دار الأمارة ، فأمر بقطع لسانه .

وبعد ثلاثة أيام يأتي شخص إلى حلبة التعذيب ليقول : « يا ميثم أنا أعرف بقيامك والناس نيام ، واستقامتك لوجه الله تعالى ، ولكن من أجل أن يفرح ابن زياد أقتلك » وعندها طعنه برمح اخترق خاصرته ليذهب شهيداً .

ولو قارنّا بين هذين الشخصين لشاهدنا الفرق الشاسع بين سموّ ميثم وسقوط جلّاده الذي تنكّر للعمل الجاد في سبيل الله والاستقامة والصبر عليه ، فهو في البداية يقرُّ برفعة ميثم وبعد ذلك يقتله ؛ ويمكن تمثيل مثل هؤلاء الأفراد بالحشرة التي تقتل نفسها بنفسها ، على العكس من ذلك الإنسان الذي انتخب السير الصعوديّ ليتحرك نحو الأعلى ؛ وقد يطوي البعض مائة عام بصلاة ليل واحدة ، ومصداق ذلك ميثم الذي بلغ مراحل عالم الملكوت في أربعة أعوام صاحب فيها ابن عم رسول الله (ص) فتعلّم منه تأديب النفس الأمّارة لينتصر عليها في جهاد كبير .

كم هو طريف قول الخواجة عبد الله الأنصاري الذي جاء فيه : لا أهمية

لمن استطاع الطيران في الهواء لكون الذباب يستطيع ذلك ، ولا أهمية لمن استطاع السير على سطح الماء لكون التبن يطفو أيضاً على سطحه ، ولكن إذا استطعت أن تكون إنساناً ، تكون قد بلغت شيئاً جليلاً مثلما يبلغ الظمآن الماء ؛ وعندها تستطيع السيطرة على تلك النفس الأمّارة لتجعل منها بُراقاً كبُراق الرسول الأكرم (ص) الذي طلع به إلى السموات العلى ، وعندها تكون قد أنجزت عملاً مهماً .

وبعبارة أخرى يريد الخواجة عبد الله الأنصاري أن يقول : إذا بلغت الهدف ، فأنت إنسان مثالي ، وإذا لم تبلغه ولكن تمكنت من السير بين الأرض والسماء أو على سطح الماء ، فإن المرتاضين الهنود يستطيعون أن يفعلوا ذلك أيضاً ولا فخر لك على أحد .

ولو أمعنت النظر في المشكلات والمعضلات والموانع التي كانت تواجه قائد الثورة الإسلامية في إيران ، لأيقنت استحالة قيام هكذا ثورة ، فالعلماء قالوا بالاستحالة ، والمراجع قالوا بذلك أيضاً والطلاب والمدرسون وعامة الناس كلُّهم قالوا باستحالة قيام ثورة إسلامية .

ولكن الشخص الوحيد الذي قال بصيرورتها ووجوب قيامها بالعمل الجاد والاستقامة ، الذي تمكن من ورود الميدان والانتصار فيه على أعدائه وأعداء الله سبحانه وتعالى هو قائد الثورة الإسلامية مؤسس جمهوريتها .

وبناءً على هذا ، فإن الحرب القائمة في دواخلنا أصعب وأشد من تلك الحرب التي يمكن أن تقوم خارج النفس البشرية ، ومن أراد أمراً وسعى لذلك ، نال ما يريد وفاز بلذّة الانتصار الحقيقي .

إن اليأس والسروح في الخيال من أخطر المسائل التي يمكن أن تلحق الضرر بالإنسان ، وخصوصاً أولئك المحسوبين على دائرة ضعاف الأعصاب والنفوس ، فاليأس والضرب بأنواع الخيالات يردُّ الإنسان إلى الوراء بخطوات مهزوزة ويجعله يردد عبارات : « لا يمكن » و« لا أستطيع » و« مستحيل » بالرغم من خطأ الارتكان إلى هكذا عبارات بنظر الإسلام ، وعلم النفس والتجربة والتاريخ .

انظر إلى التاريخ وشاهد كيف تحوّلت المستحيلات إلى ممكنات ، فالرسول الكريم محمد (ص) على الرغم من العقبات والموانع الكثيرة التي اعترضته عشر سنوات في المدينة وبروز (٧٤) حرباً أو غزوةً ، فهو لم يكن يائساً من بزوغ شمس الانتصار .

لقد تعرّض (ص) للضرب والشتم ، وتعذيب أصحابه وأحبابه وتعريضهم للمجاعة في شعب أبي طالب ثلاث سنوات متتالية حتى بلغ الأمر مبلغه في موت أبنائهم من الجوع والعطش الذي أصابهم آنذاك ، وعرض المشركون على الرسول (ص) أن يترك هذا الأمر على أن يجعلوا أثراهم ويزوجوه أجمل بناتهم ، ويطيعوا له إن أراد رئاسة مقابل عدم التعرض لأوثانهم وأصنامهم ، ولكن الرسول الأكرم (ص) أبَى ألاّ أن ينشر دين الله ـ جلّت قدرته ـ بمواظبته على العمل الجاد المقترن بالصلابة والإصرار .

كان المرحوم الملا صالح المازندراني تلميذاً عند المجلسي وزوج ابنته ، وكانت تلك الابنة من النساء الجليلات العالمات المتخصصات في الفقه والأصول .

يقال : إن الملا صالح وفي أول ليلة عرسه كان مشغولاً بإحدى المسائل المستعصية عليه ، وما إن مضى من الليل ثلثاه حتى بدا التعب على الملاّ صالح فترك المسألة وخرج من حجرته إلى باحة الدار ، ليستنشق الهواء النقيّ ، وعندها تدخل العروس حجرة الدرس لتحلّ المسألة دون أن يشعر بذلك الملاّ صالح ؛ وعند رجوعه ثانيةً إلى حجرته رأى حلّ مسألته ؛ فانتبه حينئذ إلى عروسه التي تركها لوحدها .

لقد كتبوا كثيراً عن الملا صالح ، وضعف حافظته التي تخونه في بعض الأحيان ، فلا يعرف كيف يرجع إلى داره ، ولكن هذا الشخص الذي كان يضيع مكان داره تمكن بتأثير العمل الجاد والإصرار على النجاح والاستقامة من كتابة أفضل شرح للكافي ، حيث لا يتأتّى لأحد أن يكتب هكذا شرح إلا من كان متخصصاً في الأصول ، وإذا ما أردنا طباعة شرحه ذلك لأضحى (٣٠) مجلداً إذا ما قيس بالكتب ذات القطع المتوسط .

كتب الغزالي في إحياء العلوم : تزامن سفر شابّين إلى الحج في آن واحد ، وعند منتصف الطريق نزلا معاً في مكان واحد ، فذهب الأول لتهيئة الطعام ، وجلس الثاني لقراءة القرآن ؛ وعند عبور إحدى فتيات سكان البادية من هناك وكان غرضها الاستجداء ، وهي ذات جمال ، أخرج قاريء القرآن من أمواله شيئاً ليتصدّق به عليها ؛ وما إن رفع رأسه ليشاهد وجهها حتى شعر بتلاطم روحه الّتي كانت تصطرع معه لإحساس فيه بالذنب ، فبدأ بالبكاء كامرأةٍ فقدت طفلاً لها ممّا اضطر الفتاة الجميلة للفرار من ذلك المنظر العجيب .

جاء صاحبه ليشاهده على تلك الحال فسأله عن السبب في ذلك ، ولكنّ الفتى لم يستطع الجواب من شدّة الانزعاج الذي كان يشعر به ، ولكنه استطاع أن يتفوّه بجملة هي : إلّهي أدركني ! لقد قاربت على المعصية ؛ وما إن سمع صاحبه بذلك حتى انهالت دموعه ، فسأله الشاب : لماذا تبكي أنت ؟ فقال : لو كنت مكانَكَ لوقعتُ يقيناً بالخطيئة والمعصية !! .

كيف يمكن للإنسان أن يصل إلى حالة من السيطرة على النفس الأمّارة بالسوء ؟ .

وكيف يتأتّى له الانتصار في هذه الحرب الداخلية ؟ .

يقول القرآن المجيد : ﴿ فإذا فرغتَ فانصبْ ﴾[1] ، أي : عليك أن تعمل بجدّ ونشاط وإصرار على أن تنجح مستفيداً من الاستقامة في العمل لتصل إلى الدرجات العُلى ؛ وإذا افتقر العمل إلى النشاط والجدية أضحىٰ ناقصاً .

وعلى حدّ قول الإمام موسى بن جعفر الكاظم (ع) : « إيّاك والكَسل والضجرَ ، فإنّهما يمنعانِ حظّك من خيرِ الدُّنيا والآخرة »[2] .

قال موسى (ع) : « يا ربِّ ! أيُّ عبادك أبغض إليك ؟ قال : جيفةٌ بالليل بطّال بالنهار »[3] .

---

(١) سورة الانشراح، الآية ٧.

(٢) وسائل الشيعة/ج ٦٦ ، خ ١ .

(٣) بحار الأنوار/ج ٧٦ ، ص ١٨٠ .

وقال تعالى في محكم كتابه : ﴿ وابتغِ في ما آتاكَ اللّهُ الدارَ الآخرةَ ولا تنسَ نصيبَكَ من الدُّنيا ﴾[1] .

وقال أيضاً في محكم كتابه : ﴿ إنَّ لكَ في النهارِ سبحاً طويلاً ﴾[2] ، وجاء أيضاً : ﴿ قمِ الليلَ إلاّ قليلاً ﴾[3] .

إن ذلك الخطاب الموجَّه إلى الرسول الأكرم (ص) بشكل خاص وإلى العباد بشكل عام يؤكد العمل والنشاط اليومي ، والقيام لصلاة الليل .

ومن فعل ذلك أوصله الباري إلى ما يريد في الدنيا والآخرة .

وإن هؤلاء الشباب الذين يعملون جاهدين لدفع العدو الظالم عن بلادهم هم من الذين تركوا الكسل والضجر وباتوا يرومون السموَّ والرفعة رافضين كل أنواع الانحطاط والسقوط الذي يتأتَّى من الكسل والضجر .

يقال : إنَّ موسى (ع) أمرَ بني إسرائيل بصلاة الليل مثلما أمرهم بدخول الأرض المقدسة التي كتب الله لهم فأبَوا ، وسألوه أن يدعو ربه أن يخرج لهم مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها ، فابتلاهم الباري تعالى بالتِّيه ، يتيهون في الأرض أربعين سنة . (الإصحاح الثاني والثلاثون من سفر الخروج) .

هذه هي المرحلة الأولى من مراحل السقوط والانحطاط وآخرها التكذيب بآيات الله كما جاء ذلك في القرآن الكريم : ﴿ ثم كانَ عاقبةَ الذينَ أساؤوا السوأىٰ أنْ كذَّبوا بآياتِ اللّهِ ﴾[4] .

فالسقوط والانحطاط هو أن يصل الإنسان إلى مرحلة يتنكَّر فيها مثلاً للمبدأ والمعاد ، ويصل إلى أكثر من ذلك وهو التلذذ بالمعصية ؛ وقد كتب بعضهم بصدد الحرب التي قامت بين كندا وأفغانستان ؛ إن الكنديين كانوا يلتذّون بتعليق

---

(١) سورة القصص، الآية ٧٧ .

(٢) سورة المزمل، الآية ٧ .

(٣) سورة المزمل، الآية ٢ .

(٤) سورة الروم، الآية ١٠ .

الأطفال بين جمع من الناس ثم يطلقون الرصاص على رؤوسهم أو صدورهم مع قهقهات عالية .

أو يلتذّون بتجميع النساء والرجال في مكان واحد ، وينادون أحدهم للقيام من جلوسه ليُفاجأ بإطلاقة في رأسه ؛ أو إحراق البيوت على رؤوس ساكنيها مع إظهار حالة التلذذ بذلك بالاحتفال الذي كان يقوم به الكنديّون آنذاك .

قرأنا الكثير عن الحجّاج بن يوسف الثقفي في التاريخ ، وكنا لا نصدق ببعض مواقفه المخزية ، أما الآن وما يمكن أن نشاهده من انحطاط وسقوط يؤكد لنا سيرة الحجاج الوضيعة والمخجلة .

كان الحجاج لا يطعَمُ طعاماً إلا بحضور رأس مقطوع لأحد معارضيه من أولئك الذين قالوا : لا إلَه إلاّ اللَّهُ محمدٌ رسولُ اللَّهِ .

ويقال : جيء بأحد محبِّي أهل البيت (ع) إليه وهو جالس إلى طعامه ، فما دخل عليه حتى قال المحبُّ لأهل بيت الرسول (ع) : « الله أكبر » .

فقال الحجاج : لِمَ قلت : « الله أكبر »؟ .

فأجاب : وهل في ذلك معصية ؟ .

فقال الحجاج : وتتكلم في حضوري دون إذن منّي ؟ يبدو أن لك قلباً قويّاً !! أيُّها الجلاد افتح صدره بسيفك كي أرى قلبه ، فجاء الجلاد وفتح صدره وأخرج قلبه!! فالتذَّ الحجاج بذلك المنظر ليتناول طعامه والدم يسيل من ذلك المظلوم ! .

إن البشر إذا سقط كان كالحجاج الذي لم يعرف غير الهوى وانحطاط النفس المغلوبة على أمرها وهذا ما نراه جليّاً في نفس صدام اليوم الذي هوى وتساقط إلى الحضيض .

إن صداماً لم يكن على الشكل الذي هو عليه الآن حين ولادته ، بل كانت فطرة الله ملاصقة له حين الولادة ، وكذا الحجاج كان مفطوراً على فطرة الله التي فطر الناس عليها ، ولكنه بفعل الخطايا والمعاصي والتمادي في

ذلك صار وحشاً ضارياً لا يعرف إلا التلذذ بسيلان الدماء البريئة .

لقد كان عبد الملك بن مروان يسمى دائماً « حمامة الحرم » لحضوره الدائم في المسجد ، وكان يقول بتأثُّره لقتل بعوضة ، ولكنه تغير بعد ذلك بحيث صارت ترسل إليه الأفواج من الناس لقطع رؤوسهم !! .

ونقرأ في الروايات : أن اليهود قتلوا في ليلة واحدة (١٢٠) نبيّاً من أنبياء بني إسرائيل ليمارسوا أعمالهم المألوفة صباح اليوم التالي بكل هدوء ؛ وهذا هو عين السقوط والانحطاط ، ومن الممكن أن نتزعج لذبح دجاجة ، ولكننا نريق ماء وجه مسلم من خلال اغتيابه أو إشاعة فحشاء أو نصرة ظالم على مظلوم وهذا هو قمة السقوط الذي يبدأ بمراحل أقل من ذلك شدة قد نعتبرها لا شيء .

وأنتم أيُّها المعلمون : لا ينبغي لكم التظاهر بالحب والود لأصحابكم أو لزملائكم الذين يعملون معكم ، وفي غيابهم تكيلون لهم السباب والشتائم ، وتفضحون ما خفي من أعمالهم متلذذين بما تقومون به من تدنٍّ وانحطاط وأنتم لا تشعرون ، حتى تضحى تلك المسائل عادة ملازمة لكم وتضحى مجالسكم مجالس غيبة ونميمة وسوء ـ والعياذ بالله ـ ومن يفعل ذلك سيلقي حسابه في يوم لا تنفع فيه شفاعة الشافعين حيث يبدّل الله جلود المراوغين بجلود غيرها ﴿ **كلما نضجتْ جلودهُم بدَّلناهُم جُلوداً غيرَها** ﴾[1] .

فالهمزُ واللمزُ والغيبةُ والنميمة وما إلى ذلك تؤدي في آخر المطاف بالعامل بها إلى الحطمة ، والحطمة هي نار الله التي أوقدها لكي يلوح بها الإنسان فتطلع على فؤاده الآثم .

﴿ **ويلٌ لكلِّ هُمزةٍ لُمزةٍ ، الـذي جمعَ مـالاً وعدَّدهُ ، يحسبُ أنَّ مـالَهُ أخلدَهُ ، كلَّا ليُنبذَنَّ في الحُطَمَة ، وما أدراكَ ما الحُطمةُ ، نارُ اللّهِ المُوقدةِ ، التي تطَّلعُ على الأفئِدَة** ﴾[2] .

والجدير بالذكر أن البعض من الذين ارتكبوا المعاصي التي جرَّتهم إلى

---

(١) سورة النساء، الآية ٥٦.

(٢) سورة الهمزة، الآيات ١ ـ ٧.

الانحطاط والتدنّي يجادلون الباري تعالى في تعذيبه لهم فيجيبهم جلَّت أسماؤه : ﴿ اخسئوا فيها ولا تُكلِّمونَ ﴾[1] .

فيا أيها الأعزّة : انتبهوا لأفعالكم وأقوالكم ولا تعرضوا أنفسكم للعذاب الأليم الذي أعدَّه الله للمسيئين الخاطئين ، فمن لم يلق حسابه اليوم سيلقاه غداً عند مليك مقتدر ؛ وخلاصة القول : من لم يستطع الانتصار على باطنه سقط وتهاوىٰ وكانت له جهنم مآباً .

يقول عزَّ وجلَّ في محكم كتابه : ﴿ ولقد ذرأْنا لجهنَّم كثيراً منَ الجنِّ والإنسِ لهمْ قلوبٌ لا يفقهونَ بها ، ولهمْ أعينٌ لا يُبصرونَ بها ولهمْ آذانٌ لا يسمعونَ بها ، أولئكَ كالأنعامِ بلْ هم أضلُّ ، أولئك همُ الغافلون ﴾[2] .

---

(١) سورة المؤمنون، الآية ١٠٨ .

(٢) سورة الأعراف، الآية ١٧٩ .

الإخـلاص

بسم الله الرحمن الرحيم

خَلَصَ ـ خلوصاً ، وخَلاصاً : صفا وزال عنه شوبه ، وخلَصَ بنفسه وإلى الشيء : وصل إليه فهو خالص ، وأخلص الشيء : أصفاه ونقَّاه من شوبه ؛ وأخلص لله دينه : ترك الرياء فيه .

فمن تطابقت أفكاره وأعماله وأقواله مع ما جاء في القرآن الكريم فهو مخلص لله سبحانه وتعالى وسيكون الباري دائماً في عونه ونصره في حربه القائمة في كوامنه ليصل بعد ذلك إلى أهدافه السامية .

ومن أجل رفع المعضلات والمشكلات التي تقف حائلاً دون ذلك النصر علينا أن نلتزم الآية المباركة التي تقول : ﴿ إنْ تنصُروا اللّهَ ينصركُمْ ويثبِّتْ أقدامَكُمْ ﴾(1) .

جاء في القرآن المجيد أكثر من مائة آية يتعرض فيها الباري تعالى إلى الوعد بالسعادة للإنسان المتقي في الدنيا والآخرة ، وجاء فيها عشرون آيةً تتجلّى فيها ألطاف الله وعنايته للشخص المتّقي في هذه الدنيا وحمايته له .

فالمتقي لا يعرف ملجأً غير الله تعالى ولا يعرف مكاناً تأتيه منه النعم غيره تعالت أسماؤه وأخيراً فإن الباري يعين المتّقي للوصول إلى الهدف السامي ألا وهو الفوز على نفسه الأمّارة بالسوء في صراعه مع الخلجات والأهواء النفسية

(1) سورة محمد، الآية ٧ .

البغيضة ، ولا يتأتّى للإنسان الفوز بذلك إلا بالالتزام لما أمر الله على لسان رسوله الكريم (ص) وعترته الطاهرة من بعده ـ سلام الله عليهم أجمعين ـ .

فمحرك الإنسان نحو الله هو الفكر والتفكير بالعواقب التي سيُلاقيها البشر بعد انتقاله من دار الفناء إلى دار البقاء ، على العكس من ذلك ، نرى الفرد الذي اتخذ إلّهه هواه ضالاً تائهاً ضائعاً وفي الآخرة وينتظره العذاب الأليم : ﴿ أفرأيتَ من اتَّخذَ إلَهَهُ هواه ، وأضلَّهُ اللَّهُ على عِلْم ﴾[1] .

﴿ أَلَمْ أعهدْ إليكُم يا بَني آدَمَ أنْ لا تَعبدوا الشيطانَ إنَّه لكمْ عدُوٌّ مبينٌ ﴾[2] .

فمن أراد حياة هانئةً سعيدةً بلا اضطراب ينبغي له أن يلتجىء إلى المولى تعالى في كل أموره ، لأنه الوحيد الذي يمكن أن يصل بالإنسان إلى شاطىء الأمان والنجاة من المهالك الدنيوية والأخروية .

وقد قال الباري تعالى في ابتداء القرآن المجيد : ﴿ آلَـمّ ، ذلكَ الكتابُ لا ريبَ فيه هدًى للمتقينَ ﴾[3] .

فمن رام الهداية والنجاة رجع إلى ما جاء في كتاب الله تعالى وتمعَّن في آياته العظام ليفهم منها أن الملجأ هو الله لا غير ، وما دونه زائل إلى غير رجعة فكيف يلتجىء البشر إلى من هم مثله ممن لا يستطيعون نصر أنفسهم .

أمّا المسألة الثانية فهي : من عمل عملاً لله خالصاً ، تمكّن من سحق الصفات الرذيلة في نفسه واستطاع كسب الكثير من الصفات الحميدة ، وما ضعف الأعصاب والاضطراب والحقد والضغينة وما إلى ذلك إلا نتيجة لعدم الإخلاص في الأعمال له ـ تباركت أسماؤه ـ .

فالمرأة العاملة في بيتها بجد ونشاط تخدم زوجها وتطيعه وتربي أبناءها وتلتزم تربيتهم السليمة وتقول : ما أفعله لله ، لأنه تعالى أمر بذلك ، ولا تتوقع

---

(1) سورة الجاثية، الآية ٢٣ .

(2) سورة يس، الآية ٦٠ .

(3) سورة البقرة، الآيتان ١ و ٢ .

من أحد غير الله أجراً وثواباً لها مثل ما للشهيد المجاهد من أجر وثواب وحسنات .

قال رسول الله (ص) : « أيُما امرأة خدمت زوجها سبعة أيام أغلق الله عنها سبعة أبواب النار ، ولفتح لها ثمانية أبواب الجنة تدخل من أيِّها شاءت »[1] .

فمن حملت تريد بذلك تربية جيل ونشءٍ صالح مهذَّب ، عُدَّ ذلك حملاً في سبيل الله ، وما إن تضع وليدها حتى يحتسب لها أجر العامل في سبيل الله تعالى لخلوص في نيَّتها غير المشوبة .

قال رسول الله (ص) : « ما من امرأة تسقي زوجها شربة من ماء ، إلاّ كان خيراً لها من عبادة سنة . . »[2] .

وكذا الأمر بالنسبة للرجل الذي يكدُّ على عياله قربةً إلى الله تعالى ، قال الإمام الصادق (ع) : « من حسنُ برُّه بأهله زاد الله في عمره »[3] .

فالرجل الذي يخرج من بيته صباحاً ، ونيَّته أن يحصل على رغيف العيش ليديم حياة زوجه وابنه يُعَدُّ مجاهداً في سبيل الله شريطة أن يكون محرِّكه الأساسي هو الله تعالى ، أي معرفته بأن الباري سوف يثيبه على عمله ذاك وليس غيره ، لكونه يفكر بأن الذي بين يديه هو أمانة ، فإذا ربَّاه تربيةً صالحةً إسلاميَّةً يكون قد نهض بالمجتمع إلى حيث يريد الباري تعالى وبذلك يكون مثل ذلك الذي أحيا الناس جميعاً .

أمّا ذاك الذي يعمل بغير نيّة الحصول على الأجر والثواب أو كسب رضا الباري تعالى وتنفيذ أمره ، يخرج صباحاً للعمل ويرجع عصراً متعباً ويتوقّع أن يجد الراحة والهدوء في بيته ، ولا يجد ذلك في بعض الأحيان فتراه ينفعل ويغضب ويتكبَّر ويرعد ويزبد لكونه هو الذي جاء بالمال بدون أن يمعن التفكير بأن الذي عمله وكسب به الأموال ليأتيَ بها إلى عياله ما هو إلا قانون أمر به

---

(1) وسائل الشيعة/ج ١٤ ، ص ١٢٣ .

(2) وسائل الشيعة/ج ١٤ ، ص ١٢٣ .

(3) بحار الأنوار/ج ١٠٣ ، ص ٢٢٥ .

الله تعالى ولكنه لا يعرف العمل لوجه الله ، بل يعرف أنه يعمل فقط ولا غير سوى ذلك ! .

لمن ؟ ولماذا ؟ وماذا ينبغي أن يترتب على ذلك ؟ .

هذه كلُّها أسئلة غريبة عليه ، ماذا يعني العمل لوجه الله تعالى .

هنيئاً لأولئك الرجال والنساء الذين يتمكنون من طلي أفكارهم ، وأقوالهم وأفعالهم بصبغة الله ، وأن الصبغة تختلف من مكان لآخر ، لكون بعض الأصباغ تضمحلُّ وتتلاشى على العكس من صبغة الباري تعالى وهي تلك التي نراها مثلاً في الدجاجة السوداء التي لا يمكن أن يُزيل أحد صبغتها ؛ ﴿ صبغةَ اللّهِ ، ومنْ أحسنُ منَ اللّهِ صبغةً ﴾[1] .

فيا أيُّها الأعزّاء ، اعملوا عملاً يكون المحرك فيه ضمن حياتكم هو الله ـ جلّت أسماؤه وتعالت صفاته ـ وقد يكون الأمر مشكلاً بعض الشيء ، ولكنكم ستشعرون بلذة ما بعدها لذة .

كتب الغزالي في « إحياء العلوم » أن شخصاً بعث إلى « حمص » والياً عليها ، وبعد مدة من الزمن شكاه أهلها ، فطلب الوالي للمثول أمام القاضي في المدينة دون أن يلاقي أحداً من الناس ، فحمل الوالي أسبابه على رأسه وسار ماشياً من حمص ليصل إلى المدينة ومن ثم ليدخل مسجدها الذي هو عبارة عن دار قضائها ، فقال له القاضي : شكاك أهل حمص بثلاث ، وعليك أن تجيب :

١ ـ يقولون : إنك تخرج من دارك صباحاً متأخراً ، لتصل إلى عملك متأخراً أيضاً .

فقال : صحيحٌ ما قالوا .

٢ ـ يقولون : إنك موجود في النهار ومفقودٌ في الليل .

فقال : صحيح ذلك .

٣ ـ أما الشكاية الثالثة ، فهي أنك تغيب في أحد الأسبوع نهاره وليله .

---

(١) سورة البقرة، الآية ١٣٨ .

فقال : صحيح ما قالوا .

أما الإجابة على تلكم الشكاوى ، فهي :

أن خروجي متأخراً صباح كل يوم يرجع في الأساس إلى أنني تقاسمت مع زوجتي أعمال المنزل ، فصار الخبز من نصيبي ، وبسبب ذلك أتأخر عن الخروج من الدار كيما يختمر العجين لأخبزه ، وإنني أشرع بعجنه بعد صلاة الصبح ، فأتأخر بعض الشيء عن الوصول إلى دار الإمارة .

أما غيابي في الليل : فقد قسمت وقتي بين الناس والباري تعالى ، فأعطيت جهدي في النهار للناس ، وسكن قلبي لله عندما تغفو العيون أملاً أن أجد علاقةً مع اللهِ تعينني على قضاء حوائجي .

أما اليوم الذي لا أخرج فيه أبداً من داري والذي لا يراني الناس فيه لا نهاراً ولا ليلاً فسببه عدم امتلاكي للباس آخر ، لذا أكون مضطراً للبقاء في الدار بعد أن تغسل امرأتي جميع ألبستي ، وبما أن الجوَّ بارد بعض الشيء في حمص ، ولا تجفُّ الملابس بسرعة أبقى ملازماً لمنزلي طيلة النهار وجزءً من الليل .

وعندها منحه القاضي جائزة ، وقال له : ارجع إلى عملك مؤيداً منصوراً .

فرجع الوالي إلى حمص ، وقبل أن يذهب إلى داره ، ذهب إلى المسجد وقال للمؤذن قل للناس : إن الوالي أصبح ثرياً ، وإن الأموال لا تتعلق ببيت المال ، فمن أراد أن يصيبه شيء من ذلك من الفقراء والمساكين فليأتِ وليأخذ سهمه .

فجاء الناس إلى المسجد ليحظَوا بالأموال التي كان يوزعها الوالي دون أن يحصيها ، فقد كان يدفع بها إليهم قبضات قبضات ؛ وما إن فرغ من ذلك بعد أن أخذ الجميع ما طلبوا ، بقي من الأموال نزر يسير حمله وسار إلى منزله ، وهناك حكى لامرأته ما حصل فباركت له الأمر وقالت له : استتر لنا بما بقي من النقود خادمة تساعدني في أمر الخبز كي لا يشكوك الناس ثانية بسبب تأخرك صباحاً ، فقال : إن للنقود مكاناً آخر ـ ولم يكن يعلم لها شيئاً ـ ولم تمض عدة

أيام حتى جاءه أحد المساكين ليعطيه ما عنده من النقود ثم يلتفت لزوجته فيقول لها : إن عملنا في الدار وتعبنا سيؤول إلى زوال ، ولكن الصدقة ستبقى ثابتة وباقية لنا عند الباري تعالى ، وهذا أفضل من بقاء المال الزائل في الدار ، ففرحت الزوجة بحديثه الصائب وباركت له حسن نيّته .

﴿ إنما نطعمكُم لوجهِ اللّهِ لا نُريدُ منكُمْ جزاءً ولا شُكوراً ﴾[1] .

أما اليوم لو حدث لأحد الولاة مثلما حدث لذلك الوالي من شكاية لرجع وعلا المنبر ، وسأل الناس عن سبب شكايتهم ، ومن هم الذين أوصلوا الشكوى إلى القاضي ، وحينئذ يشرع بالظلم والقتل والسب والشتائم ، لكون عمّال اليوم لا يعملون لوجه الله تعالى ولكون المحرِّك لهم ليس الله ، بل هو أهوائهم وشهواتهم المُضلَّة لهم عن طريق الحق والصواب .

إن الآية التي ذكرنا نزلت بحق أهل بيت الرسول الأكرم (ص) حيث كانوا صياماً جميعهم (علي ، فاطمة ، الحسن ، الحسين) ـ سلام الله عليهم أجمعين ـ لتصدِّقهم بما كانوا يريدون أن يفطروا به إلى أسير ومسكين ويتيم .

ولا ننسى أن نتعرض هنا إلى أن الزهراء ـ سلام الله عليها ـ كانت علاوة على خبزها تقوم بطحن القمح والشعير ، وكانت تغالب التعب والنعاس الذي كان يصيبها من شدة العمل .

إنها كانت تذوق مرارة الدنيا لتحظى بحلاوة الآخرة ؛ لم يكن لديها خادمة ، فطلبت ذلك إلى والدها (ص) ، فقال لها بقول « الله أكبر » (٣٤) مرة ، والحمد لله (٣٣) مرة ، وسبحان الله (٣٣) مرة بعد الانتهاء من الصلاة .

وفضَّل الرسول (ص) هذا الذكر على ما في الدنيا جميعاً من أذكار ، ثم قال : « تعرَّضوا لرحمةِ اللّهِ بما أمركُم بهِ من طاعتِه »[2] .

وبعد ممارسة الزهراء ـ سلام الله عليها ـ للتسبيحات التي تعلَّمتها من أبيها رزقها الله بخادمة اسمها فضة .

---

(١) سورة الإنسان، الآية ٩.

(٢) تنبيه الخواطر/ص ٣٦٠ .

وفي زماننا هذا اشتهر بين العرب يوم فضّة حينما يريدون تقسيم العمل فيما بينهم ، تيمّناً بذلك اليوم الذي قسمت فيه الزهراء ـ سلام الله عليها ـ العمل بينها وبين خادمتها فضّة .

وبناءً على ما تقدم ، ينبغي لنا ولكم أن يكون محرّكنا هو اللّه الذي يجب أن نعمل من أجله فقط ، ولا ننتظر من أحد حمداً ولا شكوراً كيما نصل إلى ما نريد وما يرضي الباري ـ تعالت أسماؤه ـ إذا أردنا حياةً سعيدة هانئة .

﴿ فأيُّ الفريقينِ أحقُّ بالأمنِ إنْ كنتُم تعلمونَ ، الذينَ آمنُوا ولمْ يَلبسُوا إيمانهُمْ بظلمٍ أُولئكَ لهمْ الأمنُ وهُمْ مُهْتَدونَ ﴾[1] .

فالذين يبغون أمناً في حياتهم وهدايةً نحو الله تعالى عليهم أن لا يلبسوا إيمانهم بظلم ، وهم أحقُّ بالأمن من غيرهم لأنهم كانوا يعملون من أجل رضا الله ووفق أوامره التي أجراها على لسان عبده ورسوله محمد بن عبد الله (ص) .

﴿ إنَّ الذينَ آمنُوا وعَملُوا الصالحاتِ سيجعلُ لهمْ الرَّحمنُ وُدّاً ﴾[1] .
أي سيجعل لهم العزيز القدير محبة خاصة في قلوب الناس ، وسيجعل لهم بهاءً وأُبّهةً وحساباً لا يناله إلا مَن أمن وعمل بما اعتقد به من إيمان ؛ أما الذين اتّخذوا هواهم إلاهاً لهم فلن يتأتّى لهم الانتصار على خلجات نفوسهم وطلباتها غير المتناهية ، وسيُغويهم الشيطان جميعاً إلا المخلصين من عباد الله الصالحين .

﴿ فبعزَّتكَ لأُغوينَّهُم أجمعينَ ، إلاَّ عبادَكَ منهُمْ المُخلَصِينَ ﴾[2] .

إلَهي نسألُك وندعوك باسمك العظيم الأعظم أن تحفظ شبابنا من البليّات والمصائب ، ووفّقنا للانتباه والالتفات إلى نعمائك كيما نصل بأفكارنا وأرواحنا إلى مقام العبوديّة لك وترك المعصية واجعل نيّاتنا خالصةً لوجهك الكريم دون

---

(١) سورة الأنعام، الآيتان ٨١ و٨٢.
(٢) سورة مريم، الآية ٩٦.
(٣) سورة صّ، الآيتان ٨٢ و٨٣.

النـاس ، وأقوالَنـا تصبُّ في سبيلك الذي لا بـد وأن يؤدي بسـالكيـه صـوب الخلاص من النار الحامية ، وصلّى الله على محمد وآل محمد .

صلاة الليل

بسم الله الرحمن الرحيم

إن القوة أو القدرة السابعة التي يمكن من خلالها الانتصار في حربنا على كوامننا هي قيام الليل ، والنهوض بين الطُّلوعين .

لقد اهتم القرآن الكريم بقيام الليل والسحر وطلوع الفجر إلى طلوع الشمس بشكل خاص ، فأقسم المولى تعالى بالفجر وبصلاة الليل ، فقال عزّ وجلّ : ﴿ والفجرِ ولَيالٍ عشر ، والشَّفعِ والوتر ، والليلِ إذا يَسر ، هلْ في ذلكَ قسمٌ لذِي حِجر ﴾[1] .

وقد توّج المولى قسَمَه بجملة : ﴿ هل في ذلكَ قسمٌ لذي حِجر ﴾ والحِجْر هو العقل ، فمن كان له عقل يدرك هذا القسم الجليل لله سبحانه وتعالى وأهميته .

فالقسم بالفجر، وبالليالي العشر، وبصلاة الليل المشتملة على ركعتَي الشفع ، وركعة الوتر ، ومجمل الليل الساري يحظى باهتمام الباري تعالى .

وهناك آيات كثيرة تتعرَّض لأوقات السَّحَر الذي هو قلب الليل ، والوقت الذي يسبق طلوع الفجر ، قال تعالى : ﴿ والليلِ إذا عَسْعَسَ ، والصُّبحِ إذا تنفَّسَ ﴾[2] .

---

(١) سورة الفجر، الآيات ١ ـ ٥ .

(٢) سورة التكوير، الآيتان ١٧ و ١٨ .

وفي مكان آخر من القرآن المجيد نقرأ : ﴿ والليلِ إذا أدبرَ ، والصُّبحِ إذا أسفَرَ ﴾ وهي إشارةٌ إلى آخر قسم من الليل أي السَّحَرِ الذي هو قبل طلوع الفجر .

أما الصبح إذا أسفر ، فهو كناية عن الوقت السابق لطلوع الشمس .

إن الصلاة وممارسة الأذكار قبل الطُّلوعَيْن لها أثر عجيب وعظيم وفائدة قصوى في صلاح هذه الأمة المرحومة ، وقد تعرض القرآن الكريم لهذه المسألة بشكل مثير ، وحدَّد لها الثواب الجزيل والمقام المحمود ﴿ أقِمِ الصلاةَ لِدُلوكَ الشمسِ إلى غسقِ الليلِ وقرآنَ الفجرِ ، إنَّ قرآنَ الفجرِ كانَ مَشهوداً ﴾(١) .

في هذه الآية المباركة يحدِّد الباري تعالى لنا الصلوات الخمس التي تجب علينا من أول الظهر إلى نصف الليل أربعة صلاة هي : الظهر ، العصر ، المغرب والعشاء ، ومن ثم يقول : ﴿ وقرآنُ الفجرِ ﴾ عانياً بها صلاةَ الصبح التي يكون أجرها وثوابها مساوياً لجميع تلك الصلوات الأربع لكونها في أول الوقت بين الطلوعين ؛ أما صلاة الليل ، فلها آيات لوحدها إضافة إلى ذكرها مع الآيات المتعرضة للصلوات الخمس ؛ قال تعالى : ﴿ ومِنَ الليلِ فتهجَّد به نافلةً لكَ ، عسى أن يبعثَك ربُّكَ مقاماً محموداً ﴾(٢) .

إن هذه الآية المباركة تبيِّن لنا بكل وضوح وصراحة المقام المحمود الذي يمكن أن يسعدَ به الإنسان بإقامته لهذه النافلة التي تكتمل بها الصلوات الخمس لينال أعلى المراتب والدرجات في الدنيا والآخرة بعد أن يتمكن من ترويض نفسه التي تميل بطبعها للراحة والدَّعة .

فمن أراد أن يحظى بإرادة قوية ، ونفوذ كلمة في المجتمع وعزة وجلال وحل للمعضلات والنائبات فليُقم هذه الصلاة في قلب الليل والناس نيام ، وهذا ما أثبته علماء النفس العصريّون أيضاً .

قال رسول الله (ص) : « إن العبد إذا خلا بسيده في جوف الليل المظلم

(١) سورة بني إسرائيل، الآية ٧٨ .

(٢) سورة بني إسرائيل، الآية ٧٩ .

وناجاه أثبت الله النور في قلبه . . ثم يقول لملائكته : « ملائكتي انظروا إلى عبدي فقد تخلّى بي في جوف الليل المظلم والبطّالون لاهونَ ، والغافلون نيام ، اشهدوا أني غفرت له »[1] .

وقال (ص) أيضاً : « من رُزق صلاة الليل منْ عبد أو أمة قام لله عزّ وجلّ مخلصاً فتوضأ وضوءاً سابغاً ، وصلّى لله عزّ وجلّ بنية صادقة ، وقلب سليم وبدن خاشع ، وعين دامعة ، جعل الله تبارك وتعالى خلفه تسعة صفوف من الملائكة ، في كل صف ما لا يحصي عددهم إلا الله تبارك وتعالى أحد طرفي كل صف بالمشرق ، والآخر بالمغرب ، قال : فإذا فرغ كتب له بعددهم درجات »[2] .

فمن أراد الحياة الدنيا فليهتمّ بهذا البحث الذي يتطرّق لصلاة الليل ليفوز بسعادتها ، ومن أراد الحياة الآخرة ، فليمعن النظر في هذا البحث الذي يهتم بأفضل القوى التي تأتيه من خارج بدنه لتصل به إلى عنان السماء : ﴿ إنَّ ناشئةَ الليلِ هي أشدُّ وطأً وأقومُ قِيلاً ﴾[3] .

إن الحالة التي يعيشها الإنسان في قلب الليل الدامس بنظر علماء النفس وعلماء الأخلاق ، وبنظر القرآن والروايات المتواترة حالة مساهمة في بناء النفس الإنسانية ، ولا يمكن إدراك هذه الحالة إلا للذين عاشوها لخصوصيتها .

إننا نبقى في العادة يقظين يومياً حتى الساعة الحادية عشرة أو الثانية عشرة وهذا يُعَدُّ أول الليل . ومن انشغل به بعبادة كمن انشغل بها في وسط النهار ، وأول النهار أو أول الليل لا يعطي شيئاً للإنسان إذا قيس بتلك العبادة التي تكون آخر الليل أو بالأحرى في وقت السَّحَرِ ، وأن تأثير اليقظة في آخر الليل ملموس حتى لو كان بدون عبادة .

ولذا نقرأ أن إحدى مستحبات ليالي الإحياء أن يكون الفرد صاحياً أو يقظاً

---

(۱) بحار الأنوار/ج ۳۸ ، ص ۹۹ ، بحار الأنوار/ج ۷۳ ، ص ۱۲۰ .
(۲) بحار الأنوار/ج ۸۲ ، ص ۲۰٤ .
(۳) سورة المزمل، الآية ٦ .

طوال الليل ، حتى ولو كان ذلك بلا عملٍ أو ممارسة عبادية .

ونقرأ في الروايات التأكيدات الكثيرة لصحوة الإنسان بين الطلوعين ، ولو بلا ممارسة لصلاة الليل ، لكون البقاء بلا نوم بين الطلوعَين أو في آخر وقت من الليل مفيداً جداً للإنسان من ناحية نفسية ، ومفيد جداً في إيجاد نشاط خاص حيث يساعد في رفع الحزن والهم والاضطراب من النفس البشرية .

إن الكثير من الأجلّاء يسعون للنوم في أول الليل ليقوموا في آخره ، وإن الغالبية العظمى منهم يؤجّلون مطالعاتهم إلى آخر الليل لينشغلوا بالعبادة بين الطلوعَين ثم يمارسوا قراءة القرآن بعد صلاة الفجر ويقال : إن الدعاء مستجاب بين الطلوعين وإنّ قراءة القرآن حينها مؤثرة جداً وتترك أثرها الإيجابي على الروح البشرية ؛ ومن لم يستطع أن يتعبد في ذلك الوقت الحساس ينبغي له أن ينجز ما لديه من أعمال كأن يكون مطالعةً أو ما شابه ذلك لكي يحظى بالتأثيرات التي ترافق ذلك الوقت المبارك .

لقد كان الرسول (ص) والأئمة من أهل بيته عليهم السّلام ينامون أول الليل ليصحوا في آخره ، وإن أغلب الأخوة من السنّة ملتزمون لهذا فيحضرون في المسجد قبل طلوع الفجر ، وقد لاحظ إخوتنا الإيرانيون ذلك عند ذهابهم لحجّ بيت الله الحرام .

وصلاة الليل تتكوّن من إحدى عشرة ركعة ، تكون النيّة في الثمانية الأولى منها على أنها صلاة الليل ، وتكون ركعتين ركعتين .

أما الركعتان التي تلي الثماني الأولى ، فهي ما يصطلح عليها بصلاة الشفع التي تسبق الركعة الأخيرة المسماة الوتر ، ولا نغور في تفصيلاتها وفي قنوتها ويستحب الدعاء فيها لأربعين مؤمناً حياً كان أو ميتاً ، وتكرار كلمة العفو (٣٠٠) مرة ؛ ويفضّل قراءة بعض الأدعية بعد الانتهاء من صلاة الوتر .

إن الممارس لصلاة الليل يشعر بالتعب أول الأمر ، ثم يتعود هذه الصلاة لتضحى ملكةً في حياة الفرد المؤمن ، وينبغي للمصلي مراعاة التعب الجسمي في الوقت الذي يحاول فيه تقوية روحه ، ويمكن تشبيه هذه الحالة بحالة الحصان الجامح ، فلو أردنا الاستفادة من الحصان الجامح علينا أن نلجم فمه

في الوقت الذي نراعي فيه مسألة غذائه وسقيه وراحته .

إن القيام لصلاة الليل بالنسبة للمبتدئين يجب أن يكون بشكل مختصر جداً حتى يمكن ترويض النفس للنهوض في الساعة الأخيرة من الليل قبل أذان الفجر والقيام بها على أتمّ وجه ، وقد تطرق القرآن الكريم لهذه النقطة فقال عزّ وجلّ : ﴿ يا أيُّها المُزَمِّلُ ، قُم الليلَ إلاَّ قليلاً ، نصفَهُ أو انقُصْ منهُ قليلاً ، أو زِدْ عليهِ ورتِّلِ القرآنَ ترتيلاً ﴾[1] .

أما بالنسبة للصلاة في أول الوقت فقد قال الإمام الباقر عن جده رسول الله (ص) أنه قال : « إعلم أن أول الوقت أبداً أفضل ، فعجِّل بالخير ما استطعت ، وأحب الأعمال إلى الله ما داوم العبد عليه وإن قلّ »[2] .

قال الإمام الصادق (ع) عن جده رسول الله (ص) أنه قال : « لكلّ صلاةٍ وقتان : أول وآخر ، فأول الوقت أفضله ، وليس لأحد أن يتخذ آخر الوقتين وقتاً إلا من علّة ، وإنما جعل آخر الوقت للمريض والمعتلّ ، ولمن له عذر ، وأول الوقت رضوان الله ، وآخر الوقت عفو الله »[3] .

إن البحوث الأخلاقية تختلف بطبيعتها عن البحوث الفلسفية ، لكون البحوث الفلسفية مشكلة من القول والسماع حيث لا يتأتى لنا التطرق إلى الحركة الجوهرية لملاّ صدرا ، وطرحها على بساط البحث معكم ، ولو تأتّى أن أكتب فيها إليكم لعامٍ كامل لما استفدتم شيئاً ولما استفدت أنا أيضاً ، ولكن البحوث الأخلاقية بلحاظ القول والسماع سهلة ومقبولة ناهيك عن أنها محببة إذا ما تمعَّن القارىء أو السامع فيها ، ولكن العمل بها لا يخلو من الصعوبة ، فالكلّ يعرف أن التكبُّر صفة متدنية ، والكل يدرك ذلك بالفطرة ، والتواضع صفة حسنة ؛ أما الامتناع عن ممارسة التكبُّر فيدخل ضمن دائرة المستعصيات .

إننا نفهم جيداً أن قيام الليل يحظى بأهمية خاصة في القرآن المجيد ، وأن أول طلوع الفجر وقت مهم ، وكذا آخر الليل ، من خلال تعرض القرآن له

---

(١) سورة المزمل، الآيات ١ ـ ٤ .

(٢) فروع الكافي/ج ٣ ، ص ٢٧٤ .

(٣) بحار الأنوار/ج ٨٣ ، ص ٢٥ .

في عدة أماكن ؛ وأنه يذهب بالغمِّ والهمِّ ، ويزيد الإنسان قوةً ونشاطاً ، ليتمكن من الانتصار على النفس الأمَّارة بالسُّوء ؛ وقد لا يتمكن الفرد من إنجاز ذلك مع تهيُّؤ جميع وسائل ذلك القيام من مثل وضع ساعة توقيت أو النوم مبكِّراً أو غير ذلك من الأمور والوسائل التي تساعد على ذلك النهوض .

وعدم الإمكانية في ممارسة ذلك القيام يرجع بالأساس إلى أن هذا التوفيق لا يحظى به إلا من أراد القرب مخلصاً من الباري تعالى وقد مثّله البعض بمثل الكبريت الأحمر النادر الوجود ؛ إضافةً إلى عمل الخطايا والمعاصي ، وأكل المال الحرام ؛ لتأثيرها الفاعل في الحيلولة دون هذا القيام ؛ قال الإمام الصادق (ع) : « لا تدعْ قيام الليل ، فإن المغبونَ من حرمَ قيام الليل »(١) .

فالأعمال بشكل إجمالي لها تأثير مباشر في النهوض في قلب الليل وما نقوم به في النهار ينعكس سلباً أو إيجاباً علينا ليمنعنا أو ليساعدَنا في إقامة صلاة الليل التي يقول بعض العلماء على أنها مكمِّلة للصلاة الواجبة .

يقول الأستاذ المرحوم عباس الطهراني : كان لي في النجف الأشرف من يعينني على القيام إلى صلاة الليل ، ولكنني لا أعرف من يكون ! ـ جاء في الروايات : أن المؤمنين توقظهم الملائكة لصلاة الليل ـ ففي بعض الأحيان أسمع نداءً أن يا عباس قُم ، وفي البعض الآخر أسمع : قُم يا هذا .

وقد حدث مثل هذا لأحد تلامذة المرحوم الطهرانيّ فقد كان يقول : كنت أشعر أن أحدهم يركلني برجله لأنهض لصلاة الليل .

قال الإمام الباقر (ع) : « جاء رجل إلى أمير المؤمنين علياً (ع) فقال : إنّي قد حرمت الصلاة بالليل ، فقال : قيَّدتك ذنوبك »(٢) .

وقال الصادق (ع) : « إن الرجل يذنب الذنب فيحرم صلاة الليل ، وإن العمل السيء أسرع في صاحبه من السكين في اللحم »(٣) .

---

(١) بحار الأنوار/ج ٨٣ ، ص ١٢٧ .
(٢) بحار الأنوار/ج ٨٣ ، ص ١٢٧ .
(٣) بحار الأنوار/ج ٧٣ ، ص ٣٣٠ .

وقال أيضاً (ع) : « إن الرجل ليكذب الكذبة فيحرم بها صلاة الليل[1] .

إن صلاة الليل تمنح الإنسان لقباً في عالم الملكوت الأعلى إذا واظب على ممارستها ، وهذا اللقب هو « المتهجّد » .

فالرجل أو المرأة اللذان يحظيان بهذا اللقب في عالم الملكوت تعينهم الملائكة بأمر الباري تعالى في كثير مما استعصى عليهم من أمور ؛ وقد أشار الله سبحانه وتعالى إلى ذلك في الآية المباركة التي جاء فيها : ﴿ إنَّ الذينَ قالوا ربُّنا اللّهُ ثمَّ استقامُوا تتنزَّلُ عليهمُ الملائكة ﴾[2] .

قال رسول الله (ص) : [قال الله تعالى] : « . . . إنَّ منْ عبادي المؤمنين لمن يجتهد في عِبادتي فيقوم من رقاده ولذيذ وساده ، فيتهجّد لي الليالي فيتعب نفسَه في عبادتي ، فأضربه بالنعاس الليلةَ والليلتين نظراً مني له وإبقاءً عليه ، فينام حتى يُصبح وهو ماقتٌ لنفسه ، زار عليها ، ولو أُخلّي بينه وبين ما يريد من عبادتي لدخله العُجُب فيصيِّره العجب إلى الفتنة بأعماله ، فيأتيه من ذلك ما فيه هلاكه لعُجبِه بأعماله ورضاه عن نفسه ، عند حدِّ التقصير ، فيتباعد مني عند ذلك ، وهو يظنُّ أنه يقترب إليّ »[3] .

وقال رسول الله (ص) أيضاً : « ما من عبدٍ يحدِّث نفسه بقيام ساعة من الليل فينام عنها إلا كان نومَه صدقةً تصدَّق اللّهُ بها عليه وكتب له أجر ما نوى »[4] .

---

(١) بحار الأنوار/ج ٧٦ ، ص ٣١٦ ـ علل الحديث/ص ٣٦٢ .

(٢) سورة فصلت، الآية ٣٠.

(٣) بحار الأنوار/ج ٧١ ، ص ١٥١ .

(٤) كنز العمال/خ ٢١٤٧٥ ، انظر: النيّة : باب ٣٩٨١ (النيّة الصالحة أحد العملين) .

لا ينبغي أن نغفلُ عن أن بحثَنا هو الجهاد الأكبر ، ومجاهدة الإنسان لنفسه كيما ينتصر البعد الإنساني على البعد الحيواني إذا أراد هذا الإنسان سعادة الدارَين .

فالقوة السابعة التي تعين المسلم في جهاده الأكبر هي الالتجاء إلى كتابِ الله الحكيم القرآن الكريم .

ومن نظر القرآن يمكن أن نتعرَّف على أهمية الالتجاء إليه ، ونتعرَّف أيضاً أنَّ المعرض عنه خاسر لا محالة ﴿ فاقرؤا ما تيسَّر منَ القرآن ﴾[1] ، ﴿ فاقرؤا ما تيسَّر مِنه ﴾[2] .

وقد جاءَ في هذه السورة الشريفة : ﴿ علمَ أن سيكونُ منكم مرضى وآخرونَ يضربونَ في الأرضِ يبتغونَ من فضلِ اللّهِ وآخرونَ يُقاتلونَ في سبيلِ اللّهِ ، فاقرأوا ما تيسَّرَ منهُ ﴾[3] ؛ أي : أنَّ الله يعلم أنَّ منكم مَن يسافرون طالبين للتجارة أو تحصيل العلم وكلّ طاعة ، غير أولئك المرضى ؛ وكل من الفرق الثلاث يشقّ عليهم التهجُّد المذكور ، فهم أحقُّ بالتخفيف ، فكرَّر مرتباً عليهم بقوله : ﴿ فاقرأوا ما تيسَّر منهُ وأقيمُوا الصلاةَ ﴾ الواجبةَ ﴿ وآتوا الزكاةَ ﴾ المفروضة ﴿ وأقرِضُوا اللهَ قَرْضاً حسناً ﴾[4] بالإنفاق تطوّعاً

(١) سورة المزمل، الآية ٢٠ .

(٢) سورة المزمل، الآية ٢٠ .

(٣) سورة المزمل، الآية ٢٠ .

(٤) سورة المزمل، الآية ٢٠ .

في سبيل الخير أو بفعل الحسنات مطلقاً ؛ وفيه ترغيب لإشعاره بالعوض كالتصريح في ﴿ وما تقدِّموا لأنفسكُم منْ خيرٍ ﴾[1] مال أو إحسان ﴿ تجدوهُ عندَ اللّهِ هوَ خيراً وأعظَمُ أجراً ﴾[2] لبقاء ثوابِهِ ﴿ واستغفِروا اللّهَ ﴾[3] في كلّ حال ﴿ إنَّ اللّهَ غفورٌ رحيمٌ ﴾[4] .

أما أولٰئك الذين ينتهكون الحرمات فقد جاء في حقِّهم في القرآن الكريم : ﴿ أفلا يتدبَّرونَ القرآنَ ﴾[5] أي يتدبرون بالتفكُّر في زواجره ومواعيده فيعتبروا ﴿ أمْ على قلوبٍ أقفالُها ﴾ فلا يدخلها معانيه ، وتنكير القلوب لتعمَّ قلوبَ أمثالهم أضيفت الأقفال إليها إرادة لأقفال مختصة بها .

لقد تعرضت إحدى آيات القرآن المجيد إلى الستر الذي يحول دون أذى الذين لا يؤمنون بالآخرة من إنسٍ وجنٍّ إلى قارىء القرآن ، فقال عزّ وجلّ : ﴿ وإذا قرأتَ القرآنَ جعلنا بينكَ وبينَ الذينَ لا يُؤمنونَ بالآخرةِ حِجاباً مستُوراً ﴾[6] ، أي ساتراً أو ذا ستر بينَك وبين شياطين الإنس والجنّ ، وبينَك وبينَ نفسِك الأمَّارة بالسوء لكي ينتصر فيك البعد الإنساني على البعد الحيواني .

أما سورة المزمِّل فقد تعرضت إلى ترتيل القرآن فقال تعالى : ﴿ ورتِّلِ القرآنَ ترتيلاً ﴾[7] أي حاول أن تحفظَ الوقوف وتبيان الحروف لما في القرآن من التكاليف الشاقة التي تستدعي الوقوف كيما يدرك الإنسان معانيها ؛ وقد جاءت مسألة صلاة الليل بعد آية ترتيل القرآن مباشرةً مما يدلِّل على أثر ذلك الترتيل في النفس البشرية حينما تقوم للصلاة والنفوس الأخرى غافلة في نوم عميق : ﴿ إنَّ ناشئةَ الليلِ هيَ أشدُّ وطأً وأقومُ قِيلاً ﴾[8] ؛ أي أنَّ القيام في الساعات الأخيرة

(١) سورة المزمل، الآية ٢٠ .
(٢) سورة المزمل، الآية ٢٠ .
(٣) سورة المزمل، الآية ٢٠ .
(٤) سورة المزمل، الآية ٢٠ .
(٥) سورة محمد، الآية ٢٤ .
(٦) سورة الإسراء، الآية ٤٥ .
(٧) سورة المزمل، الآية ٤ .
(٨) سورة المزمل، الآية ٦ .

من الليل للصلاة أو النفس التي تنشأُ أي تنهض من منامها للعبادة هي أشدُّ وطأً أي ثقلاً أو ثبات قدم ، وأقوم قيلاً بمعنى أصوبُ قولاً وقراءةً لفراغ البال .

قال رسول الله (ص) : « . . . فإذا هجمت عليكم الفِتن كقطع الليل المظلم ، فعليكم بالقرآن ، فإنه شافع مشفَّع ، وماحلٌ مصدق ، فمن جعله أمامه ، قاده إلى الجنة ، ومن جعله خلفه ساقه إلى النار »[١] .

قال أمير المؤمنين الإمام علي (ع) : « . . . وإن القرآن ظاهره أنيق ، وباطنه عميق ، لا تفنى عجائبه ، ولا تنقضي غرائبه ، ولا تكشف الظلمات إلاّ به »[٢] .

قال رسول الله (ص) : « مثل القرآن ومثل الناس كمثل الأرض والغيث ، بينما الأرض ميتة هامدة إذا أرسل الله عليها الغيث فاهتزت ثم يرسل الوابل فتهتز وتربو ، ثم لا يزال يرسل الأودية حتى تبذر وتنبت ويزهر نباتها ، ويخرج الله ما فيها من زينتها ، ومعايش الناس ، والبهائم ، وكذلك فعل هذا القرآن بالناس »[٣] .

قال الإمام علي (ع) : « . . . وتعلَّموا القرآن ، فإنه أحسن الحديث ، وتفقَّهوا فيه فإنه ربيع القلوب ، واستشفوا بنوره ، فإنه شفاء الصدور ، وأحسنوا تلاوته فإنه أحسن القصص »[٤] .

وقال أيضاً : « . . . وعليكم بكتاب الله ، فإنه الحبل المتين ، والنور المبين ، والشفاء النافع ، والريُّ الناقع ، والعصمة للمتمسك ، والنجاة للمتعلِّق ، لا يعوجُّ فيقام ، ولا يزيغ فيستعتب ، ولا تخلقه كثرة الرد، وولوج السمع ، من قال به صدق ، ومن عمل به سبق »[٥] .

أما أولئك الذين لا يلتزمون قراءة القرآن ، ولا يعلمون بما جاء فيه فسوف

---

(١) سفينة البحار/ج ٢ ، ص ٤١٣ .
(٢) نهج البلاغة/صبحي الصالح ، ص ٦١ .
(٣) كنز العمال/خ ٢٤٥٧ .
(٤) نهج البلاغة/صبحي الصالح ، ص ١٦٤ .
(٥) نهج البلاغة/صبحي الصالح ، ص ٢١٩ .

يحشرهم الله سبحانه وتعالى عُمياً لكونهم نسُوا آيات الله التي كان يفترض بهم أن يجعلوا أحكامَها منهجاً لهم : ﴿ ومنْ أعرضَ عن ذِكري فإنَّ له معيشةً ضنكاً ونحشرهُ يومَ القيامةِ أعمى ، قال ربِّي لِمَ حشرتَني أعمى وقد كُنتُ بصيراً ، قالَ كذلكَ أتتكَ آياتُنا فنسِيتَها وكذلكَ اليومَ تُنسى ﴾(١) .

ما أعظمها من مصيبة عندما يكون الإنسان مشمولاً بالإهمال ، فلا أحد يلتفت إليه ، ولا أحد يكلِّمه بسبب ما جنته يداه التي سوف يعضُّ عليها يوم القيامة ، وعندها يأتي الجواب من الرسول : ﴿ قال الرسولُ يا ربِّ إنَّ قومي اتخذُوا هذا القرآنَ مهجوراً ﴾(٢) .

لقد تعرضت بعض الروايات إلى مرور القرآن الكريم بشكل مجسّم على صفوف الناس ، وإلى كيفية شكايته منهم في محضر الباري تعالى ، وذلك في يوم القيامة ، فيراه الجميع في أحسن صورة .

فأما الذين كانوا يلتزمون بقراءته فتراهم يرقون سلالم العزِّ والمجد والرفعة إلى حيث رضوان الله وفضله ؛ ولقد ذكر الكليني ـ عليه الرحمة ـ في أصول الكافي وفي الجزء الثاني منه الآيات والروايات والأخبار التي تبيِّن فضيلة القرآن وفضيلة قراءته ؛ ومثل ذلك ذكر العلامة المجلسي ـ عليه الرحمة ـ في الجزء الأول من بحار الأنوار فأسهب في فضائل القرآن الكريم وأجر وثواب القارىء والمنافع التي يمكن أن يحظى بها المسلم من جراء مداومته على قراءة القرآن .

ولو أردنا هنا أن نتعرض لتلك الفضائل لما استطعنا أن نُغلق هذا الباب لما للقرآن من فضائل لا تُعدُّ ولا تحصى ، فهو الذي يكشف الغمَّ والهمَّ ، ويرفع عن الإنسان الاضطرابات النفسيَّة ، ويمنعه عن ممارسة الرذائل .

إنه في واقع الأمر ﴿ شفاءٌ لما في الصُّدور ﴾(٣) .

قال الله تعالى في محكم كتابه : ﴿ لو أنزلنا هذا القرآنَ على جبلٍ لرأيتهُ خاشعاً متصدِّعاً من خشيةَ اللّهِ ، وتلكَ الأمثالُ نضربها للناسِ لعلهمُ

---

(١) سورة طه، الآيات ١٢٤ ـ ١٢٦ .

(٢) سورة الفرقان، الآية ٣٠ .

(٣) سورة يونس، الآية ٥٧ .

يتفكّرونَ ﴾[1] .

إن ما جاء في هذه الآية المباركة يمكن احتسابه تمثيلاً أريد بـه توبيخ الإنسان على عدم خشوعه حين قراءته للقرآن الكريم بدليل ﴿ وتلكَ الأمثال ﴾ أي هذا وغيره ﴿ نضربُها للناسِ لعلَّهم يتفكرُونَ ﴾ فيتعظون .

إن في قراءة القرآن المجيد لذّةً خاصةً حيث يشعر الإنسان بمخاطبة الله له في كتابه ؛ فعبارة : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ تعنيك أنت أيها القاريء المؤمن ، فكم هو جميلٌ خطاب الله لك الذي يريـد به تيسير أمرك وإبعـادك عن طرق الأهواء والشهوات .

لقد تكررت عبارة : ﴿ فبأيِّ آلاءِ ربكُمَا تكذِّبانِ ﴾ في سورة الرحمن ، وعبارة : ﴿ ولقدْ يسَّرنا القرآنَ للذكرِ فهلْ منْ مدَّكرٍ ﴾ في سورة القمر .

وهذا التكرار دليل قاطعٌ على تنبيه الإنسان على القرآنِ الذي هو من آلاءِ الله ونعمه ، وقد يسَّره الباري للذكر ، ولكن للأسف ما من متذكِّر إلا من رحم ربّي . وكلمة مدكر تعني هل من معتبر ، وأصلها « مـدتكر » قلبت التـاء دالاً وأدغمت فيها الدال .

وقد يسَّر الباري القرآن الكريم للاعتبار به والاتعاظ إذ يمكن اعتباره سهلَ ممتنع ، أي أن ما يفهمه الإمام المعصوم من قراءته لآية من آيات القرآن المجيد لا يتأتى أن يفهمها من هو مثلي .

وما يمكن أن يفهمَه العلّامة الطباطبائي صاحب كتاب الميزان من القرآن لا نتوقع من عامة الناس أن يفهموه ناهيك عن مراحل القراءة : فالمرحلة الأولى هي القراءة بشكل عام ، حتى لو بدون تدبّر ، أما المرحلة الثانية ، فهي التدبُّر الذي توصل الإنسان إلى حالة الإحساس بمخاطبة الله له مباشرة ؛ وما تبقى من المراحل فهي الثالثة والتي يكون فيها الإنسان عاملاً بنهج القرآن بعد أن قرأه وتدبَّر فيه ، واقتنع بضرورة العمل به واتخاذه طريقاً ونهجاً لبلوغ السعادة في الدارَين ﴿ إنَّ هذا القرآنَ يهدِي للّتي هيَ أقومُ ﴾[2] ، ﴿ قدْ جاءكُم منَ اللّهِ نورٌ

---

(١) سورة الحشر، الآية ٢١ .

(٢) سورة الإسراء، الآية ٩ .

وكتابٌ مبينٌ يهدي بهِ اللّهُ منِ اتَّبعَ رضوانَهُ سُبُلَ السَّلام ويُخرجهمُ منَ الظلماتِ إلى النورِ بإذنهِ ويهديهِم إلى صراطٍ مستقيمٍ ﴾[1] .

وكذلك الأمر بالنسبة للصلاة ؛ فهي على ثلاثة مراحل أيضاً : فالمرحلة الأولى هي : إسقاط التكليف ، أي ينبغي لنا أن نقوم بإنجاز الصلاة التي تبدأ من تكبيرة الإحرام : « الله أكبر » إلى نهايتها : « السلام عليكم ورحمة الله وبركاته » . المرحلة الثانية : هي التدبُّر أي بلوغ حالة « لا مؤثر في الوجود إلا الله تعالى » ، والإدبار عن الدنيا بما فيها من الولد والتلد وما إلى ذلك والاشتغال بمناجاة الباري وكأنك تراه . ويقال : إن بعض العرفاء يسمعون جواب سلامهم على النبي (ص) في آخر الصلاة لشدة تفاعلهم معها ، وإحساسهم الجدي بوقوفهم بين يدي الباري تعالى ، فترى البعض منهم يرتجف إذا قام للصلاة والآخر يرتاع إذا بدأ بقراءة الفاتحة .

أما المرحلة الثالثة ، فهي العمل والالتزام لما قيل في الصلاة ، فاللسان يقول : ﴿ إياكَ نعبدُ وإياكَ نستعينُ ﴾ أول الأمر ، وبعدها يبدأ القلب بقول : ﴿ إياكَ نعبدُ وإياكَ نستعينُ ﴾ ليصل الأمر إلى المرحلة الثالثة أي أن العمل يقول : ﴿ إياكَ نعبدُ وإياكَ نستعينُ ﴾ وهذا يعني اجتناب المعاصي في جميع الأمور الحياتية ، وإذا اتفق أن عصى الفرد الله في مسألة أضحت : ﴿ إياكَ نعبدُ وإياكَ نستعينُ ﴾ غير لائقة ، وأضحى هو من عبدة الشيطان ؛ وإن الله يقول في محكم كتابه : ﴿ ألمْ أعهدْ إليكمُ يا بني آدمَ أن لاَّ تعبدُوا الشيطانَ ﴾[2] .

قال الإمام جعفر بن محمد الصادق (ع) عن جده رسول الله (ص) أنه قال : « إذا استقبلت القبلة فانس الدنيا وما فيها ، والخلق وما هم فيه ، واستفرغ قلبك من كل شاغل يشغلك عن الله ، وعاين بسرك عظمة الله ، واذكر وقوفك بين يديه يوم تبلو كل نفس ما أسلفت وردوا إلى الله مولاهم الحق ، وقف على قدم الخوف والرجاء .

فإذا كبّرت ، فاستصغر ما بين السماوات العُلى والثرى دون كبريائه فإن

---

(١) سورة المائدة، الآية ١٦.

(٢) سورة يسٓ، الآية ٦٠.

الله تعالى إذا اطّلع على قلب العبد وهو يكبِّر وفي قلبه عارض عن حقيقة تكبيره قال : يا كاذب أتخدعني ؟! وعزّتي وجلالي لأحرمنّك حلاوة ذكري ، ولأحجبنّك عن قربي والمسارّة بمناجاتي ؛ واعلم أنه غير محتاج إلى خدمتك ، وهو غنيّ عن عبادتك ودعائك ، وإنما دعاك بفضله ليرحمك ويبعدك من عقوبته . . »[1] .

فمن أراد الدنيا فليقرأ القرآن وليمعن التفكير في معانيه ، ومن أراد الآخرة فليتدبَّر القرآن وعباراته ، ومن كان في نفسه اضطراب فليبعده بقراءة القرآن ، ومن أراد تسلّطاً على نفسه رجع إلى القرآن ، ومن كان فيه صفاتٌ رذيلة تمكّن من إزالتها بالقرآن ، ومن رام الدرجات العلى في جناته تعالى عليه بالقرآن .

إلهي احجب بالقرآن خطرات الوساوس عن صحة ضمائرنا ، واغسل به درن قلوبنا وعلائق أوزارنا ، واجمع به منتشر أمورنا ، وارو به في موقف العرض عليك ظمأ هواجرنا ، واكسُنا به حلل الأمان يوم الفزع الأكبر في نشورنا ، واجبر بالقرآن خلّتنا من عدم الإملاق ، وسُق إلينا به رغد العيش وخصب سعة الأرزاق ، وجنّبنا به الضرائب المذمومة ومدانيَ الأخلاق ، واعصمنا به من هوة الكفر ودواعي النفاق حتى يكون لنا في القيامة إلى رضوانك وجنانك قائداً ، وفي الدنيا عن سخطك وتعدي حدودك ذائداً ، ولما عندك بتحليل حلاله وتحريم حرامه شاهداً ، اللهم صل على محمد وآل محمد ، وهوّن بالقرآن عند الموت على أنفسنا كرب السياق وجهد الأنين وترادف الحشارج إذا بلغت النفوس التراقي ، وقيل من راق ، وتجلّى ملك الموت لقبضها من حجب الغيوب ، ورماها عن قوس المنايا ؛ اللهمّ اسلُك بنا سبيل القرآن وتوفّنا على نهجه برحمتك يا أرحم الراحمين بحقّ محمد وآله الطاهرين .

---

(١) بحار الأنوار/ج ٨٤ ، ص ٢٣٠ ، وكذا جاء في مصباح الشريعة .

إن أحد العوامل المساعدة في جهاد الإنسان الأكبر مقابل النفس الأمّارة هو الدعاء ، وقد أولى القرآن الكريم أهمية خاصة للدعاء لكونه يرتّب علاقة أو ارتباطاً بالمدعو ، وذمّ القرآن الكريم أولئك الذين لا يهتمون بالدعاء والتبتّل ؛ قال عزّ وجلّ : ﴿ ادعُوني استجِبْ لكُم ﴾(1) ، ثم أردف الباري فقال : ﴿ إنَّ الذينَ يستكبرونَ عنْ عِبادتي سيدخلُونَ جهنَّمَ داخِرينَ ﴾(1) .

لم يأتِ في القرآن عذاب مثل هذا العذاب يترتّب على ترك عمل بهذه الكيفية ، أو يمكن القول نادراً ما نرى وعيداً بهذه الكيفية التي جاءت بصدد التارك للدعاء ، فمن لم يدع ثم ييئس من الدعاء وترك الحبل على الغارب في هذه القضية الحساسة أدخله الباري جهنم بعد اقتياده ذليلاً ، لقوله داخرين التي تعني الاقتياد بذلّ .

وفي آية أخرى يقول الباري تعالى : ﴿ قل ما يَعْبَؤا بكمْ ربِّي لولا دُعاؤكُم ﴾(2) أي ما يصنع بكم أو لا يكترث بكم لولا دعاؤكم له .

فمن امتنع عن الدعاء والطلب إلى الله تباركت أسماؤه ، رفع الباري يده عنه وأوكله إلى نفسه ، وعندها تراه خاسراً في الدنيا وفي الآخرة ، لذا حثّت الروايات الشريفة على التقيد بقراءة دعاء الرسول في ظلمة الليل الذي كان يقول فيه : « اللهمَّ لا تكِلني إلى نفسي طرفةَ عينٍ أبداً » .

---

(1) [المؤمن/ ٦٠].

(2) [الفرقان/ ٧٧].

إن الدعاء شعبة من شعب تهذيب النفس وبنائها وهي التي ذكرها الباري سبحانه وتعالى بعد قسم غليظ بالشمس وضحاها، والقمر إذا تلاها، والليل إذا يغشاها والسماء وما بناها والأرض وما طحاها ثم جاءت عبارة النفس وتسويتها وإلهامها الفجورَ والتقوى وكيفية فلاح النفس بالتزكية ، وخيبتها إذا أخفاها البشر بالمعصية وبالجهل ؛ ﴿ قد أفلحَ منْ زكَّاها ، وقد خابَ من دسَّاها ﴾[1] .

فتزكيةُ النفس تمرُّ بالدعاء والتوسل بالمولى تعالى وقد تكرَّر ضمير المتكلم في هذه الآية الشريفة سبع مرات من أجل الدعاء الذي يربي النفس البشرية ويهذبها ، وهذا مما يدلل على الأهمية البالغة للدعاء ؛ وفي سورة البقرة نلاحظ مسألة قرب الباري من الداعي حينما يدعوه ويبتهل إليه فيقول : ﴿ وإذا سألكَ عبادِي عنِّي ، فإنِّي قريبٌ أُجيبُ دعوةَ الداعِ إذا دعانِ ، فليستجيبُوا لي وليؤمنُوا بي لعلَّهم يرشُدونَ ﴾[2] .

وقد نزلت هذه الآية المباركة حين سأل البعض أقريبٌ ربُّنا فنناجيَه أم بعيدٌ فنناديَه ؟ .

فأجاب : بأنه قريب عليم بأحوالهم ، سميع لدعائهم كما يسمع القريب كلام صاحبه ﴿ أُجيبُ دعوةَ الداعِ إذا دعانِ ﴾ إذا أتى بشرائط الدعاء وعرف من يدعو ، ﴿ فليستجيبُوا لي ﴾ إذا دعوتهم للإيمان والطاعة ، ﴿ وليؤمنُوا بِي ﴾ وليتحققوا أني قادر على إعطائهم ما سألوه ﴿ لعلَّهُم يرشُدونَ ﴾ أي يصيبون الحق ويهتدون إليه .

وقال أيضاً : ﴿ نحنُ أقربُ إليكمْ منْ حبلِ الوريدِ ﴾[3] . وحبلُ الوريد هو العِرق الذي يكون في صفحة العنق ، وهو تدليل على سماع الله للعبد أكثر من كل قريب ، إضافةً إلى التشجيع على الدعاء والتوسل به لوحده سبحانه وتعالى وصرف النظر عن التماس الآخرين .

---

(١) [الشمس/٩ و١٠].

(٢) [البقرة/١٨٦].

(٣) [قٓ/١٦].

قـال الإمام علي (ع) : « أحب الأعمـال إلى الله عزّ وجـلّ في الأرض الدعاء »[1] .

قـال رسول الله (ص) : « يـا ربِّ وددت أن أعلم من تحب من عبـادك فأحبه ؟ .

فقال : إذا رأيت عبدي يكثر ذكري ، فأنا أذنت له في ذلك وأنا أحبه ، وإذا رأيت عبدي لا يذكرني ، فأنا حجبته وأنا أبغضته »[2] .

وبنـاءً على ما تقـدّم يكون الـدعاء بلحـاظِ ما جـاء في القرآن الكـريم والروايات المعتبرة المتواترة عن الرسول الأكرم (ص) وأئمة أهل بيته ـ سلام الله عليهم ـ أهم وأفضل وأحب إلى الله من صلاة الليل ، ومن إقامة الصلاة فـي أوقاتها ، وأفضل كذلك من الجهاد ، لكون الدعاء يربط الانسان بالله بشكـل مباشر ، ويجعله لا يعتمد إلاّ عليه تعالى ، وقد كتب المرحوم الكليني كتـاب الدعاء في الكافي ورَفَدَهُ بالكثير من الروايات التي تقول بفضيلة الدعاء ، وكذا فعل المجلسي ـ عليه الـرحمة ـ حينمـا جمع الكثيـر من الروايـات التي تهتم بمسـائل الدعاء ؛ وهذان الكتابان والصحيفة السجادية تشكل جميعها نهج الأئمة الطاهرين من أهل بيت الرسول الأكرم (ص) ، والحقُّ يقال : إن الدعاء يمكِّن الإنسـان من بناء نفسه وتشذيبها ممّا لصق بها من أدران ومعاص ، وعلى حد قول مؤسس الجمهورية الإسلامية بصدد هذا الموضوع جاء : يتمكن البشر من بناء نفسه بشيئين ؛ الأوّل : القرآن ؛ والثاني : الدعاء .

فالقرآن كلام الله النازل من جانب الحق ، والدعاء : كلام الإنسان الطالع إلى الخالق ، لذا يمكن اعتبار الدعاء تحدث الإنسـان إلى خالقـه ؛ والقرآن مخاطبة الخالق لمخلوقه .

ولهذا يكون الدعاء أحد افتخارات الإنسان وألذُّ اللذائذ .

إن فوائد الدعاء كثيرة نحجم عن التعرض لأغلبها ، ونتبنى فائدتين منها ؛

---

(١) بحار الأنوار/ج ٩٣ ، ص ٢٩٥ .

(٢) بحار الأنوار/ج ٩٣ ، ص ١٩٠ .

الأولى : إن إحدى فوائد الدعاء هو الافتخار الذي ينعم به العبد بمناجاته لربِّه الخالق العظيم ؛ فلو وُفِّق الإنسان على سبيل المثال لمقابلة القائد الفلاني أو السلطان الفلاني تراه يفتخر بذلك الأمر أمام أقرانه وأخدانه .

والدعاء في حقيقته افتخار للعبد في مناجاة سيده ، ولا فخر أسمى من أن يناجي الإنسان في قلب الليل ـ ولوحده ـ سيده الخالق المتعالي .

إنـه يختلي به دون العيـون فيلتذ بهكـذا افتخار بعيـد عن حبّ الـدنيـا ولذائذها .

قال الإمام علي (ع) : « من أحبَّ لقاء الله سلا عن الدنيا »[1] .

فيما أوحى الله تعالى به إلى موسى (ع) : « كذب من زعم أنه يحبني ، فإذا جنّه الليل نام عني ، أليس كل محبٍّ يحبُّ خلوة حبيبه ؟! ها أنذا يا بن عمـران مُطَّلع على أحبـائي ، إذا جنَّهم الليل حُـوِّلت أبصارهم من قلوبهم ، ومُثلت عقـربتي بين أعينهم ، يخـاطبـوني عن المشـاهــدة ، ويكلِّمـوني عن الحضور »[2] .

فالدعاء معناه ذهاب العبد إلى باب بيت مولاه الذي طالما دعاه وقال له تعالى إليّ ﴿ ادعُوني أستجِبْ لكمْ ﴾ وهدَّده كذلك إذا لم يأتِ إليه ، وبعد ذلك قال لعباده : ﴿ أُجيبُ دعوةَ الداعِ إذا دعانِ ﴾ فليأتوا لدعوتي فليستجيبوا لي ، وليؤمنوا بي لأحقِّق لهم ما يريدون ﴿ لعلَّهم يـرشدُون ﴾ أي : أنهم يصيبـون ما يبغون .

لو وقَّف الإنسان أن يرى علياً (ع) وهو مغشيٌّ عليه في ظلمة الليل الحالك لظنَّ أنها صار إلى ذلك من خوف جهنم ؟ إنه أسمى وأرفع من ذلك .

أنـه حبُّ العبد مقـابل محبـوبه وخـالقه ؛ وكـذا كانت الـزهراء البتـول ـ سـلام الله عليها ـ في مقـابل الحق تعـالى حيث لا يُسمع منهـا إلّا الأنين ، ولا يرى منها إلّا ما يدلُّل على جريان دموعها . وقد قال فيها الرسول (ص) في

---

(١) كنز الفوائد/للكراجكي ، ميزان الحكمة/باب ١٢٤٩ : « الدنيا والآخرة عدوّان » .

(٢) بحار الأنوار/ج ٧٠ ، ص ٢٣ .

خبر طويل : « . . . أما ابنتي فاطمة فإنها سيدة نساء العالمين . . متى قامت في محرابها بين يدي ربِّها ـ جلّ جلاله ـ زهر نورها لملائكة السماء ، كما يزهر نور الكواكب لأهل الأرض ، ويقول الله عزّ وجلّ لملائكته : يا ملائكتي انظروا إلى أمَتي فاطمة سيِّدة إمائي قائمة بين يديَّ ، ترتعد فرائصها من خيفتي ، وقد أقبلت بقلبها على عبادتي . . . »[1] .

قال الإمام الصادق جعفر بن محمد (ع) : « الركعتان في جوف الليل أحبُّ إليّ من الدنيا وما فيها »[2] .

قال الإمام الرضا (ع) : « سئل علي بن الحسين ـ عليهما السلام ـ: ما بال المتهجِّدين بالليل من أحسن الناس وجهاً ؟ .

قال : لأنهم خَلَو بالله فكساهم الله من نوره »[3] .

الفائدة الثانية : هي انسلاخ الإنسان الداعي من الهموم والغموم والاضطرابات التي قد تكدِّر معيشة الفرد ؛ ومن نظرة نفسية يقال إن أغلب الاضطرابات يمكن أن تزول بالدعاء والتبتُّل إلى الله في جوف الليل لإمكانية التصريح بما في القلب للواحد الأحد ؛ وبذلك يفرغ القلب من الحمل الزائد عن الطاقة البشرية الذي تطفو آثاره ـ أي الحمل الزائد ـ في العادة لتنعكس على أخلاقية الفرد ، فيضحَى متعباً بدون ممارسة أعمال شاقة ، ومضطرباً بدون انتظار لمن يكرهه على ذلك الاضطراب ، هذا إضافةً إلى ما جاء في الروايات المعتبرة من أنّ الباري تعالى أحنُّ من الوالدة على ولدها ، « وهو الذي يتألَّه إليه عند الحوائج والشدائد كلّ مخلوق عند انقطاع الرجاء من كل من دونَه »[4] .

ولا بأسَ بالتعرض هنا إلى مناجاةٍ كان يقرأها الإمام علي (ع) ومن بعده الأئمة من ولده وأهل بيت الرسالة والنبوة رواها ابن خالويه وهي موجودة في كتاب مفاتيح الجنان ص (١٥٦) تحت عنوان أعمال شهر شعبان :

---

(١) بحار الأنوار/ج ٢٣ ، ص ١٧٢ .
(٢) بحار الأنوار/ج ٨٧ ، ص ١٤٨ .
(٣) علل الشرائع/ص ٣٦٦ .
(٤) التوحيد/ ص ٢٣١ .

« اللهم صل على محمد وآل محمد ، واسمع دعائي إذا دعوتك ، واسمع ندائي إذا ناديتك وأقبل عليَّ إذا ناجيتُك ، فقد هربتُ إليك ، ووقفتُ بين يديك ، مستكيناً لك ، متضرِّعاً إليك ، راجياً لما لديك ثوابي ، وتعلم ما في نفسِي ، وتخبر حاجَتي ، وتعرفُ ضميري ، ولا يخفى عليك أمرُ منقلبي ومثواي ، وما أريد أن أبدىء به من منطقي ، وأتفوّه به من طلبتي ، وأرجوه لعاقبتي ، وقد جرت مقاديرك عليَّ يا سيدي فيما يكون مني إلى آخر عمري من سريرتي وعلانيتي ، وبيدك لا بيد غيرك زيادتي ونقصِي ونفعي وضرِّي .

إلهي إن حرمتني فمن ذا الذي يرزُقني ، وإن خذلتني فمن ذا الذي ينصُرني .

إلهي أعوذ بك من غضبك ، وحلول سخطك ، إلهي إن كنتُ غيرَ مستأهلٍ لرحمتك ، فأنتَ أهلٌ أن تجودَ عليَّ بفضل سعَتك . . . » .

قد يقول البعض : لماذا لا يُستجاب دعائي على الرغم من أنني أدعو اللّهَ ليل نهار من أجل أن يرزقني على سبيل المثال ؟ .

وهنا يقول العلامة الطباطبائي صاحب تفسير الميزان : إن الدعاء مستجاب ولكنه لا يتطابق في أغلب الأحيان مع تخيُّلاتنا ، بل يتطابق مع الفطرة الإنسانية ، فقد ندعو الباري تعالى أن يرزُقنا مالاً كثيراً ، أو أولاداً ذكوراً ، أي ندعو طبق رغباتنا لا طِبق مصالحنا الفطرية على الرغم من أن الدعاء ينبغي أن يكون متلائماً ومنسجماً مع الواقع لا مع الخيال ؛ فقد يكون المال الكثير لنا إفساد وابتعاداً عن الدين ، ونحن لا نعلم بذلك ؛ ولكن الباري تعالى يعلم ويرى ولا يريد لنا إلا الخير ، ويعلم أن مصلحة فلان تقتضي أن يبقى فقيراً أو بدون أموال كثيرة ، وأن دينه أفضل مما لو رزقه تعالى المالَ الكثير ؛ ولكن لو علم الله تعالى أن فلاناً من الناس يكتمل دينه مثلاً أو يكون على أفضل أوضاعه لو رزقه ولداً ذكراً فإنّه سيفعل ذلك بالتأكيد ؛ وقد تطرق القرآن الكريم إلى هذه القضية بشكل مختصر ومفيد فقال عزّ وجلّ في محكم كتابه : ﴿ وعسى أن تكرَهُوا شيئاً وهو خيرٌ لكمْ ، وعسى أن تحبُّوا شيئاً وهو شرٌّ لكمْ ، واللّهُ يعلمُ وأنْتُمْ لا تعلمُونَ ﴾[1] ؛ وجاء في مكان آخر ما يقرِّب المعنى أكثر فقال تعالى :

---

(١) [البقرة/٢١٦].

﴿ فعسى أن تكرهُوا شيئاً ويَجعلَ اللّهُ فيهِ خيراً كثيراً ﴾[1] .

فما كان في غير نفعِنا لا يمكن أن يكون ، وعندها يبقى الدعاء بدون نتيجة بحسب تصوّرنا .

وما كان فيه نفعُنا يتم بسرعة بعد الدعاء ، وهذا ما يقدِّره الباري تعالى لنا ، وهو أعرف سبحانه بمنافع ومصالح العباد الذين قصروا عن معرفة الخير ، فدعا الكثير منهم بالشرّ بدون أن يلتفت إلى ذلك ، ولكنّ القادر هو الذي يحدّد ويقدِّر استجابة الدعاء الذي ندعوه به كلّ يوم .

ومن المسائل المهمة بالدعاء هي عدم الإصرار على المسألة الفلانية أو القضية الفلانية ، فالأئمة من أهل بيت الرسول الأكرم (ص) كانوا يبدأون أدعيتهم بتوحيد الله وذكر صفاته والتعرض لألطافه ورحمته التي وسعت كل شيء ولا يذكرون حاجاتهم إلا آخر الدعاء ، وهذا ما لمسناه في دعاء كميل بن زياد الموجود في كتاب « مصباح المتهجد » يبدأ بـ « اللهمَّ إني أسألك برحمتك التي وسعت كلّ شيء ، وبقوّتك التي قهرتَ بها كل شيء ، وخضع لها كل شيء ، وذلَّ لها كل شيء ، وبجبروتِكَ التي غلبتَ بها كل شيء . . . » .

ويستمرُّ الدعاء على هذه الشاكلة ، حتى يصل الإنسان إلى استعراض أغلب صفات الله وأسمائه من أجل إعطاء أهميةٍ بالغةٍ بالدعاء وبالمدعو الذي هو الله جلَّت أسماؤه ، وبعد ذلك يتطرّق الداعي إلى ذكر حاجته بعد أن يُقسم على الله جلّ وعلا بأنبيائه ورسله ، وبخاتم النبيِّين وبالعترة الطاهرة من أهل بيته - صلوات الله وسلامه عليهم - لكي يتعرَّض الداعي إلى لذّة الدعاء الذي يحبُّ الله أن يرى عبدَه عليها ﴿ قلْ ما يعبؤا بكم ربِّي لولا دُعاؤُكُمْ ﴾[2] .

وإذا لم يستجبِ الباري تعالى للدعاء الذي دعوناه به ، فلا ينبغي لنا أن نيأس من رحمة الله ، لأن اليأس قد يصل في بعض الأحيان إلى حد الكفر ﴿ ولا تيأسُوا منْ رَوْحِ اللَهِ ، إنهُ لا ييئسُ منْ رَوْحِ اللّهِ إلاَّ القومُ

(١) [النساء/١٩].

(٢) [الفرقان/٧٧].

الكافرون ﴾[1] .

أما السبب الثاني في عدم استجابة الدعاء ، فهو الذنب أو معصية الله في قوانينه التي تحول دون الاستجابة حيث تكون كالسِّتر بين العبد ومولاه ؛ قال رسـول الله (ص) : « من أكـل لقمـة من حـرام لم تقبـل لـه صـلاة أربعين ليلة . . . »[2] .

كم هو جميل ما جاء في دعاء كميل بن زياد ـ عليه الرحمة ـ حيث يدعو المسلم فيقول : « اللهمَّ اغفر لي الـذنوب التي تغيِّـر النعم ، اللهمَّ اغفر لي الذنوب التي تنزل النقم ، اللهَّ اغفر لي الذنوب التي تحبس الدعاء » .

وجـاء أيضاً في أول المنـاجـاة الشعبـانيـة : « اللهمَّ اسمـع دعـائي إذا دعوتك ، واسمع ندائي إذا ناديتك » وتعني هـذه العبارة : أن يـا إلَهي وفقني لإزاحة الستار الذي بينَ طلبي وبينَك ، أو بيني وبينَك ، ألا وهو الحجاب الذي صنعه الذنب أو المعصية وهذا ما يطلق عليه باب تشبيه المعقول بالمحسـوس .

وبناءً على هذا نفهم أن لقبول الدعاء أو استجابته شروطاً منها الابتعاد عن المعاصي ، وما يُغضب الله ـ جلَّت أسماؤه ـ ولذا ينبغي أن نبتدىء الدعاء بالتوبة والاستغفار والإنابة ، لنتمكن من إزاحة الستر الذي يحول دون صعود الدعاء ، ولا بأس أن تكون التـوبة والإنـابة وسط الـدعاء وآخـر الدعـاء أيضاً ، وهـذا ما نلاحظه في المناجاة الشعبانية ، ودعاء مكارم الأخلاق ودعاء كميل .

إذن ، عدم استجابة الدعاء سببه نحن ، سببه معاصينا وتمادينا بالذنوب والآثام الذي يوجب عدم قبول الله تعالى لدعائنا ، وعليه ينبغي لنا أن نبتعد عن كل ما حرَّم الله من أذى وأكل حرام وانتهاك حرمات وما إلى ذلك ؛ قال الإمام الباقر (ع) : « إن الرجل إذا أصاب مالاً من حرام لم يقبل منه حجّ ولا عمـرة ولا صلة رحم ، حتى أنه يفسد فيه الفرج »[3] .

---

(١) [يوسف/٨٧].

(٢) كنز العمال/خ ٩٢٦٦ .

(٣) بحار الأنوار/ج ٩٩ ، ص ١٢٥ .

على أية حال يجب علينا إذا أردنا أن يستجاب دعاؤنا عند الله تعالى، علينا أن نتجنب المعاصي والآثام، نراعي حق الناس، ولا نتكبر على أحد، ولا نغترَّ بما عندنا من أموال وثروات، وأن نحمد الله كثيراً على عظيم إحسانه، ونيِّر برهانه، ونوامي فضله وامتنانه، حمداً يكون لحقّه قضاءً، ولشكره أداءً، وإلى ثوابه مقرِّباً، ولحسن مزيده موجباً وأن نلتزم بما جاء في كتابه الحكيم، وما جرى على لسان نبيه الكريم وأهل بيته الأطهار (ع) كي نتمكن من إبلاغ الدعاء إلى مراحله الأصولية لنفوز بالقبول والرضا من عند العزيز القدير.

أما السبب الثالث الذي يحول دون الاستجابة، فهو: التصديق بالقلب بعيداً عن الدعاء الترفيِّ الذي لا يزيد ولا ينقص، ومحاولة الابتعاد عن خداع الله ـ جلّت أسماؤه ـ؛ قال أمير المؤمنين علي (ع): «إن رسول الله (ص) أبصر رجلا دبرت جبهته، فقال: من يغالب الله يغلبه، ومن يخدع الله يخدعه، فهلا تجافيت بجبهتك عن الأرض ولم تشوِّه خلقك؟»[1].

وقال أيضاً (ع): «إن أبغض الخلائق إلى الله رجلان: رجل وكله الله إلى نفسه، فهو جائر عن قصد السبيل، مشغوف بكلام بدعة، ودعاء ضلالة، فهو فتنة لمن افتتن به، ضالٌ عن هدى من كان قبله...»[2].

فمن كان قلبُه مليئاً بالخطايا حتى كأنه أحد مضاجع الشيطان، لا يتأتّى له أن يفرغ مكاناً للرحمن في قلبه؛ فقد يدعو الإنسان وهو آثمٌ قلبه فلا يستجاب دعاؤه لامتلائه بالمعاصي التي تمنع نزول الرحمة عليه، أما ذلك القلب الذي أفرغ ما فيه إلا لأوامر الرحمن، يتأتّى له أن يقول: لبَّيك وهو مدرك لها، ليسعد بدخول نور الله إليه.

وأضرب لكم هنا مثلاً ليكون حديثنا أكثر وضوحا؛ ولو رمى أحدكم إناءً في البحر لشاهد فوريّة امتلائه بالماء، ولكن لو أغلق الإناء هذا بغطاءٍ محكمٍ ورماه فارغاً في البحر لشاهد عدم امتلاء الإناء، أو عدم دخول قطرة ماء إليه، ولو مرَّ عليه عام كامل؛ فهل تعتقد أن السبب في عدم دخول الماء إلى الإناء هو

---

(١) بحار الأنوار/ج ٧١، ص ٣٤٤.

(٢) نهج البلاغة/الخطبة رقم ١٧.

بُخْلُ البحر بمائه أم السبب هو الغطاء المحكم الذي منع دخول الماء إلى قلب الإناء ؟ .

وكذا الأمر في دخولك إلى حجرة لا يوجد فيها منفذٌ إلّا باب تدخل منه إلى الحجرة ، ثم تغلق الباب خلفَك ، بعد ذلك ترى أنك جالس في ظلمة حالكة ، فهل لك أن تلوم الشمس لعدم دخول أشعتها إليك ؟ .

إذن عليك أن تفتح باب الحجرة ، وتجعل لها منفذاً ، فسوف ترى دخول الأشعة الشمسية إليك .

فالتقصير منا نحن وليس من الحجرة ، أو من البحر ؛ فالقلب الذي لا يعرف الطهارة يكون بمنزلة الإناء الذي أُحكم غطاؤه ، أو الحجرة الفاقدة للمنافذ ؛ ويمكن أن يكون الحسد هو أحد المسائل التي تحجب الدعاء .

فالحسد هو أحد مفسدات القلب لكونه رأس الرذائل وثمرته شقاء الدنيا والآخرة ، ومن تسلّط الحسد على قلبه منعه الله من رحمته ومن استجابة دعائه ؛ قال أمير المؤمنين علي (ع) : « الحسد دأب السّفل وأعداء الدول ، والحسد منقصة إبليس الكبرى ، والحسد حبس الروح ، وأنه شرّ الأمراض ، وهو عيبٌ فاضح ، وشجىً فادح ، لا يشفي صاحبه إلا بلوغ أمله فيمن يحسده »[1] .

لقد تعرض الكثير من روايات أهل بيت النبي (ص) إلى أن الإنسان الكذّاب حينما يكذب تخرج ريح من فمه نتنة تطلع إلى السماء ، فتتأذى الملائكة من تلك الريح فيلعنون صاحبها ؛ فهل يمكن لهكذا إنسان استجابة من دعاء ؛ على العكس من ذلك الصائم الذي قد لا نُطيق خلوف فمه والذي يكون عطراً رائعاً في عالم الملكوت ، فإن دعاءه مقبول ومستجاب لخلوّ قلبه من المعاصي ، ولالتزام ما جاء في كتاب الله ـ جلّت أسماؤه ـ وسنة أوليائه ـ سلام الله عليهم أجمعين ـ .

والجدير بالذكر أنَّ القيام للدعاء ، وإبداء المحاولة في هذا المجال لا تخلو من الآثار النفسية الإيجابية ، والأجر المعنوي حتى مع عدم استجابة

(١) شرح نهج البلاغة/ج ١ ، ص ٣١٦ .

الدعاء ، لأن كلمات الدعـاء بشكل إجمـالي ترقّق القلب وتسـاهم في إدراك المسلم للكلمات والعبارات التي يمكن أن يطلقها حين الدعاء ، نـاهيك عن الاستشعار الذي يحصل بأوحدية الله ، ومعرفة تفرُّده بمقاليد الأمور وتدبيرها .

قال الإمام جعفر بن محمد الصادق (ع) عن جده رسول الله (ص) : « إني لأحبُّ للرجل منكم المؤمن إذا قام في صلاة فريضة أن يقبل بقلبه على الله ، ولا يشغل قلبه بأمر الدنيا ، فليس من مؤمن يقبل بقلبه في صلاته على الله ، إلا أقبل الله عليه بوجهه ، وأقبل بقلوب المؤمنين عليه بـالمحبة لـه بعد حبِّ الله عزّ وجلّ إياه »[1] .

اللهمّ ارزقنا توفيق الطاعة ، وبُعد المعصية ، واستجابة الدعاء وأقبل علينا بوجهك الكريم واحجب عنا سطوات البلاء ، ونجِّنا من مفاجأة النقم ، وأجرنا من زوال النِّعم ، ومن زلل القدم ، واكشف عنا كرب الـدهر ، واصـرف عنا عوائق الأمور ، وأوردنا حياض السلامة واحملنا على مطايا الكرامة ، وجُدْ علينا يـا ربِّ بالآئك ، واكشف بلائـك يا أرحم الـراحمين بحقِّ محمد وأهـل بيتـه الطاهرين .

(١) ثواب الأعمال/ص ٢٦٠ ، الصلاة : « مثل ما في المتن معنى » .

التوسل بأهل بيت الرسول (ص)

إن بحثَنا هذا يشمل الجميع وبالخصوص أولئك المثقفين من الرجال والنساء ، وعلى ما أظن سيكون مفيداً ونافعاً لهم ، ويشتمل على التوسل بأهل بيت الرسول (ص) حيث يمكن اعتبار هذه المسألة من الشرائط الأساسية للدعاء ؛ وقليلةٌ هي الأدعية التي لم يتعرض فيها كتاب مفاتيح الجنان للمحدث القمي إلى حالة التوسل بأهل بيت الرسول (ص) .

وقد ذكر المرحوم الحر العاملي في «وسائل الشيعة» قرابة (٧٠) روايةً في باب التوسُّل ، تجمع تقريباً على اعتبار التوسل شرطاً أساسياً في استجابة الدعاء .

وبهذا الصدد يشير القرآن الكريم إلى استعمال الوسيلة في الدعاء : ﴿ يا أيُّها الذين آمَنُوا اتَّقُوا اللّهَ وابتغُوا إليهِ الوسيلةَ ﴾(١) .

« عن ابن شهر آشوب قال : قال أمير المؤمنين (ع) في قوله تعالى : ﴿ وابتَغُوا إليهِ الوسيلةَ ﴾ أنا وسيلتُه »(٢) ؛ وقال الباري في محكم كتابه : ﴿ ولِلّهِ الأسماءُ الحُسنى فادعوهُ بها ﴾(٣) ؛ قال الإمام الصادق جعفر بن محمد (ع) : « نحن والله الأسماء الحسنى »(٤) ، أي أن الأسماء الحسنى التي

---

(١) [المائدة/٣٥].
(٢) الميزان/ج ٥ ، ص ٣٣٣ .
(٣) [الأعراف/١٨٠].
(٤) الميزان/ج ٨ ، ص ٣٨ نقلاً عن الكافي .

جاءت في كتاب الله المجيد نحن ، فادعوه بها ؛ فعليكم أن تقسموا على الله بنا كي يستجاب دعاؤكم ، أو بعبارة أخرى : توسّلوا إلى الله بنا .

لذا يكون التوسُّل بأهلِ بيت النبي محمد (ص) بنظر القرآن الكريم والروايات المعتبرة مسألةً أساسيةً مؤكَّدةً .

وهذا ما لَمَسناه من النبيِّ الأكرم (ص) والأئمة الأطهار - عليهم السّلام - من خلال استعراضنا لسيرة حياتهم الشريفة ؛ ويمكن اعتبار التوسُّل بأرواح العلماء الكبار ممن ساروا على نهج الرسول والأئمة من بعده شيئاً مُسلَّماً به .

وحيد البهبهاني - عليه الرحمة - كان أحد العلماء الإسلاميين العظام ، ولمنزلته الجليلة كان يُدعى في عالم الرجال « بالشيخ » ؛ كان يصرُّ هذا العالم الفاضل في « الفوائد الحائرية » على طلبته بالتوسُّل بأرواح الأئمة والعلماء الكبار الأجلاّء الذين كان لهم الأثر الفعال في نشر الأخلاق الإسلامية الفاضلة وتعاليم الإسلام السامية ، ناهيك عن توصيته بعدم التعرض لأولئك العلماء بما يُسيء إليهم ، ويؤكّد أن النفور من العلماء يجرّ الإنسان إلى الجهل المطبق ، فيقول بثبات ذلك بالتجارب التي شاهدها ولمسها في مجمل حياته .

ويقول المرحوم « الملاّ صدرا » - عليه الرحمة - الذي كان يسكن مدينة شيراز : كنت أذهب إلى قم المقدسة لأنتهل وأستمد العون من روح السيدة المعصومة بنت الإمام موسى بن جعفر الكاظم (ع) كيما أتمكّن من حل بعض الشبهات الفلسفية التي كانت تعرض لي في أثناء عملي ؛ ولا يخفى على أحد سيرة الملاّ صدرا الذي كان مختصّاً بالفلسفة الإسلامية وفي تفسير روايات أهل بيت الرسول (ص) ناهيك عن طرحه للحكمة المتعالية بدل فلسفة المشائين وفلسفة الإشراق .

لقد تمكّن « الملاّ صدرا » من طرح الفلسفة المشوبة بالعرفان ليقدّمها إلى المجتمعات التي تحظى الفلسفة لديها بأهمية خاصة .

وكذا كان الأمر بالنسبة لابن سينا حيث قال فيه قائد الثورة الإسلامية : لقد كان ابن سينا شفاءً بنفسه ؛ وإن كتابه « الشفاء » وهو كتاب فلسفي من الكتب المعقّدة ، وفيه قوله : إن فيَّ استعداداً خاصاً حبانيه الله ، فعندما أكون تلميذاً

في علم معين عند أحد الأساتذة أتمكن من أن أكون أستاذا لأستاذي بعد مرور ثلاثة أيام من طرحه لذلك العلم .

ويذكرني في كتاب الشفاء فيقول : لم أكن أعرف من الهندسة إلا النزر اليسير ، وبعد تلمّذي على يد أستاذ الهندسة لمدة ثلاثة أيام تمكنت من طرح مسائل صار فيها أستاذي تلميذاً عندي ، ولكن الحق يقال في أنني كنت أطالع في بعض الأوقات عدة مسائل في العلم الإلّهي - يعني الفلسفة - وأكرر ما أطالعه (٤٠) مرة ولا أستطيع حلّ شبهة فلسفية إلاّ بعد أن أتوسل بعالم الملكوت من خلال قسمي عليه بالأئمة الأطهار من آل بيت محمّد (ع) لأصل عن هذا الطريق إلى ما يشفي الغليل .

يقول الملاّ سليمان وهو أحد تلاميذ ابن سينا والذي كتب حاشيةً على كتاب الشفاء : كنت أرى ابن سينا يدخل مسجده الذي هو في بيته ليصلي من أجل حل شبهة علمية أو فلسفية .

فكلما تعمّق الإنسان في العبادة كلما سمت روح تعبده ، وكلما تهاوت روح تعبده في أحد العلوم دلّل ذلك الأمر على تفاهة معلوماته وغروره في كسبه لذلك العلم ، لكون العلم لا يجلب إلاّ التواضع بعيداً عن التكبر والعجب والغرور .

يقول المرحوم مصطفى وهو الابن الأكبر لقائد الثورة الإسلامية : « كان والدي قد اعتاد على الذهاب إلى حرم الإمام علي (ع) في كل ليلة ليقرأ الزيارة الجامعة ثم يقفل راجعاً إلى بيته ؛ وفي إحدى الليالي كان الجو بارداً وممطراً شاهدت والدي قد استعد للذهاب إلى الحرم ، فتبسمت وقلت له : والدي العزيز ، يمكن لك قراءة الزيارة الجامعة هنا في بيتك بدون أن تتكلّف عناء الذهاب في هذا الجو البارد ، والزيارة في البيت لا تقلُ ثوابها عن تلك التي في الحرم بشكل عام .

فأجابني بكلام قيِّم جداً ، يليق به كأستاذ وقائد : ولدي مصطفى لا تسلب منّا روح العوام ! .

هنيئاً لأولئك الرجال والنساء الأجلاّء من الذين يتمتعون بروح العبادة من

خلال التزامهم بطريقة أهل البيت الكرام - صلوات الله وسلامه عليهم - إنهم لا يخلقون الشبهات ولا يعترضون على ما في القرآن من آيات ، ولا يحاولون التبجّج بما يسمى بالثقافة الحديثة أو المدنيّة العصرية ؛ وأن الذي يفعل ذلك مسلوب الإرادة ، ضعيف العقيدة ، بعيد عن روح العبادة والطاعة للواحد الأحد جلّت صفاته ؛ وقد نرى أمثال هؤلاء في مجمل حياتنا لنتعرف على منافذ الشيطان الرجيم الذي يحاول أن يتسلط على الروح الإنسانية من خلال تشجيعه لهكذا أمور كيما يضحى البشر متكبّراً ومعجباً بنفسه من غير دليل ولا سند .

يتعرض قائد الثورة الإسلامية إلى جملة في « كشف الأسرار » يمكن احتسابها إحدى الطرائف العصرية فيقول : في طريقنا إلى مكة نزع أحدهم خاتمه من أصبعه وقال : ما فائدة هذا الحجر ؟ وما الذي يمكن أن يستفيده البشر من مثل هذه الأحجار ؟ .

فتبسمت في وجهه ، وقلت : إلى أين تذهب يا هذا ؟ ألا تعرف أنك ذاهب إلى الطواف حول حجر لا يضرّ ولا ينفع ؟! وتريد لمس الحجر الأسود الذي قد لا ينفعك في شيء ؟ وإذا نفعك في شيء فإن الطواف حول الكعبة سوف ينفعك أيضاً ، وإذا كان كذلك فزيارة قبر الرسول نافعةٌ أيضاً .

وكذا الأمر بالنسبة لقبور أهل بيته - سلام الله عليهم - .

ألا تعرف أن لله أماكن يحب أن يذكر فيها اسمه ، وأن السنن التي قال بها الرسول (ص) من مثل التختم يحظى بأهمية بالغة ، وأن زيارة الأطهار من أولياء الله وأصحاب الأئمة تجعل الفرد المسلم وجيهاً عند الله ؟ .

إن للتوسل بقبور الصالحين وأولياء الله المقربين وكما علّمتنا التجارب لها الأثر الفاعل في قبول الدعاء واستجابته ، ولا أظن أن هناك من ينكر ذلك إلا من نزع الله من قلبه روح العبادة ؛ وقد اتّفق أن ذهبت في يوم من الأيام إلى المقام الذي دفن فيه الحرّ الرياحي الذي قاتل المنافقين إلى جنب الإمام الحسين بن علي (ع) ، فشاهدتُ إحدى النساء وهي تلتصق بشباك الضريح وتقول : « يا كاشف الكرب عن وجه الحسين (ع) اكشف كربي بحق مولاك الحسين (ع) » ، وما إن رددت ذلك القول ثلاثاً حتى شاهدتها تخرج من المكان

الذي فيه القبر الشريف مبتسمةً فرحةً ؛ فتقدمت صوب القبر ، وكـان بي ألم شديد وحمى مزمنة عجز الأطباء عن إزالتها عني ، تقدمت وقلت بمثل ما قالت تلك المرأة الصادقة اللهجة ، بعد ذلك رجعت إلى البيت لأرى نفسي معافى سالماً ، ولم أشكُ من تلك الحمَّى إلى وقتي هذا .

تقول زوجة أحد رجال العلم : كنت مريضة بمرض خبيث أقعدني في البيت ، وعجز الأطباء عن مداواتي بعد أن نصحوني بإجراء عملية لي لاستئصال الجزء الخبيث ، وكان يوم العملية يقترب من ساعته المحددة ، فطلعت إلى سطح الدار بعد أن أخذ مني المرض مأخذه وعلى سطح داري الذي في قم ، توجهت صوب ضريح السيدة معصومة بنت الإمام موسى بن جعفر الكاظم (ع) لأقول لها : يا ابنةَ الأحرار ، يا ابنة الأئمة الأطهار أنتم أهل بيت رسول الله (ص) لا تردُّون مَنْ لجأ إليكم ، وأنا زوجة أحد طلاب علمكم الذي نشرتم لواءه في مشارق الأرض ومغاربها ، أتوسل إلى الله بك لأن تكوني وسيلةً عند الباري ليرفع عني ما أنا فيه من بلاء وأن ينجيني من هذا المرض الخبيث ؛ وما أن أكملت دعائي الذي شابه التبتُّل والخشوع حتى شعرت بتوقُّف الألم ، وانطمار الغدة التي كانت أصل المرض الخبيث .

وإذا أردت أن أستعرض نظير هذه الحوادث ، لتمكَّنت من رواية (٥٠) أو أكثر مما يشابهها من القضايا التي لا تخفى على من جاور قبور الأولياء والصالحين ، وفي مثل هذه القضايا حار الذين لا يعتقدون بالتوسُّل بقبور أهل بيت الرسالة وأصحابهم ، فما كان لديهم غير القبول ؛ لرؤية البعض منهم ذلك بأمِّ عينيه بعيداً عن السماع من الآخرين .

إن ربَّ العالمين ، عالم حكيم ، وقادر مقتدر ، ومن أحكمَ علائقه معه تمكن من الصعب المستصعب ، فكلما كانت العلاقة قويةً تمكن الإنسان من تسيير أموره على أفضل وجه .

وهذه المسألة لها جذور قرآنية لا يمكن التغافل عنها .

لقد عرض القرآن المجيد قصة سليمان في سورة النمل بشكل يبعث على الدهشة ، فاستعرض قضية إخبار الهدهد لسليمان عن امرأة في اليمن قائلاً :

﴿ إنّي وجدتُ امرأةً تملكهمْ وأُوتيتْ منْ كلِّ شيءٍ ولها عرشٌ عظيمٌ ﴾[1] .

وبعد سرد عدة حوادث جاء حديث سليمان (ع) : ﴿ قالَ يا أيُّهَا المـلأُ أيّكم يأتِيني بعرشِها قبلَ أنْ يأتوني مسلِمينَ ﴾[2] .

فاستعرض أحدهم ما لديه ثم قال : ﴿ قالَ الذِي عندهُ علمٌ منَ الكتابِ أنا آتيكَ بِهِ قبلَ أنْ يرتدَّ إليكَ طرفُكَ ﴾[3] .

ويذكر تفسير شبّر أن الذي عنده علم من الكتاب هو آصف بن برخيا وهو وزير سليمان ، أو الخضر ، أو جبرائيل (ع) ، وما فعله من نقل لعرش بلقيس جزء يسير من العلوم التي يتمتع بها أهل بيت الرسول الأكرم (ص) ، ولقد كانت علاقة هذا الشخص الناقل للعرش مع الباري تعالى محكمةً بحيث يتمكن من إنجاز عمل جبار كهذا ، وأن ما يقوم به الأئمة من أهل بيت الرسول (ص) من شفاء للمرضى ، أو رواء لحوائج الطالبين ليس شيئاً كبيراً أو عظيماً إذا قيسَ بأعمالهم العظام التي هي أكبر من أعمال ذلك الناقل لعرش بلقيس ، ولا عجب في ذلك لكونهم يرتبطون بالله ارتباطاً وثيقاً يمكّنهم من فعل ذلك بعلم من الله الحكيم العزيز ، وهذا ما يُدلل على أن التوسُّل بهم له جذور قرآنية .

وعليه فليفتخر المسلمون بأن لهم إمام مثل الحسين (ع) يتوسلون به في محضر الباري تعالى ، وهنيئاً لهم عباداتهم عند قبر السيدة زينب (ع) وتوسُّلهم بها ليتقرَّبوا زلفى إلى الله العزيز الحكيم .

وعجبٌ لأولئك الذين نسوا أن لهم إمام زمان هو المهدي المنتظر (ع) فراحوا يتوسّلون بغيره من البشر ، على الرغم من ارتباطه الوثيق بالمولى تعالى وقربه منه .

يحكى أن أحد الأجلّاء فَقَدَ ولدَيْه في زمن حكم الشاه لإيران ، فوصل حال زوجته من شدة الجزع والفزع إلى إصابتها بداء الفالج ، وخبا نور عينيها فلم تعد ترى شيئاً غير بصيص من نور ، وحينها قرر الأطباء معالجتها بعملية على

---

(١) [النمل/٢٣].

(٢) [النمل/٣٨].

(٣) [النمل/٤٠].

أن تنقل إلى المستشفى لتخلِّف وراءها أطفالاً صغاراً في البيت بدون من يرعاهم ، وصار الزوج يجري هنا وهناك ليرتِّب أوضاع زوجته ناهيك عن إصابته بالكآبة من جرَّاء ما وصلت إليه زوجته من حال ، وفي ذلك الوقت العصيب توجَّه الزوج إلى الباري بقلب صادق ليقول : إلّهي أسألك بحقِّ الإمام المهدي (ع) إلَّا فرَّجت عن زوجتي ورحمتها مما هي فيه .

وفي المساء وعندما كان مضطجعاً سمع ضجَّة في الدار ، خرج على أثرها من حجرته ليرى بأمِّ عينيه فرح الأطفال بشفاء أمهم من مرضها ، ورجوع النور إلى عينيها حيث كانت تقول : إن شفائي كان بفضل التوسُّل بالإمام المهدي (ع) .

للجيش رياضة صباحية يقومون بها بعمل بعض الحركات الرياضية ولكل الجيوش في العالم رياضات صباحية ترافقها أناشيد وطنية ، ولا بأس لو بدّلت تلك الأناشيد بقراءات في الزيارة الجامعة ، لأنها تعرّف الأئمة من أهل بيت الرسول الأكرم (ص) لمن لا يعرفهم وتذكر بهم من يعرفهم وأن ذلك العمل لا يستغرق من الوقت إلا خمس عشرة دقيقة لا غير .

يقول العلامة المجلسي ـ عليه الرحمة ـ : إن الزيارة الجامعة لها سند قوي ودلائل تؤكد أنها أفضل الزيارات لجمعها بين الأئمة (ع) والرسول الأكرم (ص) ، واطلاع القارىء لها على مقام الأئمة من أهل البيت السامي وآثار أعمالهم في نفوس البشر ناهيك عن التوسُّل بهم لأن يكونوا شفعاء ، لكونهم أمناء الله على سره ، لأنهم المسترعون في أمر خلقه ، وأن الباري قرن طاعتهم بطاعته ، وعصيانهم بعصيانه .

إن الزيارة الجامعة تعمل على إنارة القلب ، وتساهم في تمكين الانسان من السيطرة على نفسه الأمَّارة بالسُّوء ؛ والمهم في قراءة الزيارة الجامعة هو التوسُّل بأهل بيت محمد (ص) ، وتوطيد العلاقة بهم ، بعد إحكام الارتباط بالله الواحد كيما تتزايد سعة الإنسان الوجودية ، وكلَّما وثّقنا علائقنا مع الأئمة الأطهار (ع) ازدادت سعتنا الوجودية .

إن المتدبِّر في معاني الزيارة الجامعة يشعر بلذة خاصة بهذه الزيارة

خصوصاً إذا كان الحب والودّ الذي يملأ قلب الإنسان المسلم لأهل بيت الرسول الأكرم (ص) عميقاً عندها سيطيل النظر في رفعة وسمو أهل البيت ـ عليهم السّلام ـ ومظلوميتهم التي صنعها لهم أعداء الله على مختلف العهود والأزمان .

يقول العلامة المجلسي : ذهبت إلى مدينة النجف في العراق ، وعند وصولي أردت الذهاب إلى ضريح الإمام علي (ع) ، ولكنني استحييت من ذلك ، وقلت في نفسي : إنني ما أزال غير عارف بوضعي ، فكيف أذهب إلى زيارة ضريح الإمام علي (ع) بدون أن تكون لي علاقة قوية تشدُّني إليه ويقبلني كزائر ، فرابطت في الدار وفي المسجد ، وفي وادي السلام الذي هو مكان القبور ، أتعبَّد وأتهجَّد وأتوسَّل إلى الله أن يعرِّفني على صاحب ذلك المقام . وبعد ذلك توجهت إلى زيارة قبر الإمام علي (ع) لأشرع بقراءة الزيارة الجامعة ولأنعمَ بصفو البال وراحة النفس ، وما أن شاهدني أحد العلماء الأجلّاء بادرني إلى القول : نِعْمَ الزيارة هذه .

« السلام عليكم يا أهل بيت النبوة ، وموضع الرسالة ، ومختلف الملائكة ، ومهبط الوحي ، ومعدن الرحمة ، وخزَّان العلم ، ومنتهى الحلم وأصول الكرم ، وقادة الأمم ، وأولياء النعم ، وعناصر الأبرار ، ودعائم الأخيار ، وساسة العباد ، وأركان البلاد ، وأبواب الإيمان ، وأمناء الرحمن ، وسلالة النبيين ، وصفوة المرسلين ، وعترة خيرة ربِّ العالمين ورحمة الله وبركاته » .

وقد قال العلّامة المجلسي بصدد هذه الزيارة : إنها أصحُّ سنداً ومضموناً .

ويحضرني هنا أن أذكر أن الدنيا فرص ، فلا بأس باستغلالها وتوظيفها لتأديب وتشذيب النفس البشرية ، وأن قراءة الزيارة الجامعة فرصة لا ينبغي التفريط بها بسهولة إلا إذا حالت الظروف القاهرة بينها وبين الإنسان المسلم :

جاء في مفاتيح الجنان للمحدِّث القُمِّي : أن أحد العلماء رأى في منامه

ظالماً كان قد مات منذ مدة زمنية ليست بالقصيرة في وضع جيد ، فسأله عن سبب ذلك ؟ .

فأجابه : بأن امرأة الحداد توفّاها الباري ليلة البارحة ، ودفنت في نفس المقبرة التي هو فيها وأن الحسين (ع) زارها ثلاث مرات ؛ ومن أجل الحسين (ع) رفع الله العذاب عن تلك المقبرة بشكل مؤقت .

فاق العالم من نومه ، وذهب إلى الحدّاد ليسأله عن صحة وفاة زوجته ، فأجابه الحداد بأن زوجته قد توفّاها الباري تعالى قبل ليلتين ؛ فقال العالم للحدّاد : ماذا كانت تفعل امرأتك في النهار ؟ .

هل كانت تعمل شيئاً خاصاً لله سبحانه وتعالى ؟ قال : لا ، ولكنها كانت لا تستغني عن زيارة الإمام الحسين (ع) في كل يوم .

أعزائي القراء ، لا ينبغي لأحد منا أن يتخلى عن زيارة الرسول الأكرم (ص) وأهل بيته الأطهار ، لكي يتمكن من إيجاد علاقة ورابطة قوية بهذه العترة الطاهرة ، ليكونوا شفعاء له بعد أن يتوفّاه الله ـ جلّت أسماؤه ـ واطلبوا من الله سبحانه وتعالى أن يرزقنا وإياكم توفيق الطاعة وبعد المعصية لكي نحظى بروح التعبُّد التي ستؤول بنا إن شاء الله إلى صلاح الدنيا والآخرة .

ذكـــر اللّـــه

إن إطلاق كلمة الموت لا يختص بها موت الجسم ، بل يتعدى إلى موت الإنسانية أيضاً ، وقد أشار القرآن إلى الشخص الفاقد للإنسانية فمثّله بالحيوان ، بل أدنى من الحيوان ؛ ولقد تعرضنا في ما سلف إلى القوى المساعدة في حربنا الداخلية أو حرب الخير والشر في نفوسنا وإلى إمكان الاستعانة بهذه القوى لنخرج منتصرين على أنفسنا في ما سماه الرسول الأكرم (ص) الجهاد الأكبر .

أما الآن فنتعرض إلى القوة المساعدة التاسعة وهي : « ذكر الله » باللسان وبالقلب ، قال الباري تعالى في محكم كتابه : ﴿ إن الصلاةَ تنهى عن الفحشاءِ والمنكرِ ، ولذكرُ اللّهِ أكبرُ ﴾[1] ، وعبارة : ﴿ ولذكرُ اللّهِ أكبرُ ﴾ دليل على أن الصلاة يشملها الذكر ، وأن الفرائض من صلاة وزكاة وحج وأمر بمعروف كلها تكون من أجل هذا الذكر : ﴿ إنني أنا اللّهُ لا إلَهَ إلاّ أنا فاعبُدني وأقمِ الصلاةَ لذكرِي ﴾[2] ، أي لا يوجد إلَهٌ مؤثرٌ غيري في عالم الوجود ، وعليه يجب عليكم أن تعبدوني من أجل الذكر الذي هو أكبر من الفريضة .

قال عزَّ وجلَّ في سورة المزمل : ﴿ إنَّا سنلقِي عليك قولاً ثقيلاً ، إنَّ ناشئةَ الليلِ هِيَ أشدُّ وطأً وأقومُ قيلاً ، إنَّ لكَ في النهارِ سبحاً طويلاً ، واذكرْ اسمَ ربِّك وتبتّل إليه تبتيلاً ﴾[3] .

---

(١) سورة العنكبوت، الآية ٤٥ .

(٢) سورة طه، الآية ١٤ .

(٣) سورة المزمل، الآيات ٥ ـ ٨ .

أي أن الذكر أسمى وأرفع من ذلك القول الثقيل الذي ألقاه الباري على رسوله المصطفى (ص) ، وقد يكون الذكر في القلب أو باللسان ، وقد يرافقه التبتّل ، وقد لا يرافقه .

قال الباري في محكم كتابه : ﴿ يا أيُّها الذين آمنوا اذكُروا اللّهَ ذِكراً كثيراً وسبِّحوهُ بكرةً وأصيلاً ﴾[1] ، أي عليكم بذكر الباري بكثرة وعلى كل حال ، وبكل ما هو أهله ، إضافةً إلى تسبيحه في أول النهار وآخره ؛ ومن هنا نفهم أن القرآن الكريم يؤكد هذه الوظيفة الكبرى التي ينبغي لنا أن نتحملها لكي نستمدَّ العون بها من الله في تسهيل أمورنا الدنيوية في الأقل ، وسيُثيب الباري الذاكرين في عالم الآخرة ، لأن أمره مقرون دائماً بالأجر والثواب .

نقل لنا صاحب الوسائل ـ عليه الرحمة ـ في مؤلفه النفيس أكثر من (٢٠٠) روايةً تؤكد أهمية الذكر ، وأنها سيرة النبيِّ الأكرم (ص) والأئمة من أهل بيته ـ سلام الله عليهم أجمعين ـ .

ولقد وصف الرسول الأكرم (ص) علياً (ع) بدائم الذكر[2] ، وأنه كان كالأسد في الحروب والغزوات ولسانه دائم الذكر لاسم الله العزيز المتعالي .

وكذا كان الحال بالنسبة للإمام الحسين (ع) ، حيث لم تمنعه الحرب عن ذكر الله وإقامته لصلاة الليل ، وهذا ما كانت تفعله العقيلة زينب بنت علي بن أبي طالب ـ عليهما السّلام ـ فقد ذكر المؤرخون إقامتها لصلاة الليل في الثالث من استشهاد أخيها الحسين (ع) في ظهر الكوفة جلوساً .

ولم يألُ الأئمة الأطهار من آل محمد (ص) جهداً في إقامة صلاة الليل ، والاشتغال بالأذكار التي أصبحت لهم سنّةً حسنةً ، وقد تعرض المحدِّث القُمِّي في كتابه « مفاتيح الجنان » إلى أذكار الأئمة الأطهار بأحسن وجه وخصَّ بهم أبواباً تحت عنوان أذكار الأئمة الطاهرين (ع) ؛ فكتب في ذكر الرسول (ص) ، وذكر الإمام علي (ع) وذكر الأئمة الأطهار من بعده حتى خواتمهم ـ صلوات الله

(١) سورة الأحزاب، الأيتان ٤١ ـ ٤٢ .

(٢) تاريخ دمشق/لابن عساكر ، ج ٢ ، ص ٤٣٩ .

عليهم ـ لم تخل من ذكر الله تعالى .

وعليه ينبغي لنا نحن المسلمون أن نتأسّى بما كان يعمـلُ النبيِ الأكرم والأئمة الإثنا عشر من بعده ، وأن نلهجَ باسم الله أبداً قلباً ولساناً امتثالاً لما جاء في كتاب الله الحكيم : ﴿ وسبِّحوه بُكرةً وأصيلاً ﴾[1] .

فمن أراد الانتصار على نفسه ، عليه أن يختار ذكرا يلهج به يومياً ، وفي كل لحظة لا ينشغل بها عن ذلك الذكر ، فقد ينتخب البعض ذكراً فيردده دائماً : « لا إله إلا الله » .

وقد يردد آخر : « لا حول ولا قوة إلا بالله العليِّ العظيم » .

وقد يلهج أحدهم بآية من القرآن الكريم وهكذا . ولنعلم أن هذه الأذكار تغلق الأبواب في وجوه الشياطين من الإنس والجن وتخرج الـذاكر من حـالة الوساوس والتخيّلات واضطراب الخواطر التي قد تصيب الناس في هذه الدنيا الدنيّة : وأفضل الذكر « لا إله إلا الله » لأن كلمة الله تعني : « هو الذي يتألّه إليه عند الحوائج والشدائد كل مخلوق عند انقطاع الرجاء من كل من دونه »[2] .

وقـد يستفيد الإنسـان من المسافـة التي يقـطعهـا بين المنـزل والعمـل فيستثمرها بالذكر النافع من مثل « لا حول ولا قوة إلا بـالله العليِّ العظيم » أو ما شابه ذلك من الأذكار ، لأن الأخبار تقول قد يخرج الشاب من منزله متوجهاً إلى عمله وهو متديِّن ليرجع في المساء إلى حيث داره وهو كافر ، وهذا ما حصل للكثير من الشباب من جرّاء ما سمعوا من الشبهات التي تصطبغ بصبغة الحق على الرغم من أنها باطل محض ، فيضطرب السامع لها ، وتشاركه في ذلك ضعف عقيدته ، وقلّة معلوماته فينقلب على عقبيه وعندها لن يضرَّ الله شيئاً ، إنما يكون هو مركز الضرر ؛ وقد يحرف رفيق السوء صاحبه إلى ما لا تحمـد عقباه وهذا ما حصل للنجاشي الشاعر الخاص بأمير المؤمنين علي (ع) . وفي شهر رمضان المبارك حيث تمكن منه أحدهم ليجره إلى الإفطار وما إلى ذلك من المعاصي العظام ؛ لذا أذكر نفسي وإخواني القرّاء الكرام بضرورة الابتعاد عن

(١) سورة الأحزاب، الآية ٤٢ .

(٢) توحيد المفضل/ص ٢٣١ .

الوساوس التي قد يخلقها رفيق السوء بالرغم من أننا في غنى عنها لوجود الذكر الذي حبانا الله به ، وجعل منه هديةً عظمى لعباده الملتزمين .

وقد ينتفع أحدهم من أحد الأذكار ، فينقلب إلى مؤمن مخلص يسمو بمنزلته ويضاهي ملائكة السموات والأرض ، وقد تحرك كلمة لا إلّه إلا الله الصّادرة عن فم مخلص لله جبلاً عتيداً ؛ فالأذكار لها طعم خاص ، ومنزلة خاصة لكونها تساهم في تغيير الأفكار والقلوب والأعمال إلى مآل صالح .

الذكر قسمان : الأول : باللسان ؛ والثاني : بالقلب .

وقد قال علماء النفس بتأثير الذكر اللساني بشكل مؤثر في الروح البشرية .

وقال القرآن الكريم والروايات بتأثيره الإيجابي .

وكذا قال علماء الأخلاق والعرفاء الذين كان يلتزمون الذكر أكثر من غيرهم من الذين لا ينتهجون منهج العارفين .

فالذكر باللسان يدخل ضمن التلقين وهو أحد أنواعه ، فذكر لا إلّه إلا الله ألف مرة قد تعتاده وتردِّده بدون أن تدرك معناه الحقيقي ، ولكن قد تفطن فجأةً إلى أثره في القلب ، ويمكن تمثيل ذلك بالنار والفحم ، فالفحم في وسط النار ، ولا تؤثّر فيه النار إلا رويداً رويداً ليشتعل فجأةً ويتبدَّل جميعه إلى نار .

ولو قيل لك بقراءة القرآن ، وأنت تسير في الشارع هادئا وفي أوقات فراغك في المدرسة أو الجامعة أو أي زمان يتيح لك ذلك ، فلا تتوانى وافعل بما قيل لك ، لأنك سوف تشاهد أثر تلك القراءة على قلبك بعد مدة من خلال رسوخ بعض الكلمات أو العبارات .

ومن رسخ القرآن في قلبه سيصل حتماً إلى رضا الباري تعالى وهكذا يفعل فعله تسبيح الزهراء (ع) الذي يُعمل به بعد الانتهاء من الصلاة الواجبة ، وهو ذكر « الله أكبر » (٣٤) مرةً ، و « الحمد لله » (٣٣) مرة ، و « سبحان الله » (٣٣) مرةً ، وقد لا تعتقد بأهمية ذكر « الله أكبر » (٣٤) مرة ولكن التجربة أثبتت أهمية ذلك وأثره في قلب المسلم .

يقول علماء النحو بأن « الكلمة » جاءت من « الجرح » لما لها من تأثير على السامع والشخص الذي جرت على لسانه ، وقد تعرض لها علماء النحو بهذا الشكل كنايةً عن أثرها في قلب ونفس الإنسان .

فالسباب أو المزاح المحلل يترك أثره سلباً أو إيجاباً على القلب ، فقد يوجب قساوته وقد يوجب غير ذلك ، وكذا الذكر في تركه للأثر على القلب الآدمي حيث يدخل النور في القلب ، وقد أولى الإسلام أهميةً خاصةً للذكر اللفظي تفوق على أهمية الفرائض ، وقد يكون ذلك من أجل تذكير القلب دائماً بالله العزيز القدير .

وكم هي رائعة تلك الآية الشريفة التي تقول : ﴿ رجالٌ لا تُلهيهم تجارةٌ ولا بيعٌ عن ذكرِ اللّهِ ﴾[1] فهي لتبيِّن لنا أهمية الذكر العظيمة وتأثيره الشديد في النفس البشرية ، للوصول بها إلى حيث يريد الله تعالى .

وقد يصل الذاكر إلى حالة ، يكون فيها كل شيء في حياته ذكر الله ، فهو في البيت ذاكر لله ، وفي طريقه إلى عمله كذلك ، وعندما يكون مشغولاً بتناول طعامه ، حيث يذكِّره الطعام بنعمة الله الذي يجب أن يذكره ما بقي في هذه الدنيا .

وقد يصل إلى أسمى من ذلك أيضاً فيذكر الله محبوبه حتى في منامه ؛ فهنيئاً للذاكرين .

وعلى علمي أن هناك أفراداً ينامون ، ولكنهم يعيشون مع قلوب تحيا مع ذكر الله ، وإذا حصل ذلك ، لن يكون بعدها ضياع أبداً حتى يأذن الله له بمغادرة هذه الحياة الفانية .

يقول عزّ وجلّ في محكم كتابه : ﴿ ألا بذكرِ اللّهِ تطمئنُّ القلوبُ ﴾[2] .

وجاءت « ألا » هنا للتأكيد ، وتقدم الجار والمجرور للتأكيد أيضاً لتضحى هذه الآية بهذا الشكل : بلا شك في أنه بذكر الله تطمئنُّ القلوب ، فلا

---

(١) سورة النور، الآية ٣٧.

(٢) سورة الرعد، الآية ٢٨ .

اضطراب ، ولا اكتئاب ، ولا شيء يرى غير الله تعالى .

أمعنت النظر في الصحراء فرأيتك
وغصت في أعماق البحار ورأيتك
وكلما شاهدت الجبل والسهل والوادي
عرفت أنها دلالة على جميل وجهك .

قال المولى تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾[1] .

وفي هذه الآية المباركة أيضاً جاء تأكيد لتأكيد ، ليبيِّن الباري تعالى أن هذه الآيات التي في الآفاق قائمةٌ لكي يدرك الإنسان عالم الذر ، ويدرك أن لا وجود لمعين أو لخالق غير الله ـ تعالت أسماؤه ـ وأن كل من ادعى ذلك باطل وفارغ ولا قيمة له ؛ ولا يخفى على اللبيب أن الوصول إلى رؤية آيات الله في الآفاق وفي النفوس لا يمكن بلوغها إلا بالأذكار اللفظية ؛ لذا ، علينا أن نرى ونمعن النظر في آيات الله التي لا عدَّ لها ولا حصر كيما نعرف أن وجودها يعني وجود خالقها فلا نعصيه ؛ إلَهي وفِّقنا للذكر اللفظي والقلبي بحق لا إلَه إلا أنت ، وصلى الله على رسوله محمد وآله الطيبين الطاهرين .

---

(١) سورة فصلت، الآية ٥٣ .

التوكل على الله

إن التوكل على الله يمكن احتسابه القوة المعينة العاشرة للفوز في معركتنا مع النفس الأمّارة بالسوء، وبالتوكل على الله يمكن استخدام النفس الأمّارة كبراق للعبور بها إلى عالم الملكوت ، ومن ثم الخروج منه إلى أسمى من ذلك حيث الوصول إلى عالم الجبروت .

قال عزّ وجلّ في محكم كتابه : ﴿ ربُّ المشرقِ والمغربِ لا إلَهَ إلاّ هوَ فاتَّخذهُ وكيلاً ﴾[1] .

وهذه الآية المباركة جاءت بعدَ التعرض للقول : ﴿ إنَّا سنلقِي عليكَ قولاً ثقيلاً ﴾[2] ، وإذا أردت أن تصل إلى الهدف المعيَّن لك عليك أن تتخذ الباري تعالى وكيلاً ، أي تتوكَّل عليه كيما تنتصر في هذا المجال .

التوكّل : هو الاعتماد ، وكلَ إليه الأمر : سلّمه ، وفوَّضه إليه ، واكتفى به ؛ واتَّكل على الله : استسلم إليه ، وتوكَّل : قبل الوِكالة ، وتوكَّل على اللّهِ : وثِق بما عند اللّهِ ، ولم يعوِّل على ما في أيدي الناس .

والوكيلُ : الذي يسعى في عمل غيره وينوب عنه فيه .

قال المولى تعالى في محكم كتابه : ﴿ ومنْ يتوكَّلْ على اللّهِ فهوَ

---

(١) سورة المزمل ، الآية ٩.

(٢) سورة المزمل ، الآية ٥.

حسبُهُ ﴾[1] ، أي هو الذي يكفيه فيما إذا توكَّلَ عليه واعتمد ، ومن أراد إنجاز مهمة أو أمر ضروري ، فليتوكَّل عليه تعالى في مهامه وأموره ، ولا يعتمد كل الاعتماد على قدرته وفطنته ، بل يسعى للأمر بكل جهده ، ولكنه يبقى يرجو الله في إنجاز ذلك العمل ، لأن الذي يتوكل على الله ، يكفيه الله ذلك العمل ويتمه له إن شاء .

فإذا اتَّكى الإنسان واعتمد عليه تعالى في هذه الدنيا ، رأى بنفسه عدم تأثير غيره في ما لو اعتمد عليه (أي على الشخص) لأن الباري تعالى هو أهلٌ لذلك التوكل والاعتماد ، وليس الناس أهلاً لذلك .

ولو علم الله اعتماد عبده عليه دون غيره لنصره فيما يريد ، ولو كان الناس كلهم عليه يسند بعضهم بعضاً لما استطاعوا أن يضروه ولو بمثل جناح بعوضة ؛ لكون الباري يقف خلفه ويحميه .

وإذا رفع الباري يده عن أحدهم هوى إلى الحضيض والذلّ والمهانة .

﴿ قلْ اللهمَّ مالكَ الملكَ ، تؤتي الملكَ منْ تشاءُ ، وتنزعُ الملكَ ممَّن تشاءُ ، وتعزُّ منْ تشاءُ ، وتذلُّ من تشاءُ ، بيدكَ الخيرَ ، إنكَ على كلِّ شيءٍ قديرٍ ﴾[2] .

إن هذه الآية المباركة تتساوى في معناها مع معنى التوكل الذي أشرنا إليه ؛ والدليل على ذلك هو : لو اجتهد الإنسان في دروسه يكون بلحاظ الأخلاق إنساناً جيداً ، وعندها يمكن أن يفيد من علمه الذي اكتسبه ، ويمكن له من خلال علمه أن يختلط بالمجتمع ، وعندئذ يضحى عزيزاً من قبل مجتمعه أراد ذلك أم أبى ، ولكن من يمنح هذه العزَّة ؟ فالعزة ليست بيد أحد من الناس ! .

إن العزة بيد الله وهو الذي يجب أن يعطيها لا غيره ؛ ولا يتأتَّى لغيره أن يسوق العزة لأحد .

---

(١) سورة الطلاق، الآية ٣.

(٢) سورة آل عمران، الآية ٢٦.

وعلى العكس من ذلك ، فالإنسان الغارق في الصفات الرذيلة ، سوف تطرد صفاته تلك في يوم من الأيام ، ولا معنى لمنحه العزة من قبل الله تعالى ، لأنه سيكون غير لائق لتلك العزة وعندما لا يمنح الباري العزة له ، لا يمكن للناس أن يمنحوها له، ولا يستطيع هو جلب العزة صوبه ، وبالنتيجة سيكون ذليلاً ومطروداً .

وعليه ينبغي لنا رويداً رويداً ـ لصعوبة الأمر ـ أن نرتِّب لأنفسنا وضعاً عند الله ليكون وكيلنا في كل أمورنا ؛ علينا أن نعتمد على الله ونتوكل عليه بعد أن نسمع له ونطيع .

وحالة الوكالة ليست حالة غير طبيعية ، فخذ مثلاً أحدهم يريد القيام بعمل ما ، ولكنه لا يجد إلى ذلك سبيلاً ، إلا بتوكيل أحد الخيِّرين .

وما يفعل ذلك حتى تراه مطمئنَّ البال ، ينعم بنوم عميق في ليله ، ولا يفكر في ذلك الأمر ، وإذا سألته عن ذلك ؟ يقول لك : لقد وكّلت فلاناً ، إنه إنسان خيِّر ومتديِّن ، وإنه سينجز ذلك العمل لي بالشكل الصحيح .

أما ذلك الذي لا يجد لإنجاز أعماله وكيلاً ، وهو لا يستطيع أن يرتِّب تلك الأعمال ، تراه مضطرباً ، مشغول البال ، لا يهدأ ، ولا يغمض له جفن ، حاله حال الذي لا يتوكل على الله ولا يعتمد ، تلفُّه الحيرة في كل الأوقات ، عصبي المزاج ، لا يعرف ماذا يقول ، ويهتزُّ لأبسط الاستفزازات .

ولكن إذا عرفنا ﴿ إنَّ رحمةَ اللّهِ قريبٌ منَ المحسنينِ ﴾[1] وعلمنا برحمته التي وسعت كل شيء ، توكلنا عليه وركنا إليه تعالى في كل أمورنا ؛ قال رسول الله (ص) : « لو تعلمون قدر رحمة الله تعالى لاتكلتم عليها »[2] .

وقال أيضاً (ص) : « إن الله تعالى خلق مئة رحمة ، فرحمة بين خلقه يتراحمون بها ، وادخر لأوليائه تسعاً وتسعين »[3] .

---

(١) سورة الأعراف، الآية ٥٦.

(٢) كنز العمال/خ ١٠٣٨٧ .

(٣) كنز العمال/خ ٥٦٦٨ .

« ونقرأ في الدعاء » : « يا من هو أبرُّ بي من الوالد الشفيق ، وأقرب إليَّ من الصاحب اللزيق ، أنت موضع أنسي في الخلوة إذا أوحشني المكان ، ولفظتني الأوطان . . . »[1] .

وقال تعالى في جليل خطابه : ﴿ فأمَّا الذينَ آمنُوا باللّهِ واعتصمُوا بهِ فسيُدخلهمْ في رحمةٍ منهُ ﴾[2] .

وقال أيضاً : ﴿ وإذا جاءكَ الذينَ يؤمنونَ بآياتنا فقل سلامٌ عليكم كتبَ ربُّكمْ على نفسِهِ الرحمةَ . . ﴾[3] .

ولا يخفى على أحد أن أولياء الله هم الذين يدركون رحمة الباري تعالى فيعتمدون عليه ، ويتوكلون ، فيرفع الله عنهم بتوكلهم ذاك الخوف والحزن : ﴿ ألاَ إنَّ أولياءَ اللّهِ لا خوفٌ عليهمْ ولا همْ يحزنونَ ﴾[4] .

نقل لنا أحد الأجلّاء حكاية جاء فيها : جلسنا في الطائرة ، فتحركت بنا من مطار طهران متجهة إلى مطار بغداد ، ولم تمض ساعة ، حتى قال لنا المضيِّف بعدم إمكانية هبوط الطائرة بشكل طبيعي ، لأن عجلاتها أصيبت بخلل يمنعها من الانفتاح ؛ وعندها بدا الخوف على وجوه المسافرين ، وبعد دقائق عاد المضيِّف ليقول : بأن الطيّار اتصل بمطار طهران فقيل له بالرجوع إليه ، وعليه تلقى الطيّار الأوامر بالتحليق لمدة زمنية طويلة لينفذ وقود الطائرة حتى تتمكن من الهبوط الاضطراري في مطار طهران ثانيةً .

بدأ الجميع بالتململ والثرثرة المتأتية من الخوف المشوب بالحزن والجزع ، ولكنني ـ والحديث للراوي ـ لم أحرك ساكناً ، وجلست مطمئناً راضياً بقدر الله ، لأنني توكلت عليه وحده .

وفجأةً خاطبني من هو جالس إلى جنبي : أيها الشيخ : ألا تسمع ما يقولون ؟ .

---

(١) بحار الأنوار/ج ٩٤ ، ص ١٥٧ .

(٢) سورة النساء، الآية ١٧٥ .

(٣) سورة الأنعام، الآية ٥٤ .

(٤) سورة يونس، الآية ٦٢ .

فقلت : نعم ، سمعت وأسمع .

فانفجر الرجل بوجهي قائلاً : ولكن لا يبدو عليك أنك خائف مما سيجري بالرغم من أن الطائرة ستسقط بعد ساعة ؛ فأجبته : اسمع يا رجل ، عندما طلعت إلى الطائرة قلت : ﴿ ومَنْ يتوكلُ على اللهِ فهوَ حسبُه ﴾[1] ، وقرأت بعد ذلك آية الكرسي ليحفظني الله من البلايا ، فإذا جاء الأجل لن يمنعه أحد عني ، وإذا اعتراني الخوف ، فلن يكون خوفي ذاك مانعاً لأجلي .

أما إذا قدَّر الله لي أن لا أموت ، وهو من اعتمدت وتوكلت عليه ، فلن يحصل ذلك ، ولو هوت الطائرة إلى الأرض .

فهدأ الرجل قليلاً ، ثم كتب وصيته وقدمها لي ؛ فقلت له : إذا كتب الله النجاة لهذه الطائرة ، فالجميع سوف ينجون ، وإذا قدَّر لها غير ذلك فالكل إلى ممات ، فلماذا جئتني بوصيتك وأنا معك على نفس المركب .

ولما رأى الجميع الرجل يكتب وصيته بدأ البكاء والعويل ، فجاءتني امرأة مسنة تقول لي : أيها الشيخ إن منزلي في المكان الفلاني وفي الحارة الفلانية أرجوك أن تذهب إليه لتقول لابني كذا وكذا .

وجاءني آخر ليقول مثل قولها ، وهناك هبطت الطائرة بعض الشيء تريد الهبوط الاضطراري في مطار بغداد بعد أن نفد الوقود إذ لم يرجع الطيّار بطائرته إلى طهران ، وحينها بدأ المسافرون ينظرون من شبابيك الطائرة ، ليروا بأنفسهم سيارات الإسعاف والأطبّاء والممرضات وقد اصطفُوا وهم على أهبة الاستعداد لقبول الحالة الاضطرارية .

بدأ المضيّفون بإخبار المسافرين بضرورة شد الأحزمة ، وامتثل الجميع لذلك غير أنني لاحظت أحدهم لم يقوَ على شد حزامه من شدة الهلع والخوف ، فتركت مكاني لأذهب إليه وأشد له حزامه وفجأة هبطت الطائرة إلى الأرض بدون وقود بعد أن سيطر عليها طيَّارها لتحط على أرض المطار بدون أن يصاب أحد بأذى يذكر .

---

(١) سورة الطلاق، الآية ٣.

قمت من مكاني وسارعت إلى باب الطائرة ، فتعجّب الأطبّاء ومساعدوهم وظنوا أني فاقد للسماع ولا أدري ما الذي حصل ، على خلاف بقية المسافرين الذي لم تساعدهم أرجلهم على النهوض من أماكنهم من شدة الرعب والهلع ، والطريف في الأمر أن بعض المسافرين اقتيدوا لينزلوا من الطائرة ، وليوضعوا داخل سيارات الإسعاف لعدم تمكنهم من السيطرة على أنفسهم ولعدم اعتمادهم وتوكلهم على الحي الذي لا يموت .

فعندما يعتمد الإنسان على الله سبحانه وتعالى ويتوكل يطيب خاطره ويطمئن قلبه على العكس من ذلك الجبان الذي لا يطيق زيارة القبور ، وإذ ذهب لوحده شاهد خروج الموتى من قبورهم أو لاحظ تحرك ميت في لحده ، أو رأى أن ميتاً لحق به أو أمسك به وعندها يقع مغشياً عليه ، وحقيقة الأمر ليس كذلك إذ لا خروج لميت ولا حركة ولا تعقيب فيه لأحد ، وإنما هي حالة التخيُّل الناتجة عن الخوف والمنعكسة على العين التي يمكن أن تصاب بالخيالات ؛ ولو تأتّى أن يرافق شجاع ذلك الجبان لرأيت الجبان يذهب هنا وهناك وسط القبور بدون اضطراب أو خوف .

إن جميع الاضطرابات والمخاوف في هذه الدنيا هي نتيجة طبيعية لعدم الاعتماد على الله ، ومن توكل على الله ، واعتمد بدا للناس بطلاً شجاعاً لكون المتوكل على الله لا يعرف الاضطراب ولا القلق ، فتراه دائم النشاط والعمل من أجل الدنيا والآخرة وتوكله واعتماده يساعده على الخروج من المآزق والشدائد بسهولة بعكس ذلك المضطرب الذي إذا عصفت به نفسه الأمّارة بالسُّوء أمسكت به غريزته الجنسية لتهوي به في واد سحيق .

لقد ذكر العلامة الطباطبائي صاحب الميزان (٢٤) عاملاً مساعداً لأن يرتكب يوسف (ع) معصية في وجود زليخا منها: أنها كانت فائقة الجمال ، شابة ، ملكة مصر ، تتكلم معه بشهوة ، كانت تتوسل إليه وتترجاه ، هيأت له كل متطلبات الفجور ، ولكنه لم يفعل إلا ما يرضي الله العزيز القدير بالرغم من تهديدها له ، بالجلد ، والطرد ، والسجن ﴿ ولقد همَّتْ بهِ ، وهمَّ بها لولاَ أنْ

رأى برهانَ ربِّهِ ﴾[1] ؛ لقد اعتمد يوسف وتوكل على الله ، فأخذ الله بيده إلى حيث النجاة من الهلكة والعذاب .

سأل أحدهم المرجع الكبير « المقدَّس الأردبيلي » ـ رحمة الله عليه ـ فقال : لو تأتّى أن تختليَ بامرأة شابة جميلة في مكان أمين ، فماذا تفعل ؟ قال : ألتجيء إلى الله حصني وأتوكل عليه وأفوِّض الأمر إليه ولا أفعل ما يغضبه .

حقاً ، إن وضع كهذا لا ينجو منه إلا من عرف ربه ، وأيقن بيوم الحساب ، وخاف أهوال يوم القيامة ؛ أعاذنا الله وإياكم مثل تلك المواقف المحرجة .

والجدير بالذكر أن كل الرغبات تكون على تلك الشاكلة ، ومن جملتها الرغبات والغرائز التي نمارسها كل يوم من مثل الرغبة في الغذاء أو الماء ؛ وقد يفعل الجوع فعلته بالإنسان فيضطره إلى أكل الميتة أو قتل من هو مثله من الآدميين ؛ وكذا الغريزة الجنسية والتي اعتبرها فرويد « أصل الشهوة » فقال بأنها مركز الرغبات والغرائز ، وهذا ما عُدَّ جناية ؛ وقد أبطل تلاميذه فرضيته تلك على الرغم من أن الغرب ما يزال يعيش في متدنيات الشهوة بسبب تلك الفرضية .

يقول فرويد : إن أصل جميع الغرائز يرجع بالأساس إلى الغريزة الجنسية ، وإن امتصاص الطفل لحلمة ثدي أمه يدخل ضمن نطاق الغريزة الجنسية ، فيجيبه أحد تلاميذه بالقول : إنك لم تشعر بالجوع لحد الآن ، ولو صرت إلى ذلك ، لرفضت أن تمارس الجنس مع فتاة جميلة وفضّلت أن تكون لك طعاماً يسدُّ جوعتك بعيداً عن التفكير في الجنس .

وحقّاً ما قال تلميذ فرويد ، وقد لاحظنا أكل الناس للكلب والقطة في زمن المجاعة ، وهذا ما حصل في روسيا في هذه الأيام حيث الغلاء الفاحش الذي اضطر الناس لأكل الكلاب والقطط والجيف ؛ وإن الوضع الذي نعيشه الآن مع

---

(1) سورة يوسف، الآية ٢٤ .

الظروف الاقتصادية لم يضطرنا إلى مثل ذلك فاحمدوا الله واشكروه على نعمائه .

أما غريزة حب الرئاسة ، فهي الأخرى تهوي بالإنسان إلى الحضيض إذا استعرت نيرانها في جنبات الإنسان الذي لا يعرف التوكل ولا الاعتماد على الله .

لقد قلع نادر شاه عيني ابنه الشاب بعد أن سمع بطلبه للرياسة ، وقد حاول قلع عيون أخرى ، ولكن الله لم يمهله إلى أن يفعل ذلك ، فقتله عامة الناس بعد أن هجموا عليه وهو في خيمة ليقطعوه إرباً إرباً .

قال المأمون العباسي : كنت أجالس أبي هارون في مجلسه ، فدخل علينا الإمام موسى بن جعفر الكاظم (ع) ، وكنت حينها لا أعرفه ولكنني شاهدت اضطراب أبي حين دخوله وقيامه من مكانه ، ليأخذ الإمام (ع) بكل احترام إلى حجرته الخاصة ، وبعد مرور ساعة خرج أبي هارون يرافقه الإمام الكاظم (ع) وعندها احتضن هارون الإمام الكاظم (ع) وقبّله وقال لي ولأخي ولبقية الحاشية أوصلوا موسى بكل احترام إلى منزله ، ففعلنا ذلك ورجعنا .

وعندما رأيت ذهاب الجميع من مجلس هارون قلت له : قل لي يا والدي ، من ذلك الرجل ؟ فقال هارون : إنه الأعلم والأليق بالخلافة ، إنه الرجل الذي ينبغي أن يجلس على كرسي خلافة رسول الله (ص) ، إنه أحد أولاد الرسول محمد (ص) .

فقلت له : ولماذا لا تسلّمها له يا والدي ؟ فالتفت إليّ بشدة وقد تغير لونه وقال : لو علمت بمنافستك لي فيه لأخذت الذي فيه عيناك .

ثم سحب سيفه من غمده ورفعه عالياً وقال : الملك عقيم .

كان هارون الرشيد يعرف الإمام موسى بن جعفر (ع) حقَّ المعرفة ، ولكنه بالرغم من ذلك حبسه (١٤) عاماً وعذّبه أشد أنواع التعذيب في سجنه له ، وفي نهاية الأمر قتله وهو يعلم أنه ابن بنت رسول الله (ص) ، ويعلم أنه سيذهب إلى جهنم بقتله للإمام الكاظم (ع) ، ولكنه لم يتخلَّ عن الحكم والسلطة .

ينبغي للإنسان المسلم أن يتوكل على الله الذي هو حسبه وكفايته حينما يشعر بطغيان إحدى غرائزه ، ليقف دون إرادة تلك الغريزة ﴿ ومنْ يتوكلُ على اللّهِ فهو حسبُهُ ﴾[1] .

فهنيئاً لأولئك الذين تمكنوا من الوقوف بوجه النزوات والشهوات من خلال توكلهم عليه سبحانه .

---

(١) سورة الطلاق، الآية ٣.

مراحل التوحيد والتوكل

كتب الفلاسفة بحوثاً في إثبات وجود وصفات الله العالم المتعالي ؛ وقد جاء في القرآن الكريم أدلة وإثباتات على وجود الله ، وقد اعتبر الإسلام بشكل عام والقرآن الكريم بشكل خاص ضرورة إثبات وجود الله .

إن المشهور بين المسلمين أن أصول الدين خمسة أولها التوحيد ولا نقول إنها ستة أولها إثبات وجود الله ، وثانيها التوحيد ، ولذا ينبغي تعليم الأبناء أن أول أصل من أصول الدين هو التوحيد ، والذي يعني فردية الله تعالى .

وعلى قول بعض الطلبة : إن مسألة وجود الله مفروغ منها .

يعترض البعض ويقول : لماذا تكون أصول الدين خمسةً لا ستة ؟ .

ويأتي الجواب : ﴿ أفي اللّهِ شكٌّ فاطرِ السمواتِ والأرض ﴾[١] .

ومَنْ هو ذلك الذي يمكن أن يشكك في وجود الله سبحانه ؟ .

وإذا كان الماركسيون وأمثالهم ينكرون وجود الله فالخطأ في المصداق ! .

أما بالنسبة للدهرية الذين قالوا : إن الدهر هو الذي خلقنا ، وناقشهم الإمام جعفر بن محمد الصادق (ع) وأفهمهم أن المسلمين يسمون الخالق « اللّه » وأنتم تسمونه « الدهر » ولا فرق في ذلك ، فالخالق واحد مهما كثرت الأسماء والنعوت .

---

(١) سورة إبراهيم، الآية ١٠.

وقد قال الإمام الصادق (ع) لمن سبَّ الدهر والدهريين : « لا تسبُّ الدهر فإن الله هو الله »[1] .

إن الأدلة على وجود الله ـ إذا فرضنا أنها ضرورية كثيرة جداً ومن جملتها دليلان يمكن الاستفادة منهما على مستوى المجتمع ، وإن جميع العقول يمكن أن تتقبَّل هذين الدليلين ، فالأول منهما هو الدليل الفطري ، والدليل الثاني هو النظم الموجود في هذا العالم .

والجدير بالذكر أن هذين الدليلين لا يحتاجان إلى مقدمات لأنهما سطحيان ، ولكنهما يفيان بالغرض .

والمراد من الدليل الفطري هو أنه إذا ابتعد الإنسان عن الأوهام والخرافات والوساوس أدرك بفطرته وجود مدبر حكيم هو الخالق والحاكم . ولأن الناس في العادة تكون أذهانهم مشغولة وأفكارهم تخالطها الشوائب ، ولا تحوي صدورهم قلوباً تطلب الآخرة ، فتراهم يبتعدون عن العوالم الإلّهية ، ولكنهم يرجعون إلى فطرتهم التي فطرهم الله عليها حينما تشتد عليهم النوائب ؛ عندها تسمعهم يقولون : « يا الله » .

﴿ فإذَا ركبُوا في الفلكِ دعُوا اللّهَ مخلصينَ لهُ الدِّينَ ، فلمَّا نجّاهم إلى البرِّ إذا همْ يشركونَ ﴾[2] .

والفطرة هي الخلقة التي يكون عليها كل موجود أول خلقه ؛ والفطرة هي الطبيعة السليمة لم تشب بعيب ؛ وهي استعداد لإصابة الحكم والتمييز بين الحق والباطل .

قال لي أحد الأصحاب : تعرفت أحد منكري الله تعالى ، وصممت أن أضعه في موقفه أثبت له وجود الله فيه ، وقد كان هذا الشخص يترك في مدينة أخرى زوجة وأولاداً صغاراً وكان قد فارقهم منذ فترة طويلة .

دعوته إلى منزلي ، وبدأت أتحدث إليه عاطفياً بشكل يحرك إحساسه ،

---

(١) تفسير نور الثقلين/ج ٥ ، ص ٤ .

(٢) سورة العنكبوت، الآية ٦٥.

فقلت له : إن قلبي يحترق على ما أنت فيه من وضع لأنك لم تر زوجتك منذ مدة ، ولم تر أطفالك أيضاً ، فأين هم الآن ؟ وماذا يفعلون ؟ هل جلسوا في الدار مجتمعين أو هم الآن يغطون في نوم عميق ؟ .

وقد يكون ولدك الصغير بكى اليوم كثيراً وهو يصرخ ويقول : بابا ، بابا لينام على صدى هذه الكلمة ، واستمر حديثي معه على هذا المنوال ليصل إلى وضع أخرج معه منديله ليمسح عن عينيه الدموع ، ولتقترن كلمات إلٰهي ، وسيِّدي ، وربِّي ساعِدْني ؛ مع تلك الدموع المتساقطة ؛ وعندئذ قلت له : من هو هذا الذي تناديه ؟ .

وهل هناك أحد بهذا الاسم ؟ فبالأمس كنت تتنكَّر له وتنفي وجوده وتستدل على ذلك بفكرك وعقلك ، أما الآن وبعد أن وصلتَ إلى طريق مسدود دعوتَه مخلصاً لكي يفرِّج عنك ! .

ينقل لنا أحد الفضلاء حكايةً جاء فيها : كان أحد الأطبّاء منكِراً لوجود الله تعالى ، وكان له طفل عليل يحتاج إلى عملية جراحية وما إن ذهبوا بابنه إلى غرفة العمليات حتى بدأ بالبكاء والتوسل بالله العلي القدير وشرع بمناجاته ، وعندها تقدمت نحوه لأقول له : إنك لم تكن تعتقد قبل اليوم بوجود الله العزيز القدير فما الذي حدا بك للاعتقاد به اليوم ؟ .

فأجاب : اتركني لحالي ، ودعني أتوسل بالله ، لأنه الوحيد الذي يمكن أن يرد عليّ ولدي .

إن الإنسان يمكن له أن يجد الله ، إذا راجع سجلات فطرته ، وهذا ليس علماً كالعلوم المعهودة ، بل هو شهود كالإنسان الظامىء الذي يستشعر العطش .

فالفطرة الإنسانية إذا ابتعدت عن الخرافات ، والعناد والعصبية ، تمكن الإنسان من التعرف على ربِّ السموات والأرض .وهذا ما يسمَّى الدليل الفطري .

أما الدليل الآخر في إثبات وجود الله تعالى وهو أفضل من الدليل الفطري وهو ما أطلقنا عليه اسم « برهان النظم » الذي يقول فيه القرآن المجيد : ﴿ إنَّ

في خلقِ السمواتِ والأرضِ واختلافِ الليلِ والنهارِ لآياتٍ لأُولِي الألباب ﴾[1] .

فالدّقة في خلق السموات والأرض ، والدقة في نظمها ، في حركتها ، وحركة المنظومات والمجرات ، ودقة تعاقب الليل والنهار ، والدقة في طول النهار وقصر الليل ثم قصر النهار وطول الليل لا يمكن أن تجري وتكون بدون مدبر حكيم قادر جبار حاكم على كل هذه الأنظمة الدقيقة ؛ وحاكم على الأنظمة التي هي في داخل الأجساد البشرية والحيوانية والنباتية .

إن العلماء والفلاسفة أطالوا الأحاديث في برهان النظم ، وقد كتب (ع) عالم كتاباً عنوانه « إثبات وجود الله » تطرّق فيه إلى دليل واحد وهو « برهان النظم » مستدلاً على وجود الله فيه بالأنظمة الحاكمة في السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والأقمار والنجوم والشموس وما إلى ذلك من خلق الله العظيم .

ولكون بحثنا هذا ، لا يتعلق بالبحوث الأيديولوجية أضرب لكم مثالاً واحداً ، ليتّضح برهان النظم .

كان لنيوتن علاقة خاصة بالمنظومة الشمسية ، ولذا صنع في محل عمله العلمي منظومة شمسية مصغَّرة تتحرك بالطاقة الكهربائية ؛ وعند ضغطه زراً خاصاً تبدأ تلك المنظومة بالعمل ، مثلما تعمل المنظومة الشمسية الأصلية فترى الكرة الأرضية وجريانها الانتقالي والوضعي المشابه لحركة عجلة الحافلة .

ويحضرنا أن نذكر هنا أن العلماء أثبتوا (١٦) حركة للأرض إلى الآن .

كان لنيوتن رفيق منكر لوجود الله تعالى ، ودائم المناقشة لنيوتن بصدد مسألة وجود الله أو عدمه ولم يتمكن نيوتن من إقناعه إلا بحادثة قام بها نيوتن ليلفت نظر رفيقه ذاك إلى وجود الله من خلال صنعه العظيم .

جلس نيوتن في مختبره العلمي ليطالع كتاباً يتعلق بالفيزياء ، فجاء رفيقه

---

(١) سورة آل عمران ، الآية ١٩٠ .

المنكر لوجود الله ليجلس إلى جانبه ، وبدون أن يشعر رفيقه بالأمر ضغط نيوتن الزر الذي يحرك منظومته الشمسية المصغرة التي صنعها بيده ، وكانت مثيرة جدا ، فتعجب صاحبه وقال له : من ذا الذي صنع لك هذه المنظومة ؟ .

فأجاب نيوتن : لم يصنعها لي أحد ، هي صنعت نفسها .

ثم رجع نيوتن إلى كتابه يقلِّب صفحاته بدون أن يهتم لسؤال رفيقه ، فانزعج رفيقه من جوابه ذاك ، وكرر السؤال عليه ، فأجابه نيوتن بمثل ما أجابه سابقاً ، فامتعض رفيقه وغضب لذلك الجواب ، وسأله للمرة الثالثة عن صانع تلك المنظومة المصغرة وقال : لست أحمق حتى أصدق أنها صنعت ذاتها بذاتها ، وأنك لتسخر مني بجوابك هذا ؛ ثم أردف قائلاً : إن من صنعها عالم بالفيزياء والكيمياء مقتدر في هذين العلمين ، متخصص في علم الفلك ؛ وعندها رفع نيوتن رأسه من كتابه الذي بين يديه ليقول لرفيقه : كيف تكون إذن هذه المنظومة الشمسية التي يشهدها العالم ويشهد مجرّاتها وحركة الأرض الانتقالية ونظامها الدقيق الذاتي الخلقة ؟ ولو تأتّى اضطراب منظومتي هذه التي صنعتها بيدي بعض الشيء لآلت إلى اضمحلال وتلف ؛ فكيف تنظر أنت إلى المنظومة الشمسية الكبرى ، وعدم اصطكاك أجزائها على أنها صنعت ذاتها بذاتها بدون أن يكون لها مدبر وحكيم وقادر يشرف عليها ؟ .

يقول ميترلينك : لو كان لبعوضة جناح إضافي أو جناح واحد فقط لاضطربت خلقتها ولآل أمرها إلى الاضمحلال ، وكذا الأمر بالنسبة لمجمل القوانين الحاكمة في هذا الكون الواسع .

إن النظام الدقيق المسيطر على هذا العالم لا يمكن أن يعمل ذاتياً وبدون مدبر ومشرف ومقدر لحركاته وسكناته ، وإن الزيادة في سرعة المنظومة الشمسية أو المجرات المتناثرة في الفضاء أو قلته يبعث على اضمحلال وتلف عالم الخلقة العظيم ويؤول به إلى زوال ، حيث يمكن من خلال هاتين الحالتين تطاير أجزاء من بعض الكرات في الفضاء الخارجي مما يؤدي إلى قيام حالة غير طبيعية تعود بالضرر على جميع المخلوقات الأرضية والسماوية ؛ فكيف يمكن أن يفكر البعض بأن المادة تفتقر إلى الشعور ، أو أنها وجدت من غير علم ، أو من غير

قدرة ؛ لذا يكون أصل وجود الله ضرورياً جداً ولازم في هذه الحياة التي نعيش فيها ومعها .

يقول العلامة الطباطبائي ـ رحمة الله عليه ـ: إن القرآن الكريم لم يتعرض إلى أصل وجود الله، ولم يأت بدليل على ذلك ، بل أشار إلى تلك المسألة ضمنياً ، وما جاء من أدلة على مسائل أخرى تضمنت إثبات أصل وجود الله لهو تأكيد أن القرآن الكريم لا يتحدث عن أمر يستحيل الشك به إلا ضمنياً ، إذ ليس من المعقول التطرق إلى أن لهذا العالم خالقاً ، أو ليس له خالق ، لوضوح الأمر من خلال خلق السموات والأرض وما فيهن وما بينهن وما إلى ذلك من مخلوقات كثيرة ومتنوعة : ﴿ أفِي اللّهِ شكٌّ فاطرِ السمواتِ والأرضِ ﴾[1] ؛ وقد توصّل رفيق نيوتن إلى الاقتناع بأحاذيث نيوتن بعد أن تنكّر لها أكثر من عام ، وكان وصوله إلى تلك القناعة من خلال « برهان النظم » .

لو أمعنّا النظر في كتاب « إثبات وجود الله » لشاهدنا أن جميع المقالات التي يحتويها الكتاب تتحدث عن وجود الخالق المتعالي بدليل النظم الدقيق لما في السموات والأرض ، ولو نظرنا نظرةً سطحيةً في نفس المقالات ، لفهمنا أن من كتبها ليس شخصاً واحداً بل مجموعة من الأشخاص لاختلاف أساليب المقالات ، ولكننا لو دققنا في الخلقة لفهمنا أن الخالق واحد لتشابه أساليب الخلقة الدقيقة واتصال التدبير ، لكون المنظومات العالمية تحتوي على ترابط واتصال عجيب فيما بينها حيث اكتشف العلماء حتى الآن (٣١٠) منظومة ترتبط فيما بينها .

وهذا الارتباط يدلل على وحدانية الصانع أو الخالق لها ، فعالم الملكوت مرتبط بعالم الناسوت أي أن « المعنى » يرتبط بالمادة ؛ ونلاحظ أيضاً التنسيق في عالم الذرات الإنسانية والحيوانية والنباتية والسكونية ثم نعبر منها إلى المجرّات والمنظومات وما إلى ذلك التي تكون جميعها على نسق واحد .

فهل تعلم عزيزي القارىء الكريم بأن ذرة واحدة في هذا العالم لا تختلف في خلقتها ولا تتضارب مع مجمل عالم الذرات ، وأن النجوم تدور حول

(١) سورة إبراهيم، الآية ١٠.

المنظومة الشمسية من اليمين إلى اليسار وفق تنظيم دقيق وهذا ما نشاهده جلياً في الذرة الواحدة وحركة الالكترونات التي تدور حول المحور من اليمين إلى اليسار ، وقد اعتبرنا البروتون هنا هو المحور الذي يدور حوله الإلكترون عكس عقارب الساعة بشكل محيِّر للعقول ؛ فذرة واحدة تشبه في عملها منظومة واحدة ، ومنظومة واحدة تشبه في عملها مجرَّة واحدة ؛ وهذا أكبر دليل على أن الخالق واحد فقط .

قال الباري تعالى في محكم كتابه المجيد : ﴿ لوْ كانَ فيهِما آلهةٌ إلاّ اللّهُ لفسَدَتا ﴾[1] .

قال الإمام علي (ع) : « . . . وما الذي نرى من خلقك ، ونعجب له من قدرتك ، ونصفه من عظيم سلطانك ، وما تغيَّب عنا منه ، وقصرت أبصارنا عنه ، وانتهت عقولنا دونه، وحالت ستور الغيوب بيننا وبينه أعظم ؛ فمن فرّغ قلبه ، وأعمل فكره ، ليعلم كيف أقمت عرشك ، وكيف ذرأت خلقك ، وكيف علقت في الهواء سماواتك ، وكيف مددت على مور الماء أرضك ، رجع طرفه حسيراً ، وعقله مبهوراً ، وسمعه والهاً ، وفكره حائراً »[2] .

جاء في القرآن الشريف إطلاق كلمة « أحد » على ربِّ العالمين في الآية الشريفة : ﴿ قلْ هوَ اللّهُ أحد ﴾ .

وجاء أيضاً كلمة « واحد » في ﴿ هوَ اللّهُ الواحدُ القهّارُ ﴾[3] .

والفرق بين الكلمتين هو أن كلمة « أحد » ترتبط بالتوحيد الذاتي ، أي : لا يوجد إلَهٌ في هذا العالم غير الله ـ جلَّت أسماؤه ـ .

وأن كلمة « الواحد » ترتبط بالتوحيد الصفاتي وهي ما يطلق عليها العرفاء بـ « واحدية الذات » فيقولون بأن جميع صفات الله هي نفسها ذات الله تعالى .

ولكننا أنا وأنت لسنا هكذا ، فأنت حامل للعلم ، ولكن علمك لن يكون

---

(١) سورة الأنبياء، الآية ٢٢.

(٢) نهج البلاغة/صبحي الصالح ، ص ٢٢٥ .

(٣) سورة الزمر، الآية ٤.

ذاتك ، لكونك تحتاج إلى علمك ، وكنت في يوم من الأيام جاهلاً ، وأصبحت اليوم عالماً ، لتشيخ بعد ذلك وتموت ويؤول علمك إلى زوال ، وقد نشاهد شخصاً حصل على بكالوريوس أو ماجستير أو دكتوراه في العلم الفلاني ، ولعدم ممارسته عملاً له علاقة بمؤهله ذاك ، يضمحلّ علمه شيئاً فشيئاً ليصل إلى مرحلة الضمور في أحد الأيام ، ويسمّى علمه ذاك العلم الحصولي .

فالعلم الحصولي لا يكون عين ذات الشخص ، ناهيك عن احتياج الشخص إليه ، فالقدرة التي نمتلكها الآن ، لم تكن فينا عندما كنا أطفالاً ، وستتلاشى هذه القدرة بمرور الزمن لتنتهي عند انتقالنا من هذه الدنيا إلى عالم آخر ، ولكن فصل الرطوبة عن الماء لا معنى له ، وفصل الملوحة عن الملح لا معنى له أيضاً ، وهذا ما يسمى « عين الذات » وقد يكون هذا المثال بعيداً بعض الشيء ولكنه يبقى مفيداً من أجل تقريب الأذهان إلى ما نريد .

فالمرتبة الثانية من التوحيد التي يطلق عليها اسم « التوحيد الصفاتي » تعرض لها أمير المؤمنين (ع) فقال : « . . . وكمال التصديق به توحيده ، وكمال توحيده الإخلاص له ، وكمال الإخلاص له نفي الصفات عنه ، لشهادة كل صفة أنها غير الموصوف ، وشهادة كل موصوف أنها غير الصفة : فمن وصف الله سبحانه وتعالى فقد قرنه ، ومن قرنه فقد ثنّاه ، ومن ثنّاه فقد جزّأه ، ومن جزّأه فقد جهله ، ومن جهله فقد أشار إليه ، ومن أشار إليه فقد حدّه ، ومن حدّه فقد عدّه . . . »[1] .

ولكن ابن تيمية يقول : مثلما أنزل من منبري إليكم فإن الله ينزل من عَرشه يوم الاثنين ليتحدث إلى عباده : وهنا فقد عدّ ابن تيمية صفات الله مثل صفات البشر ، أي زيادتها على الذات وهذا هو الكفر بعينه .

أما المسلمون بشكل عام بعيداً عن ابن تيمية وما شابهه من المدَّعين بالعلم ، فيقولون : صفات الله عين ذاته ، وإذا لم تكن ذلك سنكون قد قلنا مثل قولنا بأن الرطوبة موجودة مع انعدام الماء ، وهنا يحتاج الأمر إلى صفة ، على العكس من عدم احتياج الله إلى ذلك ، لكونه غنياً على الإطلاق ، فلا يحتاج

(١) نهج البلاغة/صبحي الصالح ، ص ٣٩ ـ ٤٠ .

لشيء ولا يحتاج لأحد بالرغم من أن الجميع يحتاجون إليه ، ولا يستغنون عنه ولو للحظة واحدة .

وإذا كان الباري تعالى مثلنا يحتاج إلى علمه ، وإلى قدرته وإلى عطفه ، فلماذا يكون هو الله ولا نكون نحن كذلك ؟! .

ولماذا أسجد له ، ولا يسجد هو لأحد ؟ .

والسبب في ذلك أنه رحيم ، ولكنه لا يحتاج إلى رحمته ، وعالم ولا يحتاج إل علمه وغني ولا يحتاج إلى غناه ، لأن علمه ورحمته وغناه وقدرته لا تضره ولا تنفعه .

وعلى العكس من ذلك عباده ومخلوقاته ، فهم يحتاجون إلى علمهم ، ورحمتهم ، وعطفهم على الآخرين وما إلى ذلك ، ولإثبات ذلك لا يتطلب الأمر بحثاً كثيراً ، وقبوله أيضاً لا يتطلب كثيراً من التفكير .

أما التوحيد العبادي ، فيمكن عدُّه بالمرتبة الثالثة بعد التوحيد الذاتي والتوحيد الصفاتي ، وفيه يكون الإنسان معتقداً بعبادة الله فقط وبحكومته على ما في الكون ، بعيداً عن عبادة الهوى وعبادة الشيطان وعبادة الأصنام والأوثان ليصل إلى مرحلة « الموحِّدين » وإذا كان غير الله في قلبه لا يمكن إطلاق كلمة « موحِّد » عليه ، بل ينعت بعباده من يعبده من صنم أو شخص أو شيطان أو ما شابه ذلك .

وقد يكون الإنسان في بعض الأحيان ، عابداً للطاغوت إضافة إلى عدم عبادته الله ـ جلَّت قدرته ـ وعندها يمكن احتسابه كافراً ﴿ والذينَ كفرُوا أولياؤهمْ الطاغوتُ ﴾[1] على العكس من ذلك الموحِّد الذي يكون قلبه عرشاً للرحمان .

ومن أراد أن يكون موحِّداً ينبغي له إخراج كل شيء من قلبه ، وفسح المجال لربِّ العالمين وصاحب الدارين من النزول في قلبه ، وإلا فإنّ الهوى يسارع إلى القلوب ليعشعش فيها وكذا الشيطان ، ومثل ذلك يفعل حب الأولاد والدنيا وحب الرئاسة والاضطراب والقلق فيأخذ كل واحد من هذه الأشياء زاوية

---

(١) سورة البقرة، الآية ٢٥٧ .

في القلب ، وحينئذ يضحى القلب بعيداً عن التوحيد ، ويضحى الهوى إلَهاً له من دون الله يضله عن السبيل السوي : ﴿ أفرأيتَ منِ اتخذَ إلَهَهُ هواهُ ، وأضلَّهُ اللّهُ على علمٍ ﴾[1] ، ﴿ ألمْ أعهدْ إليكُمْ يا بني آدمَ أنْ لا تعبدُوا الشيطانَ إنَّهُ لكُمْ عدوٌّ مبينٌ ﴾[2] .

من هو عابد الشيطان ؟ إنه من يمتثل لأوامره ونواهيه ويتبعه في قوله وفعله ، فيؤول إلى الخسران المبين لإشراكه في عبادته لله ، وعندئذ يذهب به الشيطان إلى مواطن الهلكة والضلال ، ليكون مشركاً بالله العزيز المتعالي .

إن المرتبة الثالثة من التوحيد هي مرتبة مهمة جداً ، وعلينا أن نكون فيها من الدقة بحيث لا يبقى مكان في قلوبنا لغير الله ـ تعالت أسماؤه ـ إضافة إلى قبولنا لربوبية الله التكوينية والتشريعية والامتثال لأوامره ونواهيه .

إن جميع الأنبياء والرسل جاؤا من أجل إفهام الناس أن « لا إلَهَ إلاّ الله » .

ولا يعني أن تكون عبارة « لا إلَه إلا الله » وجود الله في هذا العالم ، أو أنه واحد وليس اثنين ، بل تعني لا تشرك به شيئاً ؛ وأن عبّاد الأصنام والأوثان لم يكونوا منكِرين لوجود الله ، بل كانوا يقولون بأن أصنامهم تقربهم زلفى من الله ﴿ يقولونَ هؤُلاءِ شفعاؤُنا عندَ اللّهِ ﴾[3] .

فلا ينبغي لك أيها الإنسان أن تكون مشركاً بالله ، وأن تكون لعبة بأيدي شياطين الإنس والجن ؛ إن هذا الشيطان الرجيم طرده الباري تعالى لعدم سجوده لك بالرغم من سجود الملائكة فلا تتبع خطوات الشيطان فتخسر خسراناً مبيناً .

إنك خليفة الله في أرضه ، ومقصود الملائكة ، وإنهم ليفتخرون بسجودهم ذاك لآدم الذي هو أبو البشر الذي أنت منهم .

إن الله طرد الشيطان ، لأنه لم يسجد لك وقال له : ﴿ فإنَّك رجيمٌ ﴾[4] ،

---

(١) سورة الجاثية، الآية ٢٣.

(٢) سورة يسٓ، الآية ٦٠.

(٣) سورة يونس، الآية ١٨.

(٤) سورة الحجر، الآية ٣٤.

وبعد طرده من أجلك اتخذته وليّاً لك ؟ إنها الحطة والتدني بعينه ، فانتبه لما أنت فاعل ؟! .

المرتبة الرابعة هي : مرتبة « التوحيد الفعلي » أي لا مؤثر في الوجود إلا الله ، وقد يعتقد البعض أن الله هو المؤثر الوحيد في الوجود ، ولكنه لا يعمل بذلك ، على الرغم من علمه بأن كل شيء في عالم الأسباب هذا وسيلة ، وأن الله هو الذي يسببه ، وأنه وحده مقلب القلوب والأبصار ، ومسبب الأسباب ، ولا تأثير لأحد في هذا العالم إلا بإذن الله ، وبغير هذا الإذن لا يتأتى لأحد أن يعمل شيئاً أو يقوم بشيء : ﴿ فسبحانَ الذي بيدهِ ملكوتُ كلِّ شيءٍ ﴾[1] .

﴿ قلِ اللهمَّ مالكَ الملكِ تُؤتي الملكَ منْ تشاءُ ، وتنزعُ الملكَ ممنْ تشاءُ ، وتعزُّ منْ تشاءُ ، وتذلُّ منْ تشاءُ ، بيدكَ الخيرُ ، إنكَ على كلِّ شيءٍ قديرٍ ﴾[2] .

قال عزّ وجلّ في محكم كتابه : ﴿ وما يؤمنُ أكثرهمْ باللّهِ إلاّ وهُم مشركونَ ﴾[3] .

وتعني أنهم يؤمنون بالله ويعترفون بإلهيته وربوبيته ، ويشركون بعبادته غيره ، أو يجحدون القرآن ونبوّة محمد (ص) ، أو يطيعون الشيطان في المعاصي ، أو بنحو قولهم : لولا فلان لهلكت ، وهذا ما اصطلح عليه شرك طاعة لا شرك عبادة .

قال تعالى في كتابه المجيد : ﴿ ربُّ المشرقِ والمغربِ لا إلَهَ إلَّا هوَ فاتخذهُ وكيلاً ﴾[4] ، أي أنّ الربوبية لله فقط ، ولا يستطيع غير الله أن يروي حاجتك ، ولا يستطيع غيره تعالى في هذا العالم تدبير ما في السموات والأرض ، وإذا كان هناك أسباب ووسائل فسببها الأساس هو وحده لا شريك له ، لكونه خالق السبب ؛ وأن « فا » في « فاتخذه » « تفريع » أي لا ينبغي

---

(١) سورة يس، الآية ٨٣.
(٢) سورة آل عمران، الآية ٢٦ .
(٣) سورة يوسف، الآية ١٠٦ .
(٤) سورة المزمل، الآية ٩.

الاعتماد إلّا عليه فقط ﴿ ومنْ يتوكلْ على اللهِ فهوَ حسبُهُ ﴾ .

إن المتوكل على الله يكفيه الله في كل الأمور فينصره في صراعه مع نفسه ، وينصره في صراعه مع ما هو خارج نفسه وبذلك يصل الإنسان إلى مقام اللقاء ، مقام الجوار إلى جنب الله ، فيكون عندها منتصراً بسعادته بعيداً عن القلق والاضطراب والخوف واليأس ﴿ ألا إنَّ أولياءَ اللهِ لا خوفٌ عليهمْ ولا همْ يحزنونَ ﴾[1] .

وقد يقول الإنسان : ما العمل لكي أخرج من البلاء الفلاني أو المعصية الفلانية أو قلة الرزق ؟ فيجيبه القرآن : ﴿ ومنْ يتقِ اللهَ يجعلْ لهُ مخرجاً ويرزقْهُ منْ حيثُ لا يحتسبُ . ومنْ يتوكلْ على اللهِ فهوَ حسبُهُ ﴾[2] .

أما المداهن في ما أنزل الله ، فقد قال فيه الرسول الأكرم (ص) : « المداهن في حدود الله ، والراكب حدود الله عزّ وجلّ ، والآمر بها والناهي عنها ، كمثل قوم استهموا على سفينة من سفن البحر ، فأصاب بعضهم مؤخر السفينة ، وأبعدها عن المرفق ، وكانوا سفهاء ، فكانوا إذا أتوا على رحال القوم آذوهم ، فقالوا : نحن أقرب أهل السفينة من المرفق وأبعدها من الماء ، وبيننا وبين المرفق أن نخرق السفينة ثم نسدُّه إذا استقينا منه ، فقال ضرباؤه من السفهاء : فادخل .

فدخل فأهوى إلى فأس يضرب به عرض السفينة ، فأشرف عليه رجل منهم ونشده ما تصنع؟ قال : نحن أقربكم إلى المرفق وأبعدكم منه ، أخرق دفّ هذه السفينة ، فإذا استقينا سددناه .

قال : لا تفعل ، فإنك إذاً تهلك ونهلك »[3] .

التوكل على الله يلزمه « التوحيد في الأفعال » والتوحيد في الأفعال يلزمه توحيد عبادي ، والعبادي يلزمه توحيد صفاتي ، وتوحيد ذاتي ، وهذان الأخيران

---

(١) سورة يونس ، الآية ٦٢ .

(٢) سورة الطلاق ، الآيتان ٢ و ٣ .

(٣) كنز العمال/خ ٥٥٩٧ .

يلزمهما أصل إثبات وجود الله والذي بصحته يصح التوكل على الله تعالى وعندما يكون التوكل سليما وصحيحا يكون النصر والغلبة لنا لا محالة .

« الحمد لله الذي بطنَ خفيات الأمور ، ودلت عليه أعلام الظهور ، وامتنع على عين البصير ، فلا عين من لم يره تنكره ، ولا قلب من أثبته يبصره : سبق في العلوِّ فلا شيء أعلى منه ، وقرب في الدنوِّ فلا شيء أقرب منه ، فلا استعلاؤه باعده عن شيء من خلقه ، ولا قربه ساواهم في المكان به ؛ لم يطلع العقول على تحديد صفته ، ولم يحجبها عن واجب معرفته ، فهو الذي تشهد له أعلام الوجود ، على إقرار قلب ذي الجحود ، تعالى الله عما يقوله المشبِّهون به والجاحدون له علوّاً كبيراً »[1] .

يا نور يا قدوس يا أول الأولين ويا أخر الآخرين ، صلِّ على محمد وآله الطاهرين واغفر لي الذنوب التي تغير النعم ، واغفر لي الذنوب التي تحل النقم ، واغفر لي الذنوب التي تهتك العصم برحمتك يا أرحم الراحمين وصلِّ اللهمَّ على محمد وآله الطاهرين .

---

(١) نهج البلاغة/صبحي الصالح ، ص ٨٧ ـ ٨٨ ، الخطبة رقم ٤٩ .

جهاد النفس
الجزء الثالث

حسين مظاهري

الجزء الثالث

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أنعم علينا بنعمةِ الولايةِ ، وأعادَ علينا سراج الإمامة الوضّاء في ظل الجمهوريةِ الإسلامية المباركة ، وجاد علينا بنفس التربية التي استخدمها إبراهيم حيث وفّقه الباري لتحطيم الأوثان والأصنام ؛ ولقد نزل علينا موسى من طور سيناء ، وعاد المسيح ثانية من السماء ، ونادى يوسف من سجنه المشحون بالهجر والعذاب بالنداء المحمدي : « قولوا لا إله إلا اللّهُ تُفلِحوا » ، وذهب الحسين إلى مذبح الشهادة ليقدم نفسه وابنه وصاحبه قرباناً وفداءً للحبيب كيما يخلص دين رسول الله (ص) من شر البدع ، بعد أن نزع يديه من العالم ليمدها إلى المعشوق ، ويبعد عن الغريب لتتناغم روحه مع حديث الحبيب ، وليخرج من أعماق الجسد ليتذوق طعم الوصال ، ولينفصل عن الكرة الأرضية ليحلق صوب المواسي بعد أن قطعت أوصاله في مسلخ العشق ، ولم يمتثل للظلم ولم يرتكن له ، فعلّمنا كيف لانركن إلا لله الواحد القهار .

الحمد لله الذي أعاننا بألطافه لتقديم الجزء الثالث من كتاب « جهاد النفس » ليستفيد منه عشّاق طريق الحق والعدل ؛ ولا يسعنا هنا وضمن تقديرنا لما بذله الأستاذ الجليل حسين مظاهري من جهود إلا أن نتقدم بالشكر الجزيل لجميع الأعزّاء من الذين ساهموا في طباعة هذا الأثر المفيد ، وبالخصوص أولئك الذين يعدُّون من أصحاب الإمام المهدي (عج) ، في داخل وخارج البلاد حيث شجّعونا على المضي قدماً في إخراج هذا الكتاب بالشكل الذي ترونه بين أياديكم الكريمة .

أملنا أن تكون هذه القطرات الزلال من بحر الولاية الصافي خطوة نحو الرواء الكامل لعشاق الولاية الظامئين ، وهدية متواضعة إلى سالكي طريق النجاة ، ومرآة تعكس جميع ما في السموات والأرض ليشاهد العرفاء أعماق الذات .

الجمعية الإسلامية لمعلمي قم

١٩٨٧ ميلادي

[١]

محبّة أهل بيت الرسول محمّد (ص)

﴿ أعوذُ باللّهِ منَ الشيطانِ الرجيمِ ، بسمِ الله الرحمنِ الرحيمِ . ربِّ اشرحْ لي صَدْري ، ويسِّرْ لي أمرِي ، واحلُلْ عُقدةً مِن لِساني ، يفقهُوا قولي ﴾(١) .

أمر الله سبحانه وتعالى أغلب الأنبياء ـ بحسب ما جاء في القرآن الكريم ـ بعدم سؤال الناس أجراً لقاء تبليغهم لرسائلهم ؛ وأن أجرهم على الله جلَّ وعلا : ﴿ ويا قومِ لا أسألكُمْ عليهِ مالاً إن أجريَ إلّا على اللّهِ . . ﴾(٢) ، ﴿ قلْ ما سألتكُم منْ أجرٍ فهو لكُم ، إنْ أجري إلاّ على اللّهِ ﴾(٣) ، ﴿ما أسألكم عليهِ من أجرٍ إلاّ منْ شاءَ أن يتخذَ إلى ربِّه سبيلاً ﴾(٤) .

أما بالنسبة للرسول الأكرم محمد (ص) ، فقد جاء فيه بصدد هذه القضية في كتاب الله العزيز : ﴿ . . . قل لا أسألكُم عليهِ أجراً ، إلاّ المودَّةَ في القربى ﴾(٥) .

والقربى تعني الدُّنُوَّ في النسب ، يقال : هم ذوُو قرابتي ، وذوُو قرابة مني . وقرابة الشيء : ما قارب قدره ؛ لذا تكون هذه الآية الشريفة خلافاً

(١) سورة طه/الآيات ٢٥ ـ ٢٨ .

(٢) سورة هود/٢٩ .

(٣) سورة سبأ، الآية ٤٧ .

(٤) سورة الفرقان، الآية ٥٧.

(٥) سورة الشورى، الآية ٢٣ .

للآيات التي جاءت بحق الأنبياء الآخرين التي نطقت عنهم .

يفهم من هذه الآية المباركة أن تولي قرابة الرسول الأكرم (ص) والتبرُّؤ من أعدائهم مسألة مهمة أوجبها الإسلام العظيم وعدَّها من فروع الدين ؛ وقد حدَّد لنا الرسول الأكرم (ص) قرابته وحصرهم في عترته ، ونعتهم بالثقل الذي يتساوى مع كتاب الله الذي هو الثقل الآخر، فقال في حديث الثقفين المسند بخمسة سند ويعدُّ من بديهيات التاريخ : «إني تارك فيكم الثقلين، كتاب الله وعترتي ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبداً ، وأنهما لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض »[1] .

والعترة : نسل الرجل ورهطه وعشيرته وأهل بيته .

وعليه يكون التمسك بكتاب الله العزيز ، وعترة رسوله الكريم (ص) ابتعاداً عن الضلال وقرباً من الهداية ، فمن أراد الوصول إلى المقامات العلى والسعادة الأبدية سلك الطريق الذي رسمه القرآن الكريم وانقاد لعترة رسول الله (ص) لكونهم الأدلاء على ما في القرآن المجيد ، والباب المفتوح إلى فهمه ، وبغير هذا ينكفىء الإنسان في تيه وضلال .

لقد بيَّن لنا الرسول الأكرم (ص) مقام أهل بيته ـ عليهم السَّلام ـ من خلال أحاديثه المتواترة فعدَّهم سبل النجاة ، وأبواب السلم ، وأنوار الهداية ، فأوجب مودتهم وألزمنا الامتثال لهم .

قال رسول الله (ص) : « إنما مثل أهل بيتي فيكم كمثل سفينة نوح من دخلها نجا ، ومن تخلف عنها غرق »[2] .

وقال أيضاً (ص) : « من دان بديني ، وسلك منهاجي ، واتبع سنتي فليدن بتفضيل الأئمة من أهل بيتي على جميع أمتي ، فإن مثلهم في هذه الأمة مثل باب حطة في بني إسرائيل »[3] .

---

(١) كنز العمال/خ ٣٢٩٧٨ .

(٢) بحار الأنوار/ج ٢٣ ، ص ١٢٠ ، أمالي الصدوق .

(٣) بحار الأنوار/ج ٢٣ ، ص ١١٩ .

« عن أبي ذرّ أنه قال : سمعت رسول الله (ص) يقول : اجعلوا أهل بيتي منكم مكان الرأس من الجسد ، ومكان العينين من الرأس ، فإن الجسد لا يهتدي إلا بالرأس ، ولا يهتدي الرأس إلا بالعينين »[١] .

مما لا شك فيه أن لكل عمل طريقاً خاصاً به ، والطريق إلى السعادة في الدنيا والآخرة هم أهل بيت الرسول (ص) ابتداء من أمير المؤمنين علي (ع) حتى آخر شخص في سلسلة الأئمة الطاهرين ، خلفاء الرسول الأمين ، فمن لم يسلك هذه الطريق ، ضلّ وانحرف .

والجدير بالذكر أن مودة ذوي قربى الرسول (ص) الذين اصطُلِح عليهم بأهل بيته تعود بالنفع والخير الكثير على الممارس لها ، وقد اعتبر الرسول (ص) هذه المودة أجراً لرسالته المبعوث بها من قبل الباري تعالى : ﴿قلْ لا أسألكُم عليهِ أجراً إلاّ المودةَ فِي القربى﴾[٢] ؛ والمودة تعني المحبة ؛ وما جاء في هذه الآية المباركة ليس مودةً اعتياديةً بل مودةً تؤدي بالإنسان إلى مقام القرب الإلّهي ، والتمكن من ولوج باب السعادة الأبدي .

فمن أراد ذلك ، فليأتِ السعادة من بابها ، ولا يكن كأولئك الذين كانوا يأتون البيوت من ظهورها ، فخاطبهم الباري تعالى في محكم كتابه بقوله : ﴿ليسَ البرُّ أنْ تأتُوا البيوتَ منْ ظهورِهَا﴾[٣] .

ومن أراد دخول مدينة العلم ، فليأتها من بابها ؛ قال رسول الله (ص) : « أنا مدينة العلم وعليٌّ بابها »[٤] .

فيكون الحال بالشكل التالي : من أراد السعادة فليسلك طريق ونهج الأئمة الأطهار من بعد رسول الله (ص) الذين هم باب العلم والحبل المتصل بين الأرض والسماء ، والجادَّة الصواب التي تؤدي بالبشر إلى النجاة والسلامة .

يقول أحد الفضلاء النوابغ : « رأيت فيما يرى النائم أني أريد سلوك طريق

---

(١) بحار الأنوار/ج ٢٣ ، ص ١٢١ .
(٢) سورة الشورى، الآية ٢٣ .
(٣) سورة البقرة، الآية ١٨٩ .
(٤) كنز العمال/خ ٣٢٩٧٨ .

غير الطريق الذي رسمه الرسول الأكرم (ص) - أي غير طريق أهل البيت (ع) - وشاهدت أحدهم يقيِّدني بسلاسل ويلقي بي في قعر جهنم الحامية ، فاستيقظت فزعاً من النوم واستعذت بالله من الشيطان الرجيم وراجعت نفسي فأيقنت أنه لا حياة دون التمسك بكتاب الله وعترة نبيِّه الكريم (ص) ؛ ولا أريد أن أقول هنا : إن حلمي ذاك حجةٌ دامغةٌ على « التمسك » هذا ، بل أريد القول بأن الفطرة الكامنة في الروح الإنسانية تعمل عملها إذا تطلَّب الأمر إلى ذلك ؛ ناهيك عن مشاهداتنا الكثيرة للأفراد الذين أرادوا المضيَّ قدماً دون مودة أهل البيت (ع)، فكان نصيبهم التعثُّر والانزلاق في مهاوي الرذيلة والانحطاط ، فقد كانوا يخطئون في تفسيرهم للقرآن الكريم ، ويسلكون سبل الضلال في بيان أحكامه دون أن يدركوا ذلك .

ولا بأس هنا باستعراض حكاية توضح ما نريد الوصول إليه .

قال أحد العلماء من التابعين لأهل بيت النبي الأكرم (ص) : كنت ماراً في إحدى الطرق فرأيت شخصاً وقد اجتمع الناس حوله ، وقد بان عليهم الولاء له ؛ يطرح بعض الأسئلة ثم يجيب عنها ، وما إن رآني حتى قام من مجلسه ، وذهب فتبعته كي أتحدث إليه ، فرأيته يدخل دكاناً لبائع خضراوات وفواكه ، وبدأ يتحدث إلى صاحب الدكان بحديث شغله به عن بضاعته ، وما إن رأى تلك الغفلة من صاحب الدكان حتى سرق رمانتين وذهب لحاله ، بعد ذاك دخل إلى محل بائع الخبز ، ففعل مثل فعلته الأولى ، وسرق قرصين من الخبز وخرج ، ثم رأى في طريقه مسكيناً فتصدق عليه بالرمانتين ، وتصدق بقرصي الخبز على مسكين آخر ، وعندها ، أمسكت به وقلت له : ماذا تفعل أيها الزاهد العابد ؟ .

ولِمَ تلك السرقات وكنت قبلها قد جمعت الناس لترد عن مسائلهم الشرعية ؟ .

فأجابني بسؤال قائلاً : من أنت يا هذا ؟ .

فقلت : أنا من أصحاب أهل البيت النبوي الشريف .

فقال : أنت من أصحاب أهل بيت محمد (ص) ، ولا تعرف القرآن ؟ .

فقلت : وكيف ذاك يا رجل ؟ .

فقال : يقول الله في محكم كتابه : ﴿ مَنْ جاءَ بالحسنةِ فلهُ عشرُ أمثالِها ، ومنْ جاءَ بالسيِّئةِ فلا يُجزى إلاّ مثلها ﴾[1] .

وإن ما فعلته أربع معاص اثنتان منها للسرقة الرمانتين واثنتان لسرقة قرصي الخبز ، وتصدقت بالرمانتين لأحصل على عشرين حسنة ، وبالقرصين لأحصل على عشرين حسنة أخرى ، فيكون الأمر أربع معاصٍ مقابل ست وثلاثين حسنة .

فقلت له : إنك لم تحصل على ثواب بالمرة إضافةً إلى ممارستك لثماني معاصٍ ! أربع منها لكونك سرقت أموال الناس ، وأربع أخرى بسبب تصرفك في أموالهم دون إذن منهم .

إذا انحرف البشر عن جادَّة الصواب ، وكان جاهلاً بسنة الرسول الأكرم (ص) وتفسيره لما جاء في كتاب الله المجيد عمل وفق ما تمليه عليه إرادته التي لا تستند إلى المنطق ؛ ومن لم يتبع أهل بيت النبوة ، ولم يعمل ضمن ما جاء عنهم ـ عليهم السّلام ـ في تفسيرهم للقرآن المجيد ، يقع في هكذا مطبَّات ، وكان الجهل المركب حاكماً عليه ، فتراه يسيء ويعصي الله ، ويعتقد أنه سيحصل على الأجر والثواب .

إن نظير هذا الشخص في مجتمعاتنا المعايشة كثيرة ، يمكن رؤيتهم حتى بين العلماء والفضلاء ، وإذا تنكرنا للعمل خارج نطاق الولاية سنصل نحن كذلك إلى مثل ما وصل إليه ذلك الزاهد العابد الجاهل .

قال أحد الوعّاظ من على منبره حكايةً طريفةً مضمونها أن شخصاً جاء إلى ذلك الواعظ وقال له بعد أن مد رجليه أمامه : معذرةً يا سيِّدي ، لقد تعبت كثيراً في الأيام الثلاثة الأخيرة ، فقد عملت جهدي في إقامة مراسم العباس (ع) ـ أخي الإمام الحسين (ع) لأبيه ـ فكنت في تلك الأيام أقدم الطعام للمشاركين في تلك المراسم حتى بلغ بي الأمر إلى درجة لم أتمكن معها من خلع حذائي على طول تلك الأيام ! .

---

(١) سورة الأنعام، الآية ١٦٠ .

وعندها قال له الواعظ : وكيف إذا كنت تتوضأ لإقامة الصلاة ؟ .

فالتفت إليه وقال : إذا كان العباس (ع) لا يتمكن من دفع تلك المعصية عني ، فلن أكون معتقداً به بعد اليوم ! .

إنه الجهل بعينه ، لقد ترك ذلك الرجل الأمر الواجب ليقوم بالمستحب وإن الكثير منا يسقطون في حبائل المعصية من جراء إنجازهم لأعمال مستحبة بعيدين عن انتهاج الطريقة التي كان يقوم بها أهل بيت الرسول محمد (ص) ، ولو تأتّى لنا التزام نهج الرسول (ص) لما وصلنا إلى هذه الحالة المزرية .

جاء في تفسير ﴿ إهدِنا الصراطَ المستقيم ﴾[1] : ربّنا أدِم لنا توفيقك الذي أطعناك به قبل ، حتى نطيعك بعده والهداية والرشاد والتثبت والصراط كلها تعني : الجادة المستقيمة أي طريق الحق ، طريق أهل البيت النبوي الشريف ، فتكون هذه الآية بالشكل التالي : طلب السير على نهج أهل بيت محمد (ص) في إطار الولاية ، وقال آخرون : إن عبارة ﴿ الصِّراطِ المستقيمِ ﴾ تعني أهل البيت ـ عليهم السّلام ـ .

إن العمل ضمن الولاية ليس بالأمر الهيِّن ، لأن ذلك يجرد الإنسان من الاستبداد في الرأي ، ومن حب الظهور والعجب وهذا ما يحتاج لجهاد دائم ، ومن لم يتمكن أن يفوز في هذا الجهاد ، فقد ضلَّ وانحرف عن الصراط المستقيم ؛ وأن الصراط المعني في هذه الآية المباركة أدقُّ من الشعرة ، وأحدُّ من السيف ، وأشدُّ اشتعالاً من النار . ونموذج ذلك في هذه الدنيا الدنيّة من خلال طيِّ مراحل الطريق ضمن إطار الولاية ، والابتعاد عن الاستبداد بالرأي ، والعجب . وهذا ما يحتاج إلى صبر ومعاناة ومجاهدة للنفس حيث تعدُّ هذه المسائل غير هيِّنة على النفس البشرية .

كان أبان بن تغلب أحد المجتهدين ، وقد أذن له الإمام جعفر بن محمد الصادق (ع) بالإفتاء ، فجاء يوماً إلى الإمام (ع) وقال له : يا ابن رسول الله (ص) ! مادية من قطع لها إصبع ؟

فقال الإمام : عشرة إبل .

---

(١) سورة الفاتحة، الآية ٦.

فقال أبان : وإذا قطع لها إصبعان ؟ .

فأجاب الإمام (ع) : عشرون من الإبل .

فقال أبان : وثلاث ؟ .

فأجاب الإمام (ع) : ثلاثون من الإبل .

فقال : وأربع ؟ .

فأجاب الإمام (ع) : عشرون من الإبل .

فتعجَّب أبان ، وقال : يا ابن رسول الله (ص)! كان يقال ذلك في الكوفة نقلاً عنك وكنت أقول : هذا حكم شيطانيٌّ ، وإن الإمام (ع) لم يقل بذلك ! .

فقال الإمام الصادق (ع) : مهلاً مهلاً يا أبان . . ما كان لك لتسبق أهل البيت (ع) فالسنَّة إذا قيست محق الدين »[1] .

قد نلاحظ البعض من الناس يكتب كتاباً في تفسير القرآن ، ولا يرجو من ذلك إلا طلب الشهرة بعيداً عن الامتثال لنهج أئمة أهل بيت الرسول (ص) ، يريد إصابة شيء ما ، ولكن من دون الرجوع إلى مرجع تقليد أو من هم أعلم منه في هذا العلم الحساس ، فتراه يفسِّر القرآن الكريم تفسيراً ينسجم مع آرائه وأهوائه ويشرع بإنكاره للغيب الذي أبعد الإنسان عن صفات الرذيلة وحدا به إلى صلاة الليل ، فيقول مثلاً : إن الإيمان بالغيب يعني حرب الشوارع ، حرب المخاتلة ، وكيفية خداع العدو ، وإن الإنسان ينبغي له أن يلتزم مثل هذا النضال ، ثم يقسم ذلك النضال المزعوم .قسمين : نضالاً مسلحاً سياسياً وعسكرياً ، ونضالاً خفياً يلتزم حرب الشوارع . وإن الإيمان بالغيب لا يتعدّى حدود ذلك ، فالقرآن الكريم أمرنا بذلك .

ثم يمضي ليصل في تفسيره إلى سورة الفيل ـ وهي إحدى معاجز القرآن الكبرى ـ فقد كانت فيها طيور السنونو الحاملة بمناقيرها وأرجلها للسجيل ترمي جيش إبرهة الحبشي لتجعل من فيلته وأفراده كعصف مأكول .

إن سورة الفيل نزلت بعد تلك الحادثة بأربعين سنةً ، وهذا خير دليل على

---

(١) كنز العمال/ج ١ ، ص ١٧٢ ، ٢٦٣ .

أنها لم ولن تكون شيئاً خرافياً ، وأنها كانت دليلاً على التوحيد ، والنبوَّة ، وقدرة الله العظيمة ، ولكن صاحبنا المفسِّر يقول في معنى السورة : إن فيلاً هجم على الكعبة يريد خرابها ، فهجم أهل مكة عليه ، وكانوا في هجومهم كهجوم الصقر على فريسته فقضوا عليه .

لماذا هذا التفسير أيها العالم الجليل ؟ .

وبماذا يمكن أن نفسِّر نحن تفسيرك لهذه الآية المباركة ؟ .

لا يسعنا إلا أن نقول : إنه استبداد في الرأي ، وجلب أذهان الناس إلى أفكارك التي ما أنزل الله بها من سلطان ، بل هو تنكر لتفسير أهل البيت المحمدي الشريف ، وإنكار لرواية الثقلين التي تؤكد أن أهل بيت محمد (ص) هم ثقل الكتاب المحكم ، وإدبار عن العمل بآية المودة التي عرضنا لها .

قال أمير المؤمنين علي (ع) : « كفى بالمرء غروراً ، أن يثق بكل ما تسوِّل له نفسه »[1] .

إن في حياتنا كثيراً من هذه النماذج ، ولو فكَّر الأفراد قليلاً في مجمل حياتهم وراجعوا ماضيهم ، لعلموا وفهموا أن الاتكاء على الأفكار الذاتية لا يؤدي بهم إلا إلى ما لا تحمد عقباه ؛ وما المصائب والبلايا التي ما يزال البعض يئنُّ منها إلا نتيجةً لذلك الاتكاء الخاطىء الذي اعتمده البعض في مسيرة حياته ، وقد سبَّب قفز بعض الأشخاص لسلالم الثورة الإسلامية مشاكل متفاقمة للقائد والمسؤولين والعلماء الأجلاّء ، فاحتاروا فيما يفعلون ، وما كان منهم إلاّ إبداء النصح لأولئك المنافقين الذين لم تسمح لهم نفوسهم بالامتثال لتلك النصائح .

قال قائد الثورة الإسلامية ومؤسس جمهوريتها : كنت وقتها في مدينة النجف الأشرف حين كان يأتي البعض إليّ ، ليقرأ عليّ مقاطع من نهج البلاغة دون أن يدرك معاني تلك المقاطع العظيمة ، فطرق ذهني حينها حكاية ذلك اليهودي الذي أسلم على يد أحد العلماء ، وبعد فترة من الزمن أضحى وكأنه

---

(١) غرر الحكم/٢٤٣ .

صاحب الرسالة ، دائم الحضور في حرم الإمام علي (ع) ، يصلي صلاة الليل ، تاركاً عمله جارياً خلف هذا وذاك يسدي لهم النصح والوعظ فشك ذلك العالم في الأمر وقال : عجباً لهذا المسلم الحديث الإسلام ، إنه ينصح ويعظ وقبل أيام كان يهودياً ؟ .

وفي أحد الأيام أمسك العالم بذلك المسلم (اليهودي سابقاً) ليقول له : كيف أضحيت على وجه السرعة بالشكل الذي أراك عليه ؟ تنصح وتعلم وتنتقد وتذم وتمدح ، بالرغم من أنه لا يحق لك التقدم على من سبقك ! وهنا أيقن اليهودي أنه لا معيشة له فيما يفعله لافتضاح أمره وحيلته ففرَّ إلى حيث لا رجعة .

فالإنسان الذي يريد تجاوز الآخرين ، ومصادرة سبقهم في الإسلام والإيمان دون التزام الولاية والقرآن الكريم يكون ضرره أكثر من نفعه ، لكون محبة أهل البيت ومودتهم ـ عليهم السّلام ـ تستدعي أن يتحرك الفرد خطوة خطوة على نهجهم ، وإذا ما تعذَّر عليه وجب أن يسأل من هم يعدُّون متخصصين في هذا النهج الإلّهي .

قد نرى فرداً يروم الذهاب إلى مدينة مشهد لزيارة ضريح الإمام علي بن موسى الرضا (ع) ، ولكنه لا ينزل من الحافلة لإقامة الصلاة الواجبة ؛ لا يمكن أن أنسى ذلك الموقف حينما رجعت مع والدي قبل سنوات من مدينة مشهد ، لنصل إلى إحدى مدن محافظة (مازندران) وكان الوقت متأخراً بعض الشيء ، فلم يكن هناك مسجد يستقبل أحداً ، والفندق الذي نزلنا فيه لا يحتوي إلاّ على غرفة واحدة فقط ، وكان أبي ـ رحمه الله ـ متقيدا جدا بوقت الصلاة ، فلم يرض حينها تناول العشاء إلا بعد أن يقيم صلاته ، فطرق باب أحد المساجد ، ليأتيه الجواب أن عليك بالصلاة خارجه ، وأن وقت الصلاة قد مضى وانتهى .

ولم يكن هنالك ماء للوضوء ، وكانت لدينا قنينة ماء لشربنا ، فاستخدمناها للوضوء ووقفنا ثلاثتنا للصلاة على الرصيف المحاذي للشارع ، وعندها وقف إلى الصلاة معنا رجل مسنٌ وامرأة عجوز ؛ وبينما نحن نصلي تحركت حافلتنا لتتركنا في منتصف الطريق .

إن تلك الحافلة كانت تحمل (٤٠) مسافراً لم يكن فيها إلا ستة أشخاص أقاموا الصلاة ، على الرغم من أنها كانت قادمة من مدينة مشهد المقدسة ، وركابها كانوا من زائري مرقد الإمام علي بن موسى الرضا (ع)(*) .

وحادثة أخرى أحبُّ أن أذكرها هنا وهي : كنت مع أحد الفضلاء في سفر إلى مدينة مشهد ، وقرابة الوصول إلى مدينة « محمود آباد » في منتصف الطريق انحرف السائق بنا عن الجادة الأصلية ليقصد بنا مساراً لا نعرفه ولم تمض دقائق حتى جاء المضيِّف ليقول لنا : إن أغلب الذين يشاركونا السفر يريدون التعريج على ساحل البحر ، وإنهم قد دفعوا مبلغاً إضافياً لذلك ، وقد دفعوا عنكما ما كان يخصكما من مبلغ إضافي ـ وكنت وصاحبي لم نذهب إلى حيثما يريدون قبل ذلك ـ فقبلنا الأمر .

وبعد ساعة توقفت الحافلة في أحد شوارع المدينة الساحلية لنترجَّل منها ، ونسأل أحد رجال الشرطة المرابطين هناك ـ وكان على ما يبدو متديِّناً ـ عن ساحل البحر ، فبادرنا بدل الإجابة بسؤال : هل تريدون الذهاب إلى البحر ؟ فأجبنا : بنعم ، وعندها نادى أحد سائقي السيارات ليقول له : أوصل السادة إلى ساحل البحر ، وعند بلوغ المأرب شاهدنا ما يبعث على الحياء ، فقد كان الجميع عراةً إلا ما يستر العورة رجالاً ونساءً شبَّاناً وشيوخاً ، وحينئذ قلنا لسائق السيارة : ارجع بنا ولا تتوقف ! ! فرجع بنا إلى حيث وقوف ذلك الشرطي ليتقدم نحونا ويقول : لم أكن أجرؤ على القول عما يحدث هناك ، ناهيك عن رؤيتي لشوقكما للذهاب إلى الساحل ، فتركت الأمر والكلام ، وقلت : ليذهبا ويريا وسيعودان إلى هنا مسرعين .

كان الجو شديد الحرارة ، ولم يكن في الوسع التوقف في الشارع ، ففضَّلنا الجلوس في الحافلة ننتظر رجوع الزائرين الكرام من فسحتهم الشائنة .

وبعد انتظار طويل رجع الرجال والنساء بملابسهم المبتلة بماء البحر مدللين على ما انتهكوا من حرمات لنرافقهم إلى زيارة الإمام علي بن موسى الرضا (ع) .

(*) زمن هذه الحوادث هو قبل قيام الثورة الإسلامية المباركة في إيران .

فمن لم يلتزم الآية الشريفة : ﴿قلْ لا أسألكُم عليهِ أجراً إلّا المودَّةَ في القُربى﴾[1] ، ولم يعمل بما حدَّده أهل بيت الرسول الأكرم (ص) يركل بقدميه كل ثواب الدنيا في مقابل معصية واحدة لم تسعفه نفسه التي بين جنبيه بتجاوزها .

أنتم مقلِّدون ترجعون في أحكام دينكم إلى الفقهاء ، والفقهاء يقولون : إذا التحقت بصلاة الجماعة والإمام في حال الركوع وقلت : « الله أكبر » ، وفي أثناء الالتحاق بركوع الإمام ، رفع الإمام رأسه من ركوعه ، فلم تصل إليه ، ينبغي لك أن تتم صلاتك فرادى ، أي تكمل صلاتك لوحدك ولا تعدُّ جماعةً لك .

يقول البعض : ولماذا أقيم الصلاة منفرداً مع إمكان قطع الصلاة والالتحاق بالإمام في الركعة الثانية لأحظى بثواب الجماعة الذي لا يتأتى لأحد إحصاء ثوابه إلا الله تعالى في حال وقوف عشرة أشخاص لصلاة الجماعة ضمنهم الإمام .

والإسلام يقول : قطع الصلاة غير جائز .

صحيح ، أنه ليس من كبائر الذنوب وهو من صغائرها ، ولكن الله تعالى لا يرضى أن يعمل الإنسان معصيةً من أجل أن يحظى بكلِّ ذلك الثواب ، لأن كل أجر وثواب الدنيا في جهة ومعصية واحدة في جهة أخرى .

كم هي جميلة تلك العبارة التي كتبها أحد طلاب الإعدادية في دفتر مذكراته وجاء فيها : « كان يوماً أسود ونقطة سلبية في حياتي ذلك اليوم الذي صحوت فيه من منامي صباحاً لأرى بزوغ الشمس ، وكون صلاتي قضاءً » .

إنه لم يرتكب جرماً ، ولن يعدَّ له معصية ولكن الأمر أعمق من ذلك ، إذ قد تكون أرباح الدنيا بجميعها لا تعدل صلاة صبح واحدة يقيمها الفرد أداءً ؛ وقد تعرضت سلفاً إلى حكاية ذلك الرجل الذي جاء للإمام الصادق (ع) ليستخير الله في سفره ، فاستخار له الإمام (ع) ثم قال له : ترك السفر أفضل ؛ ولكن

---

(١) سورة الشورى، الآية ٢٣ .

الرجل ذاك لم يلتزم ما قاله الصادق (ع) فذهب مسافراً ، وعند رجوعه جاء ثانيةً إلى الإمام (ع) ليقول له : يا ابن رسول الله ، ذهبت للسفر وكانت رحلتي موفقةً جداً ، فقد فتح الله عليَّ باباً لأرباح كثيرة ، فتبسَّم الإمام الصادق (ع) ، وقال : ألا تذكر اليوم الفلاني الذي رجعت فيه إلى منزلك متعباً لتغطّ في نوم عميق ، ثم تفيق في اليوم الثاني وقد علت الشمس في كبد السماء ، فتصير صلاة صبحك إلى قضاء ؟ ثم أردف الإمام (ع) قائلاً : « إن صلاة الصبح التي فاتتك لا تعدلها كل أرباح تجارتك »[1] ! .

---

(١) وسائل الشيعة/ج ١٢ ، ص ٤٩٦ ، باب ١٤ : « استحباب مبادرة التاجر إلى الصلاة في أول وقتها » .

[٢]
محبة أهل بيت الرسول محمد (ص)

جاء في كتاب وسائل الشيعة على وجه الدقّة في الجزء الأول أكثر من ثلاثين روايةً عن أئمة أهل بيت محمد (ص) بالمضمون الآتي : « بُنِيَ الإسلام على خمس : الصلاة والصوم والحج والزكاة والولاية ، وما نودي بشيء بمثل ما نودي بالولاية »[١] .

وقد لا توجد رواية بين جميع روايات أهل البيت (ع) بهذا التوكيد .

والولاية هنا لا تعني الإمامة التي يعتبرها المسلمون الأصل الرابع من أصول الدين ، بل تعني المحبة والمودة التي عدَّها القرآن الكريم أجر الرسالة : ﴿ قلْ لا أسألكُمْ عليهِ أجراً إلاّ المودَّة في القُربى ﴾[٢]، أما الإمامة ، فهي أحد أصول الدين الخمسة وهي عبارة عن : « التوحيد ، العدل ، النبوة ، الإمامة ، والمعاد » .

عقيدتنا في هذا الأمر هي : أن خلفاء رسول الله (ص) من بعده اثنا عشر إماماً وأنهم يقومون مقام الرسول الأكرم (ص) في توجيهه للأمة الإسلامية ؛ قال رسول الله (ص) : « إن هذا الأمر لا ينقضي حتى يمضي فيهم اثنا عشر خليفةً »[٣] ؛ وبديهي أن الاعتقاد بالإمامة من أصول الدين ، وليس من فروعه

---

(١) أمالي المفيد/ص ٢٠٩ ، والكافي ص ٣٣٢ وص ٣٧٦ ، وبحار الأنوار/ج ٦٨ ، ص ٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٣٣٤ ، ٣٨٧ .

(٢) سورة الشورى، الآية ٢٢ .

(٣) صحيح مسلم/ج ٣ ، ص ١٤٥٢ . الظاهر أن الأخبار في هذا المعنى كثيرة ، راجع صحيح مسلم ج ٣ ، كنز العمال/ج ١٢ ، ص ٣٢ .

التي هي : الصلاة ، الصوم ، الخمس ، الزكاة ، الحج ، الجهاد ، الأمر بالمعروف ، النهي عن المنكر ، التولّي ، والتبرّي ؛ وهنا التولّي والتبرّي معدودة من جملة فروع الدين .

إن أصل الإسلام شيء ، وفروعه شيء آخر .

وإن الولاية عمدة الإسلام ، وقد عدّها الله كذلك فقال لنبيه الكريم (ص) : ﴿ يا أيُّها الرسولُ بلِّغْ ما أُنزلَ إليكَ من ربكَ ، وإن لَّم تفعلْ فما بلغتَ رسالتَهُ . . ﴾[1] .

« جاء عن ابن عباسّ وجابر عن أهل البيت (ع) : إن الله أوحى إلى نبيِّه أن يستخلف عليّاً ، فكان يخاف أن يشق ذلك على جماعة من أصحابه ، فنزلت هذه الآية التي تقول : ﴿ وإن لَّم تفعلْ ﴾ بتبليغ ﴿ ما أنزلَ إليكَ من ربكَ ﴾ ، ﴿ فما بلَّغتَ رسالتَه ﴾ أي أن كل عملك الذي مارستَه من أجل تبليغ الرسالة باطل إن لم تبلغ أو تخبر عن الولاية ، وبذلك تكون الولاية في مقابل كل الرسالة »[2] وعندها قال (ص) : « ألست أولى بكم من أنفسكم ؟

قالوا : بلى .

قال : من كنتُ مولاه ، فعليٌّ مولاه »[3] .

لقد أسهبت الروايات المتواترة في مسألة الولاية ، ولم تعدَّها في مصاف الصلاة بل عدتها أكثر من ذلك ؛ « عن عيسى بن السريّ قال : قلت لأبي عبد الله الصادق (ع) أخبرني بدعائم الإسلام الذي بنى الله عليه الدين لا يسع أحداً التقصير في شيء منها . . فقال : نعم شهادة لا إلّه إلّا الله ، والإيمان برسوله (ص) ، والإقرار بما جاء من عند الله ، وحقّ من أموال الزكاة ، والولاية التي أمر الله بها ـ ولاية آل محمد ـ »[4] .

أما الولاية التي جاءت بمصاف الصلاة فهي لا تعني الإمامة ، بل تعني

---

(١) سورة المائدة، الآية ٦٧.

(٢) تفسير شبر/ص ١٤٣ .

(٣) تاريخ دمشق لابن عساكر/ج ١ ، ص ٣٦٦ ـ ج ٢ ، ص ٩٠ : « طريق حديث الغدير » .

(٤) بحار الأنوار/ج ٦٨ ، ص ٣٨٧ .

المحبة والمودة لأهل بيت رسول الله (ص) والتي يؤكّدها القرآن لتترسَّخ في القلوب البشرية ، حتى يتمكن البشر من الامتثال لهم .

فإذا كانوا لا يحملون لهم محبةً ولا مودةً ، لا يمكن أن يسمعوا لهم ويطيعوا .

ولكن بحث الولاية الذي يعني الإمامة ، ولا يرتبط حالياً ببحثنا هذا ، هو بحث عقيديّ يرتبط بأصول الدين .

قال المرحوم « شاه آبادي » وهو أستاذ قائد الثورة الإسلامية : إن رواية « بني الإسلام على خمس » ترتبط بقضية المودة والمحبة لأهل البيت (ع) ولا علاقة لها بقضية الزعامة والإمامة ، لكون الإمامة بالنسبة للإسلام كالصورة بالنسبة للهيولى فإذا عدمت الصورة لم تكن المادة شيئاً يذكر ، لأنّ الحقيقة تكمن في الصورة ، ولا تكمن في المادة ، وإن المادة والهيولى دون صورة شيء أجوف .

وعليه تكون الإمامة بالنسبة للإسلام كالصورة للمادة والهيولى ؛ فالإسلام دون ولاية (بمعنى الإمامة) ليس إسلاماً .

وإذا كان الإنسان مجرداً عن حقيقة الإنسانية لا يمكن أن نطلق عليه كلمة إنسان ؛ وهذا ما استفاده المرحوم « شاه آبادي » من القرآن الكريم .

فالآية : ﴿ يا أيُّها الرسولُ بلِّغْ ما أُنزلَ إليكَ من ربِّكَ وإنْ لم تفعلْ فما بلغتَ رسالتَه . . ﴾[1] نزلت على الرسول قبل تنصيب علي (ع) خليفةً للمسلمين وأن الآية : ﴿ اليومَ أكملتُ لكمْ دينكم وأتممتُ عليكمْ نعمتي ورضيتُ لكمْ الإسلامَ ديناً ﴾[2] نزلت بعد تنصيب الرسول الأكرم (ص) علياً (ع) خليفةً للمسلمين ، أي أن الدين اكتمل بولاية علي (ع) ، وبغير هذا الوليِّ لا يكتمل الدين ، وأن الباري تعالى انتخبه للولاية وأمر رسوله الكريم ، أن يقول ذلك للناس ، والرسول (ص) لا ينطق عن الهوى ، إنما يأتمر بما يجريه

---

(١) سورة المائدة، الآية ٦٧ .

(٢) سورة المائدة، الآية ٣ .

الباري تعالى على لسان الوحي .

وبناءً على هذا ينبغي لنا أن نفعل شيئاً من أجل ترسيخ حبّ وودّ أهل البيت (ع) في قلوبنا ، وإن إيجاد هكذا حالة أشد أهمية من الصلاة الواجبة ومن الصوم والحج والزكاة التي أوجبها الباري على عباده : « وما نودي بشيء مثل ما نودي بالولاية »[1] .

المودّة والمحبّة أمران قهريّان ، فمن أحب شخصاً لا يتأتّى له أن يبغضه وعليه يكون البغض أيضاً أمراً قهرياً .

فما العمل إذن لتصل إلى هذا الأمر القهري ، أي محبة أهل بيت الرسول الأكرم (ص) والذي أكده القرآن الكريم ، مما يدلّل على أن مقدمات تلك المحبة بأيدينا نحن ، وإلاّ ، فلا معنى لذلك التأكيد لأمر قهريٍّ بهذا الشكل .

فمن هو الذي يمكن ادعاء أن محبة أهل بيت الرسول (ص) في قلبه ؟ .

إنه ذاك الممتثل لأوامرهم ونواهيم ، فمن تبعهم أحبهم ، ومن لم يتمكن من اتباعهم لا يتمكن من حبهم ، فالحب مرتبط بالاتباع .

وهذا ما أشار إليه القرآن المجيد : ﴿ إن كنتُم تحبُّونَ اللّهَ فاتبعوني . . ﴾[2] .

فالمحبة إذاً يلزمها مظهر خاص بها ، وهو متابعة الحبيب ، فالالتزام بسيرة أئمة أهل بيت الرسول (ص) ، والاقتداء بأخلاقهم السامية الرفيعة يعمِّق جذور الحب في قلوبنا ، وهذا ما يمكن أن نعلِّمه للأجيال القادمة ، ولأبنائنا ليحظَوا بذلك الودِّ والحب الذي أمرنا اللّهُ به .

إن حب آل محمد (ص) نعمة وفضل من الله على عباده ، لكون هذا الحب يوصلنا إلى الدرجات العلى مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين من خلال الالتزام لسيرتهم ونهجهم الذي ما حادَ يوماً عن نهج رسول الله (ص) .

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر/ج ٢ ، ص ٩٠ ـ وأمالي المفيد/ص ٢٠٩ .
(٢) سورة آل عمران ، الآية ٣١ .

قال رسول الله (ص) : « من رزقه الله حب الأئمة من أهل بيتي ، فقد أصاب خير الدنيا والآخرة ، فلا يشكّن أنّه في الجنة ، وأن في حبّ أهل بيتي عشرين خصلة ، عشراً في الدنيا ، وعشراً في الآخرة . . »[1] .

وقال أيضاً (ص) : « من أحبنا أهل البيت فليحمد الله على أول النعم ، قيل : وما أول النعم ؟ .

قال : طيب الولادة ، ولا يحبنا إلا من طابت ولادته »[2] .

وقال كذلك (ص) : « لا يؤمن عبدٌ حتى أكون أحبَّ إليه من نفسه ، ويكون عترتي أحبَّ إليه من عترته ، ويكون أهلي أحب إليه من أهله ، ويكون ذاتي أحبَّ إليه من ذاته »[3] .

إن جذور محبة أهل بيت الرسول (ص) موجودة في جميع النفوس ، وعلينا أن نتعرف هذه الجذور التي ورثناها عن الآباء والأجداد ، ويجب علينا أن نوليها عنايةً خاصة ، ونرعاها لتمتد في نفوس الأجيال القادمة .

إنها الأمانة الإلّهية التي ينبغي لنا أن نصونها ونحفظّها ، لكي يديم الباري هذا اللطف والنعمة الكبرى علينا وعلى من سيلينا في هذه الحياة الدنيا .

فالمعلم ينبغي له تعليم طلابه وتلاميذه محبة أهل البيت (ع) ، عليه أن يفهمهم أن إقامة العزاء في مناسبات وفيات أهل البيت عمل حسن ، بعيداً عن عكس الإحساسات التي تبعث على قتل تلك الجذور في نفوس الأطفال والشباب ؛ فقد يقول بعض المعلمين لتلامذته : إن مراسم إقامة العزاء لأبي عبد الله الحسين بن علي (ع) لا فائدة منها ! .

هذه العبارة قد تعمل عملها السلبي في نفس الطفل ، فتقضي على جذور حبه للحسين بن علي (ع) .

والبعض يقول : إن اجتماعات النساء من أجل العزاء الحسيني لا يفيد

---

(1) مشكاة الأنوار/ص ٨١ .

(2) مشكاة الأنوار/ص ٨١ .

(3) بحار الأنوار/ج ٢٧ ، ص ١٣ ، وكنز العمال/خ ٩٣ .

بالمرّة ! وما إلى ذلك من الأحاديث التي يلقيها الشيطان على أفواه الحمقى والخاسرين من مثل : من لبس السواد رجعي ! ولا يعرف التمدن والحضارة ، أو من بكى أو تباكى على مصائب أهل البيت يعيش في العصر الحجري .

إنه العشق الحقيقي الذي غمر القلوب والنفوس الخاضعة لأوامر الله تعالى التي أجراها على لسان رسوله الكريم (ص) وأهل بيته الطاهرين ـ سلام الله عليهم أجمعين ـ .

قال أمير المؤمنين علي (ع) : « انظروا أهل بيت نبيكم ، فالزموا سمتهم ، واتبعوا أثرهم ، فلن يخرجوكم من هدى ، ولن يعيدوكم في ردى ، فإن لبدوا فالبدوا ، وإن نهضوا فانهضوا »(١) .

وقال أيضاً : « ألا إن مثل آل محمد (ص) كمثل نجوم السماء ، إذا خوى نجم طلع نجم ، فكأنكم قد تكاملت من الله فيكم الصنائع ، وأراكم ما كنتم تأملون »(٢) .

على أية حال : لا نريد أن نقول بمعصية من لا يوجد في نفسه جذور محبة أهل البيت ـ عليهم السّلام ـ لأن بحثنا هذا يمتلك صورة عقلية ، وأن محبة ومودة أهل بيت الرسول الأكرم (ص) ينبغي أن تكون متكاملة بجميع أبعادها العاطفية والعقلية ، إضافةً إلى الأبعاد الذوقية والعرفانية ، وقد عرض القرآن الكريم البعد العقلي فجاء فيه : ﴿ إِنْ كُنتُم تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾(٣) .

جاء في كتاب الله المجيد آية أتبعها أحد المفسِّرين برواية عن الإمام الصادق (ع) ، تهزُّ الإنسان من الأعماق عندما يقرأها ، فأرجو من الإخوة القرّاء أن يحفظوها في أذهانهم دائماً ، ويُطيلون التفكير في معانيها وهي : ﴿ وضُرِبَتْ عليهِمُ الذِّلَّةُ والمسكنةُ ، وباؤُا بغضبٍ منَ اللهِ ذلكَ بأنهُمْ كانُوا يكفُرونَ بآياتِ

---

(١) شرح ابن أبي الحديد/ج ٧ ، ص ٧٦ .
(٢) شرح ابن أبي الحديد/ج ٧ ، ص ٨٤ .
(٣) سورة آل عمران، الآية ٣١.

اللهِ ويقتلونَ النبيِّينَ بغيرِ الحقِّ ذلك بما عَصَوْا وكانُوا يعتدونَ﴾[1] . أما الحديث الذي جاء تبعاً لهذه الآية المباركة ، فهو :

قال الإمام جعفر بن محمد الصادق (ع) : « والله ما ضربوهم وما قتلوهم ولكن سمعوا أحاديثهم فأضاعوها »[2] .

وبناءً على حديث الإمام الهمام الصادق (ع) يكون تضييع الأحاديث ـ أي عدم العمل بها ـ قتلاً وضرباً لصاحب الحديث ، أي أن المعصية التي تترتب على إضاعة الحديث وعدم الالتزام به كمعصية القتل والضرب ظلماً وعدواناً .

فالذي يحب الحسين بن علي (ع) ولا يلتزم الهدف الذي قام من أجله يكون كالقاتل له في صحراء كربلاء .

إن الإمام الحسين (ع) ، قام من أجل إحياء دين الله ، من أجل إحياء الصلاة والزكاة وباقي الواجبات التي أمرنا الله تعالى بها ، فمن أقام له العزاء وبكى لمصيبته ، وحزن لما جرى عليه وعلى أهل بيته ـ عليهم السّلام ـ حباً وكرامةً ولم يلتزم بنهجه السامي الرفيع في تنكره للظلم والفساد يكون كقاتله ؛ فهو ـ أي المقيم للعزاء ـ يحب الحسين عاطفياً ، ولكنه لا يفعل ذلك عملياً ، وهذا ما لا يقبله العقل ولا المنطق ، فالمحبُّ عليه أن يتابع محبوبه في أعماله وسلوكه ونهجه ويلتزم بتلك الأعمال والأفعال .

فالمقيم لعزاء الإمام الحسين على أفضل وأكمل وجه مصيب في عمله ، وبنظر العاطفة والعرفان مقبول ؛ ولكن الأمر يتعدى هذه الدائرة إلى دائرة العقل الذي يطلب منك الالتزام بسيرة الحسين (ع) فإن قدرتَ على ذلك لم تشملك الآية التي عرضنا لها ، وإن لم تفعل شملتك الآية إيَّاها وكنت من القاتلين الذين عصوا وكانوا يعتدون ؛ ومن الذين سمعوا أحاديث الحسين (ع) فأضاعوها .

عزيزي القارىء الكريم : جميل هو وقوفك بين يدي الإمام الحسين (ع) ، ومخاطبتك له : « أشهد أنك أقمت الصلاة ، وآتيت الزكاة ،

---

(١) سورة البقرة، الآية ٦١ .

(٢) تفسير نور الثقلين/ج ٢ ، ص ١٩١ ـ وكذا جاء في تفسير العيّاشي .

وأمرت بالمعروف ، ونهيت عن المنكر » .

إنها دلالات على محبتك ومودتك للإمام الحسين الذي هو أحد أهل بيت محمد (ص) ، والذي كان مؤتمراً بأوامر رسول الله (ص) جده ، ومنفّذاً لها دون أن تأخذه في الله لومة لائم ؛ وما محبتك تلك إلا محبة فطرية ، محبة في القلب ، محبة تؤدي بك إن شاء الله إلى رضا الباري وشفاعة رسوله (ص) .

هذا فيما إذا كنت متبعاً لنهج الرسول (ص) ونهج أهل بيته الأطهار ـ سلام الله عليهم ـ عملياً من خلال التزام الواجبات والفرائض التي أجراها الباري تعالى على لسان رسوله الكريم (ص) ، وأهل بيته من بعده ـ عليهم السّلام ـ .

عن حسين بن خالد ، قال : قلت لعلي بن موسى الرضا (ع) : « يا ابن رسول الله فما معنى قول الله عزَّ وجلَّ : ﴿ ولا يشفعونَ إلاّ لمنْ ارتضى ﴾[1] قال : لا يشفعون إلا لمن ارتضى الله دينه »[2] .

إلٰهي اجعلنا من الملتزمين بمودة أهل بيت محمد (ص) ، فهم من بيَّن حلالك وحرامك ، وفرائضك وفضائلك ، وهم من فسَّر كتابك ونوَّر لنا الطريق إلى رضاك ، واحشرنا معهم في جنتك إنك أنت العزيز القدير .

---

(١) الأنبياء آية ٢٦ .

(٢) بحار الأنوار/ج ٨ ، ص ٣٤ ، وكذا في عيون الأخبار

[٣]
محبة أهل بيت محمد (ص)

إن محوربحثنا هذا يدور حول كيفية الوصول إلى محبة أهل بيت الرسول الأكرم (ص) ، والطرق المؤدية لهذه المحبة أو المودة والعمل لترسيخ تلك المودة في قلوبنا ، لتنفعنا في ليلة القبر الأولى ، وفي يوم الجزاء .

للوصول إلى محبة أهل بيت الرسول (ص) طريقان : الأول عملي ، والثاني علمي .

فالطريق العملي يعني : إن الإنسان يتمكن من بلوغ محبة أهل البيت (ع) من خلال محاولاته الجادة عملياً . أما الطريق العلمي ، فهو التعرف على أهل البيت ، من هم ؟ وأبناء من يكونون ؟ وماذا كان هدفهم ؟

بديهي أن الطريق العملي أفضل وأهم من الطريق العلمي إضافة إلى آثاره التي هي أبلغ في النفوس من الطريق العلمي ، وهو على قسمين :

أ - إيجاد علاقة وارتباط وثيق مع أهل البيت (ع) .

ب - التقرب إلى الله سبحانه .

أ - من كان له ذهاب وإياب مع حبيب له ، وقيام وقعود ، توثقت علاقته على مر الأيام والدهور ، ومن خفف من ذلك ، خفت علاقته وآلت على مر الأيام إلى زوال .

وهكذا الأمر بالنسبة لمحبة أهل البيت (ع) ، فمن واظب على قراءة زياراتهم ، وزارهم في مراقدهم ، وفكر في أعمالهم التي ما حادت يوماً عن

النهج الصحيح ، أحبهم وزادت رغبته في توثيق علائقه معهم .

يقول علماء النفس : إن أفضل طريق لتوطيد المحبة بين الأحباب هو التزاور والتحاور ، وما إلى ذلك .

وقد أوصى الإسلام العظيم بضرورة التزاور بين المسلمين ، وعيادة المريض ، وتبادل الهدايا ، والسير خلف جنائز الموتى من المسلمين وبيَّن الثواب والأجر الجزيل الذي يحصل عليه المسلم من جرّاء ذلك العمل الفاضل والسامي .

ومن أجل توثيق العلائق بين المسلمين ، وإحكام روابط المحبة والألفة والمودة سعى الإسلام لتحبيب هكذا أعمال تسمو بالمجتمع الإسلامي إلى أفضل الدرجات وتشيع بينهم الحبَّ والودَّ والرحمة ، وعليه يتمكن الفرد المسلم من خلق روح المودة والمحبة في نفسه لأهل بيت الرسول (ص) من خلال التردد على مراقدهم الشريفة وقراءة زياراتهم من بعيد أو قريب ليكون ذلك موجباً وباعثاً لإيجاد ارتباط يكون سبباً إلى محبتهم .

ويقال : إن العامل الرئيسي لوجود خاص وعام ومتشابه ومجمل في القرآن الكريم هو : وجود الأئمة الأطهار الذين يرجع إليهم الناس في تفسير ذلك لإيجاد علاقة ورابطة بين الناس وبينهم ، لكونهم عدل القرآن الكريم وثقله .

إن المسلم المحب يتمكن من توثيق علائقه مع الأئمة الأطهار من خلال ممارسته لقراءة الزيارة الجامعة في كل صباح ، وما يفعل ذلك لبضعة أيام حتى يشعر بانجذاب قلبه وروحه ونفسه إلى تلك الأرواح الشريفة ، تلك النفوس التي نذرت كل شيء كان عندها لله الواحد القهار لتشيع الفضيلة والمثل السامية .

إن الذي يمارس قراءة الزيارة الجامعة علماً واحداً يشعر بعد ذلك بودٍّ خاص لأهل بيت الرسول الأكرم (ص) ، وسيلمس الجذبات العرفانية التي تؤجِّج في نفسه حب الأئمة الذين بذلوا مهجهم وأبناءهم وما كان لديهم في سبيل نصرة هذا الدين الحنيف .

قالت عائشة : دخل الإمام الحسين (ع) إلى الدار عندما كان

الرسول (ص) نائما ، وما إن جلس حتى قال الرسول الأكرم (ص) : يا عائشة إن الحسين هذا سيُقتل في كربلاء ، فمن زاره أو سعى بقدم إليه كان له ثواب حج وعمرة .

فقلت : يا رسول الله ثواب حجة واحدة وعمرة واحدة ؟ فقال : ثواب حجتين وعمرتين ، وكنت كلما تعجبت زاد الرسول (ص) في الثواب حتى بلغ به الأمر أن يقول تسعين حجة وتسعين عمرة[١] .

يقول أحد العلماء الأجلّاء بصدد تلك الزيادة في الثواب لقدم واحدة صوب زيارة أبي عبد الله الحسين (ع) : إن كل ذلك الثواب وكل ذلك الترغيب من أجل أن يزيد المسلمون في علائقهم وروابطهم بأئمتهم لكي تضطرم في قلوبهم المحبة والمودة لآل بيت محمد (ص) .

وما الجلسات والمجالس الحسينية والمآتم التي تقام على أرواح الأئمة الطاهرين ـ سلام الله عليهم ـ إلا لهذا الغرض ، حيث يتوقف العقل عن العمل لتمارس العواطف سيرها إلى عالم العشق وعالم الملكوت .

وهذا ما لا يتأتّى لأولئك الماديون حتى ولو كانت اختصاصاتهم في علم الفيزياء أو الكيمياء ونحوها ، فالمادي محدود التفكير ، ولا يمكن لفكره أن يتعدى عالم المادة المغلق على العكس من أولئك المحبين للحسين وأصحاب الحسين ، فهم يحلّقون بأرواحهم دون أجسادهم إلى عوالم أبعد من هذه المنظورة .

ومن أجل صفاء الروح وارتباطها بأوليائها من أئمة أهل البيت (ع) أعد الباري ثواباً جزيلاً وأجراً وفيراً لذلك الذي تمكنت منه محبة أهل البيت فأحالته إلى إنسان فضفاض تسيطر عليه مناهج أهل البيت النبوي وأخلاقهم السامية ، وأفعالهم التي بها يشفعون لمواليهم بإذن الله تعالى .

إن الذي يرتبط بأهل البيت (ع) من خلال زياراته الكثيرة لهم ، يبتهج في أيام ولاداتهم ، ويحزن في أيام شهاداتهم لشعور بأنه يعيش معهم في مثلهم

---

(١) ثواب الأعمال/باب زيارة الحسين (ع) .

وأخلاقهم وسلوكهم ، فيبكي عليهم عندما يتذكر الطرق اللئيمة التي قتلوا بها ، ويحزن عندما يتذكر الظلم الذي مورس بحقهم حقداً وحسداً .

يقول الإمام علي بن موسى الرضا (ع) : « من بكى ، أو أبكى ، أو تباكى على الحسين (ع) وجبت له الجنة »[1] .

لِـمَ هذا الثواب الجزيل ؟ إنه من أجل أن يرتبط المسلم بأئمته الكرام ؛ وإذا ارتبط المسلم حاول التشبُّه بهم وتقليدهم ، وعند ذاك يحصل الانجذاب إليهم ، والامتثال لأوامرهم ونواهيهم التي هي أوامر الله ونواهيه .

إن مثل الإنسان في حمله لجذور المودة لأهل بيت النبي (ص) ، كمثل الجبل الحاوي على مناجم الذهب في قلبه .

وإخراج الذهب من قلب الجبل يحتاج إلى حرارة عالية تصنعها نيران شديدة ليتمكن الإنسان من استخراج الذهب من تلك المناجم التي تكمن في قلب الجبل ؛ وحب أهل البيت في قلب الإنسان يحتاج هو الآخر إلى عامل مساعد لكي يؤجِّجه ويخرجه من مكمنه الساكن إلى عالم الحركة .

وإذا طالعنا صفحات التاريخ لشاهدنا كيف كان الإمام جعفر بن محمد الصادق (ع) يثير حماسة الشعراء من أمثال « الكميت » و « دعبل الخزاعي » لكي يقولوا شعراً بحب أهل البيت ـ عليهم السّلام ـ فيتخذه سبيلاً لتشكيل المجالس الحسينية التي كانت وما زالت مدارس عشق وودٍّ لآل محمد (ص) .

وبناءً على ما تقدم ، فإن أفضل السبل ، لأن يكون الإنسان محباً لأهل بيت الرسول (ص) هو المواظبة على زيارتهم ، لكي يقوِّي أواصر الروابط معهم ، فلا تثريب على الإنسان إذا قرأ الزيارة الجامعة على سبيل المثال كل صباح قبل خروجه من منزله ، أو فعل ذلك ليلاً قبل الهجوع إلى فراش النوم ولا يتصور أحدكم أن هذه خرافة ، لا ، فإنها والله لتشدُّ المسلم إلى أهل بيت نبيه ـ عليهم السّلام ـ وتؤجج فيه روح المثل والأخلاق الفاضلة التي كان يلتزمها أهل

---

(١) ميزان الحكمة/باب ٢٧٣٧ : « إن كنت باكياً لشيء » .

البيت النبوي الشريف ، ليتجرد من المعاني المتدنية والوضيعة التي تنكّر لها هؤلاء الآل الكرام .

إن البعض - مع الأسف - يرى في تقبيل قبر النبي شركاً وضياعاً ، ولا يعلم أن هذا التقبيل له جذور في النفوس المحبة لحملة راية الإسلام العظيم حيث لاحظنا ذلك من خلال زيارتنا لقبر الرسول الكريم (ص) .

إنهم تركوا مذهب أهل البيت النبوي الشريف ، وأداروا له ظهورهم ليتمسكوا بآل ابن تيمية الذي قال بشرك من يسجد على تربة أبي عبد الله الحسين (ع) الطاهرة حين يقوم لله في صلاة واجبة أو مستحبة إنه لم يعرف قدر الإمامة ومحلها من الأمة .

إن الله جلّ وعلا لم يقبض نبيَّه (ص) حتى أكمل له الدين ، وأمر الإمامة من تمام الدين ، ولم يمض (ص) حتى بيَّن لأمته معالم دينهم ، وأوضح لهم سبيلهم وأقام لهم عليّاً (ع) علماً وإماماً .

إن الإمامة أجلُّ قدراً ، وأعظم شأناً ، وأعلى مكاناً ، وأبعد من أن يبلغها الناس بعقولهم ، أو ينالوها بآرائهم ، أو يقيموا إماماً باختيارهم ، إنها خلافة الله وخلافة الرسول (ص) ومقام أمير المؤمنين علي (ع) وميراث الحسن والحسين - عليهم السّلام - والأئمة التسعة من ولد الحسين - سلام الله عليهم أجمعين - .

فأئمة أهل بيت محمد (ص) هم أمناء الله في خلقه ، وحججه على عباده ، وخلفاؤه في بلاده ، والدعاة إلى الله ، والذابّون عن حرم الله ، فهم مطهرون من الذنوب ، مبرؤون من العيوب ، إنهم نظام الدين ، وعزّ المسلمين ، فمن أراد عزّاً فليتبعهم ، ومن أراد ذلاًّ فليتنحَّ عنهم .

أما بالنسبة للطريق العلمي الموصل إلى محبة أهل البيت - عليهم السّلام - فيمكننا أن نقول فيه : إن العلم إجمالاً يرتبط بالعقل ، أي إذا صدق العقل مسألةً سكن ، ولكنه لا يتأتى له أن يقنع القلب ليسكن هو الآخر ، وهذا ما يصطلح عليه بالإيمان (العلمي) أو (البرهاني) .

إن القلب البشري صدَّق بوجود الله تعالى واقتنع .

ومن هنا توصل إلى أن الله يراه دائماً ويحصي عليه أنفاسه .

وإذا أردنا أن نفرغ هذه العبارة في قالب عرفاني نقول : إن اقتناع القلب بوجود الباري تعالى في كل مكان وفي كل زمان يتشابه مع قلب ذلك الإنسان الذي روى بعد أن كان ظامئاً ، فأدرك بعد ذلك قيمة الرواء ؛ وكذا القلب إذا ارتوى صار يرى الله ويدرك وجوده .

إن للإمام الحسين (ع) جملةً قالها في دعاء عرفة ، وهي عينها ما قاله الإمام علي (ع) ، وقد نقلها البعض عن العديد من الأئمة الطاهرين وهي : « عميت عين لا تراك » أي خسئت فطرةٌ ماتت ولم تدرك الله تعالى .

إن الإمام الحسين (ع) يدلِّل بهذه الجملة على أن الإيمان العاطفي يتناغم مع الإدراك الفطري . وهذا ما لا يرتبط بالعلم ، أي أن برهان النظم لا يمكن أن يوجد حالةً في الإنسان هكذا ، وأن أسفار ملأ صدرا وفصوص الحكم لا يتأتّى لها أيضاً ايجاد حالة مثل هذه ، وكذا الأمر بالنسبة للكتب العقيدية القديمة والحديثة .

فما الشيء الذي يمكن أن يعطي الإنسان تلك الحالة ؟ .

إنه الارتباط بالله فقط .

إنها صلاة الليل ، والصلاة في أوقاتها ، فعندما يمر الوقت على الفريضة ويشعر الإنسان بتلاطم باطنه ، خوفاً من عدم تأدية واجبه الملقى على عاتقه ، تظهر تلك الحالة جليةً واضحة ، وهو ما نراه في الذكر ، ذكر الله في الأدعية وفي أعماق الليل .

يقول القرآن الكريم : إن هذه الحالة ، أي الإيمان العاطفي ، والإدراك الفطري ، أو الوعي الفطري ، مرهون بالارتباط بالله ﴿ ألا بِذكرِ اللّهِ تطمئنُّ القلوبُ ﴾(١) .

فمن أراد أن يصدِّق قلبه ويطمئنَّ ، فعليه أن يذكر الله كثيراً .

---

(١) سورة الأنبياء، الآية ٢٦ .

إن الكتب الفلسفية والعرفانية ، وكتب الأصول والفقه وما إلى ذلك لا يمكنها أن تعطي الإنسان ذلك الاطمئنان والتصديق .

إن أصل هذه العبارة هو « ألا تطمئنّ القلوب بذكر الله » ؛ ولكن ما حصل هو « تقدم ما حقه التأخير ، وذلك يفيد الحصر » .

ومن هـذا نفهم وجود تـوكيدين يفيـدان الحصر : الأول : « ألا » ، والثاني تقدم الجار والمجرور « بذكر الله » .

ومثل ذاك ينطبق أيضاً على مسألة الإمامة ، فمن أراد لقلبه الاطمئنان في مسألة الإمامة ، فعليه أن يجدَّ في توطيد علاقته مع الباري تعالى فكلما أحكم الفرد علاقته مع الله زاد إيمانه .

ومن أراد لقلبه نوراً حقيقياً يستطيع به رؤية عوالم غير التي تراها العيون أحكم روابطه مع الباري تعالى لأن القلب مكان الله .

وما جاء في الحديث القدسي يؤكد ذلك : « لا يسعني أرضي ولا سمائي ولكن يسعني قلب عبدي المؤمن »[١] ، « قلب المؤمن عرش الله »[٢] ، أي أن على المؤمن أن يعمل شيئاً ليشعر بحكم الله على قلبه ، يشعر بولاية الله على ما بين جوانحه ﴿ اللَّهُ وليُّ الذينَ يخرجهُم منَ الظلماتِ إلى النورِ ﴾[٣] .

أما الذين تنصلوا من الارتباط بالله سبحانه وتعالى فقد فسحوا المجال لأن يحكم الطاغوت قلوبهم ، ويكون بذلك وليّاً لهم ﴿ والـذينَ كفرُوا أوليـاؤهُم الطاغوتُ يخرجونَهُم منَ النورِ إلى الظلماتِ ﴾[٤] .

وعند خروج النـور من القلب تخرج معـه حالـة الاطمئنان والسكـون ، والتصديق ، لتدخل مكانها حالة الريبة والاضطراب وحب الـذات والأموال ، وكلها حالات غير طبيعية ، بـل خارجـة عن الاعتدال ، وحينمـا خرجت عن

---

(١) المحاسن/ص ٢٤٢ .
(٢) تفسير العياشي/ج ١ ، ص ٥ .
(٣) سورة الرعد، الآية ٢٨ .
(٤) سورة البقرة، الآية ٢٥٧ .

الاعتدال أصابت بخروجها العقل الإنساني في الصميم فمنعته من إدراك واقعيات الحياة .

إن انحطاط الأفراد ورقيّهم يرتبط بمكانتهم الروحية وأخلاقيتهم ارتباطاً مباشراً ، فالقلوب التي خلت من الاطمئنان وامتلأت بالظلمة لا يمكن أن تصدِّق شيئاً ولو قطعت إرباً إرباً ﴿ لا يزالُ بنيانهُم الذي بَنَوا ريبةً في قلوبِهم إلاّ أنْ تقطَّعَ قلوبُهم ﴾[1] ، فالذي يرغب في أن يكون قلبه مطمئناً لوجود الله ووجود الرسول (ص) ، ينبغي له أن يمعن النظر في كتاب الله العزيز وسيرى بنفسه المنطق الخاص لهذا الكتاب السماوي ، وسيدرك بنفسه ـ من خلال الحوادث الموجودة فيه ـ إعجازه .

وعندَ ذاك سيتعلق به شيئاً فشيئاً ﴿ قدْ جاءكُم منَ اللّهِ نورٌ وكتابٌ مبينٌ ، يهدِي بهِ اللّهُ منِ اتَّبعَ رضوانَهُ سُبلَ السلامِ ﴾[2] .

وبالإدراك الذي يحصل بعد أن يطمئنَّ القلب البشري ستحصل محبة الرسول الأكرم (ص) والذي جاء بهذا الكتاب العظيم بعد أن أنزله الباري عليه وما إن يطمئن القلب ، إلى أن هذا القرآن هو من عند الله حتى لكأنك لا ترى لعين هذا الإنسان المالك لذلك القلب أغماضاً ولو للحظة واحدة ما دام القرآن المجيد معه في حجرة واحدة ؛ وهذا ما حصل فعلاً لأحد الأجلّاء ، حين نزل ضيفاً على رفيق له ، فأنزله في حجرة فيها قرآن كريم ، فلم يغمض له جفن حتى الصباح حياءً من كتاب الله ، وبات ليلته تلك جالساً جلسة العبيد إزاء الكتاب . وقد يصل الإنسان إلى أكثر من ذلك ، فيقول البروجردي ـ رحمة الله عليه ـ نقلاً عن المرحوم ميرزا عبد المعالي ـ أحد فقهاء أصفهان ـ إنه قال : لو أن حجرة من الحجرات كان فيها قلم كتبت فيه رواية من روايات أهل بيت محمد (ص) لمنعني ذلك القلم من النوم في تلك الحجرة خجلاً وحياءً » .

إنه حب أهل بيت رسول الله (ص) هو الذي يمنع ، لا القلم ، فمن أحبَّ

---

(١) سورة التوبة، الآية ١١٠ .

(٢) سورة المائدة، الآيتان ١٥ و ١٦ .

أهل البيت لا يتأتى له أن يغتاب أحداً ، ومن أحب أمير المؤمنين (ع) ترك سماع الغيبة التي يمكن أن تمسَّ أحد أصحاب الإمام علي (ع) ، ومن لا يعرف حب أمير المؤمنين (ع) اتّهم أصحابه وأحبابه ومريديه بأتفه التهم ، ومن أحب الإمام الحسين (ع) ابتعد عن المعاصي ، وإلا لم يعد ذلك حباً ، فالمحب يتبع أخلاق حبيبه .

ومن أحب الحسين أحب مريديه ، ومحبيه ، وزواره .

ومن أحب إمام العصر والزمان المهدي المنتظر (عج) ترك الغش والاحتكار ، ولا معنى أن يحب أحدهم الإمام المهدي (ع) ولا يلتزم ما يأمر به ، إنها لمخاتلة وخدعة ونفاق .

فالإسلام الذي يقرّه الأئمة الأطهار ويعترفون به هو ذلك الذي يقول إن المسلم ينبغي له التسليم ، وأن يسلم الناس من يده ولسانه ، بعيداً عن الازدواجية . وقد يكون أحدهم مسلماً بنظر العقل لتمكنه من إثبات وجود الله سبحانه وتعالى وصحة الرسالة والرسول ، بالرغم من عدم انسجامه مع المسلمين الحقيقيين ، ولكنه لا يعد مؤمناً يستحق جنة المأوى لكونه يدَّعي الإسلام ولا يلتزم ما جاء به من أوامر ونواه تسمو بالفرد إلى حيث لا يدرك ذلك إلا الله تعالى .

إن من عرف الأئمة الطاهرين من أهل بيت رسول الله (ص) ، ابتعد كثيراً عن مسارات الضلالة والانحراف ، لأن هذه المعرفة تشدُّه إلى الارتباط بالله الواحد الأحد بشكل يجعله لا يتجاوز على الأحكام الإلٓهية ما عاش في هذه الدنيا الدنيّة .

ومعرفة الأئمة لا تعني بالضرورة تعرف علم الأئمة ، بل تعرف ما كان يقوم به الأئمة من أعمال وأفعال ترقى بهم إلى أعلى مراتب الجنان .

ومن لم يتعرف أئمة أهل البيت ضلَّ عن دينه إلى مسار غير المسار الذي أراده الباري لعباده ، وإلى طريق غير طريق الرسول (ص) السويِّ .

وهذا ما نعرفه من الدعاء الذي يقرأ في زمان الغيبة :

« اللهمَّ عرفني نفسك ، فإنك إن لم تعرفني نفسك لم أعرف رسولك .

اللهمَّ عرفني رسولك ، فإنك إن لم تعرفني رسولك ، لم أعرف حجتك ، اللهمَّ عرفني حجتك فإنك إن لم تعرفني حجتك ، ضللت عن ديني » .

إن المعاني السامية والدقيقة التي يحملها هذا الدعاء العجيب يتطرق إلى مسألة طبيعية جداً ، لأن الإنسان إذا لم يتعرف الإمامة التي هي امتداد للنبوَّة والنبوّة التي بدورها خلافة لله تعالى ضلَّ عن دينه وهوى في مستنقع الانحراف والانحطاط ؛ فمن لا إمامة له ، لا دين له .

والجدير بالذكر أن ما جاء في هذا الدعاء : « اللهمَّ عرفني نفسك » ولم يقل « اللهمَّ علمني نفسك » بالرغم من أن كسب علم الأئمة والنبوة والقرآن يحيل الإنسان إلى عالم بالله ، وهذا هو الطريق الطبيعي لعلم الله ؛ ولكن كلمة « عرفني » تجرُّنا إلى سؤال هو : ما هو طريق المعرفة ؟ .

إنه طريق الإيمان الوجداني الذي يؤدي إلى تصديق القلب .

فالمعرفة تؤدي إلى الارتباط بالله ، وإلى دخول نوره في القلب .

وعندما يستقر نوره تعالى في القلب البشري يتأتّى لصاحب هذا القلب أن يدرك النبوة ، ويدرك القرآن ونوره الذي يجلو العمى عن العيون : ﴿ ألم ، ذلكَ الكتابُ لا ريبَ فيهِ هدًى للمتقينَ ﴾[1] .

لقد أعطى النبيُّ الأكرم (ص) معرفة النفس أهمية فائقة ، وجعلها سبيل معرفة الله فقال : « من عرف نفسه فقد عرف ربه »[2] ، وقد نقلت روايات كثيرة عن أمير المؤمنين (ع) بهذا الصدد ، نقل منها المرحوم (الآمدي) حوالي (٣٠) روايةً في كتابه « غرر الحكم » ومنها هذه الكلمات القصار :

معرفة النفس أنفع المعارف .
عجبت لمن ينشد ضالَّته وقد أضلَّ نفسه فلا يطلبها .
عجبت لمن يجهل نفسه كيف يعرف ربَّه .

---

(١) سورة البقرة، الآية ١ .

(٢) مستدرك الوسائل/ج ٢ ، ص ٣١٠ .

غاية المعرفة أن يعرف المرء نفسه .

الفوز الأكبر من ظفر بمعرفة النفس .

فالذي يريد تعرف ربه ، عليه أولاً أن يتعرَّف نفسَه ، ثم يحكم ارتباطه بالله ، هذا فيما إذا أراد المرء أن يوجد محبة الله في نفسه ، وكذا الأمر بالنسبة لذاك الذي يريد معرفة القرآن والنبي الأكرم (ص) عليه تحكيم روابطه مع الله باجتناب المعاصي لتخرج محبة الأوثان من قلبه .

وبخروج الأوثان من القلوب تأتي محبة الله لتستقر مكان تلك الأوثان المطرودة .

فاجتناب المعاصي والانتهاء عنها ، يقرب المرء من محبة الرسول (ص) ومحبة أهل بيته ـ عليهم السّلام ـ ومن توغَّل في المعاصي تنكَّر لمحبة الرسول الأكرم (ص) وتنكر لمحبة أهل بيته ـ عليهم السّلام ـ وذلك لعدم انسجام المعاصي والمآثم مع المحبة التي يمكن أن تستقر في القلب ، فإن طهُر القلب من الإدران والمعاصي ، تمكنت المحبة من دخوله .

وهذا لا يتأتّى إلاّ إذا انتهى المرء عن ممارسة المعاصي ، وأحكم المرء علاقاته وروابطه مع بارئه وخالقه حينها يستطيع إيراد المحبة إلى قلبه ، محبة القرآن ، محبة الطاعات ، محبة الخير ، محبة أهل البيت (ع) والذين هم أساس كل خير في هذه الدنيا .

[٤]
محبّة أهل البيت عليهم السّلام

إن ما استفدناه من البحوث السابقة هو : وجوب محبة أهل بيت رسول الله (ص) : ﴿**قلْ لا أسألكُم عليهِ أجراً إلاَّ المودةً فِي القربى**﴾ .

هذا ما جاء به القرآن الكريم .

أمَّا الروايات المتواترة ، فقد عدَّت الولاية من أهم الواجبات التي أمرنا بها المولى الكريم جلَّ وعلا .

وقد أسلفنا وقلنا : ما العمل للوصول إلى محبة أهل بيت الرسول (ص) ؟ لكون محبتهم أمراً قهرياً ، وأجبنا عن ذلك بالقول : من كان مرتبطاً بفرد يتحدث إليه كل يوم ، ويتذكر أعماله وأفعاله الجميلة سيؤول يوماً إلى محبته شاء أم أبى .

إن المحبة والود صفة إنسانية محمودة ، نراها في البعض ، ويفتقدها البعض ، فإذا رغبنا في وجود المحبة سعينا إلى مقدماتها ، وإن لمحبة أهل البيت طريقين ؛ الأول : تحكيم الروابط مع الباري تعالى من خلال الاهتمام بالواجبات والفرائض ، والامتناع عن المعاصي والآثام ، إضافةً إلى العمل بالمستحبات بشكل لا يؤثر سلباً في أعمالنا ؛ وقد كان أمير المؤمنين علي (ع) لنا قدوةً وأسوةً في هذا الأمر ، فقد استطاع تحكيم روابطه مع بارئه وخالقه إضافةً إلى علاقته ومحبته مع رسول الله (ص) حتى بلغت تلك المحبة لله وللرسول (ص) درجة جعلته يقول : « والله لأن أبيت على حسك السعدان مسهداً ، أو أجر في الأغلال مصفداً ، أحب إليَّ من أن ألقى الله ورسوله يوم

القيامة ظالماً لبعض العباد ، وغاصباً لشيء من الحطام ، وكيف أظلم أحداً لنفسي يسرع إلى البلى قفولها ، ويطول في الثرى حلولها ؟!»[1] .

فالمحبة والمودة لله ولرسوله ولأهل بيت الرسول (ص) تمنع الإنسان عن ممارسة المعاصي وتحيله إلى إنسان ملتزم بأوامر الله ورسوله (ص) .

أما بالنسبة للطريق الثاني الذي عرضنا له فيما سبق فهو زيارة أهل البيت (ع) لأنها توجد في قلب الزائر عناصر جاذبة إليهم تنبعث من قراءة الزيارات التي وردتنا عنهم ـ عليهم السّلام ـ .

إن هذين الطريقين هما من الطرق العرفانية ، ويمكن احتسابهما طرقاً عملية للحظوة بمحبة أهل بيت الرسول (ص) ، وقد يأتي العمل بالإيمان الوجداني حيناً ، وحيناً آخر يأتي بالإيمان القلبي .

إن أفضل الطرق لإقناع القلب بوجود الله والمعاد هو الطريق العملي ، وليس العلمي ، وإن العمل يدلنا أيضاً على طرق العرفان .

وبالطريق العملي نتمكن من لف القلب بمحبة أهل البيت (ع) إضافةً إلى ترسيخ الاعتقاد بهم ـ عليهم السّلام ـ .

أما بالنسبة للطريق العلمي ، فهو الآخر له طريقان حاله حال العقائد التي تمتلك هي الأخرى طريقين .

ومن خلال هذين الطريقين يحصل الاعتقاد بالله وبالمعاد وبالنبوة وبالإمامة وبالصفات الربوبية .

وإن أحد هذين الطريقين علمي ـ أي ما يمثله برهان الحدوث وبرهان الصدّيقين ، وبرهان النظم لإثبات وجود الله تعالى أو يمكن إثبات ذلك بطريق البرهان أو الفلسفة (الحركة الجوهرية للملاّ صدرا) التي استخدمها لإثبات المعاد .

إن هذا الطريق يرتبط بالعقل ، ويمكن له أن يسكت العقل ويقنعه ، مع

---

(١) نهج البلاغة/صبحي الصالح ، ص ٣٤٦ .

احتمال عدم إمكانية إقناع القلب ، أو تصديق القلب لذلك .

هذا ما اصطلحنا عليه بالطريق العلمي .

أما العملي ، فهو الذي يمكن أن يوصلنا إلى ما نريد بطريق الالتزام بممارسة صلاة الليل التي توصلنا بدورها إلى العرفان بالله تعالى .

إن قراءة القرآن والتمعّن في آياته ، والتوسل بالله بواسطة الأدعية المأثورة ، وخدمة خلق الله يمكن أن يوصلنا إلى العرفان ، وعندها يصدق القلب ويقتنع بوجود الله تعالى وبوجود المعاد الذي لا بد منه .

إن بحثنا بشكل إجمالي يدور حول محور المحبة ، وكيفية ترسيخها في القلب ، وقد عرضنا إلى طريقة العمل التي تتشعب إلى طريقين ، وسنعرض للطريق الآخر ، وهو الطريق العلمي في ما سيأتي من سطور .

وللطريق العلمي شعبتان أيضاً أو طريقان ؛ الطريق الأول : مطالعة الكتب التي تعرض لسيرة أهل البيت (ع) وسلوكهم وتعاملهم مع الآخرين ، فهذه المطالعة ستجرُّنا حتماً إلى محبتهم ـ عليهم السّلام ـ شئنا ذلك أم أبينا ، وقد نرى حبَّ البعض لأهل البيت على الرغم من أنه يظهر العداوة والبغضاء لهم ، وما إظهاره ذلك لهم إلا لعناد فيه أو عصبية أو طلب سلطة ورئاسة .

وينقل لنا التاريخ حديث معاوية الذي كان محارباً لأمير المؤمنين (ع) حين نقل إليه خبر شهادة أمير المؤمنين علي (ع) فقام وقعد وقام أخرى دون أن يشعر بذلك مردداً الله أكبر ، الله أكبر ليقول بعد ذلك : مات ذلك الأسد الذي كانت الميادين استراحةً له ، فشاء معاوية أم أبى ، فإن الدرَّ الوجودي لعلي (ع) موجود في كوامنه ، ومن وجد فيه ذلك أحب علياً رغماً عنه .

جاء إلى معاوية أحد البسطاء ليقول له : جئت من أبخل الناس إليك يا أكرم الخلق كيما أتزود بزاد الحياة الدنيا .

فسأله معاوية : من هو أبخل الناس يا هذا ؟ .

فقال : علي ! .

فقال معاوية : قل شيئاً يمكن أن يكون مقبولاً ؛ ولو كان لعليٍّ جبلان

أحدهما من تبر والآخر من تبن ، لأنفق الذي كان من تبر قبل حلول المساء في سبيل الله ليعود على ذلك الذي هو من تبن فلا يبقي عليه .

قال عبد الله بن الأزرق الشيباني بعد دفن الإمام علي (ع) بليلة ، ذهبت إلى معاوية لأنزل عليه ضيفاً ، وكان الوقت عشاءً ، وما إن جلست حتى قدَّم معاوية طعامه الخاص إليّ قائلاً : إنني أتناول من هذا الطعام كل ليلة ، وأما الليلة فهو لك .

قال ابن الأزرق : تناولت لقمة منه ، ولشدّة لذّتها لم أتمكن من تمريرها إلى معدتي لأني لم أتعوَّد طعاماً لذيذاً ، مثل ما قدَّمه لي ، فبكيت .

فسألني معاوية : لِمَ بكاؤك هذا ؟ .

فقلت : تذكرت ما يبعثني على البكاء ! كنت في أحد الأيام في دار الإمارة عند أمير المؤمنين علي (ع) ، وكان الوقت قد قارب على الإفطار ، فمدت لي مائدة لأُجالس عليها أمير المؤمنين (ع) ، فوضع مقداراً من الخبز واللبن ، ووضع بين يدي أمير المؤمنين (ع) صحن فيه ماء ، وجيء بكيس فتحه ليخرج منه كسراً من خبز شعير بعث إليه من حاصل أرضه التي زرعها شعيراً بنفسه ، وكان الخبز ذاك يابساً كيما لا يتلف .

أما ما أراه الآن ، فهو طعام معاوية الذي عجن بالجوز واللوز ، وبأدمغة الخراف وما شابه ذلك .

يا معاوية : إذا كان عليٌّ ذاك خليفةً لرسول الله ، فمن تكون أنت ؟ وإذا كنتَ أنتَ الخليفة ، فمن يكون عليٌّ ذاك ؟ .

قال ابن الأزرق : شرع معاوية بالبكاء ، وقال : إنك ذكرت من لم تلد أمةٌ مثله ، ومن لم يأت مثله إلى الدنيا ولن يأتي .

كثيرة هي الحكايات والروايات التي تحدثت عن بكاء أعداء علي (ع) وإطرائهم عليه في حواشيهم أو خواصهم . فمن عرف ذلك الدرَّ الثمين ، لا يتأتى له أن يقف حائلاً دون توغّل محبته في قلبه ، حتى لو شوهد من ذلك الشخص عناد وحسد وغائلة لشخص علي الدر (ع) .

فمطالعة الكتب ـ كتب السيرة بالخصوص ـ التي تعنى بسيرة أهل بيت محمد (ص) تجعل المطالع يشاهد بأمٍّ عينه فضائل ومناقب هذه العترة الطاهرة ، وسيرى قلبه يميل بكله إليهم ، لأنهم أهل لذلك ، ولأن الرسول (ص) أوصى بذلك ، ولأن الله أوصى رسوله الأمين بذلك ، قال رسول الله (ص) : « الزموا مودَّتنا أهل البيت ، فإنه من لقي الله وهو يحبنا دخل الجنة بشفاعتنا ، والذي نفسي بيده لا ينتفع عبد بعمله إلا بمعرفتنا »(1) .

قال رسول الله (ص) : « ما بال أقوام من أمتي إذا ذكر عندهم إبراهيم وآل إبراهيم استبشرت قلوبهم ، وتهللت وجوههم ، وإذا ذكرت وأهل بيتي اشمأزَّت قلوبهم وكلحت وجوههم ؟ .

والذي بعثني بالحق نبياً لو أن رجلاً لقي الله بعمل سبعين نبياً ثم لم يأت بولاية وليّ الأمر من أهل البيت (ع) ما قبِلَ الله منه صرفاً ولا عدلاً »(2) .

جاء عن رسول الله (ص) أنه قال : « والذي نفسي بيده لا يبغضنا أهل البيت أحد إلا أكبه الله على وجهه في نار جهنم »(3) .

لقد جاء في القرآن الكريم (٣٠٠) آية بحق أهل بيت رسول الله (ص) فمن قرأ تفسيرها رقَّ قلبه وجفا عن قسوته ، وطمع في محبة أهل بيته ـ صلوات الله عليه ـ ومن أمعن النظر في حالات أمير المؤمنين الكثيرة والمترامية في كتب العدو والصديق لامتلأ قلبه بالود والحب والإجلال لهذا الرجل الذي بذل عمره في سبيل إعلاء كلمة الله ، وفي سبيل خدمة رسول الله (ص) وخدمة خلق الله سبحانه وتعالى .

وقد يرى البعض منا إجلالاً وإكباراً ومحبةً من غير المسلمين لأهل البيت النبوي الشريف .

إن ذلك الحبَّ والودَّ والإجلال هو نتيجة لمتابعة المثقفين منهم لسيرة أهل

---

(١) أمالي الشيخ المفيد/ص ٣٥ .
(٢) أمالي الشيخ المفيد/ص ٧٥ .
(٣) أمالي الشيخ المفيد/ص ١٣٤ .

البيت (ع) ولمناقبهم ، وفضائلهم ، من خلال مطالعة الكتب التي تهتم وتعنى بتلك السيرة السوية .

قال جرداق بصدد أمير المؤمنين (ع) في كتابه الموسوم بـ « صوت العدالة الإنسانية » : إذا أردت تحريك ماء في حوض صغير تمكنت من ذلك بمد يدك فيه لكي يتلاطم الماء ، وذلك لا يكون فيما إذا كان الماء محصوراً في حوض سباحة .

ويمكن ذلك إذا رميت بحجر متوسط الحجم في ذلك الحوض .

ولكن الأمر يختلف مع بحيرة صغيرة إذ لا يمكن جعل مائها متلاطماً إلا إذا رميت فيها جبلاً ، ولا يكون ذلك مع المحيط إلا إذا رميت فيه إحدى كرات المنظومة الشمسية ، وخلاصة القول : إن في هذا العالم مياهاً كثيرة يمكن أن نجعلها متلاطمة ، ولكني أعرف بحراً لا يمكن فعل ذلك معه إلا بشيء واحد ، بـ « آه المظلوم » يمكن تحريكه وتهييجه ؛ إنه أمير المؤمنين علي (ع) ، لم تتمكن منه الغرائز ، ولم تستطع الرغبات تحريكه ، ولكن تأوُّه فتاة يهودية لجأت إلى الإسلام ، وظلمَها بعضهم جعل من نفس علي (ع) كالأمواج المستفحلة ، ولجج البحر الزاخرة ، تلتطم أواذي أمواجها ، وترغو زبداً كالفحول عند هياجها ، وحينها قال : « ولقد بلغني أن الرجل منهم كان يدخل على المرأة المسلمة ، والأخرى المعاهدة فينتزع حجلها ، وقلبها وقلائدها ورعثها ، ما تمتنع منه إلا بالاسترجاع والاسترحام . . »[1] .

هناك أشياء أخرى لم يتعرض لها الأستاذ جرداق بحق علي (ع) وهي : أن حب الرئاسة ، وحب الأكل والشراب لم يتمكنا من علي (ع) ولم تتمكن أي رغبة أو غريزة من إيجاد تلاطم في تلك النفس التي هي أكبر وأسمى من أن تهزها جبال الذهب .

فكيف بها وهي ترى الرغبات والشهوات تنزُّلاً وتسافلاً ؟ .

إن الخوف من الله وحده جعل عليّاً يتململ كتململ السليم يقول : « آه

(١) نهج البلاغة/صبحي الصالح ، ص ٦٩ .

من قلة الزاد ، وبعد السفر ، ووحشة الطريق »[1] .

جاء في أول كتاب جرداق عدة أبيات شعرية في مدح علي (ع) قالها في حقه أحد البابوات ، والجدير بالذكر أن البابا الشاعر ذاك كتب يقول :

« لو سألني البعض عن سبب مدحي لأمير المؤمنين (ع) لأجبته بأنني عاشق للفضيلة ، ومن كانت له فضائل سأقول فيه شعراً ، ولقد تحرّيت هنا وهناك بحثاً عن الفضيلة فاهتديت إلى نبعها الصافي الذي هو علي (ع) ، فكل فضيلة أبحث عنها فيه ، ولذا عشقت علياً ، وقلت فيه شعراً .

حينما يكون النصراني جرداق عاشقاً لعلي (ع) ، وكذا ابن أبي الحديد المعتزلي من خلال مطالعتهما لسيرة ذلك الفحل الذي اجتمعت فيه الأضداد ، ستكون أنت كذلك محباً وعاشقاً لعلي (ع) ومتبهجاً لنهجه ـ سلام الله عليه ـ بمطالعتك لسيرته التي حارت بها العقول ، وتاهت في زواياها القلوب ، وكلما اطلع الفرد على سجيّة خفيّة من سجايا علي (ع) ازداد له حبّاً وإعجاباً .

روي عن الإمام جعفر بن محمد الصادق (ع) ، أنه سئل عن قوله عزّ وجلّ : ﴿ اللّهُ نورُ السمواتِ والأرضِ ، مثلُ نورِهِ كمشكوةٍ فيها مصباحٌ ﴾[2] فقال : هو مثل ضربه الله لنا ، فالنبي (ص) والأئمة ـ صلوات الله عليهم أجمعين ـ من دلالات الله ، وآياته التي يُهتدى بها إلى التوحيد ومصالح الدين ، وشرائع الإسلام ، والفرائض والسنن »[3] .

وعن الإمام الباقر (ع) في تفسير الآية قال : فالمشكوة صدر نبي الله (ص) فيه المصباح ، والمصباح هو العلم في الزجاجة ، والزجاجة أمير المؤمنين (ع) ، وعلم النبي عنده »[4] .

وجاء في تفسير العياشي عن الإمام الصادق أنه قال في تفسير قوله تعالى :

---

(١) نهج البلاغة/صبحي الصالح ، ص ٤٨٠ ـ حكم ٧٦ .

(٢) سورة النور، الآية ٣٦ .

(٣) التوحيد/ص ١٥٧ .

(٤) التوحيد/ص ١٥٧ .

﴿ كشجرةٍ طيبةٍ ﴾[1] : رسول الله (ص) أصلها ، وأمير المؤمنين (ع) فرعها ، والأئمة من ذريتهما أغصانها ، وعلم الأئمة ثمرتها . . »[2] .

وجاء عن زرارة وحمران عن أبي جعفر ، وأبي عبد الله الإمام الباقر ، والإمام الصادق ـ عليهما السّلام ـ في قول الله : ﴿ ضربَ اللّهُ كلمةً طيبةً . . ﴾ قال : يعني النبي (ص) والأئمة من بعده هم الأصل الثابت والفرع والولاية لمن دخل فيها »[3] .

إن أحد الطرق العلمية للحظوة بمحبة أهل البيت (ع) هو قراءة الأدعية ومن خلال الدعاء نرى ولاية الأئمة التكوينية ، والمقام العلمي ، والمقام الملكوتي بالإضافة إلى كلماتهم التي تؤجج جذوة الحب الفطري لهم ـ سلام الله عليهم ـ .

إن بعض الروايات التي يمكن أن نشاهدها في بطون الكتب التي تتعلق بسيرة الأئمة الأطهار ـ عليهم السّلام ـ يمكن التعليق عليها بعشرات المجلدات ، فقد تكون الرواية مختصرة جداً ، ولكن مع كونها مختصرة تكون فيّاضة بعلم وعرفان قد يسع الدنيا بسمائها وأرضها .

فلو طالعنا وصية الإمام الحسن (ع) ، وهو يكاد أن يجيب ربَّه إلى جنة المأوى ، وقد يكون قد فارق الدنيا ليلتحق بالحبيب بعد ساعة من حديثه هذا الذي سنتطرق إليه :

يقول جنادة : دخلت على أبي محمد الحسن بن علي ـ عليهما السّلام ـ وهو ينازع في الروح ، فقلت له : أوصني يا ابن رسول الله (ص) .

وعند سماعه (ع) لهذه الكلمة تلألأ وجهه كالقمر الزاهر يريد التحدث إليّ .

ويذكر جنادة هذه القضية يريد القول بأن الإمام الحسن (ع) كان طبعه

---

(١) سورة إبراهيم، الآية ٢٤.

(٢) تفسير العياشي/ج ٢ ، ص ٢٢٤ ، مع اختلاف يسير في اللفظ .

(٣) تفسير العياشي/ج ٢ ، ص ٢٢٤ ، تفسير الميزان/ ج١٢ ، ص ٦٣ .

النُّصح ، وإبداء ما يذكِّر بالله العزيز المتعالي حتى وإن كان على فراش الموت .

يقول الميرزا الشيرازي ـ عليه الرحمة ـ: «كان مَن حوله يرغبون في أن يقول الإمام الحسن (ع) شيئاً وهو يوشك أن يكون مفارقهم ، أسبل عينيه لأمر الباري تعالى ، ولم يكن بعد قد فارق الحياة ، فحاول أصحابه أن يقول لهم شيئاً ، ولكنه لم يتفوَّه بكلمة ، فجاء أحدهم وقال : سأجعل الإمام (ع) يتحدث إليكم .

فقال : يا ابن رسول الله (ص) ما حكم من أكل ما احترق من الطعام ؟ ففتح الإمام (ع) عينيه وقال : لا ضرر في ذلك ، والضرر يكمن فيما تنجَّس وفيما خبُث ، فشرب الدم حرام لنجاسته ، ولخبثه ، وإن الطبع البشري ليتنفَّر منه . . »[1] .

إن الكثير من العلماء والأفاضل لا يتحدثون بشيء ، إلا إذا سألتهم مسألة علمية ، وعند ذاك فقد تتمكن من جرهم إلى حديث ، لكون العلماء في الأعم الأغلب عشّاقاً للفضيلة وللعلم والمتعلمين ، فهم لا يتحدثون بشيء إلا إذا كان محوره علماً ، ولا أعني هنا كلَّ علم ، بل أعني علم رسول الله (ص) وأئمة أهل بيته ـ سلام الله عليهم أجمعين ـ .

كم هو جميل جواب الإمام الحسن (ع) لجنادة حينما استنصحه فنصح لـه بكلام قليل،كثيرةٍ معانيه « يا جنادة استعد لسفرك وحصِّل زادك قبل حلول أجلك »[2] .

إن عبارة الإمام الحسن (ع) هذه تحمل في طيّاتها بعدين :

الأول : هو الاستعداد للآخرة من خلال استحصال الحسنات قبل حلول الأجل ، حينها لا يتأتّى له تحصيل شيء من ذلك .

والبعد الثاني : يكمن في أن الإنسان ينبغي له أن يفكِّر في آخرته وكأنما

---

(١) كنز العمال/ج ١٣ ، ص ٦٤٦ ، ٦٥٤ .

(٢) كنز العمال/ج ١٣ ، ص ٦٥٢.

الموت ملاقيه غداً ، ناهيك عن تحصيل معاشه في هذه الدنيا وكأنما سيعيش أبداً .

إن التفكير في أن الحياة مستمرة يمنع الإنسان من التسامح في بعض الأمور ، مما يؤدي إلى خلق اختلافات ومشاكل اجتماعية أو أسرية ؛ فعلى سبيل المثال : المعاصي التي يتمادى بها الإنسان ظناً منه بأنه سيخلَّد ، ومن ظن ذلك نسيَ الموت ، ومن نسيَ الموت ذهب عن فكره يوم القيامة وأهواله وكرباته .

إن الأئمة الطاهرين (ع) يشعرون المستمع إليهم حين يتحدثون ـ وهو الواقع ـ أن جملاتهم لا تتضارب مع آيات القرآن الكريم ، بل تتناغم معها وتنسجم ولا نقول : إن بعض الجمل من أحاديثهم تكون على هذه الكيفية ، بل نقول : إن كل جملاتهم وأحاديثهم ، فكلها مأخوذة من القرآن الكريم ، لكون آياته تجري في عروقهم ، فهم عدله ، وكفؤه ، وثقله .

يقول الإمام الحسن (ع) في جملته الثالثة من وصيته لجنادة : « يا جنادة من أراد عزاً بلا عشيرة ، وهيبةً بلا سلطان ، فليخرج من ذل معصية الله إلى عز طاعته »[1] ؛ فالعزَّة والهيبة أمران يرغب الكثير من الناس فيهما ، فترى مثلاً إحدى أمنيات الزوجة أن تكون حاكمة على قلب زوجها ، والرجل يتمنى أن يحظى بأبهة وهيبة في منزله ، وفي قلب وعين زوجته .

وبشكل عام يتمنى الإنسان أن يكون شخصية اجتماعية مرموقة يحسب لها العدو حساباً خاصاً و تجعل الصديق يتمسك بحبه لها .

وخلاصة القول : شخصية حاكمة على قلوب العدو والصديق والبعيد والقريب .

وهذا هو أحد المفاهيم النفسية التي ركز عليها الأئمة الأطهار ابتداءً من أمير المؤمنين حتى آخرهم ـ سلام الله عليهم ـ .

فمن أراد بلوغ العزة والهيبة ، فعليه أن يتجنب المعاصي والآثام ليدخل في

---

(١) كنز العمال/ج ١٣ ، ص ٦٥٢ .

عز طاعة العزيز القدير . فكلما وثّق الإنسان علاقاته وروابطه بالله تعالى تمكن من جلب قلوب الناس إليه ، وبذلك يحظى على مقام اجتماعي مرموق بينهم ، فهو عزيز ما دام مطيعاً لله ، وهذا ما أثبتته التجارب العملية المعاشة .

وكذا الأمر بالنسبة للفحم الموضوع على الجمر تراه يكتسب منه ليضحى هو الآخر جمراً فناراً مضيئة ، والمصباح المتصل بالنور يكتسب منه نوراً ؛ فمن أحكم ارتباطه بالله تعالى شعَّ نور الله في قلبه ، ليكون نورانياً بين الناس من خلال إشعاع نور الله في قلبه ، فترى الناس يعزُّونه ، ويهابونه ، ويحبُّونه وما تلك إلا من عز الله وجلاله ﴿ إنَّ الذينَ آمنُوا وعملُوا الصالحاتِ سيجعلُ لهمُ الرحمنُ ودّاً ﴾(١) .

إن هذه الجمل الثلاث التي قالها الإمام الحسن (ع) وهو على فراش الموت تشمل كل ما في هذه الحياة ، بالإضافة إلى شمولها جزءاً كبيراً من الحياة الأخرى ، ومن تعمّق في معانيها اشتعلت في صدره نار المحبة لذلك الإمام الهمام (ع) .

ومن هو ذلك الذي يقرأ سيرة ونهج وطريقة الإمام الحسن (ع) ولا يحبه ؟ .

جاء رجل شاميٌّ إلى المدينة ، وكان في قلبه بغضٌ لأهل بيت الرسول (ص) وعند مرور الإمام الحسن (ع) من أمام عينيه ، بدأ بالسبِّ والشتم ، وما إن سار الإمام الحسن (ع) ثانيةً قليلاً حتى كرر الشاميُّ سبابه وشتائمه ، وهناك دعا الإمام الحسن (ع) ذلك الشاميَّ إلى منزله ، ليكرمه ويطعمه ويقدم إليه حصاناً هديةً منه .

وعندها اعتراه الخجل والحياء وخرج من المدينة والحسن (ع) أحب الناس إليه بعد أن دخلها وهو كارهٌ له .

خلاصة بحثنا هي :

١ ـ تحكيم الارتباط بالله تعالى .

---

(١) سورة مريم، الآية ٩٦.

٢ ـ التردد على مزارات الأئمة الأطهار من أهل بيت الرسول (ص) ، والتوسل بهم عند الله تعالى ليحظى المرء بـهم القرب إلى محبتهم وودِّهم .
٣ ـ البحث والتنقيب عن آثارهم وأحاديثهم المدللة على نهجهم وسلوكهم .
٤ ـ التفاعل مع كلمات وأحاديث الأئمة الأطهار (ع) .

وأخيراً أوصي نفسي وإخواني بمطالعة كتاب « أصول الكافي » بجزئيه ، والحق يقال : إن هذا الكتاب مفيد جداً في تعود ما جاء في أحاديث أهل البيت النبوي الشريف ، فأحاديثهم نوعٌ من أنواع النور الإلهي الذي يخترق الحجب ليصل إلى القلوب فيهديها إلى سبل الصلاح ، ويجلو عنها ما علق بها من الأدران والأحزان والاضطراب والقلق ، بالإضافة إلى إدخال الودِّ والمحبة والصفاء إليها .

إلهي نوِّر قلوبنا بأحاديث أوليائك وعبادك أئمة الهدى وآل بيت المصطفى ، لنستمرّ في رغبتنا إليك ، ونجاهد في الوصول إليك . اللهمَّ إليك أفضت القلوب ، ومدَّت الأعناق ، وشخصت الأبصار .

اللهمَّ إنا نشكو إليك غيبة نبيِّنا ، وكثرة عدوِّنا وتشتُّت أهوائنا ، ربَّنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين .

[١]
سير إلى اللّـه

إن للإنسان في هذا العالم سيراً إلى الله تبارك وتعالى وقد تطرق القرآن الكريم لهذا السير لعالم الوجود ، فقال عزّ وجلّ : ﴿ ألاَ إلى اللّهِ تصيرُ الأمورُ ﴾(١) ، ﴿ وإنَّ إلى ربكَ المنتهى ﴾(٢) ، ﴿ فإنَّ إلى ربكَ الرُّجعى ﴾(٣) ، ﴿ إنَّا للّهِ وإنَّا إليهِ راجعونَ ﴾(٤) ، ﴿ يا أيُّها الإنسانُ إنكَ كادحٌ إلى ربكَ كدحاً فمُلاقيهِ ﴾(٥) .

إن هذه الآيات المباركات تغنينا عن البحوث الفلسفية والعرفانية لكون القرآن الكريم قد عرض بوضوح لمسألة سير وحركة هذا الإنسان الذي سينتهي في مسيرته إلى حيث الحق تعالى .

إن الإنسان في سيره إلى الله يمكن تصنيفه إلى ثلاثة أصناف الأول منها : صنف من البشر انتخب طريقاً موسوماً بالصراط المستقيم ، وسار به إلى الله ، وهذا الطريق هو أفضل الطرق وأقومها وأسهلها ، ويوصل الإنسان بسرعة إلى مقصده وهدفه .

وإن بعثة جميع الأنبياء من أجل تبيان هذا الطريق للبشر : ﴿ إنَّ هذا

---

(١) سورة الشورى، الآية ٥٣.
(٢) سورة النجم، الآية ٤٢.
(٣) سورة العلق، الآية ٨.
(٤) سورة البقرة، الآية ١٥٦.
(٥) سورة الانشقاق، الآية ٦.

صراطِيَ مستقيماً فاتبعوهُ ولا تتَّبعُوا السُبُلَ فتفرَّقَ بكمُ عنْ سبيلهِ ﴾[1] .

لقد أنزل الرحمن جميع الكتب السماوية للبشر من أجل أن يعلموا أن السبيل إليه ، وهوسبيل النجاة والسعادة مستقيماً ولا يحتاج الإنسان في سيره إلى ربه أن يسلك غير هذا السبيل ، لأن من سلك غيره ضلَّ وانحرف عن الجادة الصواب ، وبذلك سيلقى عذاباً أليماً .

فيا أيها الناس ، إنكم في هذا العالم تمتلكون سيراً وحركةً استكمالية ، ستنتهي بكم إلى الله ، وسيكون اللقاء به وحده تعالى هذا ، فإذا كنتم ترومون السعادة ، فاسلكوا الطريق المستقيم إليه .

إن العديد من الأمم قد اهتدت إلى هذا السبيل المستقيم ، فساروا عليه ، وستسيره في المستقبل أيضاً أمم أخرى ، ولكن الأمم بشكل إجمالي تختلف في سرعة سيرها ، فالبعض منهم يتسابق في حركته صوب المحبوب تعالى فترى سرعته أكثر من سرعة غيره .

وهذا ما أطلق عليه القرآن الكريم « بالسابق » ، فقال تعالى : ﴿ والسَّابقونَ السابقونَ أُولئكَ المقرَّبونَ ﴾[2] .

وعلاوة على السابقين توجدمجموعة أخرى من البشر سلكت السبيل نفسه وهم من أطلق عليهم القرآن اسم أصحاب اليمين ﴿ وأصحابُ اليمينِ ما أصحابُ اليمينِ في سدرٍ مخضودٍ . . ﴾[3] .

إن كلمة اليمين ترجع في أصلها إلى اليمن والبركة ، ويقول الفلاسفة : إن أصحاب اليمين هم خليط ممن أسرع في سيره ، وتباطأ ؛ ولكنهم كانوا جميعاً في حركة دائبة على صراط مستقيم ، يشتركون في هدف واحد ألا وهو لقاء الله ـ تعالت أسماؤه ـ .

تقول الروايات الواصلة إلينا عن طريق أهل البيت (ع): «إن على جهنم

---

(١) سورة الأنعام، الآية ١٥٣ .

(٢) سورة الواقعة ، الآية ١٠ .

(٣) سورة الواقعة، الآيتان ٢٧ و ٢٨ .

جسراً أدق من الشعر وأحدّ من السيف هو ذا الصراط » وإن « الناس يمرون على الصراط طبقات . . . فمنهم من يمر مر البرق ، ومنهم من يمر مثل عدو الفرس ، ومنهم من يمر حبواً ، ومنهم من يمر مشياً ، ومنهم من يمر متعلقاً قد تأخذ النار منه شيئاً وتترك شيئاً »[1] .

« والصراط المستقيم في حقيقته صراطان : صراط في الدنيا ، وصراط في الآخرة .

فأما الصراط المستقيم الذي هو في الدنيا ، فهو ما قصر عن الغلوّ ، وارتفع عن التقصير ، واستقام فلم يعدل إلى شيء من الباطل .

وأما الطريق الآخر ، فهو طريق المؤمنين إلى الجنة الذي هو مستقيم »[2] .

وقد يقول البعض إن الصراط المستقيم له ظاهر وباطن ، فظاهره الدنيا ، وباطنه الآخرة .

ولو أردنا إدراك الصراط وفهم السير عليه إلى الجنة لوجب علينا أن ننظر إلى الحالة التي نحن عليها في هذه الدنيا .

فما كانت عليه حركتنا في هذه الدنيا الدنيّة سنرى حقيقته وواقعه يوم القيامة في الحياة الأخرى .

فمن كان سيره في الدنيا سريعاً وملكوتيّاً ، كان سيره في الآخرة سريعاً أيضاً وملكوتياً .

ومن كان سيره هنا بطيئاً ، كان سيره هناك بطيئاً أيضاً .

وإذا تعثّر الإنسان في سيره في الحياة الدنيا سيتعثر أيضاً في سيره في الحياة الآخرة فمثلما ترى الناس هنا في سيرهم مختلفين ستراهم هناك كذلك .

إن السقوط في الحياة الدنيا ، وانتخاب السبل المختلفة سيؤدي بالإنسان

---

(١) بحار الأنوار/ج ٨ ، ص ٦٥ .

(٢) بحار الأنوار/ج ٢٤ ، ص ٩ .

حتماً إلى أن يسقط في الحياة الآخرة ، ولا يتمكن من سلوك الصراط المستقيم أو قد يرى متعلقاً بيد أو مستمسكاً بقدم وما إلى ذلك .

وهذا ما أخبرتنا به الروايات المتواترة ؛ قال رسول الله (ص) : « . . . والناس على الصراط فمتعلق بيد ، وتزول قدم ، ويستمسك بقدم »[1] .

وجاء أيضاً عن (ص) : « . . . ومنهم من يمضي عليه كمرِّ الريح ، ومنهم من يعطي نوراً إلى موضع قدميه ، ومنهم من يحبو حبواً ، وتأخذ النار منه بذنوب أصابها . . . »[2] .

فالسقوط هنا سقوط هناك أيضاً ، والحركة هنا حركة هناك أيضاً .

فمن كانت حركته في المسار المستقيم ، كانت حركته هناك مستقيمة أيضاً ، ومن كانت حركته هنا غير مستقيمة وغير سوية ، هوى هناك في جهنم وبئسَ المصير .

وقد جاء في تفسير قول الله عزّ وجلّ : ﴿ إنَّ ربكَ لبِالمرصادِ ﴾[3] قال : « قنطرةٌ على الصراط لا يجوزها عبدٌ بمظلمة »[4] .

وجاء أيضاً في تفسير ﴿ إهدِنا الصراطَ المستقيمَ ﴾ يقول : أدِم لنا توفيقك الذي به أطعناك في ماضي أيامنا حتى نطيعك كذلك في مستقبل أعمارنا ، والصراط المستقيم هو صراطان : صراط في الدنيا ، وصراط في الآخرة »[5] .

وذكر الصادق في قوله تعالى : ﴿ إهدِنا الصراطَ المستقيمَ ﴾ يقول : أرشدنا الصراط المستقيم ، أرشدنا للزوم الطريق المؤدي إلى محبتك ، والمبلّغ إلى جنتك من أن نتبع أهواءنا فنعطب »[6] .

---

(١) بحار الأنوار/ج ٨ ، ص ٦٥ .
(٢) كنز العمال/خ ٣٩٠٣٦ .
(٣) سورة الفجر، الآية ١٤ .
(٤) بحار الأنوار/ج ٨ ، ص ٦٦ .
(٥) بحار الأنوار/ج ٢٤ ، ص ٩ .
(٦) معاني الأخبار/ص ٢٩ .

وإهدنا الصراط المستقيم تعني : إلهي تلطَّف علينا ووفقنا لأن نسير بسلام على نهجك القويم، وهو ما يصطلح عليه «إيصال إلى المطلوب»، أي دُلّنا على الطريق الذي نلقاك في آخره وأن رسولك قال : ﴿ إنَّ هذا صراطِي مستقيماً فاتبعوهُ﴾[1] وقد فعلنا ذلك، ولكن يبقى أن تأخذ أنت بأيدينا لنصل إلى قُربك وجوارك ، فأدِم علينا عنايتك ورحمتك ورضوانك حتى نصل إلى المطلوب .

وخلاصة البحث : إننا نسعى للوصول إلى المطلوب من خلال الطريق المستقيم وهذا الطريق مستمر وله نهاية ، وعند النهاية يكون اللقاء بالله العزيز المتعالي ورحمته التي وسعت كل شيء .

إن هذا الطريق هو جسر الصراط ، وجسر الصراط أدق من الشعرة ، وأحدُّ من السيف ، وإن ظاهره هنا ، وحقيقته هناك ، فمن لم يدرك دقته وحدته ضلَّ وانحرف عن سواء السبيل ، وهوى في نار جهنم الحامية في تلك الدار الآخرة .

إن الحفاظ على استقامة السير في هذه الدنيا صعب جداً ، واستقامة السير أعني بها المحافظة على الالتزام بالدين القويم والشرع السليم ، فالقابض على دينه في يومنا هذا كالقابض على جمرة من نار ، وقد يأتي جيلٌ بعدنا سيُعاني أكثر مما نعاني في وقتنا الحاضر .

قد ينحرف الإنسان في بعض الأحيان عن الطريق المستقيم تحت مسمَّيات متعددة مثل: ثوري ومكافح ومناضل ومجاهد ، وما إلى ذلك من التسميات التي تحمل ظاهراً جميلاً وحسناً ومقبولاً لدى كل الأوساط الاجتماعية .

وقد تحرف بعض الجُمل إنساناً عن الطريق المستقيم لتسقطه في الهاوية ، وما إن ينتبه لذلك ويريد الرجوع إلى طريقه المستقيم حتى يرى الوقت قد فات عليه ، والرجوع إلى الوضع الأول صعباً إن لم يكن مستحيلاً ؛ وبعض الجُمل التي يتفوَّه بها الإنسان قد تؤدي بدين الفرد إلى نصفين ، ولذا ينبغي لنا أن نكون حذرين وفطنين وواعين لما نقول وإلا فالسقوط في انتظار من يغفل عن

---

(١) سورة الأنعام، الآية ١٥٣ .

ذلك ، فيكثرون الذين سقطوا سنين متمادية من جراء جملة قالوها في غير محلها .

وإن النملة التي حملت حبة الحنطة بفمها لتطلع صخرة عالية ، بعد تعب شديد وعناء ، تهوى بحبتها تلك إلى أسفل الصحراء من جراء غفلة أصابتها ، وهذا ما يصيب الإنسان في بعض ساعاته .

جاء عن أمير المؤمنين علي (ع) أنه قال في ﴿ إنَّ الذينَ قالُوا ربُّنا اللّهُ ثم استقامُوا ﴾[1] : وقد قلتم : ﴿ ربُّنا اللّهُ ﴾ فاستقيموا على كتابه ، وعلى منهاج أمره وعلى الطريقة الصالحة من عبادته . . واجعلوا اللسان واحد ، وليخزن الرجل لسانه ، فإن هذا اللسان جموح بصاحبه ؛ والله ما أرى عبداً يتقي تقوى تنفعه حتى يخزن لسانه . . »[2] .

وقال رسول الله (ص) : « لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه ، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه . . . »[3] .

فاللسان الأحمر اللون يخضرُّ حين يطلق عنانه للاغتياب ، والتهمة ، والشائعة ، وكشف العيب المستور ، وهذا بحد ذاته يجرُّ الإنسان إلى مواقع الحضيض .

وقد يفعل مثل ذلك الطعام المحرم ، فيهوي الإنسان ويسقط في طرق الانحراف ، وحين يريد الرجوع عن تلك الطرق يرى الأمر صعباً مستصعباً .

إن الصراط المستقيم ، طريق ضيق ودقيق ، وإن اجتيازه أمر غير هيِّن ، ولكنه يهون على أولئك الذين يعلمون ما يفعلون ، ويدركون ما يعملون ، ويفهمون مواقعهم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، ويعرفون لماذا جاءوا ؟ وإلى أين يذهبون ؟ وما هو سيرهم ؟ وكيف يتأتّى لهم المسير ؟ .

إنه سهل على أولئك الذين عرفوا أن الله يراهم ولو كانوا هم لا يرونه ،

---

(١) سورة فصلت/ ٣٠.

(٢) نهج البلاغة/ صبحي الصالح ، ص ٢٥٣ .

(٣) نهج البلاغة/ صبحي الصالح ، ص ٢٥٣ .

فهموا أن الله حاضر في السر والعلن ، في الليل والنهار ، وأنه يرى ويتابع ويحصي ، ويسجل ﴿ يعلمُ خائنةَ الأعيُنِ وما تُخفِي الصدورِ ﴾[1] ، ﴿ إنَّ اللَّهَ عليمٌ بذاتِ الصدورِ ﴾[2] .

إن من ألطاف الله على عباده ، إرساله الأنبياء أدلّاء على صراطه المستقيم ، أدلّاء رحماء بمن جاءوا إليهم ، لقد تحمّلوا المصائب والبلايا بصدر رحب كيما يهدوا البشر إلى السير السليم ، وإلى صواب الطريق .

وقد ورد في الأخبار المتكاثرة من طرق العامة والخاصة « أن زكريا (ع) دعا قومَه ليلاً ونهاراً لكي يستقيموا على الطريق القويم والصراط المستقيم ولكنهم قصدوه بالقتل ، فهرب منهم والتجأ إلى شجرة ، فانفرجت له ، فدخل جوفها ، ثم التأمت ، فدلّهم الشيطان عليه ، وأمرهم أن ينشروا الشجرة بالمنشار ، ففعلوا وقطعوه نصفين ، فقتل (ع) عند ذلك »[3] .

فأرسل الباري تعالى رسولاً من بعده ، ومن بعد ذلك أرسل رسلاً آخرين حتى بلَغوا (١٢٤) ألف رسول لطفاً منه ورحمةً وإتماماً للحجة على العالمين .

وعلاوة على إرسال الباري تعالى لكل أولئك الرسل ، وفّقنا أن نكون خلفاً لسلف عرفوا طريقه المستقيم ، وصراطه القويم ، والحمد له وحده على هذا الأمر .

ولو لم يكن هناك نبيّ أو رسول أو وليٌّ ، لما اهتدينا إلى نهجه وجادّته السويّة ، فعلينا أن نحذر الغفلة التي تبعث على السقوط والانحراف عن تلك الجادة من خلال حديث في غير محله ، أو اغتياب مسلم ، أو انتهاك حرمة ، وما إلى ذلك من القضايا التي توجب السقوط في مهاوي الرذيلة في الدنيا ، وفي نار جهنم الحامية في الآخرة .

لقد اهتدى البعض إلى هذا الطريق الذي هو السير إلى الله ، وعرفه حق

---

(١) سورة غافر ، الآية ١٩ .
(٢) سورة آل عمران ، الآية ١١٩ .
(٣) الميزان/ج ١٤ ؛ ص ٢٥ ، ٢٦ .

المعرفة ولكنهم انحرفوا عنه لعناد فيهم ، فدلُّهم عنادهم على طرق أخرى غير سويّة على الرغم من معرفتهم للطريق السويُّ ، فراحوا يتنكَّرون للحق ويتمادون في الظلم .

وعند لقاء الله سيؤول بهم الأمر إلى أسفل السافلين على العكس من أولئك الذين اهتدوا إلى الطريق القويم واستمروا عليه في سيرهم الذي وجدوا فيه رحمةً من الله واسعة ، وكان الحكم في كلا المسارين لله جلّت قدرته ؛ فكان لقاء الصالحين رحمةً من الله خلاف لقاء الطالحين الذي سيكون نقمة عليهم ﴿ إن الحُكم إلاّ للّهِ ﴾[1] .

إن الذين يعاندون ، وينحرفون عن الطريق المستقيم بعد هدايتهم كُثر .

وما كان من انحراف وضلال ، فبما كسبت أيديهم ، لتحكيم الشيطان على قلوبهم على الرغم من أنه كان ينبغي لهم تحكيم الله عليها : ﴿ أفرأيت من اتَّخذ إلّهه هواهُ وأضلَّهُ اللّهُ على علمٍ ﴾[2] .

إن القرآن المجيد نقل لنا الكثير من الحوادث والقصص التي تدلل على معرفة المنحرفين بالطريق السوي ، ولكنهم أبو إلا الضلال ، ومثال ذلك ابن نوح (ع) الذي اتخذ إلّهه هواه ، فلم يمتثل لأمر النبي نوح (ع) وهو أبوه الذي يعرفه حقَّ اليقين .

إن نوحاً (ع) صنع سفينةً وقال لقومه اركبوا فيها ومنهم ابنه ، وأفهمهم أن لا ملجأ من الله إلا إليه ، وكان القوم يمرون عليه طائفة بعد طائفة فيسخرون منه وهو يقول لهم (ع) : ﴿ إنْ تسخرُوا منّا فإنّا نسخرُ منكُم كما تسخرونَ فسوفَ تعلمونَ منْ يأتيهِ عذابٌ يخزيهِ ، ويحلُّ عليهِ عذابٌ مقيمٌ ﴾[3] .

﴿ حتّى إذا جاءَ أمرُنا وفارَ التنورُ ، قلنا احملْ فيها منْ كلٍّ زوجينِ اثنينِ وأهلكَ إلاّ من سبقَ عليهِ القولُ ومنْ آمنَ وما آمنَ معهُ إلاّ قليلٌ ﴾[4] ، ﴿ ونادى

(١) سورة الأنعام، الآية ٥٧ .
(٢) سورة الجاثية، الآية ٢٣ .
(٣) سورة هود، الآيتان ٣٧ و ٣٨ .
(٤) سورة هود، الآية ٤٠ .

نوحٌ ابنَهُ وكانَ في معزلٍ : يا بنيَّ اركبْ معنا ولا تكنْ مع الكافرين ، قال سآوي إلى جبلٍ يعصمُني منَ الماءِ ، قال : لا عاصمَ اليوم منْ أمرِ اللّهِ إلاّ من رحِمَ ، وحالَ بينهُما الموجُ فكانَ منَ المغرقِينَ ﴾[1] .

إن الله ـ تعالى اسمه ـ حدثنا في كتابه الشريف عن كثير من العلماء والأغنياء والحكّام الذين كانوا يعلمون بالطرق السويّة ، ولكنهم ولعناد فيهم أبو إلاّ ركوب الطرق المنحرفة الملتوية ؛ ﴿ ومَا أرسلنا فِي قريةٍ منْ نذيرٍ إلاّ قالَ مُترفُوهَا إنَّا بما أُرسلتُمْ بهِ كافرُونَ ﴾[2] ، فلا تظنَّ عزيز القارىء الكريم ، أن أولئك المترفين كانوا جهلة أو حمقى .

لا ، وألف لا ، ولكن عنادهم وكبرياءهم واستعلاءهم منعتهم من أن يمتثلوا للرسل الذين جاءوا برسالات الحق والهداية ؛ وما نراه اليوم في البعض لا يخفى على البصير .

إن الذين تصدوا للأنبياء والرسل ولرسالاتهم الإلٓهية كانوا في الأعم الأغلب من الشخصيات العلمية ، أو السياسية ، أو من الذين كانت منافعهم المادية لا تنسجم والأهداف التي جاء بها الأنبياء ، ولو تأتّى لنا البحث في من كذّب (١٢٤) ألف نبي لشاهدنا ذلك جليّاً وواضحاً ، وفي مقابل ذلك نرى أن أغلب التابعين أو الذين صدقوا الرسل حين مجيئهم كانوا من الحفاة ، من سكان الأكواخ ، من المعدمين ؛ ولا أريد أن أعتبر ذلك دليلاً على عدم معاندين بين الفقراء والمساكين والمستضعفين ، ولكن يمكنني القول بأن عنادهم وعداوتهم ، وعدم امتثالهم أقل من تلك التي نشاهدها في الطبقات الثرية ، أو المتسلطة .

إن هذه الثورة التي قامت في إيران ، جاء بها الحفاة والمستضعفون ، وإن أغلب مخالفيها كانوا من الأثرياء والمترفين .

ومن هنا نفهم أن مثل هذا الأمر حصل منذ زمان آدم (ع) وسيبقى إلى يوم

---

(١) سورة هود، الآيتان ٤٢ و ٤٣ .

(٢) سورة سبأ، الآية ٣٤.

القيامة على هذه الشاكلة .

نقل لنا أحدهم عن أحد الفلاسفة المعاصرين لزمان عيسى (ع) حيث كان يقول لعيسى (ع) : « أنا لا أعرف مدى صحة رسالتك ، ولكنني أعلم أنك رسول من ربّ العالمين ، رسول للمستضعفين والمعدمين ، وأن رسالتك لا يمكن أن تشملني لعقل فيٍّ كبير ، ولعلم عندي عظيم .

لقد كان ذلك الفيلسوف متكبراً وعنوداً تستعرُ في نفسه شعل نيران حب الذات ، والخوف على منافعه ومصالحه .

وقد نشاهد مثل ذاك الفيلسوف بين أبنائنا ، فما يحصل على شهادة البكلوريوس حتى يبدأ بتغيير لحن حديثه ظنّاً منه أنه وصل القمة في علمه ، فلا يسمع لوالده ولا لوالدته .

وإذا حصل على الدكتوراه تعالى على أبناء جلدته ، فلا يحضر مجلساً أو اجتماعاً فيه من هم أقل مستوى منه في شهاداتهم أو تحصيلاتهم ، رغبةً منه في حضور يضم من هم في مستواه الدراسي .

عجباً لهذا البشر ! عجباً له وهو يتمثل الصفات الرذيلة ! .

هل أن من يحصل على العلم يصبح متكبراً أو حسوداً ؟ .

إن هذه الصفات تنحرف به رويداً رويداً إلى المعاصي والآثام ظنّاً منه أنه أسمى وأرقى من أولئك الذين يسلكون سلوكَ الأنبياء والرسل ، فيتنكر للحق : ﴿ وإذْ قالُوا اللهمَّ إنْ كانَ هذا هوَ الحقَّ منْ عندِكَ فامطِرْ علينا حجارةً منَ السماءِ أو ائتِنا بعذابٍ أليمٍ ﴾[1] .

يقال : إن بلالاً الحبشي طلع سطح المسجد وقال : « الله أكبر » .

وإذ رآه أحدهم قال : « ليتني متُّ قبل أن أرى هذا الغراب فوق سطح المسجد » .

لم يستطع رؤيةَ عبد مسلم يشاركه دين الإسلام لظنه برقيه وسموه على

(١) سورة الأنفال، الآية ٣٢.

ذلك المخلص لدين الله ورسوله (ص) ؛ والجدير بالذكر أنَّه كان من رؤساء القبائل من المترفين الذين كانوا يقولون : ﴿ إنَّا بمَا أرسلتمْ بهِ كافرونَ ﴾[1] .

ومثل على العناد ذلك الذي نزلت فيه الآية المباركة : ﴿ إنْ كانَ هذا هوَ الحقَّ منْ عندِكَ . . أو ائتِنا بعذابٍ أليمٍ ﴾ ونزلت هذه الآية بعد تنصيب النبي الأكرم محمد بن عبد الله (ص) عليّاً خليفةً للمسلمينَ ، بعدما قام أحدهم ليقول للنبي (ص) : يا رسول الله ! هل كان تنصيبه للخلافة من عندك أو من عند الله ؟ .

فإن كان من عندك ، رفضنا ذلك ، وإن كان من عند الله فحريٌّ بالله أن يمطر علينا حجارةً من السماء ، أو يعذبنا بعذاب أليم .

لا تعجبوا لذلك اللئيم ، ولا تعجبوا للنبي الأكرم (ص) المؤتمر بأوامر الله تعالى حين رفع يد عليٍّ إلى السماء ، وقال : « من كنت مولاه ، فهذا عليٌّ مولاه ، اللهمَّ والِ من والاه وعادِ من عاداه ، وانصرْ من نصره ، واخذُلْ من خذله »[2] ؛ وما إن أنزل الرسول (ص) يد علي (ع) حتى اجتمع حوله كبار القوم وسادتهم ليقولوا له : « بخٍ بخٍ لك يا أمير المؤمنين » .

كان ذلك اليوم هو السابع عشر من شهر ذي الحجة ، وكان يوم التحاق الرسول (ص) بالرفيق الأعلى هو الثامن والعشرين من شهر صفر . وما رحل الحبيب (ص) حتى شكّل القوم ترتيب سقيفة بني ساعدة لينصّبوا أحدهم خليفةً للمسلمين بعد رسول الله (ص) بدلاً من أمير المؤمنين علي (ع) ، وليحرقوا في اليوم الثاني باب دار عليٍّ (ع) ، وليكسر أحدهم ضلعَ الزهراء البتول ـ عليها السّلام ـ ومن ثم يُكرهوا عليّاً على دخول المسجد ، ولا عجب في ذلك ! .

إذا استعرت نار الحسد والحقد وحب الذات في قلب فرد ، وصل به الأمر إلى نكران أمر الله ورسوله الكريم (ص) .

يقول المؤرخون : كان مالك بن نويرة أحد أصحاب الرسول (ص)

---

(١) سورة سبأ، الآية ٣٤.
(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر/ج ١ ، ص ٣٦٦ .

الخاصِّين قد أتى بعد وفاة الرسول (ص) من البادية لسماعه برحيله إلى الحق تعالى وما إن دخل المسجد حتى رأى جمعاً غفيراً من الناس حول أحدهم ، ولا يوجد فيهم عليٌّ (ع) فسأل عنه ، فقالوا له : وما تريد منه ؟ .

قال : ألم ينصِّبه الله ورسوله عليكم خليفة ؟ .

فقالوا : دعك من هذا ، واجلِس في مكانك .

فقال : جئت مسجد رسول الله (ص) قبل عدة شهور لأقول للرسول (ص) : أنا زعيم قبيلة ، فعلِّمني الدين ؛ فقال (ص) : الدين شهادة أن لا إلّه إلا الله وأن محمداً رسول الله . وأن تدين بالولاء لهذا ـ وأشار لعليٍّ بن أبي طالب (ع) ـ وقال : « إن هذا أخي ووصيّي وخليفتي فيكم فاسمعوا له وأطيعوا »[1] ثم علمني بقية الدين لأرجع إلى البادية .

عندما كان يتحدث مالك بن نويرة في القوم في المسجد اجتمع حوله الضعفاء والمحبّون ومن كان حاضراً زمن الرسول (ص) عندما جاءه مالك بن نويرة ، فخاف بعضهم حدوث ما لا تحمد عقباه ، فأخرجوه من المسجد كرهاً وأضمروا له العداوة والبغضاء .

وما إن رجع مالك إلى عشيرته حتى قصَّ عليهم القصص ، فبدأت تلك الحادثة تنتشر بين القبائل ؛ فخرج خالد بن الوليد ـ الذي كان بالأمس قد أحرق باب منزل أمير المؤمنين علي (ع) ـ إلى البادية يرافقه (٥٠) شخصاً من المسلمين وكانت هذه المجموعة قد ذهبت إلى قبيلة مالك بن نويرة تحت عنوان جباية الزكاة ، وحين وصولهم إليه قال مالك : سأعطيكم الزكاة كي لا تقع الأمّة الإسلامية في اختلافات تؤدي بها إلى الضعف والانهيار ؛ فذبح لهم في تلك الليلة جمالاً وخرافاً لعشائهم أملاً في ذهابهم صباحاً إلى حيث يريدون .

وفي المساء ، وبعد أن هجع القوم إلى النوم قام خالد مع ثلّة من حرّاسه إلى الهجوم على خيمة مالك بن نويرة صاحب رسول الله (ص) ليذبحه وهو في فراشه وفي حضور امرأته التي اغتصبها خالد في تلك الليلة بعد أن قتل الكثير

---

(١) كنز العمال/خ ٣٦٤٢٠ .

من شباب وشيوخ ونساء وأطفال تلك القبيلة المسلمة المسالمة ، وسرق ما عندهم من أموال ويرجع إلى من أمره بذلك .

ولما سمع الإمام علي (ع) بتلك الحادثة حتى رفع يديه إلى السماء قائلاً : « اللهمَّ إني أبرأُ إليك مما فعل خالد » .

ويقال : إن عبارة أمير المؤمنين تلك كانت تختلف عما نقله بعضهم ، إذ قالوا : إن الإمام علياً (ع) قال : « اللهم إني أبرأُ إليك من خالد »[1] .

يقول المؤرخون الشيعة والسنّة على السواء : إن خالداً في تلك الليلة أمر أصحابه بالطعام للمرة الثانية ، ليضع رأس مالك بن نويرة في وسط قدر مليء بالرز والماء ، كان موضوعاً على نار شديدة ، ويجمع المؤرخون على أن الرأس لم يحترق ـ إن الرأس الذي اشتاق للجنّة لن يحترق ـ وعلى الرغم من رؤية خالد لهذه القضية اغتصب زوجة الصحابي مالك بكل وقاحة !! .

إن هذه القضايا ليست من مبهمات التاريخ ، وإن الجميع يعرفون ذلك ولكن ﴿ قلْ سِيروا في الأرضِ فانظُروا كيفَ كانَ عاقبةُ المُجرمينَ ﴾[2] ، و ﴿ كيفَ كانَ عاقبةُ المكذِّبينَ ﴾[3] .

أعزائي القراء احذَروا الترف وخصوصاً في مسائل الدين ، فلا يستولي عليكم الحسد والكبر والعجب والغرور ، لأنه لا يؤدي بالإنسان إلاّ إلى المهالك ، ولا يغرنكم ما تعرفون من مسائل علمية فينعكس ذلك سلباً على سلوككم .

يقول نيوتن ـ وكم هو جميل قوله ـ: إن ما لديَّ ليس علماً ، فعلمي مقابل جهلي ، قطرة من ماء مقابل بحر متلاطم ، وعندما أستعمل التلسكوب الذي صنعته بيدي أرى عوالم مجهولةً أشعر كأن التلسكوب ذاك يقول لي : إنك قطرة في بحر .

---

(١) انظر تاريخ دمشق لابن عساكر/ج ٣ ، خ ١٠٢١ ، ١٠٢٦ ، وشرح ابن أبي الحديد/ج ١ ، ص ١٣ ، ١٤٠ . ١٤٣ .

(٢) سورة النمل، الآية ٦٩.

(٣) سورة النحل، الآية ٣٦.

إن الكرة الأرضية في مجموعها قد تكون قطرة في بحر العالم ، فمن تكون أنت أيها الإنسان الضعيف ؟ وما هو علمك الذي تدَّعي ؟ ويقول بعض العلماء : إن الكرة الأرضية إذا قيست مع باقي الكرات الموجودة في هذا العالم عدت حصية في صحراء متمادية الأطراف ، هذه هي الكرة الأرضية ، فمن أكون أنا ؟ وأين تكون أنت ؟ وما هو علمي وعلمك ، وأين يكون موقعه من العلم ؟ .

فمعرفة عدة قوانين رياضية لا ينبغي أن تجلب عليك كل هذا الغرور ، وحل عدة مسائل فقهية لا غرور فيه .

ولكن الإنسان أقل مما يجب أن يحتوي واستعداده لهذه المسائل قليل ، وقليل جداً ، فلا يغرنك أيها المعلم أن تصير غداً مديراً لمدرستك ، وإن فعلت ذلك سيؤول بك الأمر إلى الانحراف عن الصراط المستقيم الذي بيَّنه لنا الرسول الأكرم (ص) وأهل بيته الأطهار المنتجبون .

اللهمّ أنت أهل الوصف الجميل ، والتعداد الكثير ، إن تؤمَّل فخير مأمول ، وإن تُرْجَ فخير مرجوٍّ .

اللهمَّ وقد بسطت لي فيما لا أمدح به غيرك ، ولا أثني به على أحد سواك ، ولا أوجهه إلى معادن الخيبة ومواضع الريبة ، وعدلت بلساني عن مدائح الآدميين ؛ والثناء على المربوبين المخلوقين ، صلِّ على محمد وآله الطاهرين وهب لنا في هذا المقام رضاك ، وأغننا عن مد الأيدي إلى سواك بحق محمد وآله الطاهرين .

([٢])
سيرٌ إلى اللّـه

قال رسول الله (ص) : « كنت جالساً إلى جبرئيل . . . فسمعت صوتاً مهيباً . . وسألته ماذا كان ذاك ؟ فقال : رُمي بحجر قبل (٧٠) سنة إلى جهنم ووصل للتوّ إلى قعرها »[١] .

وقد فسَّر قائد الثورة الإسلامية ذلك الحديث قائلاً : « انحرف شخص ٧٠) عاماً عن الصراط المستقيم ، وسار إلى جهنم في ما طواه من مسيرة ، وكان ينحطُّ يوماً بعد يوم إلى أن قبض الله روحه ، فلم يستقر في الدرك السابع ، بل تعدَّاه إلى بئر ليستقر فيها ، وبعدما استقرَّ أفاق من غفلته ، وفي مثل ذاك قال رسول الله (ص) : « الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا »[٢] .

إن حياتنا التي نحياها موت ، وإن بداية الحياة الحقيقية تكون بعد الموت ، أي بعد عبور قنطرة الموت الفاصلة بين الحياة الدنيا والحياة الآخرة ﴿ وإنَّ الدارَ الآخرةَ لهيَ الحيوانُ ﴾[٣] .

فالحياة هناك ، ولهذا يشهد الإنسان تكلم جهنم معه وهي تحرقه ، ويشهد تكلم الأفاعي والعقارب وتجريحهم له في التحدث إليه ، ناهيك عن طيِّه لمسافات درجات جهنم الحامية ليستقر في تابوت في بئر تقع في الدرك الأسفل

---

(١) كنز العمال/ج ١٥ ، ص ٥٤٢ ـ ٧٥٨ كتاب الموت وأحوال تقع بعده .

(٢) علل الشرائع/ص ٤ ، كنز العمال/ج ١٥ ، ص ٥٤٢ .

(٣) سورة العنكبوت، الآية ٦٤.

من تلك النار التي سجَّرها الخالق الجبار ، وما سقوط الإنسان في تلك البئر ، وتسافله وانحطاطه في مسيره من الدرك الأول إلى الدرك السابع إلا تشابه في انحطاطه وتسافله في هذه الحياة الدنيا .

فالذي يريد أن يتعرف موضعه في الآخرة ، فلينظر إلى ما هو عليه في الحياة الدنيا ، ولا يبتعد الإنسان عن تلك الظنون الشيطانية التي يظنها أنه سوف ينجو من تلك النار ، أو أنه لا ينتهي إلى رب السموات والأرض : ﴿ إنَّ إلى ربِّكَ المنتهى ﴾[1] ، ﴿ إنَّ إلى ربِّكَ الرُّجعى ﴾[2] ، فالمسيرة البشرية لا بد لها من الرجوع إلى خالقها ؛ ومن غفل عن ذلك ، فهو ما يزال في نوم عميق ، وحين يموت يصحو من غفلته ، وعندها لا تنفعه شفاعة الشافعين . وقد أخبرتنا الروايات المتواترة أن البعض يقطعون الصراط وكأنه عدة كيلومترات ، وأن قطعهم لتلك المسافات يعد فسحةً نادرة إذا قيس بما بعدها من الأهوال .

وتخبرنا الروايات أيضاً أن البعض ممن يحسبون تحت لواء الحمد الذي هو بيد أمير المؤمنين (ع) ينتهلون من حوض الكوثر ، ويمتِّعون أنظارهم بمناظر الحشر .

ومن المؤكد أن ذلك أفضل لهم من الجنة نفسها لكونهم ينضوون تحت لواء علي بن طالب (ع) ، فباطن هذه الدنيا هو الآخرة ، والآخرة ليست ما وراء هذه الدنيا ، وهذه هي حقيقة الدنيا ، فهنا الظاهر ، وهناك الباطن وعندها يدعو الباري كل قوم بإمامهم ﴿ يوم ندعو كلَّ أُناسٍ بإمامِهِم ﴾[3] ؛ فمَن كان إمامه معاوية انضوى تحت رايته ، ومن كان إمامه أمير المؤمنين علي (ع) ظللته راية علي (ع) وجاء معه .

ومن عاش تحت لواء صدام ، حشر معه ، فانظر عزيزي القاريء إلى واقعك المعاش ، وتحت أي لواء تحيا اليوم ؛ فما أنت عليه اليوم ستراه غداً ، ومن كان إمامك اليوم فهو في الغد إمامك ، وما تعيشه الآن مجرد فيلم وسترى

(١) سورة النجم، الآية ٤٢.
(٢) سورة العلق، الآية ٨.
(٣) سورة الإسراء، الآية ٧١.

حقيقته غداً عندما ترجع إلى الواحد القهار في عرصات يوم القيامة المهيب .

فالسقوط والانحطاط هكذا ، فإذا ما رأيت حالك يقترب من الرذائل فاعلم أنك تنحدر إلى أسفل ، والنار هي الحضيض .

أما من رأى نفسه يقترب من الله ـ ولا يمكن معرفة ذلك إلا من خلال أئمة أهل البيت النبوي ـ سلام الله عليهم ـ أو من ينوب عنهم من العلماء الذين يشهد الفضلاء والأجلّاء لهم بالعلم والتقوى والورع والعدل ـ فليعلم أنه في سير صعودي ، والجنة عالية وسامية .

فالمُعاند هنا ، سيرد جهنم هناك ، والمنحرف الضال هنا ، سيؤول الأمر به إلى غضب من الله هناك ، وقد يصطلح البعض على هكذا أفراد بأنهم « يهود » على الرغم من أنهم يشهدون الشهادتين لأن اليهود مصداق للانحراف والضلالة .

وقد حكي لي أحدهم حكاية لا بأس بالإتيان بها هنا يقول : أقام أحدهم تعزيةً ، وأراد تمثيل تلك التعزية بأفراد ، فحضر جميع من يريد تمثيل تلك التعزية ، ولم يبق إلا من يمثل دور الذي كان يحول دون الوصول إلى شط الفرات ، فبحثوا هنا وهناك ، فلم يعثروا إلا على أحد الأرامنة ، فعرضوا عليه الأمر فوافق عليه ، وحينئذ بدأ العزاء فجاء العباس ، فمنعه من ورود الماء . وجاء علي الأكبر ، فمنعه أيضاً ثم جاء القاسم فحال بينه وبين ماء الفرات .

بعد ذلك سمع الأرمنيّ صوت أطفال الحسين وهم يصرخون « العطش ، العطش » وعندها صرخ الأرمني ، وقال : قسماً بذات الله ، لقد تقطعت نياط قلبي لكم ، ورغبتي إلى إعطائكم الماء شديدة ، ولكن هؤلاء المسلمين لا يجيزون لي ذلك ! وعليه أقول . إن فينا نحن المسلمين من هو أسوأ من اليهود ، وأسوأ من الكفرة .

إن هذه الحكاية التي تقول بانحطاط اليهود ، مصداقها هو : أن اليهود كانوا ولا يزالون جرثومة الفساد والعناد منذ زمن موسى (ع) حتى وقتنا الحاضر . وعجباً لهؤلاء اليهود ، فقد كانوا مريدين لموسى (ع) ولكنهم ـ وكما أخبرنا

القرآن الكريم بذلك ـ يقولون لـه : ﴿ فاذهبْ أنتَ وربـكَ فقاتِـلا إنَّا هـا هنا قاعدُونَ ﴾[1] .

ويطلبون بصلاً وثوماً بالرغم من أن غذائهم يأتي من السماء ، يقول لهم موسى (ع) : « إن طعامكم يأتي من عالم الملكوت ، فكلوا واحمدوا الله على ذلك ، فيقولون : لا نريد إلا بصلاً وثوماً وقرعاً وعدساً ﴿ وإذ قلتـمْ يا موسى لن نصبرَ على طعامٍ واحدٍ ، فادعُ لنا ربَّكَ يخرج لنا ممَّا تنبتُ الأرضُ من بَقلِها وقِثَّائِها وفُومِها وعدسِها وبصلِها . قال : أتستبدِلونَ الذِي هو أدنى بالذِي هـوَ خيرٌ ﴾[2] ؛ إنهم كانوا معاندين ، ولجوجين ، بل إنهم مرضى .

لقد كان اليهود أظلم من عليها في زمن الرسول الأكرم (ص) ، وقد وصل ظلمهم إلى درجة أمر معها الله نبيَّه (ص) بقطع رؤوس (٧٠) منهم ، لكونهم وصلوا إلى حدٍّ كانوا يريدون فيه قتل الرسول وكل من كان في المدينة فكشف الله ذلك لرسوله وقضى عليهم وعلى مؤامراتهم اللئيمة .

إن رؤساء أمريكة هم من اليهود ، وإن بريطانية تعتمد في سياستها على أحزاب صهيونية ، وإن ماركس كـان يهوديـاً معقداً ، مريضـاً نفسيـاً ، وإن المذاهب التي جاءت بعده كانت تحت نظر الصهيونية من مثل مذهب « فرويد » ذلك المذهب الذي يبعث على حياء الأحياء ، إنه المـذهب الذي يعتبـر كل الغرائز ترجع في أصلها إلى الغريزة الجنسية .

وكان « دور كيم » يهودياً أيضاً ، وهو صاحب مذهب أو مدرسة ، وكان يقول بالرغم من أنه يعدُّ عالماً : ينبغي أن يكون الإنسان مستغلاً، وإن على القوي أن يستغل الضعيف ويمتصَّ دمه كالعلقة التي تمتص الدماء لتحيا ، وإن الرحمة والعطف والرأفة من الضعف ، فمن ضعف بانت عليه الرحمة والرأفة والعطف ، ولا ينبغي للإنسان أن يكون رؤوفاً رحيماً ! عليه أن يكون مثل ريغان وصدام ! .

كان ماركس يهودياً ومنتميـاً للحزب الصهيـوني ، وقد يكـون فرويـد ،

---

(١) سورة المائدة، الآية ٢٤ .

(٢) سورة البقرة، الآية ٦١ .

ودوركيم ، ونيتشه غير معقَّدين ، ولكن ماركس كان كذلك ، لكونه كان فقيراً ومعدماً ، يذهب في أغلب الأحيان إلى المدرسة حافياً ، وقد أصيب بصداع مزمن لعدم تمكنه من تناول إفطار على طول السنين التي كان فيها في الجامعة فاستغلَّ « إنكلز » وضعه المادي المتردي ذاك ليلقي في عنقه غلَّ ذلك المذهب الذي التزمه فيما بعد .

وخلاصة الأمر : هي أن كل المصائب التي عانت وتعاني منها الإنسانية منذ زمان موسى (ع) حتى زماننا الحاضر ، كان وما زال أصلها اليهود ، إنهم معاندون ولكنهم في الأعم الأغلب أزكياء ، ولجوجين ولكنهم يخططون لما يريدون إنجازه .

قال عزَّ وجلَّ في محكم كتابه الشريف : ﴿ وضربتْ عليهمُ الذلةُ والمسكنَةُ وباؤوا بغضبٍ منَ اللّهِ ﴾[1] .

لماذا كان ذلك ؟ .

﴿ ذلكَ بأنهم كانُوا يكفرُونَ بآياتِ اللّهِ ويقتلونَ النبيينَ بغيرِ الحقِّ ذلكَ بما عصَوا وكانُوا يعتدُونَ ﴾[2] .

يقول الإمام الهمام جعفر بن محمد الصادق (ع) بصدد هذه الآية : « واللّهِ ما ضربُوهم وما قتلوهُم ، ولكن سمِعوا أحاديثَهُم فأضاعُوها »[3] ، فالقصد من القتل في هذه الآية الشريفة هو : قتل الهدف الذي جاء من أجله الأنبياء ـ سلام الله عليهم ـ ومن قتل هدفاً لشخص كانت المصيبة أعظم مما لو قتل الشخص نفسه .

وقد نعت القرآن الكريم اليهود ، فقال فيهم : ﴿ المغضوبِ عليهِمْ ﴾ ، لماذا ؟ لعنادهم ولجاجتهم .

وإن من بين المسلمين ما يتَّصف بصفات اليهود في عناده وكبريائه وعجبه

---

(١) سورة البقرة، الآية ٦١ .
(٢) سورة البقرة، الآية ٦١ .
(٣) تفسير نور الثقلين/ج ٢ ، ص ١٩١ ـ وكذا جاء في تفسير العياشي .

وإصراره ، وقد نرى الكثير من النزاعات الأسرية ترجع في الأساس إلى العناد ، فترى المرأة أو الزوجة تمتنع عن إطاعة وليٍّ أمرها ، وهي تعلم أن رب الأسرة هو الرجل بالرغم من أنها أدركت ذلك بالفطرة ، فترى البعض منهن مستعدة لأن يسرح ويمرح أطفالها في الشوارع ولا تنتهي عن طلبها للطلاق وهكذا نساء : ﴿ مغضوبٌ عليهنَّ ﴾ ويحشرهن الباري يهوديات يوم القيامة ، وعندما يحشر الباري إحدى النساء المسلمات على أنها يهودية تسأل عن ذلك ، فيقال لها : لقد كان سيرك في الحياة الدنيا سير ﴿ الضالِّين ﴾ ولم يكن سير ﴿ الصراطِ المستقيمِ ﴾ بل كان سير ﴿ المغضوب عليهمْ ﴾ سير العناد والإلحاح واللجاجة والإصرار ، سير عدم الامتثال للطاعة سير تخريب المحيط الأُسريّ؟! .

وأنتم أيها الرجال الأعزاء : لا ينبغي لكم أن تستخدموا التجريح بالعبارات ، فتحرقوا قلوب زوجاتكم ، فمن كان سلوكه جهنمياً ، كان سيره إلى جهنم أقرب ، وإن التجريح ليتجسَّد للرجل يوم القيامة بشكل حيوان قبيح يؤدي به إلى أسفل جهنم بضعة آلاف من السنين . وعندما يريد الصعود ثانيةً سيحتاج إلى بضعة سنين أخرى ، فيقال له : هذا ما جره عليك تجريحك للآخرين ! ففي الدنيا تجريح وفي الآخرة يصير حيواناً قبيحاً ، فهنا الظاهر ، وهناك الباطن ﴿ يومَ تجدُ كلُّ نفسٍ ما عملتْ منْ خيرٍ محضراً ، وما عملتْ منْ سوءٍ تودُّ لو أنَّ بينَها وبينَهُ أمداً بعيداً ، ويحذركُمُ اللّهُ نفسَه ﴾[1] .

فالتهمة والغيبة والكذب والتجنِّي كلها تنقلب غداً على صاحبها ناراً حاميةً : ﴿ يا أيُّها الذينَ آمنوا قُوا أنفسَكُم وأهليكُم ناراً وقُودُهَا النَّاسُ والحجارة ﴾[2] .

قال رسول الله (ص) في قوله : ﴿ ويُسقى من ماءٍ صديدٍ ﴾[3] قال : يقرب إليه فيكرهه ، فإذا أدنى منه ، شوى وجهه ووقع فروة رأسه ، فإذا شرب منه قطَّع أمعاءه حتى يخرج من دبره ؛ يقول الله : ﴿ وسقُوا ماءً حميماً فقطَّعَ

(١) سورة آل عمران، الآية ٣٠.
(٢) سورة التحريم، الآية ٦.
(٣) سورة إبراهيم، الآية ١٦.

أمعاءَهُم ﴾[1] ويقول : ﴿ وإنْ يستغيثُوا يُغاثُوا بماءٍ كالمهلِ يَشوِي الوجوهَ ﴾[2] »[3] .

إن ذلك الماء الكريه الرائحة هو انعكاس لسوء الخلق الذي يمارسه الزوج مع زوجته أو الفرد مع صاحبه في المجتمع ، وأنه يشوي الوجوه ، فلأن ذلك الذي سيشوى وجهه ، أراق ماء وجه صاحبه الذي ائتمنه على سره ؛ وأن يستغيث في الآخرة فيُغاث بماء كالمهل ، جزاءً بما فعله بفلان من الناس حينما استغاثه ولكنه لم يردُّ لهفته بل سخر منه ، وتخلّى عنه .

إن ما تفعله اليوم ستراه حقاً غداً عند مليك مقتدر ، وعندئذ ستفيق من غفلتك ونومتك التي لم تتجاوز اللحظات ، وقد حسبتها أنت سنين طوالاً ، ﴿ فكشفنَا عنكَ غطائِكَ فبصرُكَ اليومَ حديدٌ ﴾[4] .

قال الباري في محكم كتابه : ﴿ يومَ تجدُ كلُّ نفسٍ ما عملتْ منْ خيرٍ مُحضراً وما عملتْ من سوءٍ تودُّ لوْ أنَّ بينَها وبينَهُ أمداً بعيداً ﴾[5] .

وتعني هذه الآية المباركة : أن الأعمال الصالحة في زمن الدنيا تتحول إلى أنيس وصاحب ورفيق حسن يوم القيامة ، والأعمال السيئة تتحول إلى حيوانات مفترسة وعقارب مؤذية فيتمنى المسيء حينها أن تكون المسافة بينه وبين تلك الحيوانات بعيدة .

« اللهمَّ إنك آنس الآنسين لأوليائك ، واحضرهم بالكفاية للمتوكلين عليك ، تشاهدهم في سرائرهم ، وتطلع عليهم في ضمائرهم ، وتعلم مبلغ بصائرهم . . إن أوحشتهم الغربة آنسهم ذكرك ، وإن صبَّت عليهم المصائب لجأوا إلى الاستجارة بك ، علماً بأن أزمة الأمور بيدك ومصادرها عن قضائك » .

---

(١) سورة محمد، الآية ١٥ .
(٢) سورة الكهف، الآية ٢٩ .
(٣) بحار الأنوار/ج ٨ ، ص ٢٤٤ .
(٤) سورة قٓ، الآية ٢٢ .
(٥) سورة آل عمران، الآية ٣٠ .

ولادة الرسول الأكرم (ص)

كانت مكة غارقةً في ظلام وسكون ثقيلين ولا يطالع الناظر إليها مظاهر للحيوية والنشاط ، اللهمّ إلا ذلك القمر الدؤوب الذي بدا كعادته كل يوم يتحرر من خلف تلك الجبال الجرداء المنودة ، ويرتفع في الآفاق رويداً رويداً لينشر أشعته الفضية الهادئة على تلك البيوت البسيطة الغريبة عن تعقيدات المدنية وتجملاتها .

الجميع كانوا في نومهم العميق إلا آمنة ، فقد كانت يقظةً وبدأت تحس بالألم الذي كانت تنتظره ، وفجأةً رأت في غرفتها عدة نساء تعلوهن المهابة ويجللهن النور ، وتفوح منهن روائح زكية لم تعهدها آمنة من قبل ، وتحيّرت آمنة في شأن هؤلاء النسوة المجهولات ، وكيف استطعنَ الدخول من الباب الموصد!(1) .

ولم يطل تحيُّرها إذ جاء إلى الدنيا وليدها الحبيب ، وبهذا قرَّت عينها بعد شهور من الانتظار بوليدها الذي أطلَّ على الدنيا في سحر اليوم السابع عشر من ربيع الأول(2) ، وفرح الجميع بهذا المولود الحبيب الذي أنارت طلعته بيت آمنة التي كانت قد افتقدت زوجها الذي لم تمهله يد الموت ليتسنّى له رؤية الوليد المبارك ، إذ اختطفته حين رجوعه من الشام ، فتوفي في يثرب ودفن هناك ،

---

(1) بحار الأنوار/ج ١٥ ، ص ٣٢٥ .

(2) بحار الأنوار/ج ١٥ ، ص ٢٥٠ .

وترك آمنة وحيدة مع جنينها الذي كان يؤنس وحشتها القاتلة[1] .

صاحبت ولادة الرسول الأكرم (ص) حوادث مختلفة في السماء والأرض، وجاءت تلك الحوادث وكأنها تريد أن تؤدي دور وكالات الأنباء السريعة في عصرنا هذا لتنبىء عن وقوع حادث خطير ؛ ومن الحوادث أن إيوان كسرى أنوشيروان الذي كانت الأنظار مشدودة إليه وإلى صاحبه اضطرب في تلك الليلة ومادت به الأرض فسقطت أربع عشرة شرفة من شرفاته .

وخبت نار فارس لأول مرة منذ ألف سنة[2] ، وهكذا تنبَّه سدنة معابد النار والكهان الذين منعتهم عصبيتهم وتقليدهم الأعمى عن التفكر في آيات الله في الكون وفي أنفسهم ، هؤلاء تنبَّهوا إلى أن للسماء خبراً ، وإن لهذا اليوم شأناً خطيراً .

وكان لجفاف بحيرة ساوة أثر في تنبيه منطقة أخرى لحقيقة ما يجري على وجه الأرض[3] .

ولد الرسول الأكرم (ص) في عام الفيل ، وقد عرض القرآن الكريم لهذه الحادثة وأفرد لها سورةً سميت سورة الفيل ؛ وأصحاب الفيل هم الذين قصدوا تخريب الكعبة المشرفة بقيادة أبرهة الحبشي ، وقادوا معهم فيل الهدمة ، فضيَّع الله كيدهم بأن أهلكهم وعصم الكعبة بإرساله تعالى عليهم جماعات من الطيور صغيرة الجثة رمتهم بحجارة من سجِّيل أي من طير متحجر ، وقيل من أسجله وإذا أرسله ، كان في منقار كل طير حجران أكبر من العدسة وأصغر من الحمصة فيرمى الرجل بحجر في رأسه فيخرج من دبره ، فجعلهم كورق زرع أكلته الدواب ، وراثه أوداد .

في الوقت الذي كان عامة الناس يتجهون صوب الأصنام ، كان محمد (ص) الذي لم يتلقَّ درساً من أحد يتجه وحده صوب غار « حراء » وهناك يقف خاشعاً متضرّعاً وهو يتأمل في الكون وما أبدع فيه الخالق عزّ وجلّ من روائع

(١) بحار الأنوار/ج ١٥ ، ص ١٢٥ .
(٢) بحار الأنوار/ج ١٥ ، ص ٢٥٨ .
(٣) بحار الأنوار/ج ١٥ ، ص ٢٦٣ .

تتجلى فيها عظمته وقدرته .

وقد كانت طهارته وعفته (ص) حديث الناس في المجامع والمجالس الخاصة منها والعامة ، كما منحه صدقه وأمانته وإخلاصه لقب « الأمين » الذي لازمه واشتهر به ، ولقد كانت هذه الصفة المحبّبة هي التي دعت خديجة رضي الله عنها أن تختاره ليتّجر بأموالها .

إن أخلاق محمد (ص) وسلوكه وتعامله مع الناس بلغت حداً من الرفعة والسموّ بحيث استطاع بها أن يدخل قلوب الناس ويجتذبهم إليه ؛ فعن عمّار بن ياسر أنه قال : كنت راعياً مع محمد (ص) قبل البعثة ، فاقترحت عليه يوماً أن نذهب بأغنامنا في اليوم التالي إلى مرعى « فخّ » فوافق على ذلك ، ولما كان من الغد ذهبت إلى « فخّ » فوجدت محمداً (ص) قد سبقني إلى المرعى ، إلا أنه كان يمنع أغنامه من الرعي ، ولما سألته : لماذا تمنعها عن الرعي ؟ أجاب (ص) : « إني كنت واعدتك ، فكرهت أن أرعى قبلك »[1] .

كان محمد (ص) في الخامسة والثلاثين من عمره الشريف حين اجتمعت قريش لبناء الكعبة وترميم بنائها السابق ، ولما كانت قبائل قريش المتعددة تريد اقتسام هذا الفخر ببناء الكعبة ، ولذا جزأته وجعلت لكل قبيلة قسماً منه .

وقد بدأ الوليد بن المغيرة بالهدم وهو يقول : اللهمّ إنا لا نريد إلا الخير ثم تبعه الناس وأعانوه ، حتى انتهى الهدم بهم إلى الأساس الذي بناه إبراهيم (ع) .

وهنا بدأت كل قبيلة ببناء قسم من البيت حتى بلغ البنيان موضع « الحجر الأسود » ، فاختصموا فيه ، تريد كل قبيلة أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى لتفتخر بذلك على سائر القبائل ، وقد استمرّ الخلاف والخصام بينهم أربع ليال أو خمساً ، ثم اجتمعوا في المسجد وتشاوروا فقال لهم أبو أمية بن المغيرة : وكان أكبر قريش سناً « يا معشر قريش اجعلوا بينكم أول من يدخل من باب هذا المسجد ليقضيَ في الأمر ، فكان أول داخل عليهم هو رسول الله (ص) ، وما

---

(١) بحار الأنوار/ج ١٦ ، ص ٢٢٤ .

أن رأوه حتى قالوا : هذا الأمين » .

فلمّا وصل إليهم وأخبروه الخبر ، قال (ص) : هلمَّ إليّ ثوباً ، فأُتي به ، فأخذ الركن (الحجر الأسود) فوضعه فيه بيده ، ثم قال (ص) : لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ، وبذلك رفعوه جميعاً حتى إذا بلغوا به موضعه أخذه ووضعه بيده المباركة ثم بُنيَ عليه[1] .

أصيبت قريش في إحدى السنين بأزمة قحط شديدة ، وكان أبو طالب ذا عيال كثير ، ومال قليل ، مما دعا النبي (ص) إلى أن يأخذ عليّا (ع) إلى بيته ليخفف بذلك عن عمه أبي طالب[2] ؛ ومنذ ذلك الوقت والنبيُّ (ص) كالأب الحاني المحب يحرص على تربيته وتنشئته بأحسن وجه .

لأن علياً (ع) كان يعيش في بيت الرسول (ص) ، فقد كان أكثر من غيره تعرفاً لخصوصيات النبيّ (ص) الأخلاقية ، وفضائله ، وصدقه ، ولذا سارع إلى الإيمان بنبوة محمد (ص) عن بصيرة كاملة في أمره وهو في العاشرة من عمره ، وبهذا حاز هو الآخر قصب السبق من الرجال ، فكان أول رجل آمن بالله ورسوله[3] .

بعد أن دخل النبي (ص) المدينة المنورة ، وبنى المسجد الذي هو في الواقع مركز الدعوة ، وجّه عنايته الشريفة إلى البنية الاجتماعية للمسلمين فأرسى دعائم الأخوّة بينهم .

كان عامل الأُخوّة هذا يُنسي المهاجرين مرارة الهجران ، ويقدم لهم الدليل على أنهم وإن كانوا قد خسروا أهليهم ووطنهم إلا أنهم ربحوا إخواناً أوفياء أودّاء ، ولذا لم يكتفِ النبي (ص) بالأُخوّة العامة التي تربط بين المسلمين بل تعدَّاها إلى الإخاء بين كل اثنين منهم بعقد خاص .

وكان أن اختار لنفسه عليّاً (ع) أخاً وقال : هذا أخي[3] .

---

(١) سيرة ابن هشام/ج ١ ، ص ١٩٢ ـ ١٩٨ ط، مصر .
(٢) نفس المصدر/ج ١، ص ٤٦ ، وبحار الأنوار/ج ١٨ ، ص ٢٠٨ .
(٣) الغدير/ج ٣، ص ٢١٩ .
(٤) سيرة ابن هشام/ج ٢ ، ص ٥٠٤ .

قال الإمام الصادق (ع) : « من حق المؤمن على أخيه المؤمن أن يشبع جوعته ، ويواري عورته ، ويفرّج عن كربته ، ويقضي دينه ، فإذا مات خلفه في أهله وولده »[1] .

وفي السنة العاشرة للهجرة ،وفي صحراء الحجاز وهي تشهد جمعاً غفيراً من الحجيج ، وكلهم يسيرون بشعار واحد نحو هدف واحد ؛ تلك السنة تميّز الحج بحرارة خاصة ، والمسلمون يقطعون المسافات ويجتازون المنازل بسرعة وشوق .

صوت التلبية يتعالى في صحراء مكة ، وهذه القوافل تقترب من أمّ القرى الواحدة بعد الأخرى ، والحجاج بثياب الإحرام ذات اللون الواحد . . علاهم غبار الطريق ، جاءوا ليلقوا بأنفسهم في أحضان بيت الله الحرام طائفين حوله . . ذلك البيت المقدس الذي شيّد على يد أبي الأنبياء خليل الله إبراهيم (ع) . . والذي جعله الله سبحانه أمناً لعباده في الأرض .

وترى وجه النبي (ص) حينها تعلوه أمارات السرور والارتياح على هذه النعمة ، فلقد استطاع أن يؤدي الرسالة على أكمل وجه ، ولكن بالرغم من ذلك ترى في وجهه (ص) هالةً من الحزن والأسى العميق تطغى على بشاشته وسروره ، وينقضي موسم الحج . . ويتفرّق الناس . . كلٌ باتجاه بلده وأهله . . وفي الصحراء حدثت مفاجأةٌ . . منادو النبي (ص) يدعون المسلمين للرجوع إليه . . فماذا حدث ؟ .

إنه الأمين جبرائيل يرد على رسول الله (ص) ويبلغه قوله تعالى : ﴿ يا أيُّها الرسولُ بلِّغْ ما أنزلَ إليكَ من ربكَ ، وإن لَم تفعلْ فما بلَّغتَ رسالتَهُ ، واللّهُ يعصمُكَ منَ الناسِ ، إنَّ اللّهَ لا يهدِي القومَ الكافرينَ ﴾[2] .

ولم يكن الناس يعلمون لماذا صدر إليهم هذا الأمر وأي موضوع مهم استجده .

---

(١) الكافي/ج ٢ ، ص ١٦٩ .

(٢) سورة المائدة، الآية ٦٧.

وسرعان ما يعلن الرسول الصلاة جامعةً وبعد أداء فرض الظهر صعد النبي الأكرم (ص) الذي كان قد أعدّ من أقتاب الإبل ليقول : « . . . أيُّها الناس قد نبأني اللطيف الخبير أنه لم يعمّر نبيٌّ إلا مثل نصف عمر الـذي قبله ، وإني أوشك أن أدعى فأجيب ، وأنتم مسؤولون فماذا أنتم قائلون ؟ .

قالوا : نشهد أنك قد بلّغت ونصحت وجاهدت فجزاك الله خيراً .

فقال : ألستم تشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وأن جنّته حق ، وناره حق ، وأن الموت حق ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من في القبور ؟ .

قالوا : بلى ، نشهد بذلك .

قال : اللهم اشهد . . إلى أن قال (ص) بعد أن أخذ بيد عليٍّ فرفعها حتى بانَ بياض إبطيهما : « أيها الناس ، من أولى الناس بالمؤمنين من أنفسهم ؟ .

قالوا : الله ورسوله أعلم .

قال : إن الله مولاي ، وأنا مولى المؤمنين ، وأنا أولى بهم من أنفسهم ، فمن كنت مولاه فعليّ مولاه . (قالها ثلاث ، وقال ابن حنبل قالها أربع مرّات) .

ثم قال : اللهمّ والِ من والاه ، وعادِ من عاداه ، وأحبَّ من أحبَّه ، وأبغض من أبغضه ، وانصُر من نصره ، واخذلْ من خذله ، وأدرِ الحق معه حيث دار . ألا فليُبلّغِ الشاهد الغائب ثم لم يتفرقوا حتى نزل أمين الله بقوله : ﴿ اليومَ أكملتُ لكمُ دينكمْ ، وأتممتُ عليكُم نعمتي ، ورضيتُ لكمْ الإسلامَ ديناً ﴾[1] .

فقال رسول الله (ص) : « الله أكبر على إكمال الدين ، وإتمام النعمة ، ورضيَ الربُّ برسالتي والولاية لعليٍّ من بعدي ؛ ثم طفق القوم يهنئون أمير المؤمنين (ع) وممن هنأه في مقدم الصحابة الشيخان أبو بكر وعمر كلٌ يقول :

---

(١) سورة المائدة، الآية ٣.

بخٍ بخٍ لك يا بن أبي طالب أصبحتَ وأمسيتَ مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة »[1] .

ينبغي للبصير من المسلمين أن يقسم بالنبي الأكرم (ص) على الله لأمر مهم من مثل التوفيق للعبادة ، ومساعدة الضعفاء والمساكين ، أو إنجاز عمل يدرُّ عليه رزقاً كثيراً يحفظ به نفسه وعياله من السؤال .

ولا يجدر به أن يقسم على الله بدعوات تافهة وهو جالس في داره فاغر فمه ، من مثل الدعوات التي يطلب فيها طعاماً شهياً ، أو امرأةً حسناء وما إلى ذلك ، بل يجب عليه أن يدعو بدعاء معقول ، فالقسم بالنبي (ص) وآله الأطهار (ع) أمر مهم ، لذا لا ينبغي أن يكون من أجل رئاسة أو تسلط في الدنيا على عباد الله ، لكون الدنيا بمجملها لا تساوي قيمة جناح بعوضة .

ولا أريد التقليل هنا من قيمة الدعاء ، وأن الله أمر موسى (ع) أن يدعوه حتى على تهيئة ملحه ، لكون الدعاء يقرّب الإنسان زلفى من الله ويجعله دائم الذكر والاتصال بالخالق الباريء .

ولكن لا يجدر بالمرء أن تكون الدنيا كل أمره ، ومن كان كذلك شتت الله أمره ، ومن كانت الآخرة همَّه الأساسي أصلح الله دنياه وآخرته .

أما بالنسبة لزواج الرسول من خديجة فلا بأس أن نتعرض هنا وبالذات في هذا الفصل الذي خصّصناه بالرسول الكريم (ص) في مختصر مفيد :

كانت خديجة (ع) امرأةً ثريةً ، وقد قام الإسلام بثروتها وبسيف عليّ ، فتكون بذلك قد فدت نفسها وثروتها من أجل أن يشيع النهج الإلّهي الحنيف ليشمل العالم بأسره ، وقد تحملت خديجة مشقة كبرى في أثناء الحصار الذي قام به الكفرة للمسلمين ، في شعب أبي طالب ، فحملت الطعام مراراً وتكراراً إليهم وبذلت الغالي والنفيس من أجل الرسالة والرسول (ص) ، وقد استغل بعض اليهود ذلك الرضع ، فاقترحوا على خديجة شراء قرية ومزرعة منها مقابل

(١) النص مأخوذ من الغدير/ج ١ ، ص ١٠ - ١١ .

حمل من تمر ، فقبلت اقتراحهم ذاك ، وكلَّفت صهرها لنقل التمر إلى شعب أبي طالب .

لقد طالت أيام الحصار لتصل إلى ثلاث سنين ، فيموت فيها الكثير من الرجال والنساء والأطفال ، ناهيك عن وفاة أبي طالب وخديجة في العام الأخير ، فيقطع البين بذلك جناحَي الرسول الأكرم (ص) ليسمي ذلك العام بعام الحزن .

كتب الحلبي وابن هشام في سيرتيهما : دخل الرسول يوماً إلى منزله فاستقبلته ابنته الزهراء ـ سلام الله عليها ـ وما إن لاحظت الدماء تسيل من قدميه ، والتراب يعلو وجهه ورأسه حتى أجهشت بالبكاء ، وخرجت إلى خارج الدار ، وقالت : لو كان أبو طالب حيّاً لما تجرَّأ أحد على فعل ذلك .

ولقد استعمل المشركون وأتباعهم كل الأساليب اللاإنسانية من تهم رخيصة ، وسبٍّ مقذع وحصار اقتصادي ومالي وتعذيب نفسي للرسول الأكرم (ص) وأتباعه المسلمين ، وقد روي عن جابر أن رسول الله (ص) مرَّ بعمار وأهله يعذَّبون في الله ، فقال : « أبشروا آل ياسر ، فإن موعدكم الجنة »[(١)] ، يقول ابن الأثير : كان المشركون يعذبون عماراً وأباه وأمه أشد العذاب ، وذلك بإخراجهم إلى الأبطح إذا حميت الرمضاء ـ الأرض ـ يعذبونهم بحرِّ الشمس الملتهبة ؛ وكانت سمية ـ رضوان الله عليها ـ أول شهيدة في الإسلام بعد أن ضربها أبو جهل بحربة وقتلها ؛ كما قتل ياسر هو الآخر تحت التعذيب الوحشي .

وشدَّدوا العذاب على عمار نفسه بالحر تارة وبوضع الصخرة على صدره أخرى وهم يريدون أن يسبَّ محمداً (ص) ويظهر الكفر وهو يمتنع عن ذلك حتى أجابهم إلى ما يريدون تقيّةً منهم ، وكان قلبه مطمئناً بالإيمان كما تقول الآية المباركة التي عرضت لهذا الأمر وبذلك نجا من الموت الذي كان ينتظره على أيديهم[(٢)] .

---

(١) إعلام الورى/ص ٤٨ .

(٢) الكامل لابن الأثير/ط. بيروت، ج ٢ ، ص ٦٧ .

ومن جملة من عذب (بلال) الحبشي ، وكان عبداً قد أسلم على يد رسول الله (ص) وكان مولاه إذا حميت الشمس وقت الظهيرة يلقيه في الرمضاء على صدره ويقول له : لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللّات والعُزّى ، وكان صابراً على تحمل كل ذلك العذاب والتهديد ولا يجيب إلا بكلمة واحدة يكررها ويقول : أحد أحد[1] .

لقد تمكن الرسول الأكرم (ص) من السيطرة الكاملة على الحجاز بعد مرور (١٠) سنوات على بداية دعوته . وإن أيامه التي يمكن أن تعدَّ سعيدةً كانت في المدينة المنورة على الرغم من إكراهه على القتال في (٧٤) غزوة وواقعة .

لقد كانت أغلب تلك الغزوات تدار بيد يهودية ، ويمكن القول : إن الجميع من مشركين ومنافقين يعدّون ضمن اليهود الذين قال الله فيهم : ﴿ **وضربتْ عليهمُ الذلّةُ والمسكنةُ وباءُوا بغضبٍ منَ اللّهِ ذلكَ بأنهمْ يكفرونَ بآياتِ اللّهِ ويقتلونَ النبيِّينَ بغيرِ الحقِّ ذلك بما عَصَوا وكانوا يعتدَون** ﴾[2] .

قال رسول الله (ص) : « . . . أما بعد أيُها الناس فما تنكرون من موت نبيِّكم ، ألم أنعَ إليكم ، وتُنع إليكم أنفسكم ، لو خلِّدَ أحد قبلي ثم بعث إليه لخلدت فيكم ، ألا إني لاحق بربي وقد تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلّوا كتاب الله تعالى بين أظهركم تقرؤنه صباحاً ومساءً ، فلا تنافَسوا ولا تحاسَدوا ولا تباغَضوا وكونوا إخواناً كما أمر الله ، وقد خلَّفت فيكم عترتي أهل بيتي وأنا أوصيكم بهم . . »[3] .

وقال (ص) أيضاً : « إني تارك فيكم الثقلين ، ما إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا بعدي وأحدهما أكبر من الآخر ، كتاب الله حبل ممدود بين الأرض والسماء ، وعترتي أهل بيتي ، ألا وإنهما لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض »[4] .

---

(١) نفس المصدر/ص ٦٦ .

(٢) سورة البقرة، الآية ٦١.

(٣) امالي الشيخ المفيد/ص ٣٧.

(٤) كنز العمال/ج ١ ، ص ١٧٢ .

قال رسول الله (ص) : « من قرأ القرآن ، فظن أن أحداً أعطي أفضل مما أعطي ، فقد حقَّر ما عظَّم الله ، وعظَّم ما حقَّـر الله »[1] .

قال الإمام الصادق (ع) : لقد تجلّى الله لخلقه في كلامه ، ولكنهم لا يبصرون[2] .

قال رسول الله (ص) : « إن أئمتكم قادتكم إلى الله فانظروا بمن تقتدون في دينكم وصلاتكم »[3] .

وقال أمير المؤمنين (ع) فيما أجاب به طلحة : « . . . إن أخذتُم بما فيه نجوتم من النار ، ودخلتم الجنة ، فإن فيه حجتنا ، وبيان حقّنا ، وفرض طاعتنا . . . »[4] .

اللهمّ إنا نشكو إليك غيبة نبيِّنا ، وكثرة عدوِّنا ، وتشتُّت أهوائنا فاحمِلنا على عفوك ، ولا تحملنا على عدلك بحق محمد وآله الطاهرين .

---

(١) وسائل الشيعة/ج ٤ ، ص ٨٢٧ .
(٢) بحار الأنوار/ج ٩٢ ، ص ١٠٧ .
(٣) بحار الأنوار/ج ٨٨ ، ص ٩٩ .
(٤) الاحتجاج/ج ١ ، ص ٢٢٥ .

[٣]
سيـر إلـى اللّـه

إن عالم الوجود في حركة دائبة ، وإنه لا بدَّ أن ينتهيَ إلى الحق تعالى ، وإن الإنسان سلك ثلاثة طرق ، فكان بذلك ثلاثة مجموعات أو أقسام :

١ ـ القسم الأول : الأفراد الذين عرفوا واهتدوا إلى الجادّة الصواب ، فساروا عليها ، وكانت تلك الجادّة هي نفسها التي سار عليها الأنبياء والرسل والأئمة والصالحون والشهداء : ﴿ ومَن يُطعِ اللّهَ والرسولَ فأولئكَ معَ الذينَ أنعمَ اللّهُ عليهمْ منَ النبيِّينَ والصِّدِّيقينَ والشهداءِ والصالحينَ وحسُنَ أولئكَ رفيقاً ﴾[١] .

وقد عرضنا في الصفحات السابقة إلى الصراط المستقيم وكيف أن الناس يختلفون في عبورهم عليه ، فمنهم من يمرُّ عليه كمرِّ الريح ؛ ومنهم من يمرُّ عليه مرَّ السحاب ، ومرَّ الخيل وما إلى ذلك .

وإن منتهى هذا السير في الدنيا قد يؤول إلى رحمة الله والفوز برضوانه من خلال الابتعاد عن المعاصي وتجنُّب الأثام وما يغضب الله ـ جلَّت أسماؤه ـ بعيداً عن هوى النفس وأوهامها التي تؤدي بالإنسان إلى الانحطاط والتدني والسقوط في الهاوية بعد الاضطراب الذي قد يحدث في السير على الصراط المستقيم .

وقد حدثتنا الروايات المتواترة : أن الإنسان قد يسقط في جهنم ، ولكنه يتمكن من الخروج ، وهي كناية عن سقوط الإنسان في الرذيلة في الحياة

---

(١) سورة النساء، الآية ٦٩.

الدنيا ، وتمكنه من الخروج على تلك الحالة ليصير إلى سلوك الجادة الصواب التي بيّنها لنا الله تعالى في كتابه الكريم وترجمها لنا رسوله (ص) في مجمل أحاديثه .

وقد يشعر البعض من خلال سيره على الطريق القويم بأن نفسه مطمئنة للقاء الباريء تعالى : ﴿ يا أيّتُها النفسُ المطمئنّةُ ارجعي إلى ربِّك راضيةً مرضيّةً ﴾[1] .

ونقرأ في الروايات عن بعض الأفراد الذين يردون الجنة مذهولين كالعاشق الواله ولا يوجد في قلوبهم إلا الله تعالى فلا يرون غيره ، ولا يسمعون كلاماً إلّا كلامه ، ليبقون في ذهولهم وحيرتهم عدة آلاف من السنين حتى لكأن الحور العين تشكو إلى الله منهم لعدم اهتمامهم واعتنائهم بما حولهم ، كأنهم غارقون في مقام الألوهية ولا شيء غير ذلك .

هكذا أفراد اهتدوا إلى الصواب في الحياة الدنيا ، وساروا على الطريق المستقيم ، طريق الإسلام الحنيف ، فاستمعوا إلى رسول الله (ص) وامتثلوا لأوامره ، وأوامر الأئمة الأطهار من بعده ، وهم من سمّاهم القرآن الكريم بـ « أصحاب اليمين » .

أما الذين سبقوا أصحاب اليمين إلى مراتب ودرجات أسمى ، وسمهم القرآن الكريم بـ « السابقين » .

٢ ـ القسم الثاني : أصحاب الشمال وينقسمون قسمين :

أ ـ قسم عرف الطريق الصواب ، ولكنهم لبسوا العناد واللجاجة ، فانحرفوا عن ذلك الطريق « وسمّوا باسم المنافقين » .

ب ـ وقسم لم يهتدِ إلى جادة الصواب بسبب قصوره أو تقصيره ، ولكنهم ليسوا من العناد في شيء وهم « الضالّون » .

وقد سمّى القرآن الكريم هذين القسمين من الناس بـ « أصحاب

---

(١) سورة الفجر، الأيتان ٢٧ و ٢٨ .

الشمال » ، وإن لهم لمراتب مختلفة فقد يكون انحراف البعض منهم أقلَّ من صاحبه ، ولكن يبقى القسمان غير مباركين ، وإن طبقات النار السبعة تنتظر قوافلهم ﴿ إنَّ المنافقينَ في الدَّرَكِ الأسفلِ منَ النارِ ﴾(١) .

٣ ـ القسم الثالث : هم ﴿ المغضوبِ عليهم ﴾ والذين أو ﴿وضربتْ عليهمُ الذِّلَّةُ والمسكنةُ وباءوا بغضبٍ منَ اللّهِ ﴾(٢) .

هؤلاء يموتون والشكُّ والشبهة تعتمر في قلوبهم فيدخلون جهنم مع قلقهم واضطرابهم ﴿ لا يزالُ بنيانُهم الذي بَنَوا رِيبةً في قلوبهمْ إلّا أن تقطَّعَ قلوبهُمْ ﴾(٣) .

وبهذا يدخلون مداخل الشك من خلال ذلك الاضطراب الذي لازمهم . والشك الذي كان أوضح سماتهم ﴿ ومن يُشرِكْ باللّهِ فكأنَّما خرَّ منَ السماءِ فتخطَّفَهُ الطَّيرُ ، أوْ تهوِي بهِ الرِّيحُ في مكانٍ سحيقٍ(٤) .

إن هؤلاء الذين عددناهم من القسم الثالث ، ضعفاء القلوب تسلّطت الأوثان والأصنام على قلوبهم ، فحب الدنيا والتكبر والغرور والعجب والأماني والحسد كلها أصنام متمثلة في صفات رذيلة .

فتراهم دائمي القلق والاضطراب لا يهدأ لهم خاطر ، وفجأة ينتقلون إلى العالم الآخر ، فينتبهون إلى ما كانوا فيه ؛ ولكن الوقت ، قد قطعهم ولا مجال للرجوع إلى الحياة الدنيا ليصلحوا ما كان في قلوبهم المترددة المضطربة ، وقد كان اضطرابهم راجعاً إلى تعدد آلهتهم التي ذكرنا (الحسد ، الكبر ، الطمع . . .) .

فلو كان الإنسان يعبد إلّهاً واحداً فرداً صمداً ، لن يُرى إلّا سائراً على صراط مستقيم وبقلب مطمئنٍّ ، لأنه تعالى يمنح الذي يركن إليه ارتياحاً خاصاً

---

(١) سورة النساء، الآية ١٤٥ .
(٢) سورة البقرة، الآية ٦١ .
(٣) سورة التوبة، الآية ١١٠ .
(٤) سورة الحج، الآية ٣١ .

بعيداً عن القلق والاضطراب .

قال الله تعالى في محكم كتابه : ﴿ لا يزالُ الذينَ كفرُوا تصيبُهُم بما صنَعُوا قارعةٌ ﴾[1] أي أن الذين كفروا دائماً يصابون بالدواهي التي تدخل الاضطرابات النفسية والأمراض العصبية ضمنها ، ناهيك عن إصابة أبنائهم وأزواجهم أو من هم أقرباؤهم الذين يرتضون لهم أعمالهم الكافرة .

فالذي يكون مصاباً بالقلق والاضطراب والشكّ في هذه الدنيا سيكون في الآخرة أيضاً على ما هو عليه الآن من الشك والضلالة .

وإن المضطرب في الحياة الدنيا لا يمكن أن يميز بين الحق والباطل ، أو لا يتمكن من التمييز بين الظلمة والنور مثله كمثل الأعمى الذي لا يفرِّق بين الليل والنهار .

وهذه الحالة جاءت من الإعراض عن ذكر الله تعالى : ﴿ ومنْ أعرضَ عن ذِكرِي فإنَّ لهُ معيشةً ضنكاً ونحشُرُه يومَ القيامةِ أعمى ﴾[2] ، ﴿ ومنْ كانَ في هذهِ أعمى فهُوَ فِي الآخرَةِ أعمى وأضلُّ سبيلاً ﴾[3] .

ومصاديق الإعراض عن الذكر عدم الصلاة ، أو عدم إتيانها في أوقاتها ، أو الاستخفاف بها وهذا ما يجرُّ على الإنسان قوارع ومصائب ومعيشةً ضنكاً ؛ ومن وصل إلى هذه الحالة ضلَّ وانحرف وسقط في مهاوي الرذيلة ؛ فتراه دائم القلق والاضطراب بعيداً عن راحة البال والهدوء النفسي .

أما ذلك الإنسان الذي سلك الطريق المستقيم بعيداً عن الرذائل والمعاصي تراه سعيداً مطمئنَّ البال والخاطر بسبب ركونه إلى خالقه تعالى الذي سخّر له ما في السموات والأرض ، وعندها لا يهتم إلا لروابطه مع الباري تعالى بعيداً عن الملق للسلاطين والرؤساء وما إلى ذلك .

يقال إن أحد الفلاسفة كان ينزل منزلاً من خمير الخلّ ؛ وحينما قدم

---

(١) سورة الرعد، الآية ٣١.

(٢) سورة طه، الآية ١٢٤.

(٣) سورة الإسراء، الآية ٢ ـ ٧.

الإسكندر المقدونيّ إلى تلك الولاية ذهب الناس جميعاً لزيارته إلا ذلك الفيلسوف فقال الإسكندر : سأذهب أنا لرؤيته ، وفي الوقت الذي أراد الفيلسوف إخراج رأسه من خمير الخلّ ليصيب بعض أشعّة الشمس حضر الإسكندر لزيارته فأصاب ظلّه رأس الفيلسوف . وبعد أن تحدث الإسكندر إليه ، طلب منه أن يقول حاجته فقال : إن حاجتي تكمن في إبعاد ظلك الظليل عن رأسي لأتمتع قليلاً بأشعة الشمس ؟! .

يقال : إن أحد العرفاء كان له دكاناً في سوق بغداد ، فجاء إليه أحدهم في أحد الأيام ليقول له : احترق سوق بغداد كله إلا دكانك لم تصبه النار بالمرة ، فقال : ﴿ الحمدُ للّهِ ربِّ العالمينَ ﴾ .

وبعد ساعة انتبه إلى أن قوله ﴿ الحمدُ للّهِ ربِّ العالمينَ ﴾ يعني الحمد لله لعدم احتراق دكاني ، والحمد لله على احتراق دكاكين الآخرين ، فانزعج كثيراً ، وظل يستغفر الله على مدى (٣٠) سنة وهو يقول : إلّهي أتوب إليك من تلك ﴿ الحمدُ للّهِ ربِّ العالمينَ ﴾ .

يقول البعض : « إذا متُّ عطشاناً فلا نزل القطر » .

ولو قال ذلك العارف هذه الجملة لمات من ساعته ، وحينها لن يتأتى له قول إلّهي أسأت ، وتبت إليك .

ولو فتحت في قلوبنا فتحة لشاهدنا قول : ليغطي الماء تمام المعمورة ، وليغرقها شريطة أن لا يصيب بيتي ما يمكن أن يضرّ بي ! وهذا هو عين الانحراف الحاكم على قلوبنا ، والآمر لنا ، بالرغم من ادعاءاتنا التي يفهم منها بأنّا على الصراط المستقيم سائرون .

جلس رجل أعمى البصيرة في مجلس الرسول (ص) وجاء آخر لكنه أعمى البصر ، ليجلس في ذلك المجلس إلى جنب أعمى البصيرة ، فابتعد بعض الشيء ـ وكان رجلاً متمولاً ثرياً ـ فامتعض الرسول الأكرم (ص) من ذلك الفعل وقال لأعمى البصيرة : لِمَ فعلت ذلك ؟ أتخاف أن يسري إليك فقرُ هذا الأعمى أم تخاف أن يسريَ شيء من ثروتك إليه ؟ فقال : أنا منستعد للتنازل عن

نصف ثروتي لهذا الفقير كيما ترضى عني ! فالتفت الرسول (ص) إلى ذلك الفقير الأعمى البصر ، وقال له : هل تريد نصف ثروة هذا الرجل ؟ .

فقال : لا .

فقال (ص) : ولِـمَ؟ .

فأجاب : أخاف على نفسي الاغترار بثروتي ، فأصبح مثل صاحبنا وبذلك أكون أعمى البصيرة ، إضافة إلى عمى بصري[1] .

قيل لأحد قادة جيش (ص) : عندما تذهب إلى قتال العدو عليك أن تتزيَّن بعض الشيء وتلبس لباساً جديداً ، وتركب أحسن وأفضل الخيل ليهابك العدو ، وما إن فعل ذلك وسار عدة خطوات حتى صرخ ونزل عن دابته قائلاً : إن فعلي ذاك أشعرني بالكبر والعجب والزهو .

وترى في أيامنا هذه بعض الأفراد يتكبَّرون ويصيرون جهنميين بسبب حصولهم على ماجستير في علم الحيوان أو دكتوراه في علم الفلك ، وما إلى ذلك ؛ فالماجستير الذي يوصل الإنسان إلى هكذا حالة ، لا يمكن أن يسمح لصاحبه بطاعة الأبوين ، والإنسان الذي نال شهادة الدكتوراه ورأى نفسه قريباً من القمر والنجوم لا يتأتّى له إلا أن ينعت أباه بالرجعية والتخلف ؛ وعجباً لهم ولعلمهم الذي يؤدي بهم إلى الانحراف والضلالة ، على الرغم من سماعنا إلى أن العلم يرقى بالإنسان ويسمو إلى حيث الدرجات العلى ، إذن ما كان لدى هؤلاء المتكبِّرين ليس علماً ، بل ضياعاً وانحرافاً وسقوطاً وتسافلاً في أسفل جهنم الحاملة .

لذا يجب علينا أن نشفق على أنفسنا ونترحَّم ونبحث عن الطريق المستقيم ، طريق محمد (ص) وأهل بيته الأطهار ـ سلام الله عليهم ـ .

يقول علماء الأخلاق : على الإنسان أن يكون مثل ذلك الذي يرافق الفيل ؛ ومن يرافق الفيل شخص بيده مطرقة يستعملها دائماً في ضرب رأس الفيل ، فإذا غفل عن ضربة واحدة ، ألقى الفيل بنفسه وبصاحبه في أتعس

---

(١) كحل البصر/ص ٦٨ .

المطبّات ، وعليه ينبغي للإنسان أن يراقب نفسَه الأمّارة بالسُّوء ويـديم ردعها وصدعها كيما لا تنحرف عن الصراط المستقيم والطريق القويم الذي سلكه وبيَّنه لنا أهل بيت الرسالة النبوية الشريفة .

إن النفس البشرية إذا لم تراقب طغت أبعادهـا الحيوانيـة على أبعادهـا الإنسانية ، وحينما يكون الأمـر كذلـك تنحرف عن جـادة الصواب إلى جـادة الضلال ، وحينها تنعت بالنفس الغافلة .

وإذا غفلت النفس هان عليها اللغو والاستماع له ، وتساهلت في أمر الغيبة والنميمة وما إلى ذلك من القضايا التي أمرنا الله باجتنابها وتركها والابتعاد عنها .

وتأتي كثرة الكلام واللغو في الحديث من التوغل في الشبهات بعيداً عن ذكر الله ـ جلّت أسماؤه ـ .

إن القاعدة الأولى التي يلتزمها العرفاء يعلمونها لمريديهم هي : « إيّاك إيّاك من التوغل في المشتهيات ، وإيّاك إيّاك من كثرة الكلام ، وعليك عليك بذكر الله بذكر الله » .

إن التكرار في مجمل العبارات إحدى القواعد العرفانية .

وقد لاحظنا هذه المسألة في مجمـل آيات القـرآن المجيد الـذي هو كالمعمل الذي يصنع البشر ، وكالكتـاب الأخلاقي الـذي يمتاز بـالتكرار في المسائل المهمة والخطيرة .

وبصدد التكرار الذي جاء في آيات القرآن المجيد اختلفت النظريات ، فترى البعض يقول بعدم تكرار فيه .

وقد يكون السبب في مقولته : الابتعاد عن المتاعب التي قد تترتب على تلك المقولة ، ونرى بعضاً آخر قضى ساعات وأياماً وشهوراً طوالاً ولم يتوصل لتوجيه لذلك التكرار .

ويقول قائد الثورة الإسلامية ومؤسس جمهوريتها : إذا لم يكن هنـالك تكـرار أحتسب الأمر ناقصاً ـ والعياذ بالله ـ فلا بدّ من التكرار في آيات القرآن ، لكونه كتاباً أخلاقيّاً محضاً ، والمسائل الأخلاقية تحتاج إلى تكرار دائمي كيما تأخذ

القيم والمثل موقعَها الصحيح من النفس البشرية .

ونقول : « الدرس حرف ، والتكرار ألف » أي أن الدرسَ الذي يلقي علينا أو نلقيه على الآخرين يجب أن يكرره السامع ويتذاكر به مع أصحابه ليتأكد في أعماق النفس ويقول العرفاء : إن درساً أخلاقياً واحداً في الأسبوع كاف جداً بشرط أن يكرر السامع ذلك الدرس على نفسه عدة مرات من خلال التمارين والمذاكرات .

وإذا كان الشيخ الأنصاري ـ عليه الرحمة ـ الذي كتب كتباً تعدُّ دوائر معارف للمجتهدِين والمراجع يستمع أسبوعياً إلى محاضرة أخلاقية يلقيها أحد تلامذته ، ثم يعقِّب على تلك المحاضرات بقوله : إن قلوبنا علاها الصدأ وما علينا إلا أن نحضر محاضرة الآخوند الهمداني في الأسبوع القادم ـ هذا على سبيل المثال ـ كيما نتمكن من جلي الصدأ عن قلوبنا .

ويقول أيضاً : إن محاضرةً واحدةً في الأسبوع كافية ، مشروطة بتكرار المحاضر والسامع لها ، كي تأخذ العبارات الأخلاقية مساراً في النفس البشرية ، فتحيلها إلى نفس ملتزمة مطيعة عاملة ، ولا يقف الأمر عند هذا ، بل يتعداه إلى العمل بما كرر من معان أخلاقية ، ولا بأس أن يحدد الإنسان ساعة في كل (٢٤) ساعة لهذا التكرار الأخلاقي .

يقول أحد العلماء الكبار : « لا أعرف السبب في احتياج الفقه والأصول والفلسفة والعلوم الطبيعية وعلم الجفر إلى أساتذة ، ولا يحتاج علم الأخلاق بظرافته ولطافته ودقته إلى أستاذ ؟! .

أقول لكم : إنكم ترومون شهادات ، ونيل الشهادة الدراسية يتطلب رؤية الأساتذة ، وعمل التمارين ، وتكرارها ؛ ولكن هل علم الأخلاق أقل من تلك العلوم في نظركم ، حتى لا يحتاج إلى متابعة وتكرار وأستاذ ؟ .

إننا ـ مع الأسف ـ نهتمُّ بجميع الأمور باستثناء تلك التي هي لازمة لحياة سعيدة ! .

إن في آيات القرآن الكريم تكراراً واضحاً ، وينبغي أن يكون كذلك ،

وإذا انعدم ذلك فيه عدَّ ناقصاً ـ والعياذ بالله ـ، وقد تستمعون إلى تكرار بعض الجمل مني ، ولا تظنّون بأنها مكررة ، ولا يعلق على ذلك بشيء .

أما بالنسبة لآيات القرآن الكريم ، فليس بهذا الشكل مطلقاً ؛ فقد يطول البحث في آية قرآنية واحدة عاماً واحداً دون أن تكون تلك الآية مكررة .

وما التكرار الموجود في آيات القرآن الكريم ، إلا من أجل التمعن والتفكير في آية من الآيات على مدار أسبوع واحد في الأقل .

ومن هنا نفهم أن التمرين من مستلزمات الرسوخ ، وما التكرار إلا للتمرين والتوكيد .

قديما ذهب أحد العلماء إلى عيادة أحد الأطباء في أصفهان ولم يكن في كل أصفهان حينها غير طبيبين لا يراجعهم أحد ، فيجلسان لقراءة القرآن الكريم كيما يراجعهم أحد على عكس ما نراه اليوم من زحام على عيادات الأطبّاء الذي قد يطول زمانه على أحدهم ساعات وساعات ، وهذا هو من هدايا تمدُّن اليوم وحضارته .

على أيّة حال : جلسَ ذلك العالم في عيادة الطبيب حيث كانت قبلَه امرأة قروية تسعى لفهم مسألة من الطبيب ؛ وتقول : أيها الطبيب لقد وضعت النسخة التي كتبتها لي في الماء بعد أن سخّنته جيدا ، ثم شربت ذلك الماء ، ولم أر تغييراً يذكر على حالتي فما السبب في ذلك ؟ .

اغتاظ الطبيب وصاح بها : لقد قلت لك بتسخين الدواء الذي كتبته لك على تلك النسخة ، والذي كان المفروض بك أن تشتريه من الصيدلية ، ولم أقل لك بتسخين النسخة في الماء ؟! .

إنك بعملك هذا تحرِّمين على نفسك لقمة الخبز التي يتعب بها زوجك من أجلك! أنه أعطاك الخبز لتأكليه ولم يعلمك كيفية العيش ! .

فضحك من كان في العيادة وسخروا منها . وبعد ذلك ندِم على فعلته وكتبَ نسخةً جديدةً وقال لها : أُختاه هذه هي نسختك فاذهبي إلى الصيدلية الواقعة في المكان الفلاني ، واشتري هذا الدواء الذي كتبته لك ، وحين تتناوليه

تشفين بإذن الله تعالى .

وجاءت نوبة العالم ليدخل على ذلك الطبيب ويقول له : ما الذي فعلتَه أيها الطبيب المحترم ؟ .

فأجاب : بما الذي فعلت ؟ .

فقال العالم : لقد كان فعلُك مع تلك المرأة القروية المظلومة سقوطاً ، بل تسافلاً ، لأنك أهنتَ امرأةً مسلمةً ، وأن الإمام الصادق (ع) يقول : « من أهانَ وليّاً فقد بارزني بالمحاربة »[1] .

والمسألة الثانية أنك سخرت منها واستهزأت بها ، وأن الفرد لا يخرج منَ الدنيا حتى يرى عاقبةَ أمره ذلك ، أو يتوب ويستغفر ؛ وقد قال الله تعالى في محكم كتابه : ﴿ يا أيُّها الذين آمنُوا لا يسخرْ قومٌ منْ قومٍ عسى أن يَكُونوا خيراً منهُم . . ﴾[2] .

أما السقوط الثالث الذي سقطته ، فهو قولك لها : « إنك بعملك هذا تحرِّمين على نفسك لقمة العيش التي يتعب بها زوجك من أجلك » وهذا كذب محض ، وعلى العكس من ذلك ، فهي امرأة نشيطة تهتمُّ ببيتها وزوجها وأولادها ، ولو تأتّى لزوجها أن يتلف من أجلها كل مال الدنيا ، فهو قليل بحقِّها ، لإخلاص فيها ، ورحمة على أولاده .

وعليه ينبغي للإنسان التحفظ فيما يقول ، فقد يؤدي به حديث أو جملة واحدة إلى عدة منحدرات من قبيل التهمة والغيبة والكذب وما إلى ذلك من العبارات النابية التي يراد منها إهانة خلق الله وعباده .

ومن خلال مطالعتنا لبعض الروايات عرفنا أن البعض من الناس يسعى نورهم بين أيديهم يوم القيامة ؛ فمن الظلم أن يتلف الإنسان ذلك النور بكذبة أو اتهام أو غيبة أو سخرية يريد بها دفع التعب عن كاهله ، فيسخر ويضحك ويستهزىء بالآخرين . وإن الإنسان ليظلِمُ نفسَه عندما يؤتى به على هيئة كلب أو

(١) بحار الأنوار/ج ٧٥ ـ ص ١٤٢ ـ باب ٥٦ .

(٢) سورة الحجرات، الآية ١١ .

خنزير أو كلب، إنها جناية على نفسه، وليس لأحد في ذلك الأمر يد. فهو الذي اتهم فلاناً. فأحاله الباري يوم القيامة إلى قرد أو خنزير، وهو الذي سبّ زيداً فيصير إلى كلب في يوم كشف السرائر وبلائها.

لقد قال لي أحد العلماء ـ رحمة الله عليه ـ إن التفكير بما سيؤدي إليه الكذب والسخر والاستهزاء وما إلى ذلك يقصم الظهر. فتعالوا نبعد جميعاً عن تلك الرذائل بعيداً عما يمكن أن تصير إليه.

«اللهمّ اغفر لي ما أنت أعلم به مني، فإن عدت فعد عليّ بالمغفرة.

اللهمّ اغفر لي ما وأيت من نفسي، ولم تجد له وفاءً عندي.

اللهمّ اغفر لي ما تقربت به إليك بلساني، ثم خالفه قلبي.

اللهمّ اغفر لي رمزات الألحاظ، وسقطات الألفاظ وشهوات الجنان، وهفوات اللسان».

[٤]

سيـر إلـى اللّـــه

موضوعنا هذا يـدور حول أولئـك الذين اهتَـدوا إلى الصراط المستقيم والطريق القويم .

والأخطار المحدقة بهم في سيرهم هذا ، أخطار خارجية وأخطار داخلية ، أخطار باطنية وأخطار يمكن أن تواجههم في مجتمعاتهم .

إن تلك الأخطار الخارجية والداخلية تحاصر الإنسان لتحرفَه عن الجادة الصواب والطريق المستقيم .

وكما قلنا إن الطريقَ ذاك الذي سمَّينـاه الصراط المستقيمَ هـو أدقُّ من الشعرة ، وأحدُّ من السيف ، وإن الغفلة لتحرفنا عن ذلك الصراط الـدقيق ، فنصير حينها إلى ما لا تحمد عقباه .

فالغفلة خطر حقيقي يؤدي بالمرء في بعض أحيانه إلى الكفر .

وبناءً على ذلك ينبغي للإنسان أن ينتبهَ إلى ما هو فاعل وإلى ما هو قائل كي يبقى سويّاً في سيره إلى خالقه .

فمـا أكثر الـذين أعرفهم من المقـدّسين عند أغلب النـاس وهم علماء ومثقفون آلت عاقبتهم إلى سـوء من جراء انحـرافهم الذي صـاروا إليه لعـدم التزامهم بعض الفرائض ، أو لإيغالهم في المعاصي والآثام ! .

إن العدوَّ الأول للإنســان ، وهو مـا يمكن احتسابـه عدوّاً بـاطنياً هـو :

« الغفلة » ، فلو غفل الإنسان عن بعض الفرص الدنيوية لخسر ، وكانت خسارته ماديةً (دنيوية) ، أو قد تكون الخسارة معنوية .

فلو تغافل الإنسان أو غفل عن بعض الأعمال الخيرية خسر نفحةً من نفحات الله ـ جلّت أسماؤه ـ .

قال (ص) : « اطلبوا الخير دهركم كله ، وتعرضوا لنفحات الله ، فإن لله نفحات من رحمته يصيب بها من يشاء من عباده »[١] .

وقال أيضاً (ص) : « تعرَّضوا لرحمة الله بما أمركم من طاعته »[٢] .

لقد شاهدنا في مجمل حياتنا الكثير من الرجال والنساء الغافلين الذين أذهبوا دنياهم سُدى ، وكذا الآخرة وما فيها من نعيم تُسدُّ أبوابها في وجوههم إذا غفلوا عن الخير .

وقد شبَّهَ القرآن الكريم الغافل عما يدور حوله من عظمة لله ونفحة خير له بأقل من الحيوان فقال : ﴿ ولقدْ ذرأْنا لجهنمَ كثيراً منَ الجنِّ والإنسِ لهمْ قلوبٌ لا يفقهونَ بها ، ولهمْ أعينٌ لا يبصرونَ بها ، ولهُم آذانٌ لا يسمعُونَ بها ، أولئكَ كالأنعامِ بلْ همْ أضلُّ أولئكَ همُ الغافلونَ ﴾[٣] .

فإذا استفدنا من هكذا آياتٍ ، وجعلناها على رأس أعمالنا نصل إلى ما نريد ، ولو تأتّى لنا فعل ذلك من قبل لما وصلنا إلى ما نحن عليه الآن من مصائب وبلايا ولا بأس بقراءة هذه الآية يومياً لكي يخرج الإنسان من غفلته ، بعد أن يفكر في الوضع الذي سيؤول إليه يوم القيامة بغفلته ، فقد يضحى حماراً ليس إلا ، ويأتي إلى صفوف الحشر ليشاهده الناس على حقيقته التي جرَّته إليها الغفلة والتغافل .

إنها ألدّ أعداء الإنسان ولو استولت عليه ـ لا قدّر اللّهُ ـ آل البشر إلى ذلة ما بعدها ذلّة .

---

(١) كنز العمال/خ ٢١٣٢٥ .

(٢) تنبيه الخواطر/ص ٣٦٠ .

(٣) سورة الأعراف، الآية ١٧٩ .

إن أغلب البشر ضاعوا في متاهات هذه الحياة الدنيا ، فتغافلوا وغفلوا عن الدين والمسائل المعنوية والأخلاقية ، بل إن الكثير منّا لا يطرق ذهنه وفكره المسائل المعنوية ، وعلى سبيل المثال ، يصلي ويصوم ويزكي من أجل أن لا يدخل جهنم ولكنه لا يعرف شيئاً عن القضايا الأخلاقية أو المعنوية .

وإن ٩٠٪ من الناس لا يلتفتون إلى هكذا مسائل .

وهذه المسائل هي التي ستؤدي بالإنسان إلى أن يتحسّر ويتأوّه ويعضّ على بنانه عند الموت ، وفي حالة الاحتضار .

فهل فكّر أحدنا بالتكبُّر الذي فينا ، وإلى أين سيؤدي بنا ؟ .

هل سأل أحدنا نفسَه ما مصيرُنا لو وصل الأمر أن تكون الصفات الرذيلة هي الحاكمة على أخلاقنا من قبيل الحسد والكذب والمنة ؟ .

هذه هي عين الغفلة!! .

نوم ما بعدَه نوم ، وغفلة ما بعدها غفلة ؛ الويلُ لنا من هذه الغفلة .

يقول رسول الله (ص) : « الناس نيامٌ فإذا ماتوا انتبهوا »[١] .

وعند ذاك لا يحتاج المرء إلى ديبلوم وبكلوريوس وماجستير ، لأن الجميع هناك يقظون منتبهون غير غافلين ولا نائمين ، فلا يحتاج أحد حينئذ إلى العلم لكون الجميع يرون بعضهم البعض ، بلا ستر ولا حجاب ، فيتعرّفون أعمال بعضهم البعض وتسقط الخدود حياءً وخجلاً من رسول الله (ص) الذي سيكون حاضراً عندما يحاسب الباري أمته ؛ وهناك : ﴿ يومَ تجدُ كلُّ نفسٍ ما عملتْ منْ خيرٍ محضراً ، وما عملتْ من سوءٍ تودُّ لوْ أنَّ بينَها وبينَه أمداً بعيداً ويحذِّركمُ اللّهُ نفسَهُ ﴾[٢] .

قال أمير المؤمنين وسيِّد الوصيين علي (ع) : « الغفلة والغرور أشد سكراً

---

(١) كنز العمال/ج ١٥ ، ص ٥٤٢ ـ ٧٥٨ ، كتاب الموات وأحوال تقع بعده .

(٢) سورة آل عمران، الآية ٣٠.

من الخمور »[1] ، وقال الإمام الصادق (ع) : « إيّاكم والغفلةَ ! فإنه من غفل فإنما يغفل عن نفسه ، وإيّاكم والتهاون بأمر الله عزّ وجلّ فإنه من تهاون بأمر الله أهانه الله يوم القيامة »[2] .

إن الروايات المتواترة تخبرنا بوضع الغافل عندما يطرق بابه ملك الموت بعد أن قضى عمراً طويلاً في الضلالة والانحراف ، قضى عشرات السنين مثله كمثل الأنعام بل كان أضلَّ منها ، يصحو صباحاً ليذهبَ إلى المدرسة أو الجامعة أو الدائرة وفي الليل يأكل غذاءه لينام ، أو ليقوم ثانيةً في اليوم التالي ليمارس نفس الأعمال التي مارسها بالأمس دون الالتفات إلى ما يريد الله منه ، وعند الاحتضار يقول : ﴿ ربِّ اجعونِ لعلّي أعملُ صالحاً فيما تركتُ ، كلّا إنها كلمةٌ هو قائلها ومنْ ورائهم برزخٌ إلى يوم يبعثونَ ﴾[3] وعند ذاك يسأل عن شبابه فيمَ أبلاه ، وعن عمره فيما أفناه فلا يتاح له أن يجيب .

وبماذا يجيب ؟ .

إنه لم يعمل خيراً ، وإذا كان قد عمل خيراً ، فبِمنَّة وضعها في رقبة ذلك الرجل الذي قَبِلَ الخير منه .

إن الإنسان موجود مركب من بُعدين : بعد مادي ، وبعد معنوي ، وليس من الأنعام في شيء ، ولكنه يضحى كذلك حينما يغفل عن أمر الله تعالى ، ويجري خلف الماديات دون المعنويات ، ومن هنا تبدأ البليّة والرزيّة ، فحاله حال ذلك الذي يذهبون به إلى المحكمة ، وقبل بلوغ طاولة المحاكمة يكرهونه على كتابة كل أعماله ويقرونه عليها ، ويثبتون ذلك في ملفّه الأسود ؛ هكذا يأتي المسيء إلى ساحة الحشر التي أعدها الجبار المتكبِّر .

وعند ذلك يطلب من البشر عرض أعمالهم ، فمن كان له عمل من أجل الآخرة نجا ، واخضرَّت بساتينه ؛ ومن جاء بلا عمل إلا السيء منه غاب في ظلمات كبحر لجيّ .

---

(١) غرر الحكم/ص ١٤ ، ص ٧٢ .

(٢) ثواب الأعمالجص ٢٤٢ .

(٣) سورة المؤمنون ، الآية ١٠٠

﴿ وإنَّ الدارَ الآخرةَ لهِيَ الحيوانُ لوْ كانُوا يعلمونَ ﴾[1] .

كان لقمان الحكيم غلاماً لأحد الناس ، وكان مولاه إنساناً جيداً ، ومن المعتقدين بالله ـ تعالت أسماؤه ـ ولكنه كان مغروراً ، وعند المساء نام الجميع وهدأت الأجساد ، ولم تمض إلا سويعات حتى فاق لقمان لصلاة الليل ، ولكنه لم ير أثراً لمولاه الذي يدَّعي الاعتقاد بالله ، فتعجب للأمر وذهب إليه وقال له : سيِّدي الجليل أفِق من نومك لنصليَ معاً صلاة الليل ، فقافلة المصلين لم تغفل عن الأجر والثواب ، وهمسات سبوح قدوس قد ملأت أرجاء الكون ، فانهض للصلاة يا سيِّدي ! .

فأجابه : ما أزال أحتاج إلى النوم ، فدعني ساعةً ، وسأقوم بعدها وإن الله أرحم الراحمين . وصار الوقت إلى أول أذان الصبح ، فذهب إليه ثانيةً ، وقال له : قُم لصلاة الصبح أول وقتها ، فأجابه : دعني أنام قليلاً وسأقوم بعد ذلك ، فإن الله أرحم الراحمين . وقرابة طلوع الشمس جاءه لقمان للمرة الثالثة ليقول له : انهض يا سيدي ، فالصبح قد لاح ، والديك قد صاح ولم يبق على الشروق إلا مسافة رمح واحد ، فأجابه : دعني يا هذا ! فإن الله أرحم الراحمين .

بزغت الشمس ، وصاحبنا غافل عنها يغطُّ في نوم عميق ، ولم يُفق من نومته تلك إلا عندما أحرقت أشعة الشمس ساقيه اللتين خرجتَا من تحت غطائه .

وفي الصباح أعطى لقمان حفنةً من القمح وقال له : اذهب إلى المزرعة الفلانية وابذُر هذه الحبوب هناك .

ومن أجل أن يعطيَ لقمان مولاه درساً ذهب إلى هناك وبذر حبوباً من « الدُّخن » ورجع ليخبره بذلك ، فقال له مولاه : هل جننت بفعلك هذا ؟ .

فقال لقمان : إن الله أرحم الراحمين ، وقد رأيت أن القمح ثمين والدُّخن غير ذلك فآثرت زراعة الأخير علَّنا نحظى بالقمح وإن الله أرحم الراحمين .

فقال له مولاه : من أين تعلَّمت ذلك ؟ .

---

(١) سورة العنكبوت، الآية ٦٤.

قال : منك يا مولاي لكونك تنام الليل كله ولا تصحو لصلاة الصبح وتقول إن الله أرحم الراحمين ترجو بذلك الفوز بالجنة والرضوان وحور العين ونور يعلو وجهك في محشر يوم القيامة !! .

بل إن ما زرعتُه سوف تحصده ، فمن زرع قمحاً حصد قمحاً ، ومن زرع دخناً حصده والدنيا مزرعة الآخرة .

قال عزّ من قائل في محكم كتابه : ﴿ . . يَوَدُّ المجرمُ لوْ يفتدِي من عذابِ يومئذٍ ببنيه ، وصاحبتِهِ وأخيهِ ، وفصيلتِهِ التِي تأويه ، ومَنْ فِي الأرضِ جميعاً ثمَّ ينجيهِ ، كلاّ إنَّها لظى ، نزاعةً للشوى ﴾[1] .

وهنا تبدو الحسرة والندامة على الغافلين حينما يَرونَ المجموعات وقوافل الشهداء والصالحين ومن حسنت رفقته مشغولين بالورود إلى جنة المأوى ، يسعى نورهم بين أيديهم ؛ ﴿ يومَ ترى المؤمنينَ والمؤمناتِ يسعى نورهُم بينَ أيديهِم وبأيمانهم بُشراكُمُ اليومَ جناتٌ تجرِي منْ تحتهَا الأنهارُ خالدينَ فيها ، ذلكَ النورُ العظيمُ ﴾[2] .

إنهم لم يحظوا بذلك اعتباطاً ، بل لأنهم كانوا مؤمنين ، أقاموا الصلاةَ وآتَوا الزكاةَ وأمروا بالمعروف ونَهوا عن المنكر ، وصدّقوا وعفُّوا أفواههم وبطونهم وفروجهم عن الحرام فجعل لهم ـ تعالت أسماؤه ـ نوراً يسعى بين أيديهم وبإيمانهم ، وبشّرهم بجنات تجري من تحتها الأنهار ؛ إنهم كانوا مكابدين ومجاهدين وعاملين على علم ، فأرضاهم الباري بأن حباهم فوزاً وسعادةً وخلوداً .

أما الذين لم يعملوا خيراً في حياتهم فتراهم يلتمسون الفائزين ﴿ يومَ يقولُ المنافقونَ والمنافقاتُ للذينَ آمنُوا انظُرُونَا نقتبِسْ منْ نورِكِم ، قيلَ ارجِعُوا ورائكم فالتمِسوا نوراً ، فضربَ بينَهُم بسُورٍ لهُ بابٌ باطنُهُ فيهِ الرحمةُ وظاهرهُ من قِبَلِهِ العذاب ، يُنادونَهُم ألمْ نكنْ معكم ، قالوا بلى ولكنَّكم فتنتُم

(١) سورة المعارج، الآيات ١١ ـ ١٦ .
(٢) سورة الحديد، الآية ١٢ .

أنفسَكُم وتـربَّصتم وارتبْتُم وغرّتكم الأمـانِيّ حتى جاءَ أمرُ اللّهِ وغرّكُم بـاللّهِ الغَرورِ ﴾[1] .

يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا ، أي انظروا إلينا ، فإذا نظروا إليهم استضاؤا بنورهم ، أو انتَظِرونا لأنهم يمضون كالبرق الخاطف إلى الجنة (وقرىء بهمزةٍ وكسرِ الظاء) أي أمهلونا (نقتبس) نأخذ قبساً (من نوركم) فقيل لهم تهكماً بهم (ارجعوا وراءكم) إلى المحشر حيث أعطينا النور (فالتمسوا نوراً) أو إلى الدنيا فاطلبوه بالإيمان والطاعة (فضرب بينهم) بين الفريقين (بسور) بحائط (له باب باطنه) باطن السور أو الباب (فيه الرحمة) بـالجنة للمؤمنين (وظـاهره من قبله) من جهتـه (العذاب) بـالنار للمنـافقين (ينادونهم ألم نكن معكم) أي أننا كنا موافقين لكم ظاهرياً (قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم) بالنفاق (وتربصتم) بالمؤمنين الدوائر (وارتبتم) وشككتم في الدين (وغرتكم الأماني) الآمال الطوال (حتى جاء أمر الله) بالموت (وغرّكم بالله الغرور) أي الشيطان أو الدنيا .

لقد ذكرنا في بحثنا الأول أن الندامة تبدأ من ساعة الاحتضار لتستمر إلى يوم القيامـة ، وعندمـا ييأس الجهنميـون من رحمة أو بـرد أو سلام يشـرعون بالاصطراخ (وهم يصطرخون فيها) ، أي يستغيثون بصراخ أي صياح قائلين : ﴿ ربّنا أخرجنا نعملْ صالِحاً غيرَ الذي كُنّا نعمل ﴾ ونحسبه صالحاً وقد تحقق الآن لنا خلافه فيقال لهم توبيخاً ﴿ أولَم نعمِّركم ﴾ عمراً ﴿ ما يتذكَّر فيه من تذكَّر ﴾ رويَ أنها ستّون ، وقيل : أربعون ، وقيل : ثماني عشـر ﴿ وجاءكم النذيرُ ﴾ الرسول أو الكتاب أو الشيب أو العقل أو موت الأهل ﴿ فذُوقوا فمَا للظالمينَ منْ نصيرٍ ﴾ لا يوجد من يدفع العذاب عنهم ﴿ إنَّ اللّهَ عـالمُ غيبَ السمواتِ والأرضِ ﴾ ولا يخفى عليه شيء [2] .

إن أعلى مراتب الظلم تتمثل في عدم معرفة الإنسان لنفسه ، لا يعرف أين هو ؟ ومن أجل أي شيء جاء ؟ وإلى أين يتجه في سيره ؟ .

---

(١) سورة الحديد، الآيتان ١٣ و ١٤ .

(٢) سورة فاطر، الآية ٣٨.

لذا يتطرّق القرآن المجيد إلى تبيان مقام الإنسان السامي وحمله للأمانة الإلٓهية .

﴿ إنّا عرضنَا الأمانةَ على السمواتِ والأرضِ والجبالِ فأبَيْنَ أن يحملْنَها وأشفقْنَ منها وحملَها الإنسانُ إنهُ كانَ ظلوماً جَهُولاً ﴾[1] .

و ﴿ إنّا عرضنا الأمانةَ ﴾ أي عرضنا الطاعة المعلق بها الفوز فإنها واجبة الأداء كالأمانة ﴿ على السمواتِ والأرضِ والجبالِ فأبينَ أن يحملنَها ﴾ أي هي لعظمتها بحيث لو عرضت على هذه العظام وكان لها شعور لأبيْن حملها ﴿ وأشفقن ﴾ خِفن ﴿ منها وحملها الإنسان ﴾ مع ضعفه ، أي جنسه باعتبار الغالب ﴿ إنهُ كانَ ظلوماً ﴾ حيث لم يؤدِّها ﴿ جَهولاً ﴾ بعظمة شأنها أو أريد بالأمانة ما يعمُّ الطاعة الطبيعية والاختيارية .

قال أمير المؤمنين علي (ع) : « كفى بالمرء جهلاً ألاّ يعرف قدره »[2] ؛ فمن جهل قدر نفسه ضلَّ وانحرف وعمل على وفق ما تمليه عليه نفسه الأمّارة بالسوء ؛ على العكس من ذلك الذي عرف قدر نفسه ، فكان حذِراً في قوله ، حذِراً في فعله وفي كلِّ حركاته وسكناته ، ولا بأس بالمرء أن يفكر في هذا الأمر المهم ولا يغفل عنه ، لكون الغفلة تؤدي بالإنسان إلى ممارسة المعاصي ؛ قال رسول الله (ص) : « تفكر ساعة خير من عبادة سبعين سنة »[3] .

وقال أمير المؤمنين (ع) في وصيته لابنه الحسن (ع) : « أي بنيَّ ! الفكرة تورث نوراً ، والغفلة ظلمة . . . »[4] .

وقال ـ سلام الله عليه ـ أيضاً : « التفكر يدعو إلى البر والعمل به »[5] .

---

(١) سورة الأحزاب ، الآية ٧٢ .

(٢) نهج البلاغة/صبحي الصالح ، ص ١٤٩ .

(٣) بحار الأنوار/ج ٧١ ، ص ٣٢٦ .

(٤) تحف العقول/ص ٦٥ .

(٥) الكافي/ج ٢ ، ص ٥٥ .

« اللهمّ صُن وجهي باليسار ، ولا تبذل جاهي بالإقتار ، فاسترزق طالبي رزقك ، واستعطف شرار خلقك ، وابتلي بحمد من أعطاني ، وافتتن بذم من منعني ، وأنت من وراء ذلك كله وليُّ الإعطاء والمنع إنك على كل شيء قدير » .

[٥]

سير إلى اللّه

تعرضنا في بحثنا السابق إلى موضوع العدو الأول الذي هو الغفلة ، ونتعرض في هذا البحث إلى موضوع العدو الثاني الذي هو أيضاً عدوٌ مهمٌ وخطير ينبغي لنا أن نحاربه ونجاهد من أجل دفعه مثلما نريد دفع الغفلة عنا التي تريد أن تحرفنا عن الطريق القويم حالها حال العدو الثاني الذي يلتزم الغاية نفسها .

والعدو الثاني هو : التخيُّلات الوساوس ، الأماني والرغبات .

فالتخيُّل والتمنِّي هما أساس وجذور الكبر والتكبر ، فنرى الإنسان المخيِّل يتصور نفسه أفهم وأعلم من الآخرين بعد حصوله على شهادة الماجستير مثلاً فتراه يتكبر على من هم أقل منه مراحل دراسية فيصدر عن التكبر مسألة التفاخر .

فالتفاخر موجود بشدة عند الغالبية العظمى من النساء ، وكذا عند أهل العلم والمثقفين ، فنراهم مثلاً يستخدمون كلمة « أنا » بإسهاب يتصورون أنهم يمتلكون علم الأولين والآخرين ولا يعرفون أن علمهم لا يساوي قطرةً في بحر ! ﴿ وما أُوتيتُم منَ العلمِ إلاّ قليلاً ﴾[١] .

هل فكّر أحد هؤلاء المدَّعين للعلم والأعلمية بالمكان الذي جاء منه العلم ؟ أو الشخص الذي أعطاه ؟ .

---

(١) سورة الإسراء، الآية ٨٥.

وهل هو ملك لذلك الذي يقول « أنا » و « أنا » ، فلو كان العلم في أصله لك ، فلا بأس أن تتفاخر ، ولكنك تعرف جيداً أنك مكتسب للعلم ليس إلا .

ولكن التخيُّل والتوهُّم هو الذي جعلك تتصور معرفتك لكل الأمور ، وأنك تعلم السر وما يخفى .

هذا لكونك تعلمت عدة اصطلاحات أدبيّة؟! أو بضعة قوانين رياضية؟! .

ومن خلال تلك المعلومات التي هي ضائعة في مقابل العلم والعلماء تتفاخر على الصغار والكبار ؟! .

قد يتخيَّل المرء أن المال شيء والرياسة شيء ، والرياسة أمر اعتيادي ، وامتلاك الأموال أمر اعتيادي ، وعلى الرغم من أن الأمر اعتيادي تراه يتخيَّل بأنه أصبح شيئاً مهماً ، وأنه بامتلاكه لتلك الأموال والرياسة خالد ولا يعرف الموت إليه طريقاً .

﴿ ويلٌ لكلِّ هُمزةٍ لُمزةٍ ، الـذي جمعَ مـالاً وعددَهُ ، يحسبُ أنَّ مـالَهُ أخلدَهُ ﴾[1] إنه الخيال ولا شيء غيره .

لقد تخيل صاحبنا أنه سيخلَّد في الدنيا فاشتد حرصه على ماله ، أو قد يكون طال أمله فأغفله عن الموت وحسب أنه مخلد ؛ قال رسول الله (ص) : « إن أخوف ما أخاف عليكم خصلتان : اتباع الهوى ، وطول الأمل ؛ أما اتباع الهوى ، فيصدُّ عن الحق ، وأما طول الأمل فينسي الآخرة »[2] .

هذا ناهيك عن أن جمع الأموال وطلب الرئاسة والحكم تدخل ضمن حب الدنيا ؛ قال رسول الله (ص) : « حبُّ الدنيا رأس كل خطيئة »[3] .

وقال أمير المؤمنين (ع) : « . . . فإن حب الدنيا يعمي ويصم ويبكم ويذل الرقاب »[4] .

---

(١) سورة الهمزة، الآيات ١ ـ ٣.

(٢) كنز العمال/خ ٤٣٧٦٤ ، بحار الأنوار/ج ٧٣ ، ص ١٦٢ .

(٣) تنبيه الخواطر/ص ٣٦٢ .

(٤) الكافي/ج ٢ ، ص ١٣٦ .

وخلاصة الأمر : هي أن حب الدنيا وحب المال يجر إلى التخيل والتوهم ، والعاقل لا يمكن أن يقع في الخيال والتوهم الذي يوقع الإنسان في الافتخار على الآخرين بلا مبرر حقيقي .

فإذا قال : أنا عالم ، فالعلم الذي عنده مكتسب ، والعالم هو الله وحده وهو الذي يجب أن يفتخر بعلمه ، ولذا لا يرضى الله أن ينازعه من هو دونه في صفاته وعليه يقول : ﴿ إنَّ اللّهَ لا يحبُّ كلَّ مختالٍ فخورٍ ﴾[1] .

فالآمال والتمنيات وكذا الحرص من التخيُّل والوهم ، وكلها تؤدي إلى اتباع الهوى الذي يصدُّ عن الحق فينسى المرء آخرته ، ويتركز تفكيره في ما عنده من أموال وسلطة وإمكانية .

إن التخيّل والتوهُّم أقوى وأمضى من الغفلة ، لكون التخيُّل يصور لك وجود شيء غير موجود ؛ فعلى سبيل المثال : لو ذهب أحد الجبناء إلى مقبرة تراه يتخيَّل أن أحد الموتى يتبعه فيترتب على ذلك هروبه وفراره من ذلك الميت الذي لا أساس لوجوده أو لمتابعته ، وقد يشعر الأكثر جُبناً بأن الميت أمسك بتلابيبه فيُغشى عليه على الرغم من أن ذلك الميت المسكين تحت التراب لا يقوى على التنفُّس فكيف بالحِراك!! .

وعليه فالتخيُّل والتوهُّم كانا باعثين على رؤية الجبان لميت يجري خلفَه ناهيك عن الإمساك به! .

وإن بعض الأحلام والمنامات تستقي من هذا المنبع ، فيرى بعضهم أن رجلاً يلهب ظهره بالسَّوط ، وعندما يفيق من نومه يرى متعرقاً وخاملاً يبدو عليه التعب والنصب .

إن التخيّل يترك آثاره على الجسم أيضاً ؛ فبالرغم من عدم شخص حقيقي ضربه بسوط ، تراه متعباً خاملاً وكأنه تلقى ضربات سوط من أحدهم ، ويقال إن تخيُّله هو الذي ضربه بسوط غير مرئي ولا محسوس إلا في كوامن ذلك النائم ! وكذا الأمر بالنسبة للإيحاء ؛ ولا بأس بإيراد مثال على ذلك :

(١) سورة لقمان، الآية ١٨ .

كان أحد العلماء جاداً في عمله ، وكان له مدرسة لا تغلق أبوابها ولو يوماً واحداً في السنة ؛ فأراد تلامذته معاكسته بعض الشيء ليتمكنوا من الحصول على عطلة لعدة أيام ، فاتفقوا على الأمر وتنفيذه من صباح اليوم التالي ؛ وما أن بزغت شمس اليوم التالي حتى جاء أحدهم صباحاً وسلّم على الأستاذ ، فرد عليه السّلام .

وقال التلميذ : عذراً يا سيدي ماذا أصابك ؟ وجهك أصفر ، فما الذي حدث ؟ .

فقال الأستاذ : اذهب واجلس مكانك إن وجهي ليس بأصفرا ! .

فحضر التلميذ الثاني ليقول مثل صاحبه الأول ، فأجابه الأستاذ بما أجاب صاحبه .

وجاء الثالث والرابع والخامس ليقولوا مثل ما قال الأوائل ، فاصفرَّ وجه الأستاذ فعلاً ، وما إن توالى عليه السادس والسابع والثامن حتى علت درجة حرارته وأصيب بالحمى ، وعندها جاء التاسع والعاشر من التلاميذ ، ليقولوا له بمثل ما قال أصحابهم ، وإذا بالأستاذ يسقط على الأرض فينقله التلاميذ إلى غرفة نومه للاستراحة ، وبذلك تمكّنوا من تعطيل الدراسة .

وهذا ما نراه جليّاً في عمل أطبّاء علم النفس ، إذ يتمكن البعض منهم من تنزيل حرارة المريض من (٤٠) درجةً مئويةً إلى (٣٧) درجةً مئويةً ، وكثير هم الذين تمكنوا من الشفاء بالإيحاء إليهم وتلقينهم ؛ فنرى مثلاً سقوط أحدهم وعدم إمكانيته من القيام ، ولكن علماء وأطبّاء النفس يتمكنون من مساعدته بالقيام والخروج على حالته تلك بالإيحاء إليه وإدخاله في حالة خيالية ووهمية غير حقيقية فينهض وكأن الأمر لم يكن .

لذا ، يمكن اعتبار الخيال والوهم والآمال والمنى من المسائل والقضايا التي يمكن معها خروج المرء عن جادة الصواب .

وعليه ينبغي له أن يلتجىء إلى الله من شر هذه التخيلات والأوهام التي تؤدي بالبشر إلى مهاوي الضلالة والانحراف .

إن آخر سورة في القرآن الكريم تبين لنا بكل دقة، الانتهاءعن التخيلات والوساوس التي قد تبتعد بنا عن طريقه المستقيم وصراطه القويم .

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ، قلْ أعوذُ بربِّ الناسِ ، ملكِ الناسِ ، إلٰهِ الناسِ ، منْ شرِّ الوسواسِ الخناسِ ، الذي يوسوسُ في صدورِ الناسِ ، من الجنةِ والناسِ ﴾[1] .

أي إلٰهي إنّي ألتجىء إليك من شر الذين يوسوسون وسوسةً سيئةً وباطلةً بشكل حسن وهيئة حق ؛ وقد يكون الإنسان في بعض الأحيان أسوأ من شياطين الإنس والجن ، فيكون هناك وسوسة من عنده إلى نفسه وذلك بالضرب في الخيال الأماني والرغبات .

وهذا النوع لا دخل فيه للشيطان أصلاً .

رأى أحدهم في منامه أحد الشياطين وقد أمسك بحبالٍ مختلفة ، فسأله صاحبنا عن سبب إمساكه بتلك الحبال ؟ .

فأجابه الشيطان : بهذه أُقيِّد الناس وأذهب بهم إلى جهنم ! .

فقال الرجل : وأيُّهم حبلي ؟ فأجابه الشيطان : أنت وأمثالك لا تحتاجون إلى حبال ، لأنكم تأتون بأرجلكم ! .

قال تعالى في محكم كتابه : ﴿ ومن يعشُ عن ذكرِ الرحمنِ نقيِّضْ لهُ شيطاناً فهوَ لهُ قرينٌ ، وإنَّهمْ ليَصدُّونَهُم عنِ السبيلِ ويحسَبونَ أنّهم مهتدونَ ﴾[2] .

« اللهمّ إني أعوذ بدرعكَ الحصينة من درك الشقاء ، ومن شماتة الأعداء ، وأعوذ بك من الفقر والوقر ، وأعوذ بك من سوء المنظر في الأهل والمال والولد ، وصلّى الله على محمد وآله الطاهرين » .

---

(١) سورة الناس، الآيات ١ ـ ٦.

(٢) سورة الزخرف، الآيتان ٣٦ و ٣٧.

[٦]
سيـر إلـى اللّــه

إن الخيال والضرب فيه ، وسبر أغواره هو أساس التكبُّر .

ومن أراد أن يبتعد عن التكبُّر فليمعن النظر في هذه الآية المباركة ؛ قال تعالى في محكم كتابه : ﴿ **هوَ الذِي خلقَكُم من ترابٍ ثمّ من نطفةٍ ثمَّ منْ علقةٍ ثمّ يخرجُكُم طفلاً ثمَّ لتبلغُوا أشدُّكم ، ثم لتكونُوا شيوخاً . .** ﴾[1] .

خلق الإنسان من مكونات التراب ، ثم من نطفة نجسة ليصير في آخر عمره إلى جيفة نتنة فلِمَ التكبُّر ؟ .

بأي شيء من هذه الأشياء يتكبَّر ؟ أبالنطفة التي صار منها ؟ أم بالجيفة التي سيصير عما قريب إليها ؟ .

فلو فكَّر الإنسان في وضعه هذا لما تكبَّر ولما اغترَّ بنفسه ، ولتواضع أشد التواضع ، لأنه بلا هذا التفكير ، يمكن أن يسرح في الخيال ويتصور نفسَه شخصاً مهماً ، وعالماً فحلاً وأن الناس يجلُّونه لذلك .

فيمشي مختالاً فخوراً معجباً بنفسه .

إن الخيالات التي قد يعيش المرء في وسطها ، تحمل الإنسان على إلقاء نفسه في المهالك دون أن يشعر فيصير كدودة القز التي تلفُّ حولها خيوط الحرير ، لتختنقَ بعد ذلك من جرّاء ذلك اللفّ . وكذا الهائم في بحر الخيال تراه يلفُّ خيوط الخيال ويجعل منها نسيجاً يصنع منه ما تريد نفسه ورغباته .

---

(١) سورة غافر، الآية ٦٧.

وكلما زاد في نسيجه ، ضعفت إرادته الإنسانية وضعفت أعصابه .

وكلما ابتعد عن الوساوس والخيالات بدا إنساناً سوياً سليماً .

كان أحد الدراويش يحمل فوق رأسه إناءً خزفياً مليئاً بالزيت ، وكان الوقت ليلاً ، وكان جالساً لوحده ففكر في كيفية بيع تلك الزيوت ليشتري بدلها حملاً ، فإذا صار لديه ثلاثة أو أربعة خراف ، حتى تتضاعف وتكون قطيعاً من الغنم ليبيع قسماً منه ويشتري بثمنه قصراً ، ثم يتزوج ويأتي بخادمة لزوجته ، وإذا توانت الخادمة في بعض أعمالها يضربها ـ وكانت في يده عصاً غليظة ـ فرفع عصاه وضرب الأرض وكأنما يضرب تلك الخادمة الخارجة على طاعته وعندها فيسقط إناء الزيت الخزفي على الأرض وانكسر وساح زيته ! .

إن الآمال والتمنيات تمكنت من ذلك الدرويش المسكين فضيَّع إناءه الخزفي وزيته الذي لا يملك في الدنيا شيئاً غيره ، وبذلك ضاعت آماله وأمنياته علاوةً على تضييع زيته فبات يائساً لا يقوى على شيء ومن هنا تنبع أصول الانحرافات .

« إن أخوف ما أخاف عليكم اثنان : اتباع الهوى ، وطول الأمل فأمّا اتّباع الهوى ، فيصُدُّ عن الحق ، وأما طول الأمل ، فيُنسي الآخرة »[1] .

وخلاصة الحديث : ينبغي لنا الابتعاد عن الولوغ في الخيال والأماني ، لأن ذلك لا يجرُّنا إلا إلى الابتعاد عن العمل الحقيقي ، وبذلك يصبح الإنسان ضائعاً تائهاً تتقاذفه تيّارات الضلالة والانحراف والتردي من سيء إلى أسوأ منه ، ولولا فضل الله على عباده لما نجا منهم أحد من تلك الأهواء والخيالات والتمنيات ، ولغرق البشر في بحر التكبُّر والحسد والحقد والضغينة وما إلى ذلك من الصفات الرذيلة .

إن الخروج من زوبعة الضرب في الخيال تحتاج إلى إرادة ـ ولا نريد أن نكبِّر الأمر كثيراً ـ إلى إرادة متواضعة ؛ فعندما تتراءى للمرء الآمال والتمنيات والوساوس والتخيلات عليه أن يقطعَ على شيطانه تلك القضايا بشكل مفاجيء ،

---

١) كنز العمال/خ ٤٣٦٦٤ .

ليشعرَ بالتحرر من ذلك الأسر الذليل ، ولا يسمح لتلك الخيالات بالسيطرة عليه ، بل ينبغي له أن يكون هو مسلَّطاً عليها .

قد تكون هذه المعالجة صعبة بعض الشيء في بداية الأمر ، ولكن الأمر لا يعود كذلك بعد مدة من التمرّن والتدريب عليها ، فترى أنها قد أصبحت ملكة وأضحى الخيال في عالم النسيان .

ويمكن أن تعالج هذه الحالة أيضاً : بتذكير الإنسان لنفسه : بأنه أحد عباد الله تعالى ولا ينبغي لعباد الله الصالحين أن يتدنى مستواهم إلى هذا الحد ، فيراه الناس كالمجنون سارحاً في الخيال والأماني والوساوس ! .

إن بعض الأشخاص من الذين يعتبرون أنفسهم مقدَّسين يذهب دنياه وآخرته بهذه القضايا ، فيستخدم الدِّين لتطييب وساوسه وخيالاته ، فهو يتوضأ عدة مرات ، وفي كل مرة يتصور أن وضوءه باطل ، وأن بعض النجاسة مسَّت رجله اليمنى أو اليسرى ، ناهيك عن تردُّده في صلاته وطهارة لباسه الذي قد يبدله بضعة مرات في اليوم ، ظنّاً منه : أن النجاسة وصلت إليه .

إن الركون إلى الخيال قد يؤدي بالمرء إلى سوء الظن بالآخرين ، وسوء الظن يدخل في مداخل لا يرتجى منها إلا ما لا تحمد عقباه .

فمن يصاب بهذه الصفة الرذيلة يستولي عليه الانزواء والحذر من معاشرة الآخرين بشكل واضح ، وبهذا يتحطم ما في نفسه من استعداد للتقدم والاطراد ، وسوف تقدر له عيشة غير مرضيّة .

وقيل : إن سوءَ الظن أحد عوامل الانتحار ، وإن العزم على الانتحار ينشأ غالباً من سوء الظن بالحياة .

قال أمير المؤمنين (ع) : « إيّاك أن تسيء الظن ، فإن سوء الظن يفسد العبادة ، ويعظم الوزر »[1] .

وقال تعالى في محكم كتابه : ﴿ ثُمَّ كانَ عاقبةُ الذينَ أساؤُا السُّوأَ أنْ

---

(١) غرر الحكم/ص ١٥٤ .

كذَّبُوا بآياتِ اللّهِ ﴾[1] .

وقـال جلّت أسمـاؤه : ﴿ لا يـزالُ بُنيـانهمْ الـذي بنـوا ريبـةً فِي قلوبهم . . ﴾[2] .

يقول أحد المراجع العظام في معرض حديثه عن وقوع الإنسان في شرك الخيال والظنون والشكوك والـوساوس : كـان أحدهم يتـوضأ ، وفجـأةً قال : أصابتني النجاسة ، فقيل له : لماذا ؟ رشح الماء عليَّ من الطابق الثاني وكان هو في الطابق الثالث !! .

فهل يمكن أن يكون ذلك ؟ لو كان في الطابق الثاني ورشح عليه الماء من الثالث لاختلف الأمر ، ولكنه كان في الطابق الثالث ، فكيف يرشح عليه الماء من الطابق الثاني؟! .

إنه الخيال ، لقد تخيل ذلك المسكين ترشُّح الماء لكثرة الوساوس التي راودت ذهنه .

وإذا تمكنت الوساوس من امرىء أضحكت منه من حوله ! .

قال الفقهاء العظام : من جلس في ـ دار الخلاء ـ وشـكَّ في أن بعض الماء النجس قد أصابه ، يبني على طهارته ، فإن تيقَّن بنجاسته ، فهو نجس وإذا لم يتيقن ، فهو طاهر له .

وبغير هذا لا يمكن احتساب الوساوس ضمن دائرة اليقين : « كل شيء طاهر لك حتى تعلم نجاسته » (قاعدة فقهية) .

قضى الشارع المقدس : بأن الدم نجس ، فإذا شككتَ في كونِ المادة التي لمستها دماً أو غير ذلك ، كانت طاهرة ، وأن البول نجس ، فإذا شككت أن الذي أصابك من الماء بول أو غير ذلك بنيت على طهارته .

إن الوساوس ليست من الإسلام في شيء ، إنها من التخيُّل ، إنها بدعة

---

1) سورة الروم، الآية ١٠.

2) سورة التوبة، الآية ١١٠.

في الدين ، والبدعة تعدُّ من كبائر الذنوب .

فلو أصاب إحدى النساء وسواس في طهارتها ونجاستها دلَّل ذلك على تخيُّلاتها وشكوكها ، فتراها على سبيل المثال ، تضع يدها تحت مجاري المياه لتطهِّرها ولو تأتّى لها فعل ذلك مرات احتسب معصية أكثر من تلك التي تترتّب على إظهارها ليدها أمام الأجنبي عن عمد ، وهذه هي عين الذِّلَّة في الدنيا والآخرة .

إن تلك الأمور والمسائل تبعث على تلف الوقت والعمل ، وتمحق نور الآخرة الذي يحتمل أن يصيب منه العبد شيئاً ؛ ناهيك عن عدم رضا الباري تعالى بهكذا أمور ، بالإضافة إلى امتعاض الرسول الأكرم (ص) والأئمة من أهل بيته (ع) .

« اللهمَّ إني أسألك برحمتك التي لا تنال منك إلا برضاك والخروج من جميع معاصيك ، والدخول في كل ما يرضيك والنجاة من كل ورطة والمخرج من كل كبيرة وأسألك السعة في الرزق والزهد في الكفاف والمخرج من كل شبهة والصواب في كل حجة والصدق في جميع المواطن برحمتك يا أرحم الراحمين وصلّى الله على محمد وأهل بيته الطاهرين » .

جهاد النفس

حسين مظاهري

الجزء الرابع

المقـدمـة

بسم الله الرحمن الرحيم

لقد تزامنت طباعة الجزء الرابع من جهاد النفس مع حدثين تاريخين مهمين :

الأول : العروج الملكوتي لمؤسس الجمهورية الإسلامية إلى الملأ الأعلى .

والثاني : عودة أسرى الحرب الأعزّاء إلى أحضان الوطن الإسلامي .

لقد كان تواري الشمس التي بزغت من الغروب لتنير أركان الشرق بأشعة الإيمان والمضاء ثلمة عظيمة آلمت النفوس وأحزنت القلوب .

كان وجهه المحبوب مثلاً من أمثال شمس الولاية ، وسعيه الحثيث لمعة من لمعات منبع الرسالة الفيّاض .

فصلابته أخجلت صلابة الجبال الشمِّ ، فدانت لصولته وهيبته رقاب العالمين بعد اعترافهم بالعجز أمامه .

كان المثل الأعلى في الفقاهة والولاية ، حافظاً لدينه ، صائناً لنفسه مخالفاً لهواه .

إنه محيي دين الله ، وناشر لواء عدل رسول الله (ص) في جميع أركان العالم .

لقد منح الإسلام العزيز حياةً ورونقاً ما كانت له من قبل بعد أن بعث في الأمة الإسلامية روحاً جيّاشةً ثورية ، ليعيد بذلك ملحمة عاشوراء ، ورواية الحسين (ع) في كربلاء ، وينشر أشرعة القيام الحسيني على مجمل هذا الملك العظيم ، بعد أن عرَّف بالإسلام المحمدي الأصيل الذي طغت الغربة على أكثر مفاصله ، بإقامته للصلاة الإلٓهية ، وإحيائه للحج الإبراهيمي ، وتحبيب الجهاد إلى النفوس البشرية ، فروى بذلك مجدداً عن علي (ع) طرق عدالته التي لا يتأتّى لفرد أن ينكرها .

كان معلماً ومثالاً للأخلاق الفاضلة ، ومربياً قديراً للنفوس المشتاقة ، عارفاً بالله سبحانه ونائباً بالحق لوليّه ـ أرواح العالمين له الفداء ـ وظهيراً قوياً للمستضعفين ، ومطرقةً شديدة على رؤوس المستكبرين ، وملجأً للمساكين ونقمةً على المتجبرين ، وعزةً للمؤمنين ، وذلةً للمنافقين .

عاد الإسلام عزيزاً بعزته ، وتسافل الكفر إلى الحضيض بيُمن نفسه القدسية ، فكان وجوده المبارك شوكةً مريرةً في أفواه المتحجرين من عُمي القلوب .

كان الإيثار مبدأه ، والتضحية عقيدته ، وشرب المر بدل الحلو صفته لكي يعلم الإيثار والفناء في الله لكل دعاة الإسلام وطلابه .

أجل ، كان شمس أبراج الفقاهة الساطعة ، فأصابها الكسوف الكلي ، فما عاد نورها يسطع فعمَّنا ستار الفراق المظلم الذي مدَّ ظلَّه فوق رؤوسنا ، وأضحت الأمة الإسلامية بذلك في يتم وعزاء . . .

سألنا الباري تعالى أن يرفع روحه في علّيّين ، ويقبل منه الدعاء بحقنا آمين ، وينبغي أن نقول هنا :

إن ما نقشه على ألواح قلوبنا وأرواحنا لن يمحى أبداً ، وستبقى صورته الثورية في بيدر الذاكرة أبداً .

الحمد لله تعالى على نعمائه في بقاء راية الإسلام خفاقة عالية ، بعد أن سلمها مؤسس الجمهورية الإسلامية إلى تلميذه المخلص والمقتدر قائد الثورة

الإسلامية آية الله الخامنئي (مد ظله) . والأمل كل الأمل أن يحقق القائد الفذُّ الأهداف المقدسة التي نادى بها الإمام بلطف من الباري وعناية .

الحدث الثاني : تحقق وعد الله بنصر عباده ورجوع الأسرى مرفوعي الرأس إلى أحضان هذه الأمة المضحية ، وهو ما يلزمنا الشكر والامتنان لباريء الخلائق أجمعين ، هؤلاء الأعزّة الذين ضربوا الرقم القياسي في صبرهم وصلابتهم وتحملهم .

وبتلك الصلابة تحقق الوعد الإلّهي : ﴿ إن تنصُروا اللّهَ ينصركم ﴾ في مقابل الشدائد وأنواع العذاب النفسي والجسدي ، فقد تركوا حسرةً ما بعدها حسرةٌ في نفوس الخصوم ، ليثبتوا بذلك المنطق أنهم تلاميذ روح الله ، ومن المتخلقين بأخلاق رسول الله (ص) ، وأن ما لديهم هو روح من بستان أبي عبد الله (ع) ، لكونهم لم يمتثلوا لأوامر الظلمة والجبارين ، وسوف يمرّغون بالوحل أنوف المعتدين بالاتكال على الله العزيز العليم .

إن الذي بين يديك عزيزي القاريء الكريم هو الجزء الرابع من كتاب جهاد النفس ، هذا الأثر الأخلاقي المفيد للأستاذ حسين مظاهري مهدى إلى روح مؤسس الجمهورية الإسلامية الإمام الخميني قدّس الله نفسه الذكية ، وإلى جميع الأحرار الذين منحوا الوطن الإسلامي عزّةً وجلالاً ، بالإضافة إلى جميع المعلمين من الشهداء والمفقودي الأثر وبالخصوص الأخ عباس قهستاني .

نسأل الباري تعالى أن يمنَّ على الأمة الإسلامية بالنصر والغلبة ، وأن يمنحنا الحرية والانطلاق من أسر قيود الأهواء النفسية ، إنه سميع الدعاء .

الجمعية الإسلامية لمعلّمي قم

إن الإنسان ـ بل جميع الموجودات ـ تتجه نحو الخالق المصور في سير دؤوب : ﴿ إنَّ إلى ربِّكَ الرُّجعى ﴾[1] ، ﴿ يا أيُّها الإنسانُ إنكَ كادحٌ إلى ربكَ كدحاً فمُلاقيهِ ﴾[2] ، ﴿ وإنَّ إلى ربكَ المُنتهى ﴾[3] ، ﴿ ألا إلى اللّهِ تصيرُ الأمورُ ﴾[4] .

إن الآيات التي تتطرق إلى هذا الموضوع كثيرة، ويستفاد من مجموعها أن عالم الوجود في حركة ، ومنتهى هذه الحركة هو الله تعالت أسماؤه ، وقد قسَّمنا المسيرة الإنسانية إلى الله ثلاثة أقسام :

قسم سلك الطريق الذي هو طريق جميع الأنبياء والرسل ، ليصل إلى جنة الخلد مع الأنبياء والأوصياء والصلحاء والشهداء وحسن أولئك رفيقاً .

﴿ ومن يطعِ اللّهَ والرسولَ فأولئكَ معَ الذينَ أنعمَ اللّهُ عليهمْ منَ النبيينَ والصديقينَ والشهداءَ والصالحينَ ، وحسُنَ أولئكَ رفيقاً ﴾[5] .

ويختلف الناس في سيرهم ـ وأعني هذا القسم من الناس ـ إلى الله تعالى فالذي يحشر مع الأنبياء غير ذلك الذي يحشر مع الأوصياء وغير الذي يحشر مع

---

(١) سورة العلق، الآية ٨.
(٢) سورة الانشقاق، الآية ٦.
(٣) سورة النجم، الآية ٣٢.
(٤) سورة الشورى، الآية ٥٣.
(٥) سورة النساء، الآية ٦٩.

الصالحين ، لوجود مقامات مختلفة ودرجات عليا ودنيا في هذا الأمر .

وعرضنا فيما سبق إلى مسألة الصراط المستقيم الذي لا بد لكل الناس من السير عليه في يوم القيامة ، فترى البعض يمرُّ عليه مرَّ البرق ليصل إلى جنة المأوى ، وترى بعضاً آخر يمرُّ عليه ويعبر إلى الجهة الثانية ولكن بعد عناء ونصب شديدين حيث تمس النار يده أو رجله أو أي عضو من أعضائه ، ويسقط آخرون في بداية الصراط أو في وسطه إلى ما لا تحمد عقباه ـ والعياذ بالله ـ .

وإذا أردنا أن نعرف حقيقة هذا الأمر ، علينا أن نرى أوضاعنا في الحياة الدنيا ؛ فإذا كانت علائقنا مع الله محكمة ، ولا يرى في سيرنا إليه معاصي إلا اللمم ، مررنا على الصراط وتجاوزناه إلى حيث النجاة .

أما إذا كانت روابطنا مع الله في الحياة الدنيا مقطّعةً وترتكز في أصلها إلى هوى النفس ورغباتها ، فلا ينبغي أن ننتظر الأخذ بيدنا إلى حيث جنات الخلد والرضوان .

قال رسول الله (ص) : « إن على جهنم جسراً أدق من الشعر وأحدَّ من السيف »[1] .

وقال أيضاً (ص) : « أثبتكم على الصراط أشدكم حبًّا لأهل بيتي »[2] .

فالحياة الدنيا ظاهر الأمر ، والآخرة حقيقة الأمر .

فما نعمله هنا يتجسَّد هناك حقيقة ملموسة ؛ فمن اتصف بالصفات الرذيلة في الحياة الدنيا تجسّدت له هذه الصفات على هيئة حيوانات مفترسة وضارية تنهش لحمه .

ومن اتصف بالصفات الحسنة هنا ، تجسّدت له تلك الصفات على هيئة روح وريحان وجنة نعيم وأنيس في يوم القيامة لتبقى معه إلى الأبد .

فالنفس السوية ترجع إلى ربها راضية ومرضية ومطمئنة ، لأن أعمالها

---

(١) كنز العمال/خ ٣٩٠٣٦ .

(٢) بحار الأنوار/ج ٨ ، ص ٦٩ ـ فضائل الأشهر الثلاثة .

لا تؤدي إلى الرضا : ﴿ يا أيتها النفسُ المطمئنةُ ارجعي إلى ربكِ راضيةً مرضيةً ﴾[1] .

لقد عرض القرآن لهذه المجموعة من الذين يصلون إلى رضوان الله فقسمهم قسمين : قسم سمّاهم أصحاب اليمين : ﴿ وأصحابُ اليمينِ ما أصحابُ اليمينِ ﴾[2] ؛ وقسم آخر سموا بالسابقين : ﴿ والسابقونَ السابقونَ أولئكَ المقربونَ ﴾[3] ، وهم الذين تسابقوا إلى الخيرات ليكون أسرع وصولاً إلى رضوان الله من أصحاب اليمين .

أما القسم الثاني والثالث ، فهم أصحاب الشمال ، و : ﴿ أصحابُ الشمالِ ما أصحابُ الشمالِ ﴾[4] ؛ وهذا القسم يشمل جميع أولئك الذين لم يسلكوا الجادَّة الصواب ، ولم يبحثوا عنها أصلاً ، فتقاذفتهم أمواج الضَّلالة والانحراف ، وهم على شعبتين :

شعبة عرفوا الطريق المستقيم ، ولكن العناد واللجاجة منعتهم من انتهاجه ، فسلكوا بذلك الطرق الملتوية .

وشعبة لم يهتدوا أصلاً إلى الطريق المستقيم ، ولكنهم غير معاندين أو لجوجين ، ولعدم اهتدائهم إلى جادة الصواب ساروا مسارات مختلفة غير سوية ، فوصلوا إلى نار جهنم وبئس المصير .

إن لجهنم درجات وطبقات مثلما للجنة مقامات ودرجات ، وإن من يرد جهنم ـ والعياذ بالله ـ تحدد درجته وطبقته التي ينزل فيها ، فالدرجة الأولى ليست كالثانية والثانية ليست كالسابعة ، فالدرجة السابعة أشد الدرجات حراً وعذاباً ، ولا يوجد أشد منها إلا بئر في قعرها تحتوي على توابيت ، كلما خفَّت حرارة جهنم فتحت تلك التوابيت لتؤجج نار جهنم ؛ فالذي يكون نصيبه التابوت فالويل له ، ولا يعرف أعماله وأفعاله إلا الله تعالى ، فالمنافقون مثلاً يكون

---

(١) سورة الفجر، الآية ٢٧ و ٢٨ .
(٢) سورة الواقعة، الآية ٢٧ .
(٣) سورة الواقعة، الآية ١٠ و ١١ .
(٤) سورة الواقعة، الآية ٤١ .

منزلهم الدرك الأسفل ﴿ إنَّ المنافقينَ في الدركِ الأسفلِ منَ النارِ ﴾[1] ؛ لعنادهم ، ولمعرفتهم بالحق الذي لا يلتزمونه طريقاً لهم ، إنهم يظهرون غير ما يخفون ، ولا يعملون بما يقولون ، بل يعملون خلافاً لما يسمع منهم ؛ فالبعض منهم يهوي في جهنم آلاف السنين بعد ذلك يصل إلى قعرها أو إلى طبقاتها السفلى .

وهذا ما يجسِّد الحالة التي كان عليها في الحياة الدنيا حيث كان يتسافل من وضاعة إلى أوضع وأسفل منها .

وقد يتمكن البعض من الصعود ثانية إلى حافة جهنم فتصيبه إحدى المقامع على رأسه ليهوي مرة أخرى في قعر جهنم وتقول الروايات : إن ذلك السقوط قد يطول آلاف السنين ليمرَّ على عدة طبقات في جهنم .

قال الإمام جعفر بن محمد الصادق (ع) في معنى الصراط : « هو الطريق إلى معرفة الله عزَّ وجلَّ ، وهما صراطان : صراط في الدنيا ، وصراط في الآخرة .

وأما الصراط في الدنيا ، فهو الإمام المفترض الطاعة ، من عرفه في الدنيا ، واقتدى بهداه ، مر على الصراط الذي هو جسر جهنم في الآخرة »[2] .

فالذي لا يعرف إمامه انحرف عن الجادة السوية ، ومن انحرف عن الجادة حشر يهودياً أو نصرانياً ، أو فاسقاً ، أو ظالماً .

فأصحاب الشمال الذي قسمناهم إلى قسمين وقلنا : القسم الأول هم من عرفوا الطريق ، ولم يسلكوه عناداً ولجاجةً هم المغضوب عليهم ، والقسم الثاني : وهم الذين لم يهتدوا إلى الطريق ولكنهم اتخذوا طرقاً أخرى لسيرهم وهم الضالّون .

وخلاصة القول : إنهم مشمولون بالآية المباركة التي تقول : ﴿ وضربَتْ

---

(١) سورة النساء، الآية ١٤٥ .

(٢) معاني الأخبار/ص ٢٨ .

عليهمُ الذلةُ والمسكنةُ وباؤُا بغضبٍ منَ اللّهِ ﴾[1] .

وهناك قسم ثالث يمكن أن نذكره هنا ، وهم الذين تراهم دائمي الاضطراب في الحياة الدنيا ، يعملون بالشك والشبهة ، وهؤلاء لن يفارقوا الحياة الدنيا حتى تتقطع قلوبهم باضطرابهم ذاك وبشكهم وشبهتهم التي سيطرت على جميع ذرات أجسادهم ﴿ لا يزالُ بنيانهُمُ الذِي بنوْا ريبةً في قلوبهِمْ إلاّ أن تقطَّعَ قلوبهُم ﴾[2] .

وهذا الشك وتلك الشبهة تعدُّ من أسباب الشرك ﴿ ومنْ يشرِكْ باللّهِ فكأنَّما خرَّ من السماءِ فتخطِفهُ الطيرُ أو تهوِي بهِ الريحُ في مكانٍ سحيقٍ ﴾[3] .

فالسقوط من السماء ، وتخطُّف الطير ، والسقوط في مكان سحيق كلها إشارات إلى الاضمحلال النفسي الذي قد يصيب البشر فيهوي في حب الدنيا وزخارفها ، ويطمع في البقاء فيها ، فتظهر آثار أخرى هي التكبر والغرور والمنّة والحسد وما إلى ذلك من الصفات الرذيلة .

وأمّا تقطع القلب بالنسبة لهؤلاء ، فهو من جرّاء الاضطراب الذي يأتي به الحرص على الأموال والثروات ؛ فهو الذي يبعده عن الهدوء والراحة والاطمئنان .

والجدير بالذكر أن أولئك الذين اضطربوا وابتعدوا عن راحة البال تصيبهم الكوارث والمصائب ما داموا في الحياة الدنيا ؛ وقد يقول البعض بمشاهداته لارتياح البعض منهم ، فنقول له : قد يحتويهم الاضطراب النفسي والقلق ، فيعدُّ ذلك إحدى القوارع أو المصائب ﴿ ولا يزالُ الذينَ كفرُوا تصيبهُم بمَا صنعُوا قارعةٌ ﴾[4] .

وإذا لم يصيبهم من ذلك شيء فسوف يصيب أبناءهم من بعدهم ، أو

---

(١) سورة البقرة، الآية ٥٩.
(٢) سورة التوبة، الآية ١١٠.
(٣) سورة الحج، الآية ٣١.
(٤) سورة الرعد، الآية ٣١.

أهلهم ، أو زوجاتهم ، أو قد تقوم الخلافات الأسرية المستعصية نتيجةً لما صنعوا .

وهذا الوضع الدنيوي بما فيه من اضطراب وغمٍّ وهمٍّ نتيجة للمعاصي ، يكون عليه المرء بهيئته وصورته الأخروية ، واضطراب الأخرة وقلقها وهمُّ الآخرة أشد وأوقع في النفس من ذلك الذي يكون في الحياة الدنيا .

﴿ ومنْ كانَ في هذهِ أعمى فهوَ في الآخرةِ أعمى وأضـلُّ سبيلاً ﴾[1] ، ﴿ ومنْ أعرضَ عنْ ذكرِي فإنَّ لهُ معيشةً ضنكاً ونحشرُهُ يومَ القيامةِ أعمى ﴾[2] .

فالإعراض عن ذكر الله يؤدي بالإنسان إلى المعيشة الضنك ، ولا نعني بالضنك هنا الافتقاد إلى الزوجة الجميلة أو الافتقـاد إلى الثروات الـطائلة أو المنصب الاجتماعي لا ﴿ معيشةً ضنكاً ﴾ قد تأتي بها الأموال ، وقد يأتي بها المنصب الاجتماعي الرفيع ، فالتكـالب على المناصب ﴿ معيشـةً ضنكاً ﴾ ، والتفاخر بـالأموال ﴿ معيشـةً ضنكاً ﴾ والخسـران في الانتخابـات الرئـاسية ، وتحمل الهمِّ الذي يلي تلك الخسارة ﴿ معيشـةً ضنكاً ﴾ .

ولا أريد أن أعرض لهذا الموضوع أكثر من اللازم ، لأن هذه القضـايا لا تخفى على اللبيب .

فالعمى والضلال والانحـراف كلها تـأتي من الغفلة والتسـامـح في أمور الدين ، قال الإمام جعفر بن محمد الصادق (ع) : « إياكم والغفلة ! فإنـه من غفل فإنما يغفل عن نفسه ، وإياكم والتهاون بأمر الله عزّ وجلّ فإنه من تهاون بأمر الله أهانه الله يوم القيامة »[3] .

وقال الباري تعالى في محكم كتابه : ﴿ إنَّ الذينَ لا يـرجونَ لقـاءنَا . ورضُوا بالحياةِ الدنيَا واطمأنُـوا بهَا والـذينَ همْ عن ءاياتِنَـا غافلونَ ، أولئـكَ مأواهُمُ النارُ بمَا كانُوا يكسبونَ ﴾[4] .

---

(١) سورة الإسراء، الآية ٧٢.

(٢) سورة طه، الآية ١٢٤ .

(٣) ثواب الأعمال/ص ٢٤٢ .

(٤) سورة يونس، الآية ٧، ٨.

فالغافل عن ذكر الله لا بد له أن يكون مشغولاً بعمل آخر عن هذا الذكر ، وكما تعرفون أن كل عمل لا يصب في ذكر الله باطل ، لأن الله سبحانه وتعالى لم يخلق الإنس ولا الجن إلا لعبادته ، وهي الامتثال لأوامره ونواهيه حقاً وصدقاً ؛ فمن رغب عن تلك العبادة ضلَّ وهوى في وادي جهنم السحيق .

فالغرور سببه الغفلة ، وعندما يغفل الإنسان عن قدر نفسه يغترُّ بها ويصعِّر خدَّه ، ويختال في مشيته ؛ والحرص أساسه الغفلة ؛ فالإنسان اليقظ لا يمكن أن يحرص على شيء وهو يذكر نفسه دائماً بزوال الدنيا ونعيمها بدليل السالفين الذين لم يتمكنوا من أخذ شيء معهم من هذه الدنيا ؛ فقد تركوا الأموال والثروات والزوجات والأولاد وكلَّ ما كان يسمى بالنسبة لهم نعيماً ، وذهبوا إلى غير رجعة ، ذهبوا ليُلاقوا أعمالهم على حقيقتها .

لذا ينبغي لنا أن نذكر هذه النفس الأمَّارة بالسُّوء ، بالمعاد والرجوع إلى الخالق المصور ليلاً ونهاراً ، لترتدع عن الإيغال في الغفلة ، ومن لم يغفل ذلك لن يتأتَّى له أن يفوز أو ينتصر على هذه النفس في مجمل سيره إليه ـ تعالت أسماؤه ـ .

والغفلة تجرُّ الإنسان في بعض الأحيان إلى الثرثرة ، فترى الغافلين يطيلون في الكلام الفارغ الذي لا يؤدي بهم إلا إلى الغيبة والنميمة والتهمة وما إلى ذلك ؛ فلو كانوا غير غافلين لسكتوا على مدى الدهر ، ولما تحدثوا إلا بالقدر الذي يسهم في ترتيب حياتهم وعلائقهم مع الآخرين .

وكم هي جميلة تلك العبارات التي يستخدمها العرفاء في تنظيم حياتهم ويحسبونها إحدى القواعد العرفانية وهي :

« إياك ثم إياك من التوغل في المشتهيات ، وإياك ثم إياك ثم إياك من كثرة الكلام ، وعليك ثم عليك بذكر الله بذكر الله » .

الوساوس والأوهام

قال رسول الله (ص) : « أخوف ما أخاف عليكم اثنان : اتباع الهوى ، وطول الأمل .

فأما اتباع الهوى ، فيصدُّ عن الحق .

وأما طول الأمل فينسي الآخرة »[1] .

إن استيلاء الآمال والرغبات على النفس البشرية يؤدي به إلى نسيان الآخرة ، مثله مثل ذلك الحيوان الذي يستمر في الحفر داخل وجره ، وفجأة ترى سقوط وجره على رأسه ليموت تحت أنقاضه ؛ والإنسان يفعل ذلك في بعض أحيانه حينما يغور في التخيُّل والوهم ، وما يوغل في هذه الخيالات وتلك الأوهام عميقاً حتى يختم الله على قلبه ويبعثه إلى التي وقودها الناس والحجارة .

تنقسم الخيالات ثلاثة أقسام : قسم يرتبط بالدنيا وحبها ، وهو ما يبعث على الجنون في بعض حالاته ، قال أحد علماء النفس : جيء بإحدى الفتيات إلى دار المجانين ، وهي طالبة في الثانوية ، فما استقرت هناك حتى بدأت تجول أقسام الدار تلك وتتحدث إلى بقية المجانين ، فتقول : « بالأمس ولدت في قصري غلاماً غايةً في الجمال » ، أو تقول : « ذهبت البارحة إلى شمال

(١) كنز العمال/خ ٤٣٧٦٤ .

القطر بطائرتي الخاصة » ، أو : « طوينا العاصمة أنا وزوجي بسيارته الجميلة » .

بحث العالم النفساني في هذا الأمر كثيراً ، ولكنه لم يصل إلى شيء إلا بعد أن التقى زميلاتها الطالبات في المدرسة التي كانت فيها تلك المجنونة .

وبعد السؤال عن أحاديث وحالات تلك الفتاة من زميلاتها الطالبات قيل له : إن هذه الفتاة كانت متعلقة بشكل شديد بهذه الدنيا ، وكانت تقول دائماً : كم يطيب لي أن يتقدم إليّ رجل جميل وذو ثروة فيتزوجني لأنجب له طفلين ، أحدهما ذكر والآخر أنثى ! كم يسعدني الحظ لو كان ذلك الرجل متمكناً مادياً يمتلك قصراً منيفاً وسيارةً كسيارات الرؤساء والوزراء » ! وما إلى ذلك من الأوهام والخيالات .

وتزوجت تلك الفتاة زوجاً دميماً لا يمتلك قصراً ولا سيّارةً ، فقد كان يستأجر بيتاً في حارة للمستضعفين .

وذهبت تخيُّلاتها أدراج الرياح ، وتركت أثراً في ذهنها جرَّها إلى الجنون ، ومن بعد ذلك إلى دار المجانين .

لقد أوصى الرسول (ص) والأئمة الأطهار (ع) بعدم الانطلاق في صحراء الخيال ، لأنه شعبة من شعب الوساوس ، وأن مصير الإنسان لا يتعدى أن يكون بيد الحكيم تعالى وليس بيد الأفكار والخيالات والأوهام ، وقد أوصوا (ع) بضرورة قراءة هذه الآية عندما يرى الإنسان نفسه طعمةً للأوهام :

﴿ قلِ اللهمَّ مالكَ الملكِ ، تؤتِي الملكَ منْ تشاء ، وتنزعُ الملكَ ممنْ تشاءُ ، وتعزُّ منْ تشاءُ ، وتذلُّ منْ تشاءُ بيدِكَ الخيرُ ، إنكَ على كلِّ شيءٍ قديرٌ ﴾[1] .

إن الآية المباركة التي تقول : ﴿ إيَّاكَ نعبدُ وإيَّاكَ نستعينُ ﴾[2] تعني أن مصائرنا بيدك وحدك لا شريك لك ، فمنك نستمدُّ العون ولا نعبدُ إلا إياك ، وإنا

---

(١) سورة آل عمران ، الآية ٢٦ .

(٢) سورة الفاتحة ، الآية ٥ .

لا نستعين بالآمال والأماني لكونها لا توصلنا إلا إلى الضلالة والانحراف؟! .

قال رسول الله (ص) : « من كان يأمل أن يعيش غداً ، فإنه يأمل أن يعيش أبداً »[1] .

جاء في الحديث القدسي أن الله قال : « لأقطعنَّ أمل كل من يؤمل غيري باليأس »[2] .

وقال الرسول الأكرم (ص) : « خذ بالثقة من العمل ، وإياك والاغترار بالأمل ، ولا تدخل عليك اليوم همَّ غد . . . ولو أخليت قلبك من الأمل لجددت في العمل » .

والأمل الممثل في اليوم ، غداً أضرَّك في وجهين : سوَّفت به العمل ، وزدت في الهم والحزن »[3] .

وفيما ناجى الله تعالى موسى عليه السّلام : « يا موسى ! لا تطل في الدنيا أملك فيقسوَ قلبك ، والقاسي القلب مني بعيد »[4] .

إن التمنّي وطول الأمل وتسليم النفس للخيال يؤدي بالمرء إلى التعلق بالدنيا الدنيَّة ، وإن كثيراً من التخيُّلات تجرُّ الإنسان إلى ارتكاب المآثم ، وعلى الرغم من أن التفكير في عمل المحرمات لا يؤدي إلى تثبيت شيء في سجل الأعمال ، فإنه يترك أثراً أسود في القلب ، وهذا التفكير في عمل المحرم يدخل ضمن الضرب في الخيال ويميت القلب ، ويجعل الإنسان دميةً خاليةً من النشاط والعمل ، ناهيك عن إدخاله في دائرة القاسية قلوبهم : ﴿ فويلٌ للقاسيةِ قلوبُهُم من ذكرِ اللّهِ ﴾[5] .

والتفكير في عمل المنكر لا يختلف كثيراً عن العمل نفسه ، والاختلاف

---

(١) بحار الأنوار/ج ٧٣ . ص ١٦٧ .
(٢) بحار الأنوار/ج ٩٤ ، ص ٩٥ .
(٣) بحار الأنوار/ج ٧٣ ، ص ١١٢ .
(٤) بحار الأنوار/ج ٧٣ ، ص ٣٩٨ .
(٥) سورة الزمر، الآية ٢٢ .

يكمن فقط في أن الذي يفكر في عمل المنكر لا يسجَّل له في سجلّ أعماله معصيةٌ إلا إذا قام بذلك العمل ، ولا يترتب على ذلك التفكير عقوبة ، بينما العمل بالمنكر يترتب عليه تسجيل لمعصية في سجلّ القائم بذلك العمل بالإضافة إلى العقوبة التي ستلحق به ، ويلتقي التفكير في عمل المنكر مع العمل نفسه في إضعاف البعد المعنوي للإنسان ، وإيجاد بذور القساوة في القلب البشري ، وأن التفكير في المعصية وممارسة المعصية يشتركان أيضاً في أن لهما نفس الأثر في تأصيل الأفكار المنحرفة في مخيِّلة الإنسان ، وينقسم التفكير في المعصية قسمين :

١ ـ قسم يرتبط بحق الله ، وهو ما عرضنا له ، وقلنا بأن التفكير في المعصية يشترك مع نفس المعصية في حرف مخيِّلة الإنسان إلى حيث ما لا تحمد عقباه .

٢ ـ قسم يرتبط بحق الناس ، وهو ما يترتب عليه معصية كبرى ؛ إنه سوء الظن بالآخرين ، والجدير بالذكر أن الأفراد الذين يشكون من حالات نفسية أو عصبية غالباً ما يسيئون الظن بالآخرين .

إن الرسول الأكرم (ص) وأهل بيته الأطهار (ع) ذمُّوا سوء الظن والعامل به ، إلا في مواطن تستوجب ذلك .

قال رسول الله (ص) : « إياكم والظن ، فإن الظن أكذب الحديث ، ولا تحسَّسوا ، ولا تجسَّسوا »[١] .

وقال أيضاً (ص) : « من أساء بأخيه الظنَّ ، فقد أساء بربه »[٢] .

وقال أمير المؤمنين علي (ع) : « سوء الظن يفسد الأمور ، ويبعث على الشرور »[٣] .

لقد أكد الإسلام العظيم ضرورة حمل أعمال المسلمين على أحسنها وصحتها .

---

(١) سنن أبي داود/خ ٤٩١٧ .
(٢) كنز العمال/خ ٧٥٨٧ .
(٣) غرر الحكم .

وهذا ما نراه في القاعدة الفقهية الموسومة بـ « أصالة الصحة » التي بحث فيها الفقهاء كثيراً التزاماً بالأحاديث المتواترة عن النبي محمد (ص) وأهل بيته الكرام ـ سلام الله عليهم ـ .

قال رسول الله (ص) : « اطلب لأخيك عذراً ، فإن لم تجد له عذراً ، فالتمس له عذراً »[1] .

وقال أمير المؤمنين (ع) : « ضع أمر أخيك على أحسنه حتى يأتيك منه ما يغلبك ، ولا تظنن بكلمة خرجت من أخيك سوءً ، وأنت تجد لها في الخير محملاً »[2] .

إن مسألة الضرب بالخيال مسألة عجيبة ، فقد يتخيّل الجبان حين دخوله مقبرةً بأن أحد الموتى يطارده ، بل يمسك به ، أو قد يتخيَّل الجبان ذاك عند ذهابه إلى أحد الحمامات العمومية ، بأن عدَّةً من الجن لهم حوافر وأظلاف جاءوا للاستحمام على الرغم من أن الجن لا أظلاف لهم ولا حوافر .

إنه يتخيل أشياء ما أنزل الله بها من سلطان ، ويصنع أشخاصاً في مصنع مخيِّلته الضارب في أطناب الخيال .

فعندما يطلق المرء لخياله العنان يتبنّاه الشيطان ، ويرد مخيلته ليوسوس إليه بأن زوجته قد تفعل فعلاً سيئاً ـ والعياذ بالله ـ وأن جاره المؤمن قد يسرقه ، وما إلى ذلك من الخيالات والأوهام التي يشرع الشيطان بها من (١) بالمليون لتصير بعد شهر واحد (٥٠٪) وهكذا ، إلى أن يصل الأمر أن يشكَّ بأخيه أو أبيه أو ابنه (٩٠٪) .

وهنا يصبح الأمر اتهاماً جاء به الخيال والوسواس .

ويقال : إن التهمة أكثر من القتل في بعض مواطنها ، قال الإمام الصادق (ع) : « إذا اتهم المؤمن أخاه إنماث الإيمان من قلبه كما ينماث الملح

---

(١) بحار الأنوار/ج ٧٥ ، ص ١٩٧ .

(٢) بحار الأنوار/ج ٧٥ ، ص ١٩٦ .

في الماء »[1] .

وقال أيضاً ـ سلام الله عليه ـ: « من اتَّهم أخاه في دينه فلا حرمة بينهما »[2] .

قال الشيخ الجليل غلام رضا اليزدي ـ رحمه الله ـ: إن الشيطان الذي يأتي إليك لا يقلّ علماً عنك إذا كان لا يزيد عليك ، فالعالم يأتيه شيطان عالم مثله ، والدكتور يأتيه شيطان عالم بعلمه الطبي والطالب لا يتصيّده إلا شيطان بنفس مستواه ليتمكن منه ويحرفه عن الجادة الصواب .

ففي الخيال يسرح الشيطان ويمرح ، وفي الخيال يبذر الشيطان الرجيم بذوره القذرة ليلوِّث الطاهر بنجاسته ، وليحرف السويَّ عن استقامته .

إن الكثير من النساء والرجال يتصلون بي هاتفياً ليعرضوا عليَّ مشاكلهم على أمل المساهمة في حلِّها والوصول بهم إلى حياة سليمة سوية .

وقد لاحظت أن أغلب تلك المشاكل والاختلافات تحمل جذور سوء الظن .

وكما يعرف القارىء الكريم أن سوء الظن لا يجرُّ على الإنسان غير الابتلاءات والمصائب من مثل الطلاق ، وظهور العقد النفسية على أطفال أولئك المبتلين بالاختلافات .

ولذا ينبغي أن نوليَ أهميةً بالغةً بهذه القضية ، ولا نجعل أنفسنا ألعوبة بيد شياطين الإنس والجن من الذين يعبثون على الضياع في دنيا الخيال .

إن سوء الظن يدخل الإنسان مداخل عجيبةً وغريبةً ، فقد يساهم في طرد الفرد من المجتمع ولفظه مما يبعث على ظهور اللوثات الدماغية ، وقد يجرُّ إلى اغتياب الآخرين ، والغيبة أشد من الزنا ، ومن فعلها فقد تجاوز الفضيلة وأصبح مجرماً لدى الإنسانية والإسلام ، فقد أجمع العلماء على عدِّ الغيبة من كبائر

---

(١) الكافي/ج ٢ ، ص ٣٦١ .

(٢) الكافي/ج ٢ ، ص ٣٦١ .

الذنوب ، وأن مرتكبها يخالف الأحكام الإلٓهية ويتجاوز على حقوق المخلوقين غير مبال بحقوق الخالق .

إن المنزل الذي خلا من المحبة والود بين الزوجين أفضل أرضية لسوء الظن ـ والعياذ بالله ـ فترى الرجل مثلاً إذا أراد أن يتّهم زوجه في شيء ما ، جاءه الشيطان وحرّكه على قضية أخرى لا ترتبط أساساً بما يريد التصريح به ، فيشرع الرجل بانتقاص زوجته بأن طعامها خال من الملح ، أو أنه لم ينضج بعد ، وأن المائدة قذرة ولم يمسّها الماء منذ أيام إلى أن يصل به الشيطان إلى المرحلة الوضيعة وهي : سوء الظن ، فيشرع الرجل بتجريح زوجه بالكلام اللاذع الذي يشبه الهمز واللمز إلى أن يصل مرحلة التصريح فيطرق الشيطان على رأسيهما ليفترقا إلى غير رجعة ويتركا أولاداً كاليتامى أو أقل شأناً منهم تتقاذفهم الأيدي هنا وهناك ، وفي الآخرة ينتظرهم عذاباً جداً أليم .

إن النيران والعذاب الأليم الذي ينتظر المسيء لتجريحه باللسان لأقرب الناس إليه ، فيصبح بعد ذلك طعمةً لجهنم التي تتّقد بالناس والحجارة .

﴿ إنكمْ ومَا تعبدونَ منْ دونِ اللّهِ حصبُ جهنّمَ ﴾[1] .

والحصب هو كل شيء يرمى في جهنم ويعني بذلك وقودَها .

﴿ يا أيُّها الذين آمنوا قِوا أنفسكُم وأهليكُم ناراً وقودُها الناسُ والحجارةُ ﴾[2] .

فالتخيُّل والوسوسة بلاءٌ ومصيبةٌ كبرى على الضارب أطنابه في الخيال عدو الإنسان الشديد ، فلا تجعلوا للشيطان طريقاً إليكم من خلال التخيُّلات والتصوُّرات .

قد يأتي الشيطان إلينا عن طريق مصطبغ بصبغة دينية ، لأنه قطع على نفسه يميناً بإغواء من عليها بشتى الوسائل والطرق ﴿ قالَ فبِما أغويتني لأقعدنّ لهمْ صراطَكَ المستقيمَ ، ثمَّ لآتينَّهم منْ بينِ أيديهمْ ومنْ خلفهِم وعنْ أيمانهِمْ

---

(١) سورة الأنبياء، الآية ٩٨.

(٢) سورة التحريم، الآية ٦.

وعنْ شمائلِهِمْ ولا تجِدُ أكثرهُمْ شاكرينَ ﴾[1] .

﴿ قالَ فبِما أغويتني ﴾ وهذه دلالة على أن الشيطان أشعري أو جبري ، فقد نسب الإغواء إليه ـ تعالت أسماؤه ـ ﴿ لأقعدَنَّ لهمْ ﴾ لبني آدم ﴿ صراطكَ المستقيمَ ﴾ طريقك الحق القويم ﴿ ثمَّ لآتينَّهم من بينِ أيديهم ومنْ خلفهِم ، وعنْ أيمانهِم وعنْ شمائلِهم ﴾ أي من جهاتهم الأربع فأضلّهم عن سلوكه .

ولم يقل من فوقهم لنزول الرحمة منه تعالى ولا من تحتهم لإيحاش الإتيان منه .

وقيل : ﴿ منْ بينِ أيديهِم ﴾ أي : من قبل الآخرة ، أي : تصوير الآخرة لهم شيئاً غير مهمٍّ وبعيد ، وعدمية وجود الآخرة وما إلى ذلك من الخيالات والأوهام .

﴿ ومنْ خلفهِم ﴾ من قبل الدنيا ، والآخران من جهة حسناتهم وسيئاتهم .

ومجيء من الأولين لتوجهه منا إليهم ، وعن في الآخرين لانحراف الآتي منها إليهم ﴿ ولا تجدُ أكثرهُم شاكِرين ﴾ إن الغالبية العظمى منهم غير مؤمنين .

فترى الشيطانَ مثلاً يأتي للإنسان عن طريق الوضوء ، فترى الرجل أو المرأة يضعون أيديهم تحت مجاري المياه مدةً طويلةً ، ثم يقولون : إن أيدينا ما زالت نجسةً ، في الوقت الذي لا وجود أصلاً للنجاسة ، وإن الذي يحدث هو أن خياله يجسّم له الأشياء ، وعندما يشرع بالصلاة طالباً ذكر تكبيرة الإحرام تسمعه يقول : « ال ، ال ، ال ، وبعد بضعة دقائق يقول : « الله أكبر » .

إنه يتخيَّل أن « ال » لم يقلها بشكلها الصحيح ، ويتخيَّل أن هناك أحداً يقول له : ليست هكذا ، بل اصبِر قليلاً ، لتقولها على طبيعتها .

إنها الخرافة ، ويد الشيطان ولسانه ، والمعصية الكبرى لكونها تدخل ضمن البِدع .

---

(1) سورة الأعراف، الآية ١٦ ، ١٧ .

وقد لا يقنع الشيطان بهذا ، بل يصعِّد المسألة أكثر مما كان ، وعندها تسمع من العالم الفلاني أن له مكاشفةً وأنه رأى الإمام المهدي (عج) ، وأنه قال له : إنك نائبي الخاص كما حصل للميرزا علي محمد البهائي ، الضالّ المضلّ .

لقد أضلّ البهائي الكثير من الحمقى والعوام ، وجرَّهم إلى ملتويات السبل ، بالرغم من أن الكثير منهم كان يعرف أن البهائي لا يحسدُ على عقله الخرافي ، وسيرته الشوهاء التي كان يسميها بالرياضة الروحية .

قال البهائي : « أنا نائب المهديّ المنتظر (عج) ، لقد رأيته وقال لي : إنك نائبي الخاص ـ وبعد أن نزغ الشيطان له أكثر لما رآه أحمقاً بليداً ـ قال : « إن الله أوحى إليّ فأنا نبيُّ الله ـ وقد يكون قوله صحيحاً والسبب في ذلك : ﴿ وإنَّ الشياطينَ ليوحونَ إلى أوليائِهِمْ ﴾[1] .

وبعد مدة قال : « إني أنا الله » ، وعندها أعدمه الناس لقولته القذرة تلك ، ولو لم يعدموه لتمادى في غيِّه ، وقال بما هو أكثر من ذلك ، ولا نعرف ماذا كان يريد أن يقول!! .

وهكذا كان أحد العرفاء يقول : إنه يرى بعض المسلمين أشبهَ بالقرود ، ويقول أيضاً : إنه رأى إمام الزمان المهدي المنتظر (عج) وقد قال له : إن ما في أيدي الناس هو ملك لك ؛ وعندها سرق أموالاً لأحدهم ، وحينما سئل عن سبب سرقته ، قال : إنه رأى في عالم الكشف أن هذا المال يرجع في أصله له!! .

إن الشيطان الرجيم يطرق كل الوسائل والسبل من أجل تضييع الإنسان وحرفه عن سبل السلام والهداية والصواب ، وإن التخيُّل أحد أبوابه ووسائله التي يقود الإنسان من خلالها إلى حيث الرضاعة والحطة ـ والعياذ بالله ـ .

ومن أراد النجاة من هذه الخيالات والأوهام وسوء الظن الذي لا يعتمد أساساً على دليل أو سند ، فليلم نفسه حين تراوده الأوهام والخيالات ،

---

(١) سورة الأنعام، الآية ١٢١ .

ويعنّفها ، لئلا يساوره الشكُّ والظن الشيطاني المقيت ، فإذا ما كان جالساً وداخلته الخيالات فليضطجع ، وإذا كان نائماً وساورته الظنون فليجلس .

وما يحاول إبعاد تلك الأفكار عن ذهنه لمرة أو مرتين أو ثلاثة حتى يصبح الأمر اعتيادياً جداً ، ويبتعد بتلك عن هذه الصفة الرذيلة والله هو المستعان في كل الأمور .

« إلّهي قصرت الألسن عن بلوغ ثنائك كما يليق بجلالك ، وعجزت العقول عن إدراك كنه جمالك ، وانحسرت الأبصار دون النظر إلى سبحات وجهك ، ولم تجعل للخلق طريقاً إلى معرفتك إلا بالعجز عن معرفتك ، إلّهي فاجعلنا من الذين ترسخت أشجار الشوق إليك في حدائق صدورهم ، وأخذت لوعة محبتك بمجامع قلوبهم بحق النبي محمد وآله الطيبين الطاهرين » .

[١]
أيَـام اللّـــه

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ ولقدْ أرسلنا موسى بآياتِنَا أنْ أخرجْ قومكَ منَ الظلماتِ إلى النورِ وذكِّرهُمْ بأيامِ اللّهِ . . ﴾(١) .

أي يا أيُها الرسول إذا أردت أن تخرِج قومك من الضلالة والانحراف إلى طريق الهدى والنور عليك بتذكيرهم بـالنِّعم الجليلة وبأيـام الله العظام ، التي يمكن أن يستفيد الإنسان من الحوادث التي جرت فيها فيتخذها عبرةً له .

﴿ فسيروا في الأرضِ ، فانظرُوا كيفَ كانَ عاقبةُ المـكذِّبينَ ﴾(٢) .

أيُها البشر غوروا في التاريخ لتتعرفوا عاقبة الذين كذَّبوا الرسل ، ولتتعرفوا على كيفية إذلالهم من قبل الله تعالى ، واتخذوا من سيرة الماضين عبرةً لكم تنتفعوا بها في مجمل حياتهم الدنيوية .

﴿ يخـرِّبـونَ بيـوتهُم بـأيـــديهِم وأيـدِي المؤمنينَ فـــاعتبـرُوا يَـا أُولي الأبصارِ ﴾ (٣) .

فالتاريخ عبرةٌ للمعتبرين .

ومن عاشوا في الحقبة الزمنية الماضية عبرةٌ ، فعلينا أن نعتبر بتلك الأيام

---

(١) سورة إبراهيم، الآية ٥.

(٢) سورة النحل، الآية ٣٦.

(٣) سورة الحشر، الآية ٢.

والأعوام والحوادث ، ونتذكّر أيام الله التي خصّها الله بحوادث بقيت آثارها على مدى الدهور .

إن المسيرة التاريخية للإنسان عجيبة جداً ، فالبحث في التاريخ والتدقيق فيه يجرُّنا إلى الكثير من المسائل الاجتماعية والأخلاقية والسياسية ، ولا أعني هنا مطالعة التاريخ بحد ذاتها ، فذلك يختلف كثيراً عن السير في التاريخ .

فقد يطالع إنساناً كتاب تاريخ من الغلاف إلى الغلاف ، ولكنه في النهاية لا يخرج بتحليل عام للقضايا الاجتماعية أو السياسية وما إلى ذلك ، وهذا ما لا يعطيه القرآن الكريم أهمية تذكر .

إن مطالعة القرآن تفهمنا أن هناك حوادث تاريخية مهمة ضبطها القرآن بشكل دقيق ليتخذها الناس عبرةً لهم يستفيدون منها في تنظيم حياتهم ولو أخذنا سورة يوسف (ع) وطالعنا في محاورها السياسية والاجتماعية والأخلاقية لتوصلنا إلى أن ما في تلك الحوادث والمحاور التي ضبطها القرآن المجيد لنا لا يتعدّى أن يكون درساً واقعياً ، في بعض من أيام الله ـ تعالت أسماؤه ـ لنعتبر ونلتزم بأوامر الباري ـ جلّت قدرته ـ ونتجنب ما يغضبه .

ومطالعة الحوادث التي جرت في تلك الأيام المنعوتة بأيام الله يكون بالشكل التالي : لماذا ألقي يوسف في غيابة الجبّ؟ .

ومن هو الذي ألقاه؟ .
وما السبب في اختيار يوسف دون غيره؟ .
ولماذا بيع يوسف بثمن بخس؟ .
وكيف ذهب إلى السجن .
وما السبب في تتويجه ملكاً بعد أن كان يباع ويشترى ويظلم ويسجن؟ .
وكيف كان حديث يوسف إلى أبيه؟ .

وما كان حديثه إلى إخوانه الذين ظلموه وألقوه في الجبِّ ، وباعوه! .

وفي الختام نخرج بنتائج عديدة ، منها عفة يوسف في الوقت الذي كان كل شيء مهيأً له ، إلا الانقياد للشيطان ! .

وهذه تجربة اجتماعية أخلاقية فذّة للإنسان المسلم .

يقول القرآن الكريم في نهاية الأمر : ﴿ مَنْ يتّقِ ويصبِرْ فإنَّ اللّهَ لا يُضيعُ أجرَ المحسنينِ ﴾[1] .

هذه الجملة قالها يوسف لإخوانه بعد تحقق منامه ، حيث تعني : أن الذي يخاف الله ويتقيه ، ويصبر على بلائه يؤتيه أجر المحسنين ، وأنكم وصلتم - أي إخوانه - إلى الذلّ والهوان بسبب افتقادهم للتقوى أولاً وللصبر ثانياً ، وأن هاتين الصفتين هما اللتان تصلان بالمرء إلى المقام العليّ .

وكذا الأمر في جميع القصص القرآني ، فنشاهد قصة إبراهيم وتحطيمه للأصنام ويمكن أن نأخذ منها عبرةً وعظةً .

وكذلك قصة نوح التي تعدُّ إحدى العبر .

وقصة قوم ثمود وعاد ، وقصة قوم لوط وكيف أفناهم الباري تعالى ، وقصة يونس وكيفية إشراف قومه على الهلكة لولا رحمة من الله .

كل هذا وذاك من القصص والروايات القرآنية الحكيمة من أجل أن يتّعِظ ابن آدم ، ويعتبر ، ويلتزم أخلاقياً .

وقد ذكرت ذلك فيما سبق وقلت إن نصف الكتاب الشريف يتعلق بالمسائل الأخلاقية المحضة ، هذا في ظاهر الأمر .

أما إذا أمعنّا النظر فيه في سوره وآياته ، لاتضح لنا أن كل الآيات والسور القرآنية المباركة هي من أجل بناء الإنسان بشكل يليق به وبسجود الملائكة له .

وعليه ، فالتذكير بأيام الله الاستثنائية المليئة بالعبر والمواعظ أمر ضروري ولازم ، ليُراجع الإنسان مسيرة حياته ليطابقها مع المسيرة التاريخية الصحيحة والسليمة التي تعرض لها القرآن الكريم في مجمل سوره الشريفة .

إن الأول من فبراير عام ١٩٧٩ يعدُّ أحد أيام الله ، لكونه حادثة غريبة وعجيبة ، علينا أن نجعلها ضمن المسائل والأيام المعتبرة ، إنه اليوم الذي رجع

---

(١) سورة يوسف، الآية ٩٠.

فيه مؤسس الجمهورية الإسلامية إلى ايران ولا يملك سلاحاً إلا لا إلّه إلا الله ، ليطرد الشاه المقتدر والمرجح بشتى أنواع السلاح ، بل يقال إن إيران كانت ترسانةً للسلاح الغربي والإسرائيلي ، ولكن الإمام المؤسس استطاع بصدقه وصبره وتقواه أن يكون أقوى الناس . قال رسول الله (ص) : « إن سرك أن تكون أقوى الناس ، فتوكَّل على الله »[1] .

لقد توكل هذا الرجل على بارئه في يوم عدَّ من أيام الله العظام ، فطرد الطواغيت إلى حيث لا رجعة ، وأقام حكومة إلّهية يلتزم ما جاء به القرآن المجيد ، وما جاء به الرسول الأكرم (ص) والأئمة من بعده ـ صلوات الله عليهم ـ لقد جلب هذا الإمام محبة الناس دون أن يطلب هو ذلك ، فقاموا لمقارعة الظلم والفساد الشاهنشاهي البغيض باذلين الغالي والنفيس واضعين الأرواح الى الأكف ممتثلين لأمر قائدهم الذي لم يحد عن نهج الرسول الأكرم (ص) وأهل بيته الأطهار (ع) .

لقد توكَّل على الله واعتصم به ، ومن توكَّل على الله لا يُغلب ، ومن اعتصم بالله لا يُهزم .

سأل أحدهم الإمام جعفر بن محمد الصادق (ع) عن حدِّ التوكل ؟ .

فقال (ع) له : « حدُّه اليقين » .
فقال : فما حدُّ اليقين ؟ .
قال (ع) : « أن لا تخاف مع الله شيئاً ! »[2] .

إن الحوادث التي جرت في ذلك اليوم الذي قدم فيه مؤسس الجمهورية الإسلامية من باريس ، نادرة جداً ، وفيها عبرةٌ وعظةٌ لنا .

لقد وقفت الأمّة المستضعفة مقابل مدافع ودبابات الحكومة الجائرة ، ولم يكن لديهم غير شعارات إسلامية أطلقوها في وجوه المؤتمرين بأوامر الطاغوت ، فسقط الطاغوت وانتصر الشعب الملتزم لأوامر القائد المتوكل على الله ، الصابر

---

(١) مكارم الأخلاق/ص ٥٥٢ .
(٢) الكافي/ج ٢ ، ص ٥٧ .

في الله ، المعتصم به ، والواثق بما في يده ، فنصره الله في يوم من أيامه التي سجلها التاريخ بأحرف من نور .

إن الباري تعالى منح أولياءه عزاً ما بعده عز . لكونهم خرجوا من ذل معصيته إلى عز طاعته .

ومن أحكم علاقاته مع خالقه منحه الباري قوة وبأساً ، وجعل الجميع يدينون له بالولاء .

لقد ملأ الخوف والرعب قلوب المستكبرين حينما رجع الإمام إلى إيران ، وقبل ذلك كان الوضع على هذه الشاكلة ، ولا بأس هنا بذكر حادثة جرت عام ١٩٦٣ حين نفت حكومة إيران الإمام إلى تركية ، بعد أن اقتادته من بيته في مدينة قم إلى طهران .

وفي الطريق إلى طهران ، وفي سيارة جلس فيها ثلاثة من الضباط الكبار كان يجلس بينهم الإمام ـ رضوان الله تعالى عليه ـ بان الرعب والهلع على أولئك الضباط فلم يسمحوا له بالنزول من السيارة للصلاة ، فقال لهم بضرورة التيمُّم ، فوافقوا على ذلك شريطة أن لا يترجَّل من السيارة ، وفعل ذلك وصلى صلاته جالساً ﴿ فمنِ اضطرَّ غيرَ باغٍ ولا عادٍ فلا إثمَ عليهِ ﴾[1] .

إن تلك الثورة المباركة لم يحدث نظيرها في العالم في عالم الحضارة والمدنية العصرية .

إننا لم نشاهد ولم نسمع بثورة يجرُّ حب القائد فيها مليون شاب إلى الشارع ليقف إزاء الدبابات والمدافع والجيش والشرطة ، من أجل رجل قال لهم : قوموا لله .

رجل أطاع الله فأعزه ، وخرج على ذل معصية الله إلى عز طاعته ، فمنحه الله عزاً وهيبةً وسلطاناً نصيراً .

﴿ إنَّ الذينَ ءامنُوا وعملُوا الصالحاتِ سيجعلُ لهمُ الرحمنُ وُدًّا ﴾[2] ،

---

(١) سورة البقرة، الآية ١٧٣.

(٢) سورة مريم، الآية ٩٦.

وعلى العكس من ذلك نرى : ﴿ عاقبةَ الذينَ أساؤُوا السُّوأى أنْ كذَّبُوا بآياتِ اللَّهِ وكانُوا بها يستهزِئُونَ ﴾[١] .

إنها عظات وعِبر لنا ولأبنائنا من بعدنا .

إنها أيام الله التي يجب أن نتذكرها دائماً ، لتستقيم أمورنا الدنيوية والأخروية ، وعلينا أن ندرك مسألة مهمة جداً وهي أن الله تعالى يُمهل ولا يُهمل ، إنه يعطي الناس فرصاً كثيرة ليؤوا إلى الخير والصلاح .

ولكن إذا لم يفعلوا ذلك أمهلهم مدةً ثم أخذهم أخذ عزيز مقتدر .

إن أخذه لشديد ، فاتَّعِظ أيها الإنسان يا من يطول بك الأمل في هذه الدنيا الدنيّة .

كان نمرود فاسقاً متجبّراً مغروراً وصل به الأمر إلى بناء قصر شاهق طلع على سطحه ليقول للباري تعالى جئت لحربك ، جئت لقتلك ، فإن كنت أهلاً لذلك فارمني بسهم منك ـ أعاذنا الله وإياك من هكذا مقولات ـ .

تركه الباري لعقله القاصر مدةً ، ثم أراد أن يفهم الآخرين أنه أضعف من بعوضة ، فبعث إليه بعوضة اخترقت دماغه فحار بذلك بالأمر ، عندما أمر اثنين من حاشيته بأن يضربوا رأسه بالمطارق ، وإذ فعلوا ذلك حتى وصل الدرك الأسفل من جهنم التي وقودها من هم أمثاله .

قال أحدهم : إلٰهي إذا كان حاصل أرضي لهذا العام كثيراً ، سأُخرج من العشر وأوزعه على الفقراء والمساكين ، فلما جاء موسم الحصاد وكان الحاصل جيداً قال : إلٰهي إن العشر كثير وأن عليّ قروضاً ينبغي أن أسلمها لأصحابها ، فامهلني إلى العام القادم ؛ فإن كان الحاصل جيداً سأتبرع بالنصف ، ليبقى لي نصف ؛ وجاء الموسم الجديد ، وكان الحاصل أفضل من السنة الماضية بكثير ، ولكن صاحبنا كان يقول : إلٰهي أريد هذا العام تزويج ابني فامهلني إلى العام القادم ، ليكون الحاصل كله لك بشرط أن يكون حاصل العام كله لي .

---

(١) سورة الروم، الآية ١٠.

ولمّا جاء الموسم الثالث وعزلت القشور عن الحبوب حتى رأى الكذاب ذاك أن المسألة أكبر من أن يعطي محصوله في سبيل الله فنزلت به الآية المباركة : ﴿ ثمّ كانَ عاقبةَ الذينَ أساؤُا السُّوأى أنْ كذَّبوا بآياتِ اللّهِ ﴾(1) .

لقد أحرق الباري تعالى محصولَه وزرعَه ، ثم أغرق أمواله من دوابٍّ وبيوت وما إلى ذلك فكان يندب ويصرخ ويقول : إلّهي إن القمح لك وحدك ، والدار والمزرعة لي ، فاصفح عني وتجاوز ، ولكن قضى الله أمراً كان مفعولاً : ﴿ وليخشَ الذينَ لو تركُوا منْ خلفهِم ذرِّيَّةً ضِعافاً خافُوا عليهِمْ فليتقُوا اللّهِ ، وليقولُوا قولاً سديداً ﴾(2) .

إن تلك الحكاية يمكن أن تكون لنا عبرةً وعظةً لنستقيم على الجادة الصواب من خلال الارتباط بالله ، والالتزام بأوامره ونواهيه لكي نحظى بالأمن والسلام والطمأنينة الإلّهية : ﴿ فأيُّ الفريقينِ أحقُّ بالأمنِ إنْ كنتُم تعلمونَ ﴾(3) .

من هي الفرقة التي تستحق الأمن ؟ .

إنها ﴿ الذينَ ءامنُوا ولمْ يلبسُوا إيمانهُم بظلمٍ أولئكَ لهمُ الأمنُ وهم مُهتدونَ ﴾(4) .

إنهم لا يشركون ، ولا يلبسون ما يؤمنون به بالظلم ! .

﴿ وإذْ قالَ لقمانُ لابنِهِ وهوَ يعِظهُ يا بنيَّ لا تشرِكْ باللّه إنَّ الشركَ لظلمٌ عظيمٌ ﴾(5) .

نعبادة الشيطان وأتباعه والامتثال لأوامره ظلم لله المتعالي وظلم للنفس ؛ فقد يتوغل الإنسان بالظلم والجور إلى درجة يصل معها إلى الحيونة ، بل يصير أضل من الحيوانات نفسها ، فيظلم الآخرين باغتياب أو بنميمة أو بشائعة أو

---

(1) سورة الروم، الآية ١٠ .

(2) سورة النساء، الآية ٩.

(3) سورة الأنعام، الآية ٨١.

(4) سورة الأنعام، الآية ٨٢.

(5) سورة لقمان، الآية ١٣ .

بتهمة ، وبعد ذلك يأتي ليقول إنه مسلم ! .

كيف ذلك ولم يسلَم الناس لا من لسانك ولا من يدك!!؟ .

إنك لا تستحقُّ الأمن لأن الناس لم يأمنوك ، وإنما المستحق لذلك هم الذين لم يلبسوا إيمانهم بظلم ! .

[٢]
أيّــام اللّــه

عرضنا في ما مضى إلى أيام الله تعالى وأنها يجب أن نستثمرها لتربية أنفسنا وأبنائنا ، ولبناء الإنسان المسلم السويّ ، وأن التذكير بأيام الله ورد في القرآن المجيد لكي يكون لنا عبرةً وعظةً ؛ وأن مسيرة التأريخ التي احتوت على القصص أنبأتنا بمصائر ومآل الأقوام الذين لم يلتزموا أوامر ونواهي الخالق المصور ـ جلّت أسماؤه ـ .

إن الأيام التي نعتها الباري بأنها أيامه كانت حافلة بالحوادث المثيرة والمدهشة التي تدلل على عظمته وجبروته .

ولو طالع الإنسان تلك الحوادث بدقة وأمعن النظر فيها لاستفاد كثيراً من تجارب الآخرين ولتمكن من ممارسة (التوحيد الأفعالي) الذي يؤدي بالبشرية إلى سعادة الدارين ، بعيداً عن الاضطراب والقلق والحزن مانحاً إياهم الوقار والسكينة والطمأنينة .

قسّم علماء الكلام والفلاسفة التوحيد أربعة أقسام :

١ ــ التوحيد الذاتي :

وهو التوحيد الذي شاهدناه وتعلمناه من آبائنا وأجدادنا حيث كانوا يقولون لنا دائماً : إن الله واحد ، ولا يمكن أن يكون غير ذلك ، وأن التوحيد هو الأصل الأول في أصول الدين ، وبعبارة أخرى التوحيد يعني : أن في عالم الوجود واحداً واجب الوجود حاكماً عادلاً ، وليس اثنين .

وهذا ما يمكن التدليل عليه بوضوح في كثير من المواقف والحوادث والقضايا .

يقول صدر المتألّهين في أسفاره :

واجب الوجود : موجود لا نهاية له ولا حد ، ولو كان كذلك ، لما كان واجب الوجود .

إنه موجود في كل مكان وزمان ، كان منذ الأزل وسيبقى إلى الأبد . وعندما نتصور هكذا موجود بالإدراك تكون التثنية مستحيلةً ، ولهذا يكون « واجب الوجود » أحاديته ، فإذا قلنا بثنائيته صار محدوداً ، وما حد سقط عنه قول « واجب الوجود » .

فالتوحيد الذاتي هو : وحدانية الله ، وليست ثنائيته ، إذ لا ثنائية في الأمر ، والدليل على ذلك واضح بنظر الفلاسفة والعرفاء ؛ وبالقدر الذي يدركه البشر يكون واجباً ؛ وإدراكه على أنه واحد غير محدود يسمى بالتوحيد الذاتي .

٢ ــ التوحيد الصفاتي :

وهو : أن صفات الله ـ تعالت أسماؤه ـ عين ذاته .

وإذا أردنا تقريب المعنى إلى الأذهان نقول : إن التوحيد الصفاتي هو نظير الملوحة بالنسبة للملح ، أو نظير الرطوبة بالنسبة للماء .

فالملح يعني الملوحة ولا يمكن فصل الملوحة عن الملح ، كأن يكون الملح شيئاً ذاتياً والملوحة عارض أو حالة طارئة ! .

والحالة الطارئة هي كالإنسان وعلمه ، والإنسان وقدرته ، والإنسان وإرادته وشعوره ، أي كل هذه زائدة على ذات الإنسان ، فالإنسان لم يكن عالماً في يوم من الأيام ، لكنه أضحى كذلك بعدما اكتسب العلم ، وعندما كان طفلاً لم يكن يمتلك قدرة على المشي أو الصعود أو ما شابه ذلك ، لكنه اكتسب هذه القدرة بعد مرور أعوام وأيام .

وعندما يشيخ تنسلخ منه تلك القدرة ؛ ولكن لا يمكن انسلاخ وفصل الملوحة عن الملح أو الرطوبة عن الماء فوصل الرطوبة يعني انعدام الماء .

وكذا الأمر بالنسبة لصفات الباري تعالى ، فعالم تعني العلم وتعني أنه تعـالى العلم والإرادة ، والقدرة والشعـور ، كلهن غير زائـدات على ذات الله المقدسة ، بل عين ذاته .

فوجوده يعني وجود العلم ، ويعني الإرادة والقدرة . ووجود الملح يعني الملوحة . فالملوحة هي الملح وهذا الشيء تطرق إليه أبو الأئمة أمير المؤمنين علي (ع) في أول نهج البلاغة ، فقال : « . . . وكمال توحيده الإخلاص له ، وكمال الإخلاص له نفي الصفات عنه ، لشهادة كل صفة أنها غير الموصوف ، وشهادة كل موصوف أنه غير الصفة : فمن وصف الله سبحانه فقد قرنه ، ومن قرنه فقد ثناه ، ومن ثناه فقد جزأه ، ومن جزأه فقد جهله ، ومن جهله فقد أشار إليه ، ومن أشار إليه فقد حدَّه ، ومن حدَّه فقد عدّه . . . »[1] .

قال صدر المتألهين ـ عليه الرحمة ـ في أسفاره : إن التوحيـد الصفاتي بالنسبة للإنسـان ينحصر بمقدار التصور والإدراك لواجب الوجود بالقدر الـذي لا يجعله محتاجاً للخروج على قاعدة صفات الله عين ذاته .

إن إدراك مسألة التوحيد الذاتي والتوحيد الصفاتي يجعل المرء مـوحداً عقائدياً ويلزمه أن يكون موحداً أيضاً بسلوكه وعمله .

٣ ــ التوحيـد العبـادي :

يعني أن الإنســان لا ينبغي له أن يعمل من أجل أحد ، بل يجب عليه أن يكون عمله لله وحده لا شريك له ، وبعبارة أخرى لا ينبغي له أن يجعل أحداً يتحكم في عواطفه وقلبه ، ومن فعل ذلك فهو عابد لذلك الشخص ، وذلـك الشخص إلٓهه .

قال الباري في محكم كتابه : ﴿أفرءيت منِ اتخذَ إلٓههُ هواهُ وأضلهُ اللّهُ على علمٍ ﴾[2] .

إن الذين يتحكم الهوى في قلوبهم وعقولهم أشد شركاً من أولئك الذين

---

(١) نهج البلاغة/صبحي الصالح ، ص ٣٩ - ٤٠ .

(٢) سورة الجاثية ، الآية ٢٣ .

كانوا يعبدون الأوثان والاصنام الحجرية والخشبية ، فهؤلاء يقولون : إنها تقربهم زلفى من الله ، أما الذي اتخذ إلّهه هـواه فلا يعبـد الله ولا يتقرب بهـواه ذلك إلى الله زلفى .

فالتوحيد العبادي : هـو الخضوع لله فقط : ﴿ إيّـاك نعبد ﴾[1] ، وهـو تقديم ما هو حقه التأخير ويفيد الحصر .

فـ « نعبدك » ضمير متقدم ، وتقدم الضمير دلالة على الحصر ؛ وتعني أننا نعبدك فقط ، ولا نعبد غيرك ، سواء كان هوى أم شيطاناً أم أوثاناً أو غير ذلك .

فإذا أصبح الإنسان عبداً للشهوة ، أو عبداً للأموال ، تعلق قلبه بالشهوات وتعلق قلبه بالأموال ، وهذا التعلق يمنعه من أداء واجبه المفروض عليه ، فالذي تعلق قلبه بالأموال لا يتأتى له أن يعطي حقوق الفقراء والمساكين حاله حال ذلك الذي كان في زمن الجاهلية يعبد الأوثان والأصنام والحجر ؛ وحاله حال هؤلاء الذين يعبدون في زمـاننا الحـاضر (متـاع الرجـل أو متاع المـرأة) في الهند واليابان .

فإذا كان الفرد لا يتمكن من الحؤول دون غريزته الجنسية ، يُعدُّ عابداً للأصنام فذاك الذي في اليابان يعبد (متاع الرجل أو متاع المرأة) لا يختلف عن هذا العابد للشهوات أو ذاك الذي يعبد الأوثان أو الذي يعبد الأموال ، فكلهم عبيد لغير الله تعالى .

إن سورة يسٓ المباركة تتصدى لمثل هذه الأمور ، وهي من السور التي ينبغي أن تقرأ في كل صباح لتأثيرها الملحوظ في الحياة الدنيوية والأخروية ، ونقرأ فيها : ﴿ أَلَمْ أَعهَدْ إليكُمْ يا بني ءادمَ أن لَّا تعبدُوا الشيطانَ إنهُ لكمْ عدوٌّ مبينٌ ﴾[2] .

أي : أنسيتم أيُّها الناس عهدي إليكم أن لا تعبدوا الشيطان الذي أغوى أباكم آدم وأخرجه من الجنة وزوجه ، وأقسم مراراً على تضليلكم وإضلالكم ؟

---

(١) سورة الفاتحة، الآية ٥.

(٢) سورة يسٓ، الآية ٦٠.

ألا تعلمون أنه عدوٌّ لكم وأن هذا الأمر غير خاف على أحد .

فالذي يعبد الأموال أو النساء ، أو السلطة ، أو الشهرة ، عابد للشيطان الرجيم . وفرقه مع ذلك الذي لا يؤمن بالتوحيد الذاتي ؛ أنه يُعدّ مشركاً بالله بحبِّه للمال وعبادته له ، والذي لا يؤمن بالتوحيد الذاتيّ يقول بإشراك إلّه آخر مع الله .

فالاثنان يلتقيان في نقطة واحدة هي الشرك سواء كان إلّهاً آخر أم مالاً أم شهوةً ونحوها .

٤ ــ التوحيد الأفعالي :

وهو : أن الإنسان لا ينبغي أن يرى غير الله في هذا العالم مؤثراً ، وقد بيَّن القرآن المجيد التوحيد الأفعالي بالآية المباركة التي تقول : ﴿ **قلِ اللهمَّ مالكَ الملكِ تؤتي الملكَ منْ تشاءُ ، وتنزعُ الملكَ ممنْ تشاءُ وتعزُّ منْ تشاءُ وتذلُّ منْ تشاءُ ، بيدكَ الخيرُ إنكَ على كلِّ شيءٍ قديرٌ** ﴾[1] .

إن هذه الآية الشريفة تعني بالضبط أن لا إلّه إلا الله ؛ أي لا مؤثر في الوجود إلا الله ، وما دونه وسائل فقط .

فالسعادة مرهونة بالله ، فإذا تمكنا أن نصل إليها بواسطة العلم أو القدرة أو الشهرة ، يعني أنّا وصلنا إليها بتأثير من الله تعالى فهو الذي أعطى العلم ، والقدرة ، والوجاهة ، ولا يتأتّى لأحد أن يأتي بهذه النعم لولاه جلّت صفاته ، وأن البشر مجرد وسيلة لوجود السعادة .

فإذا كان توحيدك العبادي متخلخلاً بنسبة (٩٠٪) يكون التخلخل في التوحيد الأفعالي (٩٥٪) بل أكثر في بعض الحالات الطارئة .

ولذا يكون تعريف زليخا ـ في سورة يوسف للقدرة شركاً بالله العظيم : ﴿ **ومَا يؤمنْ أكثرهُم باللّهِ إلاّ وهمْ مشركونَ** ﴾[2] .

فقد يقول البعض إنه مؤمن ، وإنه يعلم أن صفات الله عين ذاته ، وأن قلبه

---

(١) سورة آل عمران، الآية ٢٦ .

(٢) سورة يوسف، الآية ١٠٦ .

لا يحكمه إلا الباري تعالى ؛ ولكنه عندما يصل إلى التوحيد الأفعالي يتلكأ ، ويؤكد القول : إرادتي وعلمي وجاهي وجلالي ؛ وهذه كلها لا تتناسب مع التوحيد الأفعالي ، لأن الإرادة لله وحده ، والعلم من الله وحده ، والمال مال الله وحده .

والإنسان يصعب عليه أن يطابق بين رسوخ هذا التوحيد والعمل به ، فمن فقد هذا التوحيد تراه دائم الاضطراب ، يسيطر عليه الخوف والقلق ونحوهما .

إن من سيطر على قلبه هذا النوع من التوحيد لا يفرح بما يأتيه ، ولا يأسى على نعمة سلبت منه ، لأنه يؤمن إيماناً كاملاً بأن ما يقدّره الباري تعالى هو الأفضل ، وما يقدّره البشر لا يمكن أن يرقى إلى ما يقدّره المولى تعالى .

يقال : إن إحدى النساء العارفات كانت تحتضر ، فاجتمع من مثلها حولها ، فقالت إحداهن : نحن العرفاء لا نعرف عارفاً إلا من خلال شكره على النعم .

وقالت أخرى : نحن لا نعرف العارف إلا من خلال شكره في البلاء .

فقالت المرأة التي على فراش الموت : العارف لا نعرفه إلا من خلال نظرته الحسنة إلى عالم الوجود ؛ إنه لا يرى إلا الحسن في عالم الذَّرِّ .

فالذي يأتي من الحق تعالى حسن وجميل ، وما يأتي منه إلا لمنفعة أو فائدة ، وما يأتي منه هو المصير المحتوم الذي يجب أن يأتي ، فالحزن والهمُّ لا يمكن أن يغير المصير ، وكذا الفرح والسرور . وإن الاثنين فيهما ضرر على الحالة النفسية للبشر : ﴿ لكيلا تأسَوْا على مَا فاتكُم ولا تفرحُوا بما ءاتاكُم ﴾[1] .

أعزّائي ؛ عليكم بمطالعة تاريخ الأسرة البهلوية في إيران ، ومطالعة تاريخ الساواك (الأمن والمخابرات الإيرانية) وزمان الطاغوت وحكومته .

وينبغي لكم مطالعة أوضاع الحرس الثوري ، ومتطوعي جهاد البناء

---

(١) سورة الحديد، الآية ٢٣ .

والمسؤولين ؛ وكيفية انفلات تلك القدرة العظمى من يد تلك الأسرة الفاسدة ووصولها إلى أيدي المستضعفين من شعب إيران البطل .

من طهران وأصفهان أرادوا أن يذهبوا به إلى إحدى الجزر ليموت فيها ذليلاً ، وكان حينها في منزل أحد المتمولين الأصفهانيين ، كان يقطع إيوان ذلك البيت جيئةً وذهاباً ويقول : أي ملك الملوك ، يا أيها المقتدر أين الملوكية التي كانوا ينعتونك بها ؟ وأين القدرة التي كانوا ينادونك بها ؟ .

لقد كان شاه إيران يخافه الداني والقاصي داخل وخارج إيران على نطاق المنطقة الخليجية ، وكان اسمه كافياً لإخافة من يفكر في سوء يمكن أن يمسّ ذلك الشاه المقبور .

ذهب ذلك الشاه إلى غير رجعة ، جمع بساطه في ساعة واحدة وذهب إلى حيث حسابه ، ولو تأتّى لابنه أن يعتبر ، لكان اعتبر بتلك الكتابة التي خطّها أبوه على ذلك الحيوان الذهبي الموجود في قصر (سعد آباد) وجاء فيها : أين القدرة ؟ أين القوة ؟ أين السلطة ؟ ﴿ كلَّ يومٍ هوَ في شأنٍ ﴾[1] .

سأل أحد الملوك وزيره عن معنى : ﴿ كلَّ يومٍ هوَ في شأنٍ ﴾ فلم يتمكن من إعطاء جواب ناجح ،وذهب إلى أحد العلماء ، فقال له : لنذهب إلى الملك معاً فأعطيك الجواب هناك .

وعند وصولهما إلى الملك قال : إذا نصبتموني وزيراً سأقول لكم الجواب ! .

فوافق الملك على ما قاله العالم ؛ وبعد التنصيب قال : إن معنى : ﴿ كلَّ يومٍ هو شأنٍ ﴾ هو أن وزيراً من وزراء الملك عالم ديني ، وأن العالم الديني أضحى وزيراً للملك .

لقد كانت قوة وقدرة الشاه كبيرة ، ولكنه بدَّدها بالسوء ، حيث كانت عناصره وجلاوزته يشدِّدون من ضرباتهم في أساس كل شيء فيحيلون تلك

---

(١) سورة الرحمن ، الآية ٢٩ .

الأسس إلى هشيم تذروه الرياح ، وقد ساندت الدول العظمى ومنها أمريكة ذلك الشاه بشتى الوسائل والأجهزة ، ليتمَّ لهم ما يريدون ، ولكن الله كان لهم بالمرصاد .

إنه لا يريد إلا أن يجري أحكامه في الأرض ، ولا تسبق إرادةُ إرادة الله سواء كانت داخلية أم خارجية ، فهو القوة وهو العظمة ، وهو الجبروت ، ولا يتأتّى لغيره أن يكون ذلك ، بل لا يليق لأحد أن يكون شيئاً من ذلك .

﴿ قلِ اللهمَّ مالكَ الملكِ ، تؤتِي الملكَ منْ تشاءُ وتنزعُ الملكَ ممنْ تشاءُ ، وتعزُّ منْ تشاءُ ، وتذلُّ منْ تشاءُ ، بيدكَ الخيرُ ، إنكَ على كلِّ شيءٍ قديرٌ ﴾[1] .

---

(١) سورة آل عمران، الآية ٢٦ .

مصائبُ الزهراءِ فاطمة (ع)

إن فاطمة الزهراء ـ سلام الله عليها ـ امرأة لم يأت مثلها ولن يأتيَ أبداً ، كان رسول الله (ص) يطبِّق هذه الآية على الزهراء ويقرؤها لها : ﴿ إنَّ اللَّهَ اصطفاكِ وطهركِ واصطفاكِ على نساءِ العالمينَ ﴾[1] .

لا يتأتَّى لأحد في العالمين أن يصل إلى حسب أو نسب فاطمة الزهراء ـ سلام الله عليها ـ فأبوها حبيب الله ، رسول رب العالمين ، وخاتم النبيين ، وزوجها أمير المؤمنين ، وسيد الوصيين ، وخليفة رسول رب العالمين ، وولداها الحسن والحسين ريحانتا رسول الله (ص) وسيِّدا شباب أهل الجنة ؛ لقد كانت أخلاقها أخلاق الرسول الأمين المصطفى محمد (ص) ، وأمها أفضل النساء بعدها فهي السند الأول والمعين الأفضل للرسول الأمين محمد (ص) ، وقد أفنت كل ما لديها على جادة الإسلام العزيز وكانت في زمانها أثرى من في الحجاز كلها ، وعندما قبضت لم يكن لديها كفنٌ وهذا خير دليل على تضحيتها وإيثارها .

وعند الاحتضار أوصت ابنتها الزهراء البتول بإخبار النبيِّ (ص) بأن والدتها لا تمتلك كفناً ولا بأس أن يكفِّنها بتلك العباءة البالية التي كان يستخدمها في أثناء نزول الوحي عليه لأول مرة .

وقبل انعقاد نطفة الزهراء البتول ـ سلام الله عليها ـ جاء الخطاب إلى

(١) سورة آل عمران، الآية ٤٢ .

النبيّ (ص) باعتزال القوم أربعين ليلة كي لا يصيب الكدر نفس وروح الرسول الكريم (ص) من خلال تماسّه للناس .

فكان الرسول الأمين (ص) حينها يذهب إلى غار حراء في جبل ثور ، لينشغل في عبادة الله ـ جلّت صفاته ـ ولم يكن وقتها يتصل مع أحد أو يتحدث إلى أحد .

وفي أثناء هذا كانت خديجة ـ سلام الله عليها ـ خلف جدران بيتها لا تخرج إلى أحد ولا تستقبل أحداً ولا تكلم أحداً ؛ وفي الليلة الحادية والأربعين نزل الأمين جبرائيل ليقول ل (ص) : اذهب إلى منزلك ، فذهب وطرق باب داره ، ليدخل فيه ولتنزل عليه مائدة من السماء لم يشاركه فيها غير زوجه خديجة أمّ المؤمنين .

إن قانون التغذية يؤكد مسألة الطعام الحلال ، وأنواع الطعام التي يكون بعضها مرققاً للروح أو مقسّياً لها .

وهكذا حملت أم المؤمنين بفاطمة الزهراء التي قال فيها الرسول الأكرم (ص) : « ابنتي فاطمة سيدة نساء العالمين »[1] .

إن التاريخ لم يتعرض لحياة الزهراء (ع) في السنوات التسع الأولى ، ولكنه أخبر عن زواجها الذي كان في ربيعها التاسع من ابن عم الرسول الأكرم (ص) . والتاريخ يخبرنا عن الحياة المتلاطمة في تلك السنين المملوءة بالوقائع والأحداث ويعقب تلك السنوات العجاف نزول سورة الانشراح على صدر الحبيب محمد (ص) : ﴿ **أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ، وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ ، الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ** ﴾[2] .

إن الحقبة الزمنية التي تربّت فيها الزهراء (ع) في بيت أبيها كانت مملوءة بالمصائب والبلايا والحروب القاصمة للظهور ، ففي تلك الفترة خاض الرسول (ص) (٧٤) حرباً ، غير الحصار الاقتصادي الذي سبّب نقصاً ملموساً

(١) بحار الأنوار/ج ٤٣ ، ص ٢٢ .

(٢) سورة الانشراح .

في المقاتلين الإسلاميين .

من كان له سيف لم يكن له غلافه ، ومن كان له غلاف لم يكن له سيف ، ولم يكن للغالبية العظمى من مقاتلي الإسلام فرس ، بل إن المقاتلين لشيء ينتعلونه فأغلبهم كانوا حفاةً تدمي الأشواك والصخور أرجلهم عند الكرِّ والفرِّ في تلك الحروب المفروضة على رسول الله الكريم محمد (ص) .

وكانت حرب « مؤتة » والمسلمون لا يمتلكون طعاماً كافياً ، فطعام كل مقاتلين تمرة واحدة يقتسمانها عند منتصف النهار .

وفي « ذات الرقاع » سار الجميع وليس لأحد منهم دابة تحمله ، ولم يتوقف الأمر عند ذلك بل تعدّاه إلى كون المقاتلين حفاةً مما اضطرهم إلى لفِّ أقدامهم بخرق بالية خوفاً من أن تصيبها الأشواك والأحجار الناتئة ، وعليه اشتهرت هذه الواقعة بـ « ذات الرقاع » .

كان سفير الإسلام في هذه السنوات العشر هو « دحية الكلبي » يذهب من المدينة إلى بلد الروم ويرجع لا يحمل معه أي طعام ، وكان طعامه لبن ناقته التي كان علفها تلك الأشواك الصحراوية الجافة ؛ وكانت استراحته عندما ينام تحت ظلالها ، وفراشه جلالها ، وبالرغم من ذلك أنجز مهمته على أكمل وجه .

هكذا كان وضع المدينة عندما وُلدت الزهراء البتول ، واستمر ذلك الحال ثلاث عشرة سنة من المحاصرة الاقتصادية والفقر المقدع والحروب الضروس والبلايا والمصائب .

لقد عاشت الزهراء البتول في وسط الصدمات والمصائب التي ألحقها الكفّار والمنافقون بالمسلمين ، حيث شاهدت التعذيب الذي كان يمارس بحق المؤمنين الأوائل من مثل سميَّة ـ أول شهيدة في الإسلام ـ وياسر بن عامر ، وعمار بن ياسر . . . .

لقد رأت الزهراء بأُمِّ عينيها الدماء تسيل من أقدام الرسول الأكرم (ص) ، بعد أن بعث الكافرون صبيانهم لضرب النبي الأكرم (ص) بالحجر والأشواك والأغصان وما إلى ذلك .

كان الرسول الأكرم (ص) دائم الذهاب إلى غار حراء للتهجُّد والتعبُّد والابتعاد عن هؤلاء الذين لا يعرفون الرحمة ولا الإنسانية ، وكان أمير المؤمنين (ع) يذهب إليه في بعض أحيانه حاملاً إليه الطعام فيراه يستغفر لقومه ويقول : « اللهمَّ اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون » .

وبعد وفاة السيدة خديجة أُمِّ المؤمنين ، وأبي طالب (ع) ، فقدَ النبي الأكرم (ص) أقوى ظهرين له على الإطلاق ، ولم يبقَ له إلا ابنته فاطمة (ع) وأمير المؤمنين (ع) .

وكانت الزهراء دائمة القول : لو كان أبو طالب حيّاً ، لما استطاع المشركون أن يتجرّأوا على رسول الله (ص) في بعث أطفالهم وصبيانهم ليرموه بالأحجار . . .

كانت الزهراء البتول أُمَّ أبيها ، فكانت البنت المواسية المسلِّية لأبيها ، ومستودع سره العظيم ، ونور عينه ، وثمرة فؤاده .

لم يكن للزهراء البتول كُفْءٌ غير أمير المؤمنين علي (ع) ، فخطبها إلى أبيها ، ولم يكن لديه مهرها ، فأمره الرسول ببيع درعه ليتمكن من تجهيزها ، وقد كلف جهازها (٦٣) درهماً ، اشتمل على قميص وإناء لشرب الماء وحصير وإناء من الخزف لخزن الماء ، وإبريق من الطين وما شابه ذلك .

وعندما نظر الرسول (ص) إلى جهاز الزهراء البتول اغرورقت عيناه بالدموع ودعا الباري تعالى أن يبارك لهما زواجهما ؛ وفي الطريق إلى منزل علي (ع) أهدت الزهراء قميصها الذي كان من ضمن المهر إلى إحدى فتيات لترد منزل الزوجية بقميص قديم ، ويقال إن الآية المباركة : ﴿ **لنْ تنالُوا البرَّ حتّى تنفِقُوا ممَّا تحبُّون** ﴾[1] نزلت بحقِّ الزهراء البتول لفعلها ذلك ، وهي أفضل هدية لها جاء بها الرسول (ص) إليها في اليوم الثاني من زفافها .

فالزهراء البتول (ع) كُفْ عليٍّ (ع) ، وعليٌّ (ع) كُفءُ الزهراء ـ سلام الله

---

(١) سورة آل عمران، الآية ٩٢.

عليهما ـ كانا يقتسمان العمل ، فالزهراء(ع) تلتزم أعمال البيت من طهي وكنس واهتمام بالأولاد ، والإمام علي (ع) يسعى جاهداً لجلب الماء والغذاء وما إلى ذلك من أعمال ترتبط بخارج المنزل .

وعليه كانت الزهراء (ع) مسرورةً جداً لتلك القِسمة التي أمرهم بها حبيب الله ورسوله محمد (ص) .

ولدت أُم الحسنين فاطمة بنت النبي الأقدس (ص) في السنة الثانية من البعثة ، وقيل : الخامسة ، واستشهدت في العام العاشر من الهجرة ، وللرسول (ص) في حقها كلمات وعبارات صحيحة جاءت في كتب العامة والخاصة .

وقد لقيت في حياتها من الآلام والمصاعب والتعذيب ما لم يكن في الحسبان مع سماع الصحابة بأجمعهم قول النبي (ص) : « فاطمة بضعةٌ مني ، من سرَّها فقد سرَّني ، ومن ساءها فقد ساءني ، فاطمة أعزُّ البريَّة عليّ »[1] .

قال رسول الله (ص) : « الحسن والحسين خير أهل الأرض بعدي وبعد أبيهما ، وأمهما أفضل نساء أهل الأرض »[2] .

وقال أيضاً (ص) : « إن فاطمة بضعةٌ مني ، وهي نور عيني ، وثمرة فؤادي ، يسوؤني ما ساءها ، ويسرُّني ما سرَّها ، وإنها أول من يلحقُني من أهل بيتي . . . »[3] .

عن علي بن الحسين بن علي عن أبيه الحسين (ع) قال : « لما مرضت فاطمة بنت النبي (ص) أوصت إلى عليٍّ (ع) أن يكتم أمرها ويخفي خبرها ، ولا يؤذن أحداً بمرضها ففعل ذلك ، وكان يمرِّضها بنفسه ، وتعينه على ذلك أسماء بنت عميس ـ رحمها الله ـ على استسرار ذلك كما وصَّت به ، فلما حضرتها الوفاة وصَّت أمير المؤمنين (ع) أن يتولى أمرها ويدفنها ليلاً ، ويُعفي

---

(1) بحار الأنوار/ج ٤٣ ، ص ٢٣ .

(2) بحار الأنوار/ج ٤٣ ، ص ٢٠ .

(3) بحار الأنوار/ج ٤٣ ، ص ٢٤ .

قبرها ، فتولى ذلك أمير المؤمنين (ع) ، ودفنها ، وعفّى موضع قبرها ، فلما نفض يده من تراب القبر هاج به الحزن فأرسل دموعه على خديه ، وحوَّل وجهه إلى قبر رسول الله (ص) فقال : « السلام عليك يا رسول الله مني ، والسلام عليك من ابنتك وحبيبتك وقرة عينك ، وزائرتك ، والبائتة في الثرى ببقعتك ، والمختار لها الله سرعة اللحاق بك ، قلَّ يا رسول الله عن صفيتك صبري ، وضعف عن سيدة النساء تجلّدي ، إلا أن لي في التأسّي بسنتك والحزن الذي حلّ بي بفراقك موضع التعزي ، فلقد وسدتك في ملحودة قبرك بعد أن فاضت نفسُك على صدري ، وغمّضتك بيدي ، وتوليت أمرك بنفسي ، نعم ، وفي كتاب الله أنعم القبول ، إنّا للّهِ وإنا إليه راجعون ؛ وقد استُرجعت الوديعة ، وأُخذت الرهينة ، واختُلست الزهراء ، فما أقبح الخضراء والغبراء يا رسول الله ، أما حزني فسرمد ، وأما ليلي فمسهَّد ، لا يبرح الحزن أو يختار الله لي دارك التي أنت فيها مقيم ، كمدٌ مقيح ، وهمٌّ مهيج ، سرعان ما فرق الله بيننا ، وإلى الله أشكو ، وستنبئُك ابنتك بتظاهر أُمّتك عليَّ ، وعلى هضمها حقها ، فاستخبرها الحال ، فكم من غليل معتلج في صدرها لم تجد إلى بثّه سبيلاً ، وستقول ويحكم الله ، وهو خير الحاكمين .

سلام عليك يا رسول الله ، سلام مودِّع لا سئم ولا قالٍ ، فإن أنصرف ، فلا عن ملالة ، وإن أُقم فلا عن سوء ظن بما وعد الصابرين ، الصبر أيمن وأجمل ، ولولا غلبة المستولين علينا ، لجعلت المقام عند قبرك إلزاماً ، وللبثت عنده معكوفاً ، ولأعولت إعوال الثكلى على جليل الرزية ، وبعين الله تُدفن ابنتك سراً ، ويهتضم حقها قهراً ، ويُمنع إرثها جهراً ، ولم يطل العهد ، ولم يخلُ منك الذكر .

فإلى الله يا رسول الله المشتكى ، وفيك أجمل العزاء ، وصلوات الله عليك وعليها ورحمة الله وبركاته »[1] .

قال الإمام جعفر بن محمد الصادق (ع) : « إذا كان يوم القيامة جمع الله الأوَّلين والآخرين في صعيد واحد ، فيُنادي منادٍ غضُّوا أبصاركم ، ونكِّسوا

---

(١) أمالي الشيخ المفيد/ص ١٧٢ ـ ١٧٣ .

رؤوسكم حتى تجوزَ فاطمة بنت محمد (ص) على الصراط .

قال : فيغضُّ الخلائق أبصارهم ، فتأتي فاطمة (ع) على نجيب من نُجُبِ الجنة يشيِّعها سبعون ألف ملك ، فتقف موقفاً شريفاً من مواقف القيامة ، ثم تنزل عن نجيبها ، فتأخذ قميص الحسين بن علي (ع) بيدها مضمَّخاً بدمه وتقول : يا رب هذا قميص ولدي ، وقد علمت ما صُنع به فيأتيها النداء من قبل الله عزّ وجلّ : يا فاطمة لك عندي الرضا .

فتقول : يا رب انتصِر لي من قاتلِه فيأمر الله تعالى عنقاً من النار ، فتخرج من جهنم فتلتقط قتلةَ الحسين (ع) كما يلتقِط الطير الحبَّ ، ثم يعود العنق بهم إلى جهنم فيعذبون فيها بأنواع العذاب ، ثم تركب فاطمة (ع) نجيبَها ، حتى تدخل الجنة ومعها الملائكة المشيِّعون لها وذرِّيَّتها بين يديها ، وأولياؤهم من الناس عن يمينها وشمالها »[1] .

---

(١) أمالي الشيخ المفيد/ص ٨٤ .

النفس الأمّارة

إن جميع الموجودات تمتلك سيراً وحركةً موسومةً بالمسيرة الإلَهية ، وإن عالم الوجود يشبه القافلة في حركتها ، ولكنه يختلف في سيره كونه يسير صوب الباري تعالى ، وأن الأفراد في حركتهم ومسيرتهم إلى الله ينقسمون إلى ثلاثة أقسام :

قسم وجد الطريق القويم وسار عليه ، كما سار الأنبياء والأوصياء ، وأن لهذا النوع أو القسم من الأفراد أعداء الداء يريدون إيقاعهم في شراك السُّبل المنحرفة ، وأن هؤلاء الأعداء على قسمين : الأول : العدو الباطني ، والثاني : العدو الخارجي ؛ وقد تحدثنا فيما سبق عن الغفلة والوسواس وهما يشكّلان العدوَّ الأول والثاني من الأعداء الباطنيين .

أما بالنسبة للعدو الباطني الثالث وهو النَّفسُ الأمَّارة بالسُّوء ، فيعدُّ العدوَّ الأخطر من تلكم التي تحدثنا عنها فيما سبق .

والنفسُ الأمَّارة : نعني بها الميول والغرائز والرغبات والهوى ، وحب التنقل هنا وهناك على وفق ما تمليه علينا الرغبات الترفية .

وقد عرض القرآن الكريم لهذه المسألة فضرب لنا مثلاً في قصة يوسف الصديق الذي كان يقول : ﴿ وإلاَّ تصرفْ عنِّي كيدهنَّ أصبُ إليهنَّ وأكن مِّنَ الجاهلينَ ﴾[1] .

---

(١) سورة يوسف، الآية ٣٣ .

أي : إلّهي ، إن لم تدركني رحمتك ، فسوف تميل بي النفس الأمّارة إلى حيث الهلاك ، وعندها سأكون من الجاهلين .

وفي آية أخرى يقول الباري تعالى في محكم كتابه : ﴿ ولقدْ همَّتْ بهِ وهمَّ بها لولاَ أن رَّأى برهانَ ربِّهِ ﴾[1] .

أي : مالت زليخا صوب يوسف ، ودفعت النفس الأمَّارة يوسف (ع) إلى مقربة من الميلان ، ولكن رأفة الله وعنايته وعصمة يوسف حالت دون ذلك الميل ؛ و﴿ برهانَ ربِّه ﴾ تعني هنا العصمة التي تحول دون ارتكاب المعصية .

وفي تفسير آخر لهذه الآية جاء ما مضمونه :

إنها همَّت بفعل الفساد ، وهمَّ يوسف (ع) لمنعها من ذلك بعد أن عصمه الله تعالى من الزلل والخطأ .

عزيزي القارىء الفاضل : لا يخفى عليك أن القرآن الكريم ليس بكتاب قصة ، متى أراد الإنسان التلذُّذ بالقصص قرأه ، ولا هو بكتاب تأريخ يريد رواية فترة زمنية عن حياة أحد الأنبياء (ع) مع بضعة نساء أخذت الشهوة منهن كل مأخذ ، ولكنه كتاب أخلاقي محض ، لا يضمُّ بين صفحاته إلا المثُل والخلُقَ الرفيع السامي ليتعرَّف الناس نفوسهم الأمَّارة بالسوء كيما يبتعدوا عن الرذيلة .

واعلم أن النَّفس الأمَّارة تنحرف بالإنسان إلى حيث الرذيلة ، إذا ما غفل عن نفسه قليلاً مهما كان عفيفاً . إنها تشجع صاحبها وترغّبه في عمل المعاصي ، وعندما يردُ الإنسان موارد السَّوء ، تشجِّعه ثانيةً أن يستمرَّ في عمل المعصية ، وبعد ذلك تحبِّب إليه عمل المعصية ، ليراها مسألةً طبيعيةً ولا غرابة فيها ، وحينئذ يصبح عمل المعاصي ملكةً لا يمكن التخلي عنها إلا بصعوبة بالغة ﴿ إنَّ النفسَ الأمَّارةُ بالسُّوءِ إلاَّ ما رحِمَ ربِّي ﴾[2] .

---

(١) سورة يوسف، الآية ٢٤ .

(٢) سورة يوسف، الآية ٥٣ .

والنفس الأمّارة هي التي تأمر بالرغبات والأماني والهوى ، وأمّارة صيغة مبالغة تشير إلى أن النفس تلحُ بالأمر الكثير ، وهي كناية عن عدم شبعها ، فالفرد الذي اتخذَ إلّهه شهوته الجنسية لا يتأتّى له أن يشبع من الجنس ولو أعطي كل نساء الدنيا ، والفرد الذي اتّخذ إلّهه الشهوة لا يروي غليله ، حتى لو سخّرت له الكرة الأرضية بكلها ، والذي اتّخذ إلّهه حبَّ الرئاسة لا يشبع ولو تسلّط على من في الأرض جميعاً ؛ وأن هذه الشهوات لا تتزامن مع الأكل الكثير ، ولا أكل الإنسان إلى حد الانفجار .

فالشهوات والرغبات لا تقف عند حد معين ، لذا يقول علماء النفس : إن الرجل الشهوانيَّ أو المرأة الشهوانية يفضّلان إرضاء شهواتهما ؛ التلذُّذ بالحرام دون الحلال ؛ وأن النفسَ الأمّارة التي لا تردع تميل إلى استطعام الحرام دون الحلال هذا إذا تسلّطت الغرائز والأمنيات على النفس البشرية ؛ ولا ينتهي تسلُّط الشهوات على الإنسان إلا بعد أن يدخل نار جهنم الحامية ، فالشهوات لا تترك الإنسان إلا بعد إدخاله في أسفل السافلين .

يقال : إن ذا القرنين وبالرغم من فتوحاته المتمادية وامتلاكه للكثير من البلدان قال : بعد موتي عليكم بإخراج يدي من التابوت ، ومتى رأيتم جمعها وانسدادها ادفنوني في المكان الذي تنجمع فيه .

أخرجوا يده من التابوت وساروا به ولكنهم لم يروا يده إلا مفتوحةً فقال لهم أحد العلماء : إذا أردتم جمعها فضعوا فيها حفنة من تراب ، فحصل ما لم يكن بالحسبان ، واجتمعت أصابعه ودفن في ذلك المكان ؛ وبعد ذلك قال العالم : إن الإنسان لا يشبع من شيء أبداً إلا أن يكون قانعاً ، أو يموت دون تلك الرغبة .

إن الإسلام العظيم لا يقول بقتل تلك النفس الأمّارة ، فقتلها محرم في قانون الإسلام ، ولكن الإسلام يأمر بتهذيبها وصدعها وردعها لتتعوَّد ما تريد تعويدَها وفق نظام الإسلام العظيم .

جاء في تفسير الصافي أن ثلاثة أشخاص ابتعدوا عن الدنيا وما فيها ، فتركوا نساءهم وهجروا معاشرة الناس ، وصمّموا على عدم تذوق لذيذ الطعام .

وعندما ذهبت إحدى زوجات هؤلاء الثلاثة إلى عائشة ، قالت لها متعجبةً ـ بعد أن شاهدت عليها عدم التزيُّن مثلما تفعل المتزوجات ـ: أليس لك زوج ؟ .

قالت : بلى .

فقالت عائشة : ولِمَ لا يدلُّ وضعك على ذلك ؟ .

فأجابت : أدار زوجي ظهره للدنيا وتركنا ليسكُن البراري ، فروت عائشة ذلك للنبي (ص) وكان الوقت ضُحى ، فاغتاظ الرسول (ص) وخرج صوب المسجد في وضع لفت أنظار الجميع إذ كان بين الجاري والماشي ، وطرفُ عباءته يثير خلفه التراب ، ليدخل إلى المسجد ويأمر بجمع الناس ، ثم يقف غاضباً على الدرجة الأولى من منبره ، ويقول : « الزواج سُنّتي فمن رغبَ عن سُنّتي فليس منّي » . قال الله تعالى في محكم كتابه العزيز : ﴿ قلْ منْ حرَّم زينةَ اللّهِ التي أخرجَ لعبادِهِ والطيباتِ منَ الرزقِ ﴾[1] ، وقال أيضاً : ﴿ يا بَنِي آدمَ خذُوا زينتكُمْ عندَ كلِّ مسجدٍ وكلُوا واشربُوا ولا تسرفُوا إنَّهُ لا يحبُّ المسرفينَ ﴾[2] .

وقال أيضاً جلّت أسماؤه : ﴿ وابتغِ فيمَا آتاكَ اللّهُ الدارَ الآخرةَ ولا تنسَ نصيبَكَ منَ الدنيا وأحسنْ كما أحسنَ اللّهُ إليكَ . . ﴾[3] .

ومثل هذه الحكاية جرت مع أمير المؤمنين علي (ع) حينما دخل المسجد ، ليرى مجموعةً من الرجال يتعبّدون في المسجد ، فسأل عنهم ، فقيل له : إنهم رجال الحق ، وإنهم لا يغادرون المسجد ليل نهار ، فإذا أصابوا طعاماً أكلوه ، وإن لم يصيبوا شيئاً صبروا قانعين ، فرفع حينئذ أمير المؤمنين (ع) سوطه على رؤوسهم بعد أن وصفهم بالكلاب ؛ لأن الكلاب تصبر إذا لم تجد

---

(١) سورة الأعراف، الآية ٣٢.

(٢) سورة الأعراف، الآية ٣١.

(٣) سورة القصص، الآية ٧٧.

ما تطعمه وأخرجهم من المسجد بعد أن تركوا زوجاتهم وأطفالهم دون طعام ولا شراب .

إن الإسلام لا يريد أن يكون المسلم ذليلاً ، بل يريده عزيزاً من خلال التزامه بالكدّ على نفسه وعياله بعيداً عن سؤال الناس لما يطعمه .

إن أولئك الأفراد أرادوا قتل الغرائز الجنسية والميول النفسية على طريقتهم الخاصة ، بالرغم من أن الحكيم العزيز دلّنا على الطرق التي يكون فيها البشر ملتزماً بالأخلاق الفاضلة بعيداً عن الإفراط والتفريط .

إن النفس تحتاج إلى من يرتّبها وينظّمها وفق النظام الإسلامي العظيم لتكون فاعلةً في سيرها إلى الله العلي القدير حالها حال ذلك الحصان الذي يوضع اللجام في فمه ، فإن رُفع اللجام عنه انشغل عن السير بالأكل وبذلك سوف يتلقّى الضربات من صاحبه الذي يريده أن يسير على الطريق الذي رسمه له .

كنت صغيراً حينما كان في مدينة أصفهان أحد المستجدّين في وضع لا يُحسد عليه أبداً ، وكان له حمار عليه خرق بالية وقذرة ، يرافقه طفل ولو رآه شمر بن ذي الجوشن لرقّ لحاله ناهيك عن كون ذلك السائل أعرج .

اتفق أن يمرض ذلك السائل فذهبوا به إلى المشفى ، حيث كان يردد : ائتوني بجلال الحمار ، ائتوني به يرحمكم الله ، فرقّوا له لما رأوه يحتضر وأحضروا جِلال الحمار ، وما إن رآه تحسّر بآهٍ عميقة ومات ، وبعد موته فتح بعضهم جُلّ حماره ليرى مبلغاً كبيراً من النقود كان قد أخفاها في الجلّ ! ! .

فإذا أصبح الإنسان يعبد المال أضحى مثل ذلك السائل لا يملأ رغبته غير حفنة من التراب ـ والعياذ بالله ـ ويطرق كل السبل من أجل إرضاء غريزته التي لم يسيطر عليها ولم يلجمها .

كان عليُّ بن إسماعيل طاهر النسب ، وكان عمه الإمام موسى بن جعفر الكاظم (ع) ، وجده الإمام الصادق (ع) ، وكان أبوه إسماعيل عالماً زاهداً يعتبره الإسماعيلية أحد الأئمة ، وفي زمنه استشهد الإمام جعفر بن محمد الصادق (ع) .

عليّ بن إسماعيل كان عبداً للمال ، وكان المال بالنسبة له كل شيء ، وفي زمنه أراد البرامكة بالإمام الكاظم (ع) سوءاً ، فاستغلوا حبه للمال وأمروه بعد أن قدموا له الأموال أن يشهد زوراً على الإمام الكاظم في مجلس هارون الرشيد ؛ وكان الإمام الكاظم قد نهاه عن السفر إلى بغداد فأجابه ؛ بأنه مدين لبعض الأفراد ويروم الحصول على مال من هارون ، فعرض عليه الإمام (ع) ما لا يسدُّ حاجته ، لكنه أبى إلا الذهاب إلى بغداد ليلتقي بهارون ؛ وعندما قال له الإمام (ع) : لا تكن شريكاً في دمي؟! .

فقال : ما الذي تعني في قولك هذا ؟ فكرَّر الإمام (ع) حديثه لعلمه أن علي بن إسماعيل عبداً ذليلاً أمام الذهب والفضة .

ذهب علي بن إسماعيل إلى بغداد فسعى بالإمام موسى بن جعفر الكاظم (ع) في مجلس هارون ، وقال مخاطباً إياه : لو كنت أنت الخليفة فمن يكون موسى بن جعفر ؟ ولو كان هو الخليفة فمن تكون أنت ؟ لقد جمع موسى بن جعفر الأموال والسلاح وتهيّأ لحربك فبادِره قبل أن يبادِرك!! .

وعند ذاك تفتّحت أسارير هارون الرشيد ليقدم لصاحبنا جائزةً قدرها (٢٠٠) ألف درهم ، وليجد عذراً في قتله للإمام الكاظم ـ سلام الله عليه ـ ولكنه لم يسعد بجائزته حيث لقي حتفه قبل استلام جائزته المزعومة تلك .

كان نسب علي بن إسماعيل ، من أرقى الأنساب ، ولكنه انحرف عن الجادة الصواب لكونه كان عبداً لغريزته على العكس من ذلك العالم الذي كانت غريزته عبداً له ؛ إنه المقدس الأردبيلي أحد مراجع المسلمين العظام .

سأل أحدهم هذا العالم الجليل : لو تأتّى لك الاختلاء بفتاة جميلة ، فهل تحدِّثك نفسك بعمل ما لا يليق بالشرع المقدس ؟ .

فأجاب : سألت الباري تعالى أن لا يحشرني في وضع هكذا .

لم يقل الأردبيلي : لن أفعل شيئاً ، ولكنه قال : سألت الباري أن لا يحشرني في وضع مثل هذا! وذلك لأن النفس أمّارة بالسُّوء ، إذا عصفت بها الشهوات تنكّرت للشرائع إلا ما رحم ربي ، سألت الله تعالى أن يجعلنا ممن

يستطيعون السيطرة على غرائزهم .

ومن أجل ذلك منع الإسلام منام الأخ والأخت من الأطفال الذين لا تتجاوز أعمارهم عن الثماني في فراش واحد ، ويستحبُّ أن يُحال بينهم شيء حتى ولو كان من قبيل الستارة أو ما شابه ذلك .

وقد نرى البعض ممن يدَّعون التمدن والحضارة يلوم زوجته على تمسكها بالحجاب ، وينعتها بالرجعية والتخلف ليتمكن بهذه الوسيلة من حرفها عن جادة الصواب .

فعلى وقتنا الحاضر نشاهد الكثير من هذه المسائل ، ولو رجعنا إلى السبب في ذلك ، لرأينا بوضوح عمل النفس الأمَّارة بالسوء التي تعصف بالمرء إلى حيث التقليد الأعمى والجهل المركب أعاذنا الله وإياكم من هوى النفس ورغباتها .

أعزائي القرّاء الأفاضل : كلُّنا سمع وقرأ عن علي الأصغر ابن الإمام الحسين بن علي ـ عليهما السّلام ـ وما جرى له في أرض كربلاء ؛ بعد أن طغت غرائز القوم وتفاقمت تنكّروا بكل القيم الفاضلة والمثل الإسلامية الراقية ، لقد تجردوا عن العواطف الإنسانية ، وأصبحوا حيوانات مفترسة لطغيان غريزة حب السلطة ، وحب الدنيا .

جاء الإمام الحسين (ع) يحمل طفله الرضيع بعد أن اعتمَّ بعمامة رسول الله (ص) إلى القوم يطلب ماءً له ، ولكن أحد أولئك الذين أرادوا كسب رضا العبيد رماه بسهم في عنقه فسال دمه الطاهر في حضن أبيه ، ومن هو أبوه ؟ إنه ابن بنت رسول الله (ص) ، إنه ابن الزهراء البتول التي قال فيها الرسول (ص) : « من أغضبها أغضبني ، ومن أغضبني فقد أغضب الله »[1] .

---

(١) بحار الأنوار/ج ٤٣ ، ص ١٩ ـ الاحتجاج للطبرسي .

﴿ ولولاَ فضلُ اللّهِ عليكمْ ورحمتُهُ ما زَكى منكُم مِّنْ أحدٍ أبداً ، ولكنَّ اللّهَ يُزكِّي من يشاءُ ، واللّهُ سميعٌ عليمٌ ﴾[1] .

إن جميع الأنبياء والرسل ـ سلام الله عليهم ـ جاءوا من أجل الأخلاق الفاضلة ، ومن أجل خلق مجتمع سليم بعيداً عن الصفات الرذيلة والمتدنّية كالحسد والكبر والتظاهر والرياء والعجب وسوء الظن وما شابه ذلك من الصفات المنحطّة .

ولا يتأتى لأي فرد أن يدَّعي أنه لا يمتلك إحدى هذه الصفات الرذيلة ، أو يقول : بأنه تمكن من قلع جذور هذه الصفات من نفسه الأمّارة ، لأن قلع جذور هذه الصفات يتطلب جهاداً مريراً ، إضافةً إلى فضل من الله ورحمة .

قد يتصور البعض أنهم لا يوجد في كوامنهم صفة رذيلة ؛ ويمكن أن يتعرفوا ذلك حينما تعصف العواصف ، وحينما تمحِّصهم البلايا ، لأن أغلب الصفات الرذيلة تشبه في وضعها النار التي تحت الرماد ، وما ينزاح الرماد حتى تُرى النار الحامية ، فعلى سبيل المثال لا يمكن للإنسان أن يقدِّر وجود أو عدم صفة الحسد فيه إلا إذا محِّص بالتجربة .

فنرى البعض يدّعي عدميّة الحسد في كوامن نفسه ، ولكنه يتحرَّق من الغيظ حينما يرى صاحبه قد حصل على جائزة تقديرية له في عمل معين ،

---

(١) سورة النور، الآية ٢١ .

ويتمنى موت زميله الإداري إذا أصبحَ مديراً للقسم الذي هو فيه ، بالرغم من أنه كان بالأمس يحبُّه ويودُّه ويرجو له كل الخير ظاهراً .

هذا هو الحسد ؛ إنه تمنِّي زوال نعمة الغير ، أو تمنِّي إصابة الخير الذي أصاب منه أحدهم بحيث يُمنع فرد من خير يستحقه ؛ ولا بأس إيراد حكاية في هذا المجال ؛ وقبل الشروع في الحكاية نذكر مثلاً ينطبق على حكايتنا بدقة ؛ وهو قول أحدهم : الحمار الأسود يقتل نفسه من أجل إلحاق الضرر بصاحبه والحكاية هي :

ذكر المرحوم المحقق النراقي في معراج السعادة أن شخصاً اشترى غلاماً وذهب به إلى منزله ، وكان الشاري على العكس مما هو معروف وشائع يخدم غلامه بشكل يثير الدهشة والعجب ، فسأله الغلام عن فعله ذاك فقال : كل هذا من أجل أن تقدم لي خدمةً واحدةً وهي : أن تذبحني على سطح جاري بعدما تُحكم شدَّ يدي ورجلي ، وما إن تفعل ذلك حتى تطلق العنان لرجليك بالهرب ! فسأله عن السبب في ذلك ؟ فأجابه : إن الوضع الحسن الذي يتمتع به جاري لا أطيقه وأشعر بأن وضعه المادي أفضل من وضعي ، وأريد أن يؤخذ به إلى السجن ، ليفقد ما يتمتع به من راحة بال وهدوء ؟! .

فصعد الرجل وغلامه ليلاً إلى سطح جاره الغافل ، وشدَّ الغلام وثاق مولاه وذبحه بناءً على طلبه ، ونزل دمه من المزراب إلى وسط الشارع فشكَّ أحد المارة بالأمر ، فاستنهض الحرَّاس وشحذ هممهم ليطلعوا إلى سطح الدار ، ويمسكوا بالغلام المسكين .

قصَّ عليهم القصة ، فذهبوا به إلى السجن ومات مولاه دون أن يمس جاره ضرر .

إنه كذاك الحمار الأسود الذي يقتل نفسه من أجل أن يضرَّ بصاحبه .

فالبعض يذهب إلى جهنم الحامية ويضحى جهنمياً من أجل أن يذهب بماء وجه الآخرين ، أو من أجل أن يلحق بهم الضرر .

فالحسد يجرُّ إلى التهمة والغيبة والنميمة وإلى كل شيء يمكن أن يساهم

في أذى الآخرين ، أو إسقاطهم من أعين الناس .

فالحسد أساس الكثير من الصفات الرذيلة ، ولو خلا قلب المسلم من الحسد لاستخفت أغلب الصفات المتدنيّة والمنحطّة التي تحطُّ صاحبها في جهنم الحامية .

قال رسول الله (ص) : « ألا ! لا تعادوا نِعَم الله .

قيل : يا رسول الله : ومن الذي يُعادي نِعَم الله ؟

قال: الذين يحسدون »[1] .

وقال الإمام الصادق (ع) : « الحسد أصله من عمى القلب والجحود لفضل الله تعالى وهما جناحان للكفر ؛ وبالحسد وقع ابن آدم في حسرة الأبد ، وهلك مهلكاً لا ينجو منه أبداً »[2] .

أما بالنسبة للكبر ، فقد قال فيه الإمام الصادق (ع) : « لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من الكبر »[3] .

فالكِبر يعني الركون إلى رؤية النفس فوق الغير ، وبعبارة أوضح : هو عزةٌ وتعظيم يوجب رؤية النفس فوق الغير ، واعتقاد المزيَّة والرجحان عليه ؛ قال رسول الله (ص) : « يحشر المتكبرون يوم القيامة في مثل صور الذرِّ ، تطؤهم الناس لهوانهم على الله تعالى . . يسقون من طينة الخبال ، وعصارة أهل النار . . »[4] .

إن إحدى المسائل التي تؤدي بالإنسان إلى التكبُّر هو الجهل ، والجهل المركب لأن العالم أسمى من أن يتكبَّر ، وأكبر من أن يخيِّم عليه ظلام التكبُّر المقيت لذا نصح الكثير من العلماء والفقهاء بضرورة طلب العلم والحكمة حتى

---

(١) بحار الأنوار/ج ٧٣ ، ص ٢٤٩ .
(٢) بحار الأنوار/ج ٧٨ ، ص ٢١٧ .
(٣) جامع السعادات/ج ١ ، ص ٣٤٦ .
(٤) كنز العمال/ج ٢ ، ص ١٠٧ .

تعمر القلوب ، وتبتعد عن التكبُّر والخيلاء وما إلى ذلك من الصفات التي تدخل الإنسان في مداخل يندم عليها كثيراً حين لا ينفع الندم .

قال عيسى بن مريم : « كما أن الزرع ينبت في السهل ، ولا ينبت على الصفاء ، كذلك الحكمة تعمر في قلب المتواضع ولا تعمر في قلب المتكبِّر ،

ألا ترون أنه من يتشمخ برأسه إلى السقف شجّه ، ومن يطأطىء أظلَّه وأكنّه »[1] .

فالذي يتبختر في مشيته ، ويتكبَّر على الآخرين بحصوله على شهادة الماجستير ليس عالماً ، ولا فاضلاً ، بل متكبِّراً وضالاً ، لأن ما عنده من علم لا يعدو أن يكون قطرة ماء في بحر ؛ فالعلم يمنحه الباري تعالى من خلال سعي الإنسان الحثيث للوصول إليه ، وحريٌّ بالله تعالى أن يتكبَّر بعلمه ، ولا يليق لأحد سواه لأن يتكبَّر ـ جلَّت صفاته ـ .

قال الإمام الباقر (ع) : « الكبر رداء الله ، والمتكبِّر ينازع الله رداءه » ، وقال : « العزُّ رداء الله والكبر إزاره ، فمن تناول شيئاً منه أكبَّه الله في جهنم »[2] .

أما الرياء ، فهو إحدى شُعب النفاق ، والمرائي يظهر عكس ما يبطن ، فتراه يظهر الودَّ والحبَّ للآخرين ويبطن لهم العداوة والبغضاء ، ويسلِّم عليهم بالرغم من أنه يريد تمزيق أحدهم تمزيقاً .

إنه النفاق بعينه وقد لاحظنا هذه الحالة عند البعض حينما شاهدناه يصلي في المسجد من أجل أن يفهم جاره بأنه إنسان متديِّن وملتزم ، ولو ترك لحاله لما صلَّى ولا صام أبداً .

هذه الحالة من التظاهر والرياء والنفاق تجرُّ الإنسان إلى سوء الظن بالآخرين ، ففي المدرسة يسيء الظن بزملائه الملازمين له ، وفي السوق يظن سوءاً بالتاجر الذي يبيعه بضعة أمتار من القماش ، ويسيء الظن كذلك بحكومته

---

(١) إحياء العلوم/ج ٢ ، ص ٢٩٠ .

(٢) جامع السعادات/ج ١ ، ص ٣٤٨ .

ودولته حينما يقلّ جريان الماء في أنابيب مياه بيته .

وقد يصل سوء الظن به إلى أن يظنُّ سوءاً بزوجته وابنه وابنته على الرغم من أنه ينبغي له من وضع أمورهم على أحسنها .

قال أمير المؤمنين علي (ع) : « سوء الظن يفسد الأمور ، ويبعث على الشرور »[1] .

أما العجب ، فهو من المهلكات العظيمة ، وأرذل الملكات الذميمة ، وهو استعظام النفس لما يرى فيها من صفة كمال ، سواء كانت له تلك الصفة في الواقع أم لم تكن .

إن المعجبين بأنفسهم ينظرون إلى جميع أعمالهم وأفعالهم وأقوالهم بعين الرضا وبكل جمال وجلال ، بل حتى إنهم يرون نقائصهم بصورة فضائل بارزة ؛ قال الإمام موسى بن جعفر الكاظم (ع) : « العجب درجات منها : أن يزين للعبد سوء عمله فيراه حسناً فيحبّه ويحسب أنه يحسن صنعاً »[2] .

قال أمير المؤمنين علي (ع) : « العجب يفسد العقل »[3] .

إن انحطاط الأفراد ورقيِّهم يرتبط بمكانتهم الروحية ارتباطاً مباشراً ، والرذائل الأخلاقية منتشرة في شتى مراحل الحياة بأشكال مختلفة ، ينشأ كثير منها من مشاكل الحياة عن ميولنا الخاطئة غير المعتدلة .

فغريزة « حب الذات » على سبيل المثال لو خرجت عن الاعتدال وسلكت جانب الإفراط أصابت بخروجها هذا عن اعتدالها جهاز العقل الإنسانيّ في الصميم ، فمنعته عن إدراك واقعيات الحياة .

وعلى هذا يجب علينا أن نصرف أكثر مساعينا في سبيل تعديل هذه الخصيصة الذاتية ، ولو أهملناها بلا حدّ محدود ولا قيد ممدود لعجزنا عن أي

---

(١) غرر الحكم .

(٢) وسائل الشيعة/ج ١ ، ص ٧٤ .

(٣) وسائل الشيعة/ج ٢ ، ص ٢٢١ .

تقدم في طريق التخلُّق بالأخلاق الحميدة .

ودون تنظيم للنفس الإنسانية لا يمكننا أن نعيش عيشةً راضيةً مرضية .

إن من إحدى الصفات الذميمة التي تجرح عواطف الآخرين بشدة ، وتقطِّع أوصال المحبة والوئام (الجدل واللجاج) ، فاللجوج المجادل إن لم يكن يعلم أسباب سلوكه الجدلي ، فليعلم أن الإفراط في حب الذات من العوامل الأساسية لنشوء هذه الخصلة المذمومة عنده ، وأنها إنما ترتوي من منبع هذه الغريزة .

إن الشخص اللجوج المجادل من أجل أن يروي عطش غروره يعترض على كل متكلم أو كل من له رأي خاص بموضوع ، واعتراضه ذاك لا يكون للإرشاد أو رفع شبهة ، بل لكي يثبت بهذه الطريقة التافهة فضائله الموهومة ولكي يحطم شخصية المتكلم بانتقاداته غير الصحيحة واتهامه باللغو وسوء الفهم .

وقد يتستَّر اللجوج في بعض أو أغلب أحيانه بستار من كلمات الاستفهام أو الاستفسار أو الاستعلام أو الاستيضاح .

والجدير بالذكر أن الشخص المهان ستصدر عنه ردود فعل تصل في بعض أحيانها إلى الانتقام .

وهكذا نرى أن تفشّي هذه الصفة بين أفراد الأمة الواحدة قد يؤدي بهم إلى فقد وحدتهم في الفكر والسلوك ويجرُّهم إلى نزاعات ما كان لتكون .

يقول أحد العلماء : العقل مصباح منير يهدي البشر في ظلم الجهل ويرفع عنه أعباء مشاكله ، وها نحن نفخر على سائر المخلوقات بأنا ندرك به مقدمات الأمور وأسبابها ونتائجها .

ولكن الويل لنا لو أردنا أن نكشف عن حقيقة بقوة الجدل ، فإن المناقشة الجدلية لا تؤثر شيئاً سوى اضطراب الفكر والخيال ، ثم لا أثر لها سوى أن تبدي جهل الطرفين وخطأهم في البحث العلمي لا غير ، وأنها لا تستطيع أن تغيِّر فكر الآخرين وتجعلهم تبعاً لأفكارنا .

قال رسول الله (ص) : « من المروءة أن ينصت الأخ لأخيه إذا حدثه »[1] .

وقال الإمام الهمام جعفر بن محمد الصادق (ع) : « لا يستكمل عبد حقيقة الإيمان حتى يدع المراء ، وإن كان حقاً »[2] .

اللهمّ إنا نسألك وندعوك باسمك العظيم الأعظم الأعزّ الأجلّ الأكرم بحق فاطمة يا الله يا الله يا رحمن يا رحيم يا مقلّب القلوب أن تثبت قلوبنا على دينك بحق محمد وآله الطاهرين .

---

(١) نهج البلاغة/ص ٦٣٣ .

(٢) سفينة البحار/ج ٢ ، ص ٥٢٢ .

العدو الظاهري « الشيطان »

تحدثنا في ما سبق عن سير الإنسان في هذا العالم ، وتطرّقنا إلى موضوع العدو الباطني والعدو الظاهري الذي تكمن الأخطار في كل واحد منهما ، وإذ لم يلتفت الإنسان إلى وضعه مع هذين العدوين انجرف صوب الضلالة .

إن الأجزاء السابقة تشهد على تعرضنا للعدو الباطني ، أما الأوراق القادمة فسنتعرض فيها للعدو الظاهري المتمثل بالشيطان الرجيم الذي أخرج آدم وحوّاء من الجنّة ، إنه عدوّ الإنسان المبين ؛ قال تعالى في محكم كتابه العزيز : ﴿ إنَّ الشيطانَ للإنسانِ عدوٌّ مبينٌ ﴾[1] .

وقال أيضاً : ﴿ يَا بني آدمَ لا يفتنَنَّكُمُ الشيطانُ كمَا أخرجَ أبويْكُم مِّنَ الجنةِ ينزعُ عنهما لباسَهُما ليرِيَهما سوءاتِهما إنهُ يراكُمْ هوَ وقبيلُهُ منْ حيثُ لا ترَوْنهُم ﴾[2] .

قال رسول الله (ص) : « بينما موسى بن عمران (ع) جالس إذ أقبل إبليس . . قال له موسى (ع) : فأخبرني بالذنب الذي إذا أذنبه ابن آدم استحوذت عليه ؟ فقال : إذا أعجبته نفسه ، واستكثر عمله ، وصغُر في عينه ذنبه . . »[3] .

---

(١) سورة يوسف، الآية ٥ .

(٢) سورة الأعراف، الآية ٢٧ .

(٣) مستدرك سفينة البحار/ج ١ ، ص ١٦ ـ تفسير نور الثقلين/ج ٥ ، ص ٢٦٧ .

لقد أقسم الشيطان بعزّة الله ليغوينَّ خلق الله من البشر أجمعين ، بعد أن استثنى من ذلك عباد الله المخلصين ، فالذين يعبدون الله حق عبادته يلتزم الباري تعالى بعناية منه خاصة ، ورحمة أبدية فلا يستطيع الشيطان الوصول إليهم بشراكه ووسائله المختلفة التي ينحني أمامها الإنسان غير المخلص : والاستثناء هنا منقطع ، وليس متصلاً أي لا يشمل المخلصين بشكل قطعي ، بل لا يتأتّى له أن يصل إليهم بسبب ذلك الإخلاص الذي فيهم ، والذي هو صنيعة أيديهم .

لقد كرّر القرآن الكريم مسألة « العدو » بالنسبة للشيطان الرجيم في آيات مختلفة لينبِّه الإنسان إلى هذه المسألة المهمة والخطيرة ؛ ونستفيد من الآيات الشريفة التي تعرض لهذا العدو اللئيم . إن للشيطان طرقاً خاصةً ووسائل مختلفةً من أجل حرف البشر عن الهدف السامي الذي خلقهم الله من أجله وهو : ﴿ ومَا خلقتُ الجنَّ والإنسَ إلا ليعبدونِ ﴾[1] .

إن طرق ووسائل الشيطان الرجيم مختلفة من فرد لآخر ، تتناسب مع وضع الفرد الذي يريد الشيطان أغواءه ، فالبعض يأتيه عن طريق المال وآخر عن طريق النساء وثالث عن طريق الغيبة والنميمة .

فمن كان حاله لا يسمح له أن ينحرف عن طريق الأموال جاءه الشيطان عن طريق العجب ـ على سبيل المثال ـ ومن لا يمكن إغواؤه وحرفه عن الجادة السليمة بالعجب جاءه الشيطان بوسيلة أخرى كأن تكون الغيبة أو الحرص أو الجبن .

لا ينبغي لنا أن نغفل عن تلبيس الشيطان اللعين ، فهو في كل حالة يلبس شيئاً ، وأن ما يلبسه يأخذ بلب الإنسان وما لباسه الملون والمزخرف إلا دليلاً على وجوهه المختلفة ، فهو يتلوّن كتلوّن الحرباء ليبهر ضعاف النفوس بتلك الألوان البراقة التي لا يراها المخلص إلا ظلاماً وكدراً ومرارة .

جاء عن الإمام الصادق جعفر بن محمد (ع) أنه قال : قال إبليس :

---

(١) سورة الذاريات، الآية ٥٦ .

خمسة ليس لي فيهم حيلة وسائر الناس في قبضتي ؛ من اعتصم بالله عن نية صادقة واتكل عليه في جميع أموره ، ومن كثر تسبيحه في ليله ونهاره ، ومن رضي لأخيه المؤمن ما يرضاه لنفسه ، ومن لم يجزع على المصيبة حتى تصيبه ، ومن رضي بما قسم الله له ولم يهتم لرزقه »(1) .

فالمعتصم بالله عن نية صادقة لا يتمكن الشيطان منه ، ولا حيلة له عليه على الرغم فإن زينته حيلة ، ووعوده حيلة ، ووساوسه حيلة ، وأنه ينفذ في الصدور خفياً فلا يسمع له دبيب ، حتى إن النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء أكثر منه دبيباً ، وأسمع للإنسان من دبيبه الخفي الذي يوغر الصدور بالعداوة والبغضاء والشحناء ، هذا بالإضافة إلى نفثة في الآذان يناجي بذلك ضعاف النفوس من الذين لم يتمكنوا من نفوسهم الأمَّارة بالسوء ؛ فإذا أحاطت هواجسه بقلب العبد ، وتعاضدت أهواؤه ، حال بينه وبين الطاعة والزلفى .

لقد نصب إبليس كل ما لديه من حبائل في دار الغرور قصداً منه إلى إغواء عدوه الأول الإنسان الذي كان سبباً في طرده من السموات العلى ، وإن تلك الحبائل أخفاها بشكل مريب كي يزين لهذا الإنسان حب الدينار والدرهم ، وحب النساء ليمسي كافراً ضالاً حينها يهديه إلى عذاب السعير .

فالمتولي للشيطان ملاق حتفه في جهنم ، والمتولي له هو ذاك الذي اتبع خطواته بالمعاصي والآثام ؛ وخطوات الشيطان تكون تزييناً لطرق الباطل بزينة الحق ، فيسمي ما ليس من الدين باسم الدين فيأخذها الإنسان من غير علم .

إن علة سلطان الشيطان على الإنسان هي ما ذكرها الباري ـ جلَّت أسماؤه ـ في الآية المباركة التي تقول : ﴿ وَمَا كَانَ لَهُ عليهم مِّن سلطانٍ إلاَّ لنعلمَ مَنْ يؤمنُ بالآخرةِ ممن هوَ منهَا في شكٍّ ﴾(2) .

فالمؤمن بالآخرة ، ملتزم أوامر الله ونواهيه ، ولا يمكن أن يحيد عنها

---

(1) بحار الأنوار/ج ٦٧٩ ، ص ٣٧٨ .

(2) سورة سبأ، الآية ٢١ .

أبداً ، والملتزم أوامر الله لا يسمح لإبليس وقبيله من النفوذ في قلبه ، لأنه لا يوجد مكان فيه إلّا لخالقه وبارئه ـ تعالى اسمه ـ ولكن عندما يخلو هذا القلب من الإيمان به ـ تعالى ـ يجد الشيطان له طريقاً إليه ليعمل فيه مكايده ، ويسنّي طرقه فيحلُّ دين العبد عقدةً عقدةً ، فينسيء الإيمان من القلب ليشعفه بمحبة الحرام والشهوات .

قال رسول الله (ص) : « إن لإبليس كحلاً ، ولعوقاً ، وسعوطاً ؛ فكحله النعاس ، ولعوقه الكذب ، وسعوطه الكبر »[١] .

إن سلطان الشيطان يأتي من نسيان العبد لذكر الله تعالى : ﴿ ومن يعشُ عن ذكرِ الرحمنِ نقيِّضْ لهُ شيطاناً فهوَ لهُ قرينٌ ﴾[٢] .

فالفرد الذي غفل عن ذكر الله تعالى يسهل إغواؤه من قبل الشيطان الذي ستكون أحباباً وأصحاباً له إلى أن يدخلوه مدخله في جهنم وبئس المصير .

ولا يخفى عليك عزيزي القارىء الكريم أن للشيطان أربعة طرق ذكرها القرآن المجيد : ﴿ قالَ فبمَا أغويتني لأقعدنَّ لهمْ صراطكَ المستقيمِ * ثمَّ لآتينهُم مِّن بينِ أيديهمْ ، ومنْ خلفهِم ، وعنْ أيمانهم ، وعن شمائلِهم ، ولا تجدُ أكثرهُم شاكرينَ ﴾[٣] .

لقد نسب الشيطان الرجيم في هذه الآية المباركة الإكراه والجبر لله تعالى ـ والعياذ بالله ـ حاله في ذلك حال الأشعرية والجبرية ، ثم قال لأقعدن لبني آدم وآتينَّهم من جهاتهم الأربع فأضلنَّهم عن سلوك طريقك القويم وصراطك المستقيم الذي هو طريق الحق الذي بيَّنته أنت لهم .

والجهات الأربع التي ذكرها هي ﴿ منْ بينِ أيديهم ﴾ ، ﴿ ومنْ خلفهِم ﴾ ، ﴿ وعنْ أيمانِهم ﴾ ، ﴿ وعن شمائلِهم ﴾ .

ولم يقل من فوقهم لنزول الرحمة من السماء ، ولا من تحتهم لإيحاش الإتيان منه .

---

(١) بحار الأنوار/ج ٧٦ ، ص ١٨٠ .

(٢) سورة الزخرف، الآية ٣٦.

(٣) سورة الأعراف، الآية ١٦ و١٧.

فالإتيان من بين الأيدي يعني به من قبل الآخرة ، أي يشككهم في مسألة المعاد ، ومن خلفهم يقصد به من جهة الدنيا ، حيث يتأتّى له أن يزيّنها لهم على هواه بأشكال متعددة ، والآخران من جهة حسناتهم وسيئاتهم ، ومجيء من في الأولين لتوجُّهه منها إليهم ، وعن في الآخرين لانحراف الآتي منها إليهم .

قال الإمام علي (ع) : « من شغل نفسه بغير نفسه تحيَّر في الظلمات ، وارتبك في الهلكات ، ومدَّت به شياطينه في طغيانه ، وزيَّنت له سيء أعماله »[1] .

إن الشياطين لا تنزل إلا على من اتخذ إلّهه هواه ، إنها تنزل على كل أفّاك أثيم ، كل من أعجب بنفسه وتكبَّر ونسي ذكر الله ، حينها تتاح الفرصة لها لتمحق إحسان المحسنين بالإضافة إلى مجالسة أهل الهوى ، واستكثار الأعمال ، واستصغار الذنوب والمعاصي .

إن لإبليس وسائل متعددة ومختلفة ، وقد دلّنا الرسول الأكرم (ص) وأهل بيته الطاهرون (ع) على شراكه ، وحذَّرونا منها لكي لا نقع فيها فنكون طعمة لجهنم التي سجَّرها الجبار المتكبر .

قال الإمام الصادق (ع) : « من لم يبال ما قال وما قيل فيه فهو شرك شيطان ، ومن اغتاب أخاه المؤمن من غير ترة بينهما فهو شرك شيطان ، ومن شغف بمحبة الحرام وشهوة الزنا فهو شرك شيطان »[2] .

إن المذاهب المنحرفة التي نراها ونسمع بها كل يوم هي إحدى طرق الشيطان ووسيلة من وسائله لإبعاد بني البشر عن الطريق المستقيم ، فمذهب ماركس وفرويد ودوركيم ومن لفَّ لفَّهم لا يمكن اعتبارهم إلّا وسائل يستخدمها الشيطان لجرِّ عباد الله إلى ما لا تحمد عقباه ، وقد بيَّنت الكثير من الآيات الشريفة هذا المعنى ، فالاستفزاز الشيطاني بالصوت والجلب بالخيل والرجل ، والمشاركة في الأموال والأولاد يمكن أن تكون باستخدام الشيطان لهذه المذاهب

---

(١) نهج البلاغة/الخطبة ١٥٧ .

(٢) بحار الأنوار/ج ٧٣ ، ص ٣٥٦ .

واستغلالها ، ليقع البشر في هذه الفخاخ المقيتة .

فمذهب فرويد على سبيل المثال يشيع النظرية القائلة : « إن جميع الغرائز الإنسانية تسقي من منبع الغريزة الجنسية ، وما من عمل إلا وللغريزة الجنسية دخل فيه » ، حتى مسألة رضاع الطفل من ثدي أمه .

إن الكلمات التي يطلقها هكذا أفراد لها تأثير سلبي في الفكر الإنساني بشكل أو بآخر، فالكلمة تعني « الجرح » في اللغة ، وما تفعله السكين في البدن تفعله الكلمة في الدماغ ، لهذا قالوا : إن الكلمة تعمل جرحاً يندمل والكلمات تعمل جروحاً لا تندمل إلى يوم القيامة .

وعليه ينبغي لنا أن نلتزم جانب الكلمات الإلٓهية حتى لا نمكن الشيطان وخيله ورجله أن يستحوذوا علينا .

فالكلمات التي جاءت بها المذاهب الأرضية جنود لإبليس مثلها كمثل السهام السامة التي تصيب الإنسان فتحيله إلى ميتة أو ما أشبه ذلك .

عزيزي القارىء : يتمكن الإنسان من طرد الشيطان من حياته إلى غير رجعة هذا إذا التزم ما جاء في كتاب الله وسنة أوليائه ـ سلام الله عليهم أجمعين ـ .

قال رسول الله (ص) لأصحابه : « ألا أخبركم بشيء إن فعلتموه تباعد الشيطان عنكم كما تباعد المشرق من المغرب ؟ قالوا : بلى .

قال : الصوم يسوِّد وجهه ، والصدقة تكسر ظهره ، والحبُّ في الله والمؤازرة على العمل الصالح يقطع دابره ، والاستغفار يقطع وتينه . . . »[1] .

وعليه تكون الصدقة ، والكلمة الطيبة والإحسان إلى الآخرين وما إلى ذلك من الأعمال التي تقرِّب الإنسان من العلي القدير ، تقصم ظهر الشياطين الصغيرة والكبيرة وتقطع دابرها وتسوِّد وجهها بذلك يتأتّى للبشر أن يسلموا من خطر هذا اللئيم .

---

(١) بحار الأنوار/ج ٦٩ ، ص ٣٨٠ .

لقد أتحفتنا الروايات المتواترة عن أهل بيت النبوة والرسالة ـ سلام الله عليهم ـ بنصائح للشيطان ، هذه النصائح ذكرها إبليس لبعض أنبياء الله ـ عليهم السّلام ـ بعدما يئس منهم ولا بأس بذكر بعض منها في هذه المقالة ؛ قال صادق أهل البيت (ع) :

« لما هبط نوح (ع) من السفينة أتاه إبليس ، فقال له : ما في الأرض رجل أعظم منّةً عليَّ منك ، دعوت الله على هؤلاء الفساق فأرحتني منهم ، ألا أعلّمك خصلتين : إياك والحسد فهو الذي عمل بي ما عمل ، وإيّاك والحرص ، فهو الذي عمل بآدم ما عمل »(١) .

وقال الإمام الباقر (ع) : « لما دعا نوح (ع) ربَّه عزّ وجلّ على قومه أتاه إبليس فقال : يا نوح . . اذكُرني في ثلاثة مواطن فإني أقرب ما أكون إلى العبد إذا كان في أحدها : اذكرني إذا غضبت ، واذكُرني إذا حكمت بين اثنين ، واذكُرني إذا كنت مع امرأة خالياً ليس معكما أحد »(٢) .

وجاء في وصايا إبليس لموسى (ع) : « إذا هممت بصدقة فامضها فإذا همَّ العبد بصدقة كنت صاحبه دون أصحابي حتى أحول بينه وبينها »(٣) .

وبناءً على ما ذكرنا يمكن القول بأن الغضب والحسد والحرص والصدَّ عن الصدقة وما إليها من الصفات الرذيلة هي وسائل الشيطان وشراكه التي يمكن من خلالها أن يقود البشر إلى الدرجات السفلى من جهنم الحامية .

جاء عن الإمام الصادق جعفر بن محمد (ع) : « إن الشيطان يدبِّر الإنسان في كل شيء فإذا أعياه جثم له عند المال فأخذ برقبته ، وإن إبليس يقول لجنوده : ألقوا بينهم الحسد والبغي فإنهما يعدلان عند الله الشرك »(٤) .

فانظر أيها القارىء الكريم ؛ فما دلَّك القرآن عليه من صفات فاضلة ،

---

(١) الخصال/ص ٥١ .
(٢) بحار الأنوار/ج ٦٣ ، ص ٢٢٢ .
(٣) بحار الأنوار/ج ١٣ ، ٣٥٠ .
(٤) بحار الأنوار/ج ٦٣ ، ص ٢٦٠ .

وأخلاق سامية فاتبعها ولا تتوانى عن ذلك أبداً ، وأستضيء بنور هدايته والتزم ما جاء به الرسول الأكرم (ص) ، وما وصلنا عن الأئمة الأطهار من أهل بيت النبي (ص) لأنهم يدلُّون على الحق والهداية ، وما خالف القرآن والرسول والأئمة من الأقوال والأفعال فانبذه كونه شركاً نصبه الشيطان ليهدي به أولياءه إلى الخسران المبين .

فضائل الإمام علي (ع)

إن الحديث عن أمير المؤمنين ليس بالحديث الهيِّن ، وإذا أردنا القول ؛ إن الصراط المستقيم أدقُّ من الشعرة وأحدُّ من السيف علينا أن نقول إن نموذج ذلك هو التحدث عن أمير المؤمنين علي (ع) .

لقد كتب الرجال في أمير المؤمنين (ع) كتباً كثيرةً ، وقيل فيه شعراً من أفضل الأشعار، فشهد بحقه العدو والصديق، المسلم وغير المسلم ، فذاك « جورج جرداق » كتب في أمير المؤمنين كتاباً تحت اسم « صوت العدالة الإنسانية » تعرض فيه بدقة ولطافة إلى علم وسيرة الإمام بشكل ظهر فيه الكتاب وكأنه دائرة معارف طيبة الذكر ، ومثل ذاك كتب عباس محمود العقّاد في كتابه الموسوم « عبقرية الإمام » وأحمد تيمور في كتابه « علي بن أبي طالب »، وطه حسين في كتابه « عليّ وبنوه » ، وتوفيق الفكيكي في بحثه الممتع « الراعي والرعية » وما إلى ذلك من كتب خاصة وبحوث ملحقة كلها صدرت عن غير الشيعة .

لقد أدرك الإمام علي (ع) العلم إدراك العالم المجرِّب فجعله من أوليات رسالته ، وحثَّ الأمة على طلبه ، حتى جعله نبراساً لها ، تهتدي وتستضيء بنوره « تعلَّموا العلم صغاراً تسودوا كباراً »[1] .

تحكَّم الإمام (ع) في المعرفة فارتاد بها الحياة من أوسع أبوابها ، وأوضح

---

(١) ألف كلمة للإمام علي (ع)/رقم ١٠٢ .

السبيل السويَّ حتى بيَّنه للناس جليّاً واضحاً ، وسنَّ للإنسانية سنناً تحصَّنت بالحق والخير .

لقد نهج الإمام (ع) في معرفته سبيلاً خاصاً ، رفع من خلاله مستوى العلم والعلماء لأنه يعلم جيداً أن الإنسانية تنبعث بهما ، وبهما تسمو إلى استخدام الحياة على أفضل وجه .

وبهذا قد ذهب بالعلم مذهباً رفيعاً سامياً جعله ديناً يُدان به ومبدأ تؤخذ الرحمة من معالمه .

لقد كانت نظرة الإمام (ع) إلى الحق نظرة عرفانية إنسانية تسمو بالإنسان إلى حيث السعادة وتجعله يشعر بالاستئناس لأن الحق أحق أن يتبع ، وأن في الحق تنظيم المجتمعات ، وأنه تركن إليه النفوس الباحثة عنه .

فبالحق ينسجم الحكم والشعب في وحدة المصلحة وبسيادة الأمة ؛ وبالحق يعرف الإنسان إنسانيته ، وبالحق تنبسط العدالة الاجتماعية من المجتمع وإليه .

عدَّد أمير المؤمنين (ع) سلوك المؤمن في الحكم والسياسة تحديداً دقيقاً ، حيث لا يرى داعياً للمداهنة ، وللمناورات السياسية التي تعتمد على الإقناع بالمراوغة والكذب ، وكان مؤمناً بأن الغاية لا تبرر الوسيلة .

قد يتبادر إلى بعض الناس أن المسلم مجرد آلة يقوم بما فرضه الشرع الإسلامي بدون نظر أو تفكير ، ولكن الإمام علياً (ع) أوضح لنا سبيل المسلم المؤمن إيضاحاً جلياً .

نقل صاحب المناقب عن الزمخشري في المستقصى وعن شريح القاضي : أن أمير المؤمنين (ع) رأى شاباً يبكي فسأله عن السبب في ذلك ؟ .

فقال : سافر أبي مع هؤلاء ، ولم يرجع حين رجعوا ، وكان ذا مال عظيم فرفعتهم إلى شريح فحكم عليَّ ! فتمثل الإمام (ع) بهذا البيت :

أوردها سعد وسعد مشتمل   يا سعد ما تُروى على هذا الإبل

ثم قال : إن أهون السقا التشريع .

فاستقصى الإمام الحقيقة وخالف شريحاً في حكمه لأنه طلب البينة ولا يمكن إثباتها من فتى لم يدرك وجهته ، والحال على القاضي بأسلوبه الخاص أن يلتمس البينة ، ويستقصي في الحقيقة ثم يجمع الأدلة للإدانة ، وقد التمس الإمام في هذه الحالة طريقة مثلى .

دعا أحدهم وسأله عن كل ما يتعلق بسفرهم ، وما شأن القتيل معهم ، ثم كبَّر ، وكبَّر من كان معه ، وكان ذلك على مسمع من المتهمين الباقين دون أن يحضروا حديث صاحبهم فظنوا به أنه أقرَّ بجريمتهم .

ثم أمر الإمام (ع) به إلى السجن ، واستدعى آخراً منهم، وعند دخوله فاجأه قائلاً : « زعمتم أني لا أعلم ما صنعتم ؟ .

فأقرَّ هذا ، ثم دعا الجميع فأقرُّوا وألزمهم الإمام بالمال والدم .

ومما يروى أن الإمام علياً (ع) كان أول من فصل بين الشهود في الإسلام ، وأول من سجَّل محضراً وثبت شهادةً بالتسجيل .

ومن طريف حكمه وحكمته القضائية ما رواه الصدوق بإسناده عن سعيد ابن طريف عن الأصبغ قال :

أتى رجل إلى أمير المؤمنين فقال : إني زنيت فطهِّرني .

فأقبل عليّ (ع) على القوم ، فقال : « أيعجز أحدكم إذا قارف هذه السيئة أن يستر على نفسه كما ستر الله ؟» .

فقال الرجل : يا أمير المؤمنين إني زنيت فطهِّرني .

فقال الإمام (ع) : « وما دعاك إلى ما قلت ؟» .

قال : طلب الطهارة .

قال (ع) : « وأي طهارة أفضل من التوبة »؟ .

واحتج عليه الأشعث بتعطيل حد فأجابه الإمام (ع) :

« إذا قامت البينة ، فليس للإمام أن يعفو ، وإذا أقرَّ المرء على نفسه فذلك للإمام إن شاء عفا ، وإن شاء قطع » أي حد .

كان الإمام في موضوعه هذا بعيد القصد ، حسن التناول ، لم يسأله لماذا زنى ، لأنه يدرك حقيقة الإنسان إذا اشتدت به الحاجة ، وألمَّت به النزوة وواكبته الأحوال ؛ بالإضافة إلى أن الإمام (ع) لم يقرّع الرجل أو يندِّد به في مجتمعه وبين قومه حيث رآه بإقراره وتوبته لا ينبغي أن يهان .

لقد أورد الثقات من المؤرخين ما كان عمر بن الخطاب يردده في علي (أقضانا علي) الصواعق المحرقة لابن حجر الشافعي/ص ٧٨، ، الرياض النضرة/ج ٢ ، ص ١٩٨ .

(لا بقيت لمعضلة ليس لها أبو الحسن) الاستيعاب لابن عبد البر، الآية ج ٢ ، ص ٤٨٤ ، ذخائر العقبى للطبري الشافعي/ص ٨٢ .

وجاء في الاستيعاب بسنده عن عائشة أنها قالت في علي (ع) : (أما إنه أعلم الناس في السنة) .

ولما سأل عطاء عائشة عن علي (ع) قالت : (ذلك خير البشر لا يشك فيه إلا كافر) ؛ كما جاء في كفاية الطالب للكنجي الشافعي/ص ١١٩ ، وفي ينابيع المودة للقندوزي الحنفي/ص ٢٤٦ .

ولما قال محفن بن أبي محفن لمعاوية : جئتك من أعيا الناس .

قال له : (ويحك كيف يكون أعيا الناس ، فوالله ما سنَّ الفصاحة لقريش غيره) سيرة أمير المؤمنين للأمين/ص ٥٦ .

ولما سمع معاوية بقتل علي بن أبي طالب قال : (ذهب الفقه والعلم) .

ولماسئل حبر الأمة عبد الله بن العباس ـ وهو من أكبر المصادر والمراجع الإسلامية ـ عن مقدار علمه من علم ابن عمه علي ، أجاب : (كنسبة قطرة من المطر إلى البحر المحيط) .

وأما شهادة الرسول الذي واكب الإمام وربَّاه وأنشأه ، فهي أفضل الشهادات .

فقد جاء عن الكنجي الشافعي في الكفاية/ص ٩٨ ، وعن ابن حجر في الصواعق المحرقة/ص ٧٣ ؛ وعن الخوارزمي الحنفي في المناقب/ف ٧ ، ط ٢ ، ص ٤٠ ؛ وعن الخطيب البغدادي في أماكن متعددة ، وعن مصادر أخرى كثيرة قال الرسول (ص) : (أنا مدينة العلم وعليٌّ بابها) .

وجاء عن الشيخ سليمان القندوزي الحنفي في ينابيع المودة/ص ٢٥٤ : (عليٌّ باب علمي ، ومبين لأمتي ما أرسلت به من بعدي) .

وقد نصَّ القرآن المجيد : ﴿ وأْتُوا البيوتَ منْ أبوابهَا ﴾[1] ، وعليٌّ باب علم الرسول ، ومن الرسول انطلق الإسلام ، وهذا دليل قاطع ونص واضح على أن المفسر الأفضل بل الأوحد لما جاء عن الرسول (ص) هو عليٌّ بن أبي طالب (ع) : ﴿ ومَا ينطقُ عنِ الهوَىٰ * إنْ هوَ إلاَّ وحيٌ يوحى ﴾[2] .

وقد ورد في ينابيع المودة/ص ٥٣ ، نقلاً عن مودة القربى للهمداني الشافعي ، وفي الكوكب الدرّي/ص ١٣٣ ، كما جاء عن عمر بن الخطاب وولده عبد الله في حديث طويل عن الرسول (ص) في مرض وفاته ، وفي آخره : (وإني أوصيت علياً ، وهو أفضل من أتركه بعدي) .

وليس الفضل الذي أولاه به الرسول (ص) هو قربى أو نسباً لأن ذلك مما يخالف الإسلام بل للعلم والعقيدة والجهاد التي كان يحملها أمير المؤمنين (ع) .

وجاء في المناقب للخوارزمي الحنفي في الفصل الرابع عشر بسند متصل . قال رسول الله (ص) : « عليٌّ مني وأنا منه ولا يقضي إلا أنا أو علي) .

وسمع عليٌّ بن أبي طالب (ع) ينادي بسيفه : (من يشتري مني سيفي هذا ، فلو كان عندي ثمن إزار ما بعته) .

---

(١) سورة البقرة، الآية ١٨٩ .

(٢) سورة النجم، الآيتان ٣ و ٤ .

وكان يعمل طول الليل ليسقي بستان يهودي في أجرة قدرها ثلاثة دراهم ليشتري بها ثوباً يستر جسمه .

فلم يضع طول حياته لبنةً على لبنةٍ ، ولم يملك إلا ما يسدُّ رمقه ، ويستر جسمه ، ولم يدخر من يوم لآخر .

فهل لأمة فيها هذا الإنسان تدرس مبادئه وآراءه ثم ترتضي لخلفاء وأمراء بني العباس وبني أمية أو لأي ملك أو سلطان استغلاله واستعباده واستيطانه ؟ .

وهل يقنع المؤمنون المخلصون بغير الإمام أميراً عليهم وهو القائل في كتاب له إلى عثمان بن حنيف :

(لو شئت لاهتديت الطريق إلى مصفى هذا العسل ، ولباب هذا القمح ، ونسائج هذا القزّ ، ولكن هيهات أن يغلبني هواي ، أو يقودني جشعي إلى نحير الأطعمة ، ولعل في الحجاز ، أو في اليمامة من لا طمع له بالقرص ولا عهد له بالشبع ، أو أبيت مبطاناً وحولي بطون غرثى ، وأكباد حرَّى ، أو أكون كما قال القائل :

وحسبك داء أن تبيت ببطنة   وحولك أكباد تحنُّ إلى القد

أأقنع من نفسي بأن يقال أمير المؤمنين ولا أشاركهم في مكاره الدهر)[1] .

إنه لا يريد أن يشاركهم مباهج الدهر بل مكارهه ، ويريد من أولي الأمر أن يقتدوا به ؛ إنه لحمل ثقيل لا يتحمله سواك وسوى الصفوة من أتباعك .

« توكلت على الحي الذي لا يموت ، وتحصنت بذي العزة والجبروت ، واستعنت بذي الكبرياء والملكوت ؛ مولاي استسلمت إليك فلا تُسلمني ، وتوكلت عليك فلا تخذلني ، ولجأت إلى ظلك الظليل فلا تطرحني ؛ أنت المطلب وإليك المهرب ، تعلم ما أخفي وما أعلن فأمسك عني اللهم أيدي الظالمين من الجن والإنس أجمعين واشفِني وعافني يا أرحم الراحمين » .

---

(١) نهج البلاغة/صبحي الصالح، ص ٤١٦ .

بقيّـة اللّـه (عج)

لقد بحث الكثير من العلماء والأدباء في مسألة بقيّة الله الإمام الثاني عشر المهدي المنتظر ـ عجّل الله فرجه الشريف ـ .

إن الأسئلة التي تتبادر إلى أذهان العامة بصدده هي :

كيف كان الإمام في بطن أمه ، ولم يفهم القوم بأنها حامل به ؟

وكيف صار إماماً وليس له من العمر غير خمس أو ست سنوات ؟

وكيف يمكن أن يعيش إنسان ألف عام أو أكثر ؟ أين هو مكان الإمام المهدي (عج)؟ .

إن الإشكالات التي يمكن أن يطرحها البعض على هذه المسائل تكتسب شبهتها من منبع واحد ، وهذا المنبع اشتباه بحد ذاته ؛ لأن المساواة بين الوضع الطبيعي والخارق للعادة اشتباه كبير .

فعندما يقول الإنسان : إن البشر لا يعمِّرون في العادة أكثر من مائةعام كيف يتأتى لأحدهم أن يحيا ألفا ؟ .

وكيف يمكن له أن يسيطر على كل أمور الدنيا ، مع أنه لا يمتلك من الجيوش والعساكر وما إلى ذلك من الأسلحة الفتاكة والطائرات المروحية والنفاثة ، وأن من يقوم معه في بداية أمره ٣١٣ إنساناً .

ونقول هنا : إن قضية الإمام المهدي (عج) هي قضية غير طبيعية من أولها

إلى آخرها ، ولا يمكن أن ننعتها بأنها طبيعية ، بل إنها خرق للعادة .

إن قضية المهدي (عج) لا يمكن أن نساوي بينها وبين المسائل الطبيعية بل يمكن أن نشبهها ببعض المسائل الخارقة للعادة التي أخبرنا بها القرآن الكريم من مثل حمل مريم وهي بنت . وعندما تتأثر نفسياً يأتيها الخطاب بالإشارة إليه : ﴿ **فأشارتْ إليهِ ، قالُوا كيفَ نكلِّمُ من كانَ في المهدِ صبيّاً ۞ قالَ إنِّي عبدُ اللّهِ ءاتاني الكتابَ وجعلني نبيّاً** ﴾[1] .

هذه الحكاية نقلها لنا القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل أبداً .

كان اليوم الرابع عشر من شعبان حينما أرادت حكيمة خاتون عمّة الإمام الحسن العسكري وابنة الإمام الجواد في دار الإمام الحسن العسكري ، وكانت حينها صائمةً . فأرادت الذهاب إلى منزلها فقال لها الإمام بضرورة بقائها لأمر مهم ! وعندما سألت عن ذلك الأمر المهم أجابها : بأن الله سيمنحه ولداً في تلك الليلة .

فتعجّبت عمة الإمام (ع) وسألت : ممَّ؟ .

فأجابها : من نرجس ، بعد ذلك سكتت حكيمة خاتون ، ووطَّنت نفسها للإفطار والبقاء في منزل الإمام ليلاً ، وقرابة أذان الصبح طرق الإمام العسكري الباب عليها ليقول لها : إن وعد الله قريب .

تقول حكيمة خاتون : وما إن أتيت حجرة زوجة الإمام العسكري (ع) حتى قامت زوجته إليّ ؛ وبعد أن أمسكت بها استندت إليَّ لتجلس على الأرض ، عندها رأيت الصبي ينزل منها ساجداً وكأنه فلقة من قمر[2] ، عندها قال الإمام (ع) : ﴿ **ونريدُ أن نمنَّ علَى الذينَ استضعفُوا في الأرضِ ونجعلهُم أئمةً ونجعلهُم الوارثِينَ** ﴾[3] .

إن قضية المهدي المنتظر لا تقتصر على ما جاء في القرآن الكريم ، بل

---

(١) سورة مريم، الأيتان ٢٩ و ٣٠.

(٢) تاريخ الإمام المهدي ، بحار الأنوار/ج ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ .

(٣) سورة القصص، الآية ٥.

تتعدّى هذا الحد إلى الكتب السماوية الأخرى ، فقد عرَّفنا القرآن المجيد بذلك من خلال الآية المباركة : ﴿ ولقدْ كتبنا في الزبورِ من بعدِ الذكـرِ أنَّ الأرضَ يرثُهَا عبادِي الصالحونَ ﴾[1] .

فوراثة الأرض التي عرض لها القرآن الكريم عرض لها الإنجيل والتوراة والزبور ، فهذه الكتب السماوية وتفصل علامات ظهوره وزمان ظهوره وما إلى ذلك من الإشارات التي يمكن أن يفهم منها أن الإمام المهدي (عج) ظاهر في آخر الزمان لا محالة .

بعد التحري والتحقيق تمكنت من العثور على (٦٢٣٠) رواية تهتم بموضوع المهدي (عج) ، وعلى علمي أن الروايات أكثر من هذا العدد بكثير ، لأن هذا العدد هو ما أخرجته أنا لوحدي ، وإنني لا أدعي علماً أو مقاماً عند الله ، فأنا أحد طلاب الحوزة العلمية لا غير .

ومن اهتم بمتابعة هذه الروايات من العلماء تمكن من تجاوز هذا الرقم الذي ذكرت بكثير .

إن أغلب الروايات التي تعرض لقضية الإمام المهدي (عج) مروية عن طريق أهل السنة ، ولذا لا يمكن لأحد من المسلمين إنكار هذه القضية الحياتية التي تتعلق بمصير الأمة الإسلامية والمجتمع الفاضل الذي سيلي هذه الحقبة من الزمن .

قال رسول الله (ص) : ابشروا بالمهدي رجل من قريش من عترتي يخرج في اختلاف من الناس وزلزال ، فيملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً »[2] .

وقال (ص) : « سيكون بعدي خلفاء ، وبعد الخلفاء أمراء ، ومن بعد الأمراء ملوك ، ومن بعد الملوك جبابرة ، ثم يخرج رجل من أهل بيتي يملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً . . . »[3] .

---

(١) سورة الأنبياء، الآية ١٠٥ .

(٢) كنز العمال/خ ٣٨٦٥٤ .

(٣) كنز العمال/خ ٣٨٦٦٧ .

وقال أيضاً (ص) : « . . . . والـذي بعثني بالحق بشيـراً ونذيـراً ، وأن الثابتين على القول به في زمان غيبته لأعزُّ من الكبريت الأحمر »[1] .

إن طول عمر الإمام المهدي (عج) ، أمر اقتضاه الباري ـ تعالت أسماؤه ـ فهو الخالق المصور ، وهو الذي يتمكن لوحده من مد الأعمار أو تقصيرها ، ولا يمكن لأحد أن يعترض على ذلك .

وقد تستوجب حكمته أن يقصر في عمر فلان ، أو يطيل في عمر آخر من مثله من البشر .

ومن أجل تقريب هـذه القضية إلى أذهـاننا عـرض القرآن الكـريم عدة روايات وحكايات تدلِّل على قدرة الباري تعالى في إطالة عمر الإنسان فينقل لنا مثلاً عن أنبياء الله عزير وعزيز ، وهما من أنبياء بني إسرائيل ؛ وهذا ما تقره أيضاً الروايات المتواترة والأخبار عن هذين النبيين (ع) .

ظاهر الأمر أن هذين النبيين كانا توأمين ، عُمِّر أحدهما مئة عام وعمِّـر الآخر مئتي عام .

فكيف يمكن لشخصين جاءا إلى الدنيا في يوم واحد ، وذهبا منها في يوم واحد ، ولكن أحدهما عاش مائة عام والآخر مائتي عام ؟ .

إن هذه الحكاية لها جذور قرآنية عميقة ؛ يقول القرآن الكريم : ﴿ أَوْ كالذِي مرَّ على قريةٍ وهيَ خاويةٌ علَى عروشِها ﴾[2] .

مـرَّ رسول الله عـزير على نبينـا ـ عليه السـلام ـ راكباً حمـاره على قـريـة وهي شيء أبداً ، فسأل صاحبنا نفسه ؟

﴿ أنَّى يُحيي هذه اللّهُ بعدَ موتِهَا ﴾[3] كيف يمكن أن يحيي هذه الله بعد ما جرى فيها من الخراب والدمار وموت أهلها ؛ ﴿ فأماتهُ اللّهُ مأةَ عامٍ ثمَّ بعثهُ

---

(1) تفسير نور الثقلين/ج ١ ، ص ٣٩٥ .
(2) سورة البقرة، الآية ٢٥٩ .
(3) سورة البقرة، الآية ٢٥٩ .

قالَ : كمْ لبثتَ ؟ قالَ : لبثتُ يوماً أو بعضَ يوم ؛ قالَ : بلْ لبثتَ مأةَ عام فانظُر إلى طعامِكَ وشرابِكَ لمْ يتسنَّهْ وانظُرْ إلى حِمارِكَ ولنجعَلَكَ ءايةً للنَّاسِ وانظُرْ إلى العِظامِ كيفَ ننشِزُهَا ثمَّ نكسُوهَا لحماً ، فلمَّا تبيَّنَ لهُ قالَ : أعلمُ أنَّ اللَّهَ على كلِّ شيءٍ قديرٌ ﴾[1] .

إن القرآن الكريم بيَّن لنا السير الطبيعي والخارق لعُمر الإنسان ، فلو قلنا على سبيل المثال : إن عمر الإنسان الطبيعي مائة عام يكون عمر الخبز الذي بقي على حاله ولم يتسنَّه في الوضع الطبيعي اثنتي عشرةَ ساعةً ، دون وضعه في ثلاجة ، لانعدامها في ذلك الزمان .

إن الخبز ظل على مدى مائة عام، ولم يتلف على الرغم من أن عمره الطبيعي لا يتعدى اثنتي عشرة ساعة .

فإذا ناسبنا بين عمر الخبز وعمر الإنسان الذي يكون في الوضع الطبيعي مائة عام لأضحى عمر الإنسان يحدد بالملايين إذا أخذنا النسبة إلى الخبز الذي لم يتلف في زمن قدره مائة عام . ﴿ إنَّ اللَّهَ على كلِّ شيءٍ قديرٌ ﴾ .

أما بالنسبة للأفراد الذين لا يتعدى عددهم (٣١٣) وهم أصحابه الذين يأتمرون بأمره ، فلا يمكن احتسابهم أفراداً اعتياديين ، بل هم قادة وأئمة هدى ومراجع عظام يتمثل الناس لأوامرهم ونواهيهم .

إن أصحاب الإمام المهدي (عج) هم من المجتهدين الذين يتأتى لهم تسيير الأمور وفق ما جاء في القرآن الكريم والسنَّة الشريفة ، ولو كانوا غير ذلك لما عقلنا أو صدقنا أن (٣١٣) يمكن أن يكونوا أصحاباً للمهدي (عج) ينصرونه ويوطئون له دولته العظمى التي ستشمل العالم بأكمله .

وهذه المسألة ليست عظيمة على الله ، بل اعتيادية جداً وطبيعية ، والدليل على ذلك أن الباري ـ تعالت قدرته ـ منح نبيَّه سليمان قدرةً عظيمةً ما بعدها قدرةٌ ، إذ كان يدير الأمور وهو جالس على عرشه ، فالهدهد يأتيه بأنباء اليمن وهو جالس في فلسطين في ظرف سويعات ، وآصف بن برخيا يطلب منه الإذن

---

(١) سورة البقرة، الآية ٢٥٩ .

في جلب عرش بلقيس في طرفة عين ﴿ قالَ الَّذِي عندهُ علمٌ منَ الكتابِ أنا ءاتيكَ بهِ قبلَ أن يرتدَّ إليكَ طرفُكَ ﴾[1] ؛ وما إلى ذلك من الأمور الخارقة للعادة بإذن الله تعالى ؛ فلا غرابة في الأمر ولا عجباً حين يريد الباري أن يمنّ على عبده بـ (٣١٣) رجل مثل آصف بن برخيا ؛ وهذا ما قرآناه في دعاء الندبة المنقول عن السيد طاووس في مصباح الزائر جاء فيه : « خففته بجبرائيل والمسوَّمين من ملائكتك » .

إن هذه المسائل تكون طبيعية إذا أمعن المؤمن النظر في قدرة الله ـ تعالت أسماؤه وصفاته ـ ويستسهل الأمر حين يتعمق في آيات القرآن الكريم ليرى عظمة الباري من خلالها ، وما يمكن أن يكون للقائم المهدي (عج) ليس بأكثر مما كان لعباده الصالحين على مرِّ الدهور والأزمان .

قال رسول الله (ص) : « يخرج في آخر أمتي المهدي ، يسقيه الله الغيث ، وتخرج الأرض نباتها ، ويعطي المال صحاحاً ، وتكثر الماشية وتعظم الأمة »[2] .

« اللهمَّ صلِّ على محمد وآل محمد ، وأقم به الحق وأدحض به الباطل وأدل به أولياءك ، واذلل به أعداءك ، وصل اللهمَّ بيننا وبينه صلة تؤدي إلى مرافقة سلفه ، واجعلنا ممن يأخذ بحجزتهم ، ويمكث في ظلهم ، وأعنا على تأدية حقوقه إليه ، والاجتهاد في طاعته ، واجتناب معصيته ، وامنن علينا برضاه ، وهب لنا رأفته ورحمته ودعاه ، وصلِّ اللهمَّ على محمد وآله الطاهرين .

---

(١) سورة النمل ، الآية ٤٠ .

(٢) كنز العمال/خ ٣٨٧٠٠ .

الفهـرس

الجـزء الأول

الجـزء الثانـي

الجـزء الثالث

الجـزء الرابع